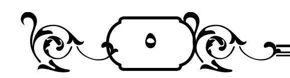
مختصر السيرة النبوية

من الولادة إلى الوفاة

الدكتور سالم العجمي
عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة
جامعة الكويت

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع





الحَمدُ للهِ، والشُّكرُ لهُ على تَوفيقهِ العَام، وأشهدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لا شَريكَ لهُ؛ تَفرَّدَ بالكمَالِ والتمَام، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صَلى اللهُ عَليهِ وعلى آلهِ وصَحبِهِ، هُدَاةِ الأنَامِ ومَصَابيحِ الظَّلام.

أمَّا بَعدُ:

فهذَا كتَابٌ في السيرَةِ النبويَّةِ، كان في الأصلِ خُطَبًا ألقيتُهَا على مِنبرِ الجُمعةِ، وقد استخرجتُهَا من كتُبِ السيرةِ والحَديثِ، معَ استفرَاغِ وُسعِي ألَّا أذكُرَ فيهَا إلا مَا صحَّ نقلُهُ عن أَهلِ الصَّنعةِ، سواءٌ في كُتبِ الحديثِ التي رَوتْ جُملةً كبيرةً من وقَائعِ السيرَةِ، أو كُتبِ السيرَةِ المُختصَّةِ بذَلكَ.

ولمَّا عَزمتُ على إخراجِ هذَا المُؤلَّفِ مطبُوعًا، عَمَدتُ إلى حَذفِ مُقدِّمَةِ كُلِّ خُطبَةٍ، واكتَفَيتُ بوَضعِ عُنوانٍ رَئيسٍ يُشيرُ إلى مَوضُوعِ كُلِّ وَاقعَةٍ، معَ إضافَةِ الرَّقمِ قبلَ العُنوانِ؛ مُراعَاةً للتَّسلسُلِ التَّاريخيِّ للوقائِعِ والأحدَاثِ.

وإنمَا فَعلتُ ذلكَ من أجلِ أن يَسهُلَ التعامُلُ مع هذَا الكتابِ، ويكُونَ مُوجَّهًا لعُمومِ القُرَّاءِ، وخُصوصِ الخُطباءِ، فمَن أحَبَّ أن يقرَأَهُ لخَاصَّةِ نَفسِهِ، أو يَجعَلَهُ كَدَرْسٍ في المَسجدِ، أَو في أيِّ أنشِطَةٍ مَدرسيَّةٍ أو تَربَوِيَّةٍ، عَامَّةٍ أو خَاصَّةٍ، فقَد وَضعتُهُ بَينَ يَديهِ مُتَسَلسِلَ الأَفكَارِ، ومَن أرَادَ أن يتَعَامَلَ مَعهُ كخُطبَةٍ على المِنبَرِ،

فقَد قَسمتُهُ على أن يكونَ كُلُّ عُنوانٍ مَوضُوعَ خُطبةٍ مُستقلةٍ، فما عَليه إلا أن يضَعَ مقدمةً للخُطبةِ التي يُريدُ أداءَها على المِنبَرِ.

وآملُ منَ القارئِ الكريمِ حِينَ يَرى عدمَ ذِكرِ الهوَامشِ والإحَالاتِ أن يتَذَكَّرَ أن هذا الكتَابَ في أصلِهِ خُطبٌ مِنبرِيَّةٌ، وفي كتَابةِ الخُطبِ بُحبُوحَةٌ أكثَرُ مِن التأليفِ العِلمِيِّ، حيثُ يسوقُ الخَطيبُ الأحداثَ بتَعبيرِهِ وعبَاراتِهِ، وقد يَعمِدُ إلى ضَمِّ الروايَاتِ بَعضِها إلى بَعضٍ، لتخرُجَ الصورَةُ أوضحَ وأكمَلَ، وسياقُ العبَاراتِ أجمَلَ، وعلى ذَلكَ فَلو عَمَدتُ إلى تخريجِ كُل روايةٍ لثَقُلَ الكتابُ بالهَوامشِ، وقد يكُونُ في ذلكَ قطعٌ لأفكَارِ القَارئِ، فأخرَجتُ العملَ على هذه الصورَةِ حتَّى يكُونَ الكتابُ متسَلسِلًا صَالحًا لكل الفئاتِ العُمريَّةِ، واختلافِ المُستويَاتِ العِلميَّةِ، وحَسبِي أننِي اشتَرَطتُ على نَفسِي أثناءَ الكتابَةِ ألَّا أذكُرَ إلا ما صَحَّ نقلُهُ وَفْقًا للقواعِدِ العلمِيَّةِ.

ولا يفوتُنِي في هذا المقَامِ أن أشيرَ إلى أن أحدَاثَ السيرَةِ النبويَّةِ لا تُساقُ لأجل السرْدِ القَصصِيِّ المُجرَّدِ، بل للعَملِ بمُقتضاهَا، والتمَاسِ الفوائِدِ المُستنبَطَةِ منهَا؛ لتكُونَ منهجَ حياةٍ لمَن عمِلَ بهَا، والاقتدَاءِ بصَاحبِهَا ﷺ.

إن قراءَةَ السيرةِ سَببٌ عظيمٌ لتَثبيتِ قُلوبِ المُؤمِنِينَ عِندَ الفِتَنِ، ووَسِيلَةٌ لتَسليَةِ النفُوسِ عِندَ المِحَنِ وتَغيُّرِ أحوَالِ الزَّمنِ.

قالَ تعَالَى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:١٢٠].

فالسيرَةُ تقُودُ إلى التَّأسِّي بهِ ﷺ في كُلِّ أحوالِهِ، وتُبيِّنُ جهَادَهُ العَظيمَ في سَبيلِ تَبليغِ الرسالَةِ، وصَبْرَهُ عَلى الابتِلاءِ والأذَى مِن أجلِ هدَايَةِ النَّاسِ ورَدِّهِمْ إلى جادَّةِ الحَقِّ، وهذا ممَّا يقُودُ المُسلِمَ إلى استِشعَارِ مَحبَّتِهِ ﷺ، ومَعرفَةِ عَظيمِ حَقِّهِ، وَالفَوزِ بمَحبَّةِ اللهِ ﷻ ومغفرَتِهِ، قَالَ تَعالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]، ومِنَ المَعلومِ أنَّ ذِكْرَ سِيرَةِ المَحبوبِ تَقُودُ إلى مَحبَّتِهِ.

وذِكرُ سِيرتِهِ ﷺ يؤدِّي إلى الشَّوقِ إلَيهِ وتَمنِّي لقائِهِ، وفي ذَلكَ أعظمُ الظَّفرِ، قالَ ﷺ: «**إنَّ مِن أشدِّ أمَّتي لِي حُبًّا نَاسًا يكُونُونَ بَعدِي، يَوَدُّ أحدُهُم لَو رَآنِي بِأهلِهِ ومَالِهِ**»[1].

وعَن أنسِ بنِ مَالكٍ رضي الله عنه قالَ: إنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يَخطُبُ عَلى جِذعٍ، فلمَّا اتخَذَ المِنبَرَ ذَهبَ إلى المِنبَرِ فحَنَّ الجِذعُ، فأتَاهُ فَاحتَضَنَهُ فسَكَنَ، وقَال: «**لَو لَم أحتَضِنْهُ لَحَنَّ إلَى يومِ القِيَامَةِ**»[2].

ومِن خلالِ ذِكرِ سِيرَتِهِ ﷺ يَعلَمُ المُؤمِنُ وَيَزدَادُ يَقِينًا أن مَبعثَهُ كانَ رَحمَةً للعَالَمِينَ، قالَ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: «مَن آمَنَ تَمَّت لهُ الرَّحمةُ في الدنيَا والآخرَةِ، ومَن لَم يُؤمِنْ عُوفِي ممَّا كانَ يُصيبُ الأمَمَ فِي عَاجلِ الدُّنيا منَ العَذابِ، مِنَ المَسْخِ

(١) رواه مسلم (٢٨٣٢).

(٢) رواه أحمد (٢٢٣٦)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني (٢١٧٤).

والخَسْفِ والقَذْفِ، قالَ تعالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣]».

ومِن أعظَمِ دَلائلِ الرَّحمةِ في بَعثتِهِ ﷺ التأمُّلُ في أحوالِ البشَريَّةِ قَبلَ مَبعثِهِ، ومَا كانَت عَليهِ مِن فسَادِ الحَالِ والمَعيشَةِ، وفُشُوِّ الفَوْضَى، وفَقْدِ الأمْنِ، وانتِشَارِ الخَوفِ والرُّعبِ، وتَسلطِ النَّاسِ بَعضِهِم عَلى بَعضٍ، فَلمَّا بُعِثَ ﷺ استقَامَت أحوَالُ البشَريَّةِ، وكُسِيَت الدنيَا حُللًا بَهِيَّةً، وأشرقَتِ الأرضُ بالأنوارِ بَعدَ أن كَانَت مُظلمَةً مُوحِشَةً.

فنَحمَدُ اللهَ العَظيمَ الحَليمَ، الجوَادَ الكرِيمَ، الذي تفضَّلَ عَلينا بأن جَعَلنَا من أمتِهِ، ونسأَلُهُ ﷻ أن يجعَلَنا مِنَ المُتَّبعينَ لسُنَّتِهِ، العَامِلينَ بِهَديهِ، وأن يُحيِيَنَا على ذلكَ ويُميتَنَا عَليهِ.

كمَا أسأَلُهُ سُبحانَهُ أن يَجعَلَ هَذا العملَ خَالصًا لوَجهِهِ الكريمِ، وأن يتَقَبَّلَهُ مِنِّي قَبُولًا حسَنًا، وأن يُعظِمَ برَكَتَهُ ويَكتُبَ لهُ القَبولَ، وأن يُثقِّلَ به مَوازِينِي يومَ أَلقَاهُ.

وصلَّى الله وسلَّم على عَبدِهِ ورسُولِهِ مُحمدٍ، وعلى آلِهِ وصَحبِهِ أجمَعينَ.

كتَبَهُ

الدُّكتُورُ سَالِمُ العَجْمِيُّ

عُضو هيئةِ التدريس بكُليَّة الشريعَة

بجامعَة الكُوَيت

١٣ربيع الثاني ١٤٤٠هـ - ٢٠١٨/١٢/٢٠م

(١) مُقَدِّمَاتٌ قبل البَعثَةِ

إنَّ البشريَّةَ قَبلَ بَعْثَةِ النبيِّ ﷺ كانَت تعيشُ في ظُلمَةٍ حَالكَةٍ، وشَرٍّ مُستطِيرٍ، يَعجزُ عن وَصفِ حالهَا البيَانُ، مما كانُوا عليهِ من التفرُّقِ والهَوانِ، تَحكُمُهُم شريعةُ الغابِ، سَرِيعينَ إلى الشرِّ، بَطيئينَ عنِ الخَيرِ، إلا قَليلًا منهُم، كما جاء وَصفُ ذلكَ في قولِهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ نظَرَ إلَى أهلِ الأرضِ، فمَقتَهُم عَرَبَهُم وعَجَمَهُم، إلَّا بقَايَا مِن أهلِ الكتَابِ**»[1].

فلمَّا أرادَ اللهُ تعَالى أن ينشُرَ فَضلَهُ ورَحمتَهُ، ويرفَعَ عنِ الخَليقَةِ البَلاءَ، أرسَلَ إليهِم الرحمَةَ المُهداةَ مُحمَّدًا ﷺ، نُورًا وهدًى للنَّاسِ؛ لتَنكشِفَ في بَعثَتِهِ الظُّلَمُ، وتَستَنيرَ برِسَالَتِهِ الدُّنيَا.

ومِن حِكمَةِ اللهِ البالغَةِ أنهُ لمَّا اقتربَ أوانُ بَعثَتِهِ ﷺ، جَرَى في مكَّةَ منَ الأحدَاثِ ما يُنبِئُ بأنَّها تستعِدُّ لاستقبَالِ حَدَثٍ عَظيمٍ.

ومن ذلِكَ: ما أُريه جَدُّهُ عَبدُ المُطَّلبِ فِي منَامِهِ منَ الأَمرِ بتَجدِيدِ حَفرِ بِئرِ زَمزَمَ بَعدَ أن كانَت مَطموسَةً منذُ زَمَنٍ بَعيدٍ، لا يُعرفُ مَكانُها، وَلا يُهتدَى إلَيهِ.

لقَد كانَ قُصَيُّ بنُ كِلَابٍ -أحدُ أجدَادِ النبيِّ ﷺ- مُبَرَّزًا في قومِهِ، قَد اجتَمَعَت لهُ

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

جميعُ أمورِ الرئَاسةِ في مكَّةَ، من حِجَابَةِ البيتِ وإِدَارَةِ شُئُونِهِ، وقَد بنَى دَارًا لِفَصلِ الخُصُوماتِ سَمَّاهَا دَارَ النَّدوَةِ، إذَا أشكَلَت قضيَّةٌ اجتمَعَ الرؤسَاءُ مِن كُلِّ قَبيلَةٍ فتشَاوَرُوا فِيهَا وفَصَلُوهَا، ولا يُعقدُ لواءٌ ولا عَقدُ نِكاحٍ إلا بها، وكانَ بابُ هذهِ الدارِ إلى المَسجِدِ الحرَامِ.

كمَا كانَت إلَيهِ سِقايَةُ الحَجيجِ، فَلا يَشربونَ إلا مِن ماءِ حِيَاضِهِ، وكانَت زَمزَمُ حِينذَاكَ قد اندَفَنَت منذُ زَمنٍ بَعيدٍ، قد تَنَاسَوْا أمرَها ولم يَهتَدُوا إلى مَوضِعِهَا.

وكانَت لهُ الرِّفادَةُ، وهي إطعَامُ الحَجيجِ أيامَ المَوسمِ إلى أن يَرجِعُوا إلى بِلادِهِم، وقَد فَرَضَهَا قُصَيٌّ على قَومِهِ، وقالَ لَهُم: يَا مَعشرَ قُريشٍ، إنَّكُم جِيرانُ اللهِ، وأهلُ مكَّةَ، وأهلُ الحَرَمِ، وإنَّ الحُجَّاجَ ضيفُ اللهِ وزُوَّارُ بَيتِهِ، وهُم أحقُّ بالضيافَةِ، فاجعَلُوا لَهُم طعَامًا وشَرَابًا أيامَ الحَجِّ، حتى يَرحَلُوا عنكم، ففَعلُوا ذلكَ، وكانُوا يُخرِجُونَ لذَلكَ في كلِّ عَامٍ مِن أموَالِهِم جُزءًا فيَدفَعُونَهُ إلَيهِ، فيَصنَعُهُ طعَامًا للناسِ أيَّامَ مِنًى.

فلمَّا كَبرَ قُصيٌّ فوَّضَ أمرَ هذِهِ الوظائِفِ التي كانَت إلَيه إلى ابنِهِ عبدِ الدارِ، وكانَ إخوتُهُ لا يُنازعونَهُ في ذلك، ولَم يَزَلِ الأمرُ عَلى ذلكَ زَمَنًا، حتى آلَ أمرُ الرِّفادَةِ والسِّقايَةِ لبَنِي عَبدِ مَنافٍ، واستَمَرَّ على ذلك حتَّى زمَن عبدِ المُطَّلبِ جدِّ النبيِّ ﷺ.

وذاتَ يَومٍ وبَينمَا عبدُ المطَّلبِ نَائمٌ في الحِجْرِ، إذ أتاهُ آتٍ في منامِهِ فقَالَ لهُ: احفِرْ طيبَةَ، قال: ومَا طيبَةُ؟ فذَهبَ عنهُ، فلمَّا كانَ الغدُ رجعَ إلى مكَانهِ فنَامَ، فجَاءَهُ فقالَ: احفِر بَرَّةَ، قالَ: ومَا بَرَّةُ؟ فذهَبَ عنهُ، فلمَّا كان الغَدُ رَجعَ إلى مكَانِهِ

فنَامَ، فجَاءَهُ فقَالَ: احفِرِ المَضنُونَةَ، قال: ومَا المَضنونَةُ؟ فذهبَ عنهُ، فلما كانَ منَ الغدِ رجعَ إلى مكانِهِ فنامَ، فجاءَهُ فقالَ: احفِرْ زَمزَمَ، قال: ومَا زَمزَمُ؟ قال: لا تَنزِفُ أبدًا ولا تُزَم، تَسقِي الحَجِيجَ الأعظَم، وهي بَينَ الفَرْثِ والدَّم، قالَ: وأينَ هِي؟ قالَ: عندَ قَريةِ النَّملِ حيثُ ينقُرُ الغُرابُ غدًا، فلمَّا استَيقظَ وَجدَ قريَةَ النَّملِ ووَجَدَ الغُرابَ يَنقُرُ عِندَهَا.

فلمَّا بيَّنَ لهُ شَأنَهَا ودَلَّ على مكَانِها عرَفَ أنه قَد صَدقَ، فغدَا بفَأسِهِ ومَعَهُ ابنُهُ الحَارثُ بنُ عبدِ المُطَّلبِ، وَليسَ لهُ يَومئذٍ وَلدٌ غَيرُهُ، فحَفَرَ، فلما بدَا له الطِّينُ كَبَّرَ، فعرَفَت قُريشٌ أَنهُ قد أدرَكَ حاجَتَهُ، فقامُوا إلَيهِ فقَالُوا: يا عَبدَ المُطلبِ، إنَّها بئرُ أَبينَا إسمَاعيلَ، وإن لنَا فيهَا حقًّا فَأشرِكْنَا معكَ فيهَا، قالَ: مَا أَنَا بفَاعلٍ، إن هذَا أمرٌ قَد خُصِصتُ به دُونكُم وأُعطِيتُهُ مِن بَينِكُم، قالُوا: إنَّا غيرُ تَارِكِيكَ حتَّى نُخاصِمَكَ فيهَا، قالَ: فَاجعلُوا بَيني وبَينكُم مَن شِئتُم أُحاكِمْكُم إلَيهِ، فذَكَرُوا لهُ كَاهنَةً بالشَّامِ، فرَكِبَ عبدُ المُطلبِ وَمعهُ نَفرٌ، ورَكِبَ مِن كلِّ قَبيلةٍ مِن قُريشٍ نَفرٌ، فخَرجُوا فسَلكُوا الصَّحراءَ، حتَّى إذَا كَانُوا بِبعضِهَا نَفِدَ ماءُ عبدِ المُطلبِ وأصحَابِهِ، فعَطشُوا حتَّى استَيقَنُوا بالهَلكَةِ، فطَلَبُوا الماءَ ممن مَعهُم، فأبَوْا عَليهِم، وقالُوا: إنَّا في صَحراءَ وإنَّا نَخشَى على أنفُسِنَا مثلَ ما أصَابَكُم، فقالَ عَبدُ المُطَّلبِ عند ذَاكَ: إنِّي أرَى أن يَحفِرَ كُلُّ رَجُلٍ مِنكُم حُفرَةً لنَفسِهِ بمَا لَكُم الآنَ مِنَ القُوَّةِ، فكُلَّما ماتَ رَجُلٌ دَفعَهُ أصحابُهُ في حُفرتِهِ ثم وَارَوْهُ.

فقَالُوا: نِعْمَ مَا أَمَرتَ بِهِ، فحَفَرَ كُلُّ رجلٍ لنَفسِهِ حُفرةً ثُم قَعدُوا يَنتَظِرُونَ المَوتَ عَطشَى، ثُم إن عَبدَ المُطَّلبِ قَالَ لأصحَابِهِ: إن جُلُوسَنَا هَكَذا نَنتَظِرُ

المَوتَ عَجزٌ، فَلِمَ لا نَضرِبُ في الأرضِ نَبتَغِي لأنفُسِنَا، فعَسَى اللهُ أن يَرزُقَنا ماءً ببَعضِ البِلادِ، فارتَحَلُوا.

فلما بَعثَ عبدُ المطلبِ رَاحلَتَهُ انفَجَرَ مِن تَحتِ خُفِّهَا عينُ مَاءٍ عَذبٍ، فكَبَّرَ عَبدُ المطلبِ وَكَبَّرَ أصحَابُهُ، ثُم نزَلَ فشَرِبَ، وشَربَ أصحَابُهُ ومَلأوا أسقِيَتَهُم، ثُم دعَا مَن معَهُ مِن قَبائِلِ قُرَيشٍ وقَال: هَلُمُّوا إلى المَاءِ فَقَد سَقَانَا اللهُ، فجَاءُوا فشَرِبُوا واستَقَوْا كُلُّهُم، ثُم قالُوا آنذَاكَ: واللهِ لقَد قُضِي لَكَ عَلَينَا، واللهِ مَا نُخاصِمُكَ فِي زَمزمَ أبدًا، إنَّ الذي سقَاكَ هذَا المَاءَ بِهذِهِ الصَّحراءِ هوَ الذِي سقاكَ زَمزمَ، فارجِع إلى سِقايتِكَ راشِدًا، فرجَعَ ورجَعُوا معهُ ولم يذهَبُوا إلى الكاهِنةِ، وخلَّوْا بَينهُ وبَينَ زَمزمَ.

وكانَ عبدُ المطَّلبِ قَد نذَرَ حينَ لقِيَ مِن قُريشٍ ما لَقِيَ عِندَ حَفرِ زَمزمَ، لَئِن وُلِدَ لهُ عَشرَةٌ مِنَ الوَلدِ ثُم بَلغُوا معهُ حتَّى يَمنَعُوهُ ويَحمُوهُ ليَذبَحَنَّ أحدَهُم للهِ عِندَ الكَعْبَةِ.

فلمَّا تكامَلَ بنُوهُ عَشرَةً، وعَرفَ أنَّهم سيَمنَعونَهُ، جَمعَهُم ثمَّ أخبرَهُم بنَذرِهِ، ودَعاهُم إلى الوفَاءِ للهِ ﷻ بذَلكَ فأطاعُوهُ، فأقرَعَ بينَ أولادِهِ فوَقعَ السَّهمُ عَلى ابنِهِ عبدِ اللهِ والدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وكانَ أصغَرَ وَلدِهِ وَأحبَّهُم إلَيهِ، فأخَذَ عَبدُ المُطَّلبِ بيَدِ عَبدِ اللهِ وأخَذَ الشَّفرَةَ ثُم أقبَلَ بهِ ليَذبَحَهُ، فقَامَت إليهِ قُريشٌ مِن مجَالسِهَا، وقالُوا: ما تُريدُ يَا عبدَ المُطَّلبِ؟ قالَ: أَذبَحُهُ، فقَامَ العبَّاسُ فاجتَذَبَ عبدَ اللهِ مِن تَحتِ رِجْلِ أبيهِ حِينَ وضَعهَا عَليهِ ليَذبَحَهُ، فضَربَهُ فشَجَّ وجهَهُ شَجًّا لم يَزَل في وَجهِهِ إلى أن مَاتَ، وقالَت لهُ قُريشٌ: واللهِ لا تَذبَحُهُ أَبدًا، فإنَّكَ إن فَعَلتَ هَذا لا يَزالُ الرجلُ يَجيءُ بِابنِهِ حتَّى يَذبحَهُ، فمَا بقاءُ الناسِ عَلى هذَا؟

ثُمَّ أشارَت قُريشٌ على عَبدِ المُطلبِ أن يَذهَبَ إلى عَرَّافَةٍ في الحِجازِ فيَسألَهَا عَن ذَلكَ، فَركِبُوا حتَّى جَاءُوهَا فقَصَّ عليهَا عبدُ المُطَّلبِ خَبَرَهُ وخَبرَ ابنِهِ، فقَالَت لَهُم: كَم الدِّيَةُ فِيكُم؟ قالُوا: عَشرٌ منَ الإبلِ، قالَت: فارجِعُوا إلى بِلادِكُم، ثمَّ قرِّبُوا صَاحِبَكُم وقَرِّبُوا عشرًا منَ الإبلِ، ثُم اضربُوا عليهِ وعَليهَا بالقِداحِ، فإنْ خَرجَت على صَاحبِكُم فزِيدُوا منَ الإبلِ حتَّى يَرضَى رَبُّكُم، وإن خَرَجَت على الإبلِ فَانحَرُوهَا عَنهُ فقَد رَضِيَ ربُّكُم ونجَا صَاحِبُكُم، والقِداحُ: هي الأَزلامُ، سِهامٌ كانَت في الجَاهليَّةِ مَكتُوبٌ عَليها الأمرُ والنَّهيُ، افْعَل ولا تَفعَل.

فخرَجُوا حتَّى قدِمُوا مكةَ فقرَّبُوا عبدَ اللهِ وعَشرًا منَ الإبلِ، ثُم ضرَبُوا فخَرجَ القِدْحُ عَلى عبدِ اللهِ فزَادُوا عَشرًا، فَلَم يَزالُوا يَزيدونَ عَشرًا عَشرًا ويخرُجُ القِدْحُ على عبدِ اللهِ حتى بَلغَت الإبلُ مِائةً، ثُم ضربُوا فخرَجَ القدحُ على الإبلِ، فقَالَت عندَ ذلكَ قُريشٌ لعبدِ المُطلبِ: لقَد رضيَ ربُّكَ يا عَبدَ المُطلبِ، فنُحِرَتِ الإبلُ ثُم تُرِكَت لا يُصَدُّ عنهَا إنسانٌ ولا يُمنَعُ.

ومنَ الأحدَاثِ التي جَرَت قَبلَ مَولِدِهِ ﷺ، عَزْمَ أبرَهَةَ على غَزوِ مَكةَ ليَهدِمَ الكَعبَةَ، وذلكَ أن أبرَهَةَ بنَى كَنيسَةً بصَنعاءَ لَم يُرَ مِثلُهَا في زمَانِها، وكتَبَ إلى مَلكِ الحَبشةِ: إني قد بَنَيتُ لكَ كَنيسَةً لَم يُبنَ مِثلُها لمَلِكٍ كان قَبلَكَ، ولستُ بمُنتَهٍ حتى أصرِفَ إليهَا حَجَّ العَربِ.

فلمَّا تحدَّثتِ الناسُ بكتَابِ أبرهَةَ إلى مَلِكِ الحبشَةِ، غضِبَ رجُلٌ منَ العَربِ فمضَى حتَّى أتَى الكَنيسَةَ التي بنَاهَا أبرهَةُ فتَغوَّطَ فيهَا حيثُ لا يرَاهُ أحدٌ، ثُم خرَجَ فلحِقَ بأرضِهِ، فأُخبِرَ أبرَهَةُ بذَلكَ، فقالَ: مَن صنَعَ هذَا؟ قالُوا: صنعَهُ رجلٌ

مِن أهلِ هذا البَيتِ الذِي تَحُجُّهُ العرَبُ بمَكةَ لمَّا سمِعَ بقَولكَ أنكَ تُريدُ أن تَصرفَ حجَّ العربِ إلى بَيتِكَ هذَا.

فغضِبَ أبرهَةُ عندَ ذَلكَ وحَلفَ ليَسيرَنَّ إلى البَيتِ حتى يَهدمَهُ، وأمرَ الحبشَةَ فتهَيَّأتْ وتَجهَّزَتْ، ثم سَارَ وخرجَ معَهُ بالفِيلِ، وسمِعَ العَربُ بأنهُ يُريدُ هَدْمَ الكَعبَةِ بيتِ اللهِ الحَرَامِ فرَأَوا جهَادَهُ حَقًّا عَليهِم، فقاتَلُوهُ فهزَمَهُم، ولم يَزَل يَطوِي الدِّيارَ حتى انتَهَى إلى مكَّةَ، وسِيقَت إلَيهِ أموالُ أهلِ تِهامَةَ من قُريشٍ وغَيرِهِم، وكانَ فِيهَا مِائتَا بَعيرٍ لعَبدِ المُطلبِ بنِ هَاشِمٍ، وهو يَومَئذٍ كبيرُ قُريشٍ وسَيِّدُهَا، فَهَمَّتْ قُريشٌ وكنانَةُ وهُذيلٌ ومَن كانَ بذلكَ الحَرمِ مِن سائرِ الناسِ بقِتالِهِ، لكِن عَرَفُوا أنهُ لا طاقَةَ لَهُم بِهِ، فترَكُوا ذلكَ.

وبعَثَ أبرهَةُ أحدَ رجالِهِ إلى مكَّةَ وقَال لهُ: سَلْ عَن سيدِ أهلِ هذَا البَلدِ وكَبيرِهِم، وقُل لهُ: إن المَلِكَ يقُولُ: إنِّي لَم آتِ لحَرْبِكُم، إنمَا جِئتُ لهَدمِ هذا البَيتِ، فإن لَم تَعرضُوا لنَا دُونَهُ بحَربٍ فلا حاجَةَ لي بدِمائِكُم، فإن هو لم يُردْ حَربِي فَأْتِني بهِ.

فَلمَّا دَخلَ رسُولُ أبرهَةَ مكَّةَ، سَألَ عَن سيدِ قُريشٍ وكَبيرِهَا، فقِيلَ لهُ: عبدُ المُطَّلبِ بنُ هاشِمِ بنِ عبدِ منَافِ بنِ قُصَيٍّ، فجاءَهُ فقالَ لهُ مَا أمرَهُ بهِ أبرَهةُ، فقالَ لهُ عبدُ المُطَّلبِ: واللهِ ما نُريدُ حربَهُ ومَا لنَا بذَلكَ مِن طَاقةٍ، هذَا بَيتُ اللهِ الحَرامُ وبَيتُ خَليلِهِ إبراهِيمَ عليه السلام، فإن يَمنَعْهُ منهُ فهُوَ حَرَمُهُ وبَيتُهُ، وإن يُخَلِّ بَينَهُ وبَينَهُ فوَاللهِ ما عِندنَا دَفعٌ عنهُ، فقَالَ لهُ الرسُولُ: فانطَلِق مَعِي إلَيهِ فإنَّهُ قَد أمرَنِي أن آتِيَهُ بِكَ.

فانطَلَقَ معهُ عبدُ المُطلبِ ومعَهُ بَعضُ بَنيهِ حتَّى أَتى العَسكَرَ، فلمَّا بلغَ بابَ أبرَهَةَ، دخَلَ أُنَيْسٌ سَائسُ الفيلِ على أبرَهَةَ -وكانَ يعرفُ عبدَ المُطلبِ- فقالَ لهُ: أيهَا المَلكُ، هذَا سيدُ قُريشٍ ببَابكَ يَستأذِنُ عَليكَ، وهُو صاحبُ عينِ مَكةَ، الذي يُطعمُ الناسَ بالسهلِ، والوحُوشَ في رُؤوسِ الجبالِ، فَأْذَن لهُ عَليكَ فيكُلِّمكَ في حَاجتِهِ، وأحسِنْ إليْهِ، فَأذِنَ لهُ أبرهَةُ، وكانَ عبدُ المُطلبِ أوسَمَ الناسِ وأعظَمَهُم وأجمَلَهُم، فلما رَآهُ أبرهَةُ أجلَّهُ وأكرَمَهُ عن أن يُجلِسَهُ تَحتَهُ، وكَرِهَ أن ترَاهُ الحَبشةُ يُجلسُه مَعهُ على سَريرِ مُلكِهِ، فنزَلَ أبرَهَةُ عَن سَريرِهِ فَجَلسَ عَلى بِسَاطِهِ وأجلَسَهُ مَعهُ عَليهِ إلى جَانِبِهِ، ثم قالَ لتَرجُمَانِهِ: قُل لهُ: مَا حاجتُكَ؟ فقَالَ لهُ التَّرجُمانُ ذلكَ، فقالَ: حَاجَتِي أن يَرُدَّ عليَّ المَلِكُ مِائَتي بَعيرٍ أصَابَها لِي، فلمَّا قالَ لهُ ذلكَ، قالَ أبرهَةُ لتَرجُمانِهِ: قُل لهُ: لقَد كُنتَ أعجَبتَنِي حِينَ رَأيتُكَ، ثُم قَد زَهِدتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمتَنِي، أتُكَلِّمُني في مِائَتَي بَعِيرٍ أصبتُهَا لكَ وتَتركُ بَيتًا هو دِينُك ودِينُ آبائِكَ قَد جِئتُ لأهدِمَهُ لا تُكلمُني فِيهِ؟ فقَال لهُ عَبدُ المُطَّلبِ: إنِّي أنا رَبُّ الإبلِ -أي: صَاحِبُها- وإنَّ للبَيتِ رَبًّا سيَمنَعُهُ، فقالَ: مَا كانَ ليمتَنِعَ منِّي، قالَ: أنتَ وذَاكَ، ثُم رَدَّ عَلى عبدِ المُطَّلبِ إبِلَهُ.

فلمَّا انصَرَفُوا مِن عِندِهِ انصَرفَ عبدُ المُطلبِ إلى قُريشٍ فأخبرَهُم الخَبَرَ، وأمرَهُم بالخُروجِ مِن مكَّةَ والتحرُّزِ في رُؤوسِ الجبالِ خَوفًا عَليهِم مِن أذَى الجَيشِ.

ثم قَامَ عبدُ المُطَّلبِ حتَّى بَلَغَ الكَعبَةَ وقَامَ معهُ نفَرٌ مِن قُريشٍ يَدعونَ اللهَ ويَستَنصِرُونَهُ عَلى أبرهَةَ وجُندِهِ، وأخذَ عبدُ المُطلبِ بحَلقَةِ بابِ الكَعبَةِ وقالَ:

لاهُــــــمَّ إنَّ العَــــــبدَ يَمْــــــنَــعُ رَحْلَــــهُ فَامْــــنَعْ رِحَالَــــكْ

لَا يَغلِـــــــبَنَّ صَـــــــلِيبُهُمْ وَمِحَـــــالُهُم غَــــدْوًا مِحَالَــــكْ

إِنْ كُــــنْتَ تَـــــارِكَهُم وَقَـــــبلتَــــنَا فَأَمْــــرٌ مَـــا بَــــدَا لَــــكْ

ثمَّ أرسَلَ عبدُ المُطلبِ حَلقَةَ بابِ الكعبةِ، وانطلَقَ هو ومَن معَهُ مِن قُريشٍ إلى رُؤوسِ الجبَالِ يتحَرَّزُونَ فِيهَا وينتظرُونَ ما أبرَهَةُ فَاعِلٌ.

فلمَّا أصبحَ أبرهَةُ تَهيَّأَ لدُخُولِ مكَّةَ، وهيَّأَ فِيلَهُ وعبَّأَ جَيشَهُ، فلمَّا وَجَّهُوا الفيلَ إلى مكةَ أقبلَ نُفيلُ بنُ حَبيبٍ حتَّى قامَ إلى جَنبِ الفِيلِ، فأخذَ بأُذُنِهِ وقالَ: ابرُكْ وارْجِعْ راشِدًا مِن حَيثُ أَتيتَ، فإنَّكَ في بَلدِ اللهِ الحرَامِ، ثُم أرسلَ أذنَهُ، فبَركَ الفيلُ وسقطَ على الأَرضِ، وليسَ مِن شَأنِ الفِيَلةِ أن تَبْرُكَ، وخَرجَ نُفَيْلُ بنُ حَبيبٍ يَركُضُ حتَّى صعدَ الجَبلَ، وضرَبُوا الفيلَ ليَقُومَ، فأبَى، فوجَّهُوهُ رَاجِعًا إلى اليَمَنِ فقامَ يُهَرْوِلُ، ووجَّهُوهُ إلى الشَّامِ ففَعلَ مِثلَ ذلكَ، ووجَّهُوهُ إلى المَشرقِ ففَعلَ مثلَ ذلكَ، ووجَّهُوهُ إلى مكةَ فبَرَكَ.

وأرسلَ اللهُ عَليهِم طَيرًا مِنَ البَحرِ أمثالَ الخطَاطيفِ، معَ كُلِّ طائرٍ منهَا ثلاثَةُ أحجارٍ أمثالَ الحِمَّصِ يَحمِلُهَا، حَجرٌ في مِنقارِهِ، وحَجرانِ في رِجْلَيْهِ، لا تُصيبُ مِنهُم أحَدًا إلا هلَكَ، وما يقَعُ حجرٌ على رَأسِ رَجُلٍ إلا خرجَ مِن دُبرِهِ، ولا يَقعُ عَلى شَيءٍ مِن جسدِهِ إلا خرجَ مِنَ الجانبِ الآخَرِ، وبعَثَ اللهُ رِيحًا شَديدَةً فضَربتِ الحِجارَةُ فزادَتْهَا شِدَّةً.

فخرَجُوا هارِبِينَ يلتمسونَ الطريقَ التي جاءُوا منهَا، وهُم يتسَاقطُونَ بكُلِّ طريقٍ، ويَهلِكُونَ بكُل مَهلِكٍ، وعلى كُلِّ مَنهَلٍ، وأُصيبَ أبرهةُ في جَسدِهِ، وخرجُوا

بِهِ مَعهُم يَسقطُ جسدُهُ قطعةً قطعةً، يَسيلُ بدنُهُ قَيْحًا ودَمًا حتى قدمُوا بِهِ إلى صنعَاءَ وهُو مثلُ فَرخِ الطائرِ، فمَا ماتَ حتى انصدَعَ صدرُهُ عن قَلبِهِ.

فلمَّا بعثَ اللهُ مُحمدًا ﷺ كانَ ممَّا يُعدِّدُ اللهُ عَلى قُريشٍ مِن نِعمَتِهِ عَليهِم وفَضلِهِ، مَا رَدَّ عنهُم مِن أمرِ الحَبشةِ لبقَاءِ أمرِهِم ومُدَّتِهم، قالَ تعَالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:١-٥].

قالَ أهلُ العلمِ: وفي هذِهِ الكائنَةِ العَظيمَةِ بيانٌ لنَصرِ اللهِ لبَيتِهِ الحَرامِ الذي يُريدُ أن يُشرِّفَهُ ويُعظِّمَهُ ويُطَهِّرَهُ ويُوقِّرَهُ ببَعثَةِ مُحمدٍ ﷺ، وما يَشرعُ لهُ مِنَ الدِّينِ القَويمِ الذِي أحدُ أركانِهِ وعمَادُ دِينِهِ الصَّلاةُ، والذِي سيَجعَلُ قِبلَتَهُ إلى هذِهِ الكَعبَةِ المُطَهَّرةِ، وإنَّما كانَ النصرُ للبَيتِ الحرَامِ تَمهِيدًا لبَعثَةِ مُحمَّدٍ ﷺ.

❊ ❊ ❊



(٢) وِلادَةُ النَّبيِّ ﷺ ورَضَاعُهُ

لمَّا عزَمَ عبدُ المُطلبِ -جَدُّ النبيِّ ﷺ- عَلى تَزويجِ ابنِهِ عبدِ اللهِ، اختَارَ لهُ سيدَةَ نسَاءِ قَومِهَا آمِنَةَ بِنتَ وَهبٍ لتكونَ حَليلةً لهُ، فذَهبَ بهِ إلَى وَهبِ بنِ عبدِ مَنافِ بنِ زُهرَةَ، وهُو يَومئذٍ سَيدُ بنِي زُهرةَ سِنًّا وشَرَفًا، فخطَبَ منهُ آمنَةَ لابنِهِ عبدِ اللهِ فزوَّجَهُ إيَّاهَا، فقالَتْ قُريشٌ حينَ تزوَّجَ عبدُ اللهِ بآمِنةَ: لقَد فازَ عبدُ اللهِ وغَلبَ عَلى أبيهِ عبدِ المُطلبِ.

وقَد حَفظَ اللهُ ﷻ نَبيَّهُ ﷺ مِن دَنَسِ أهلِ الجَاهليَّةِ، فقَد وُلِدَ مِن نِكاحٍ ثَابتِ الأركَانِ بالرَّغمِ مِن أنَّ والدَيهِ كانَا على الشِّركِ، قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: لمَّا انطلَقَ عبدُ المطلبِ بابنِهِ عبدِ اللهِ ليُزوِّجَهُ، مَرَّ بهِ عَلى كَاهنَةٍ مُتهَوِّدةٍ قد قَرأتِ الكُتبَ، فرَأتْ نُورَ النبُوَّةِ في وَجهِ عَبدِ اللهِ فقَالَت: يَا فتَى، هَل لكَ أنْ تَقعَ عَليَّ الآنَ وأعطِيكَ مِائَةً مِنَ الإبلِ؟ فقَال عَبدُ اللهِ:

أَمَّا الحَرَامُ فَالمَمَاتُ دُونَهُ ... وَالحِلُّ لا حِلَّ فَأَسْتَبِينَهُ
فَكَيفَ بِالأَمْرِ الذِي تَبغِينَهُ ... يَحمِي الكَرِيمُ عِرْضَهُ وَدِينَهُ

وهذِهِ الصِّيانَةُ التِي كانَتْ لعَبدِ اللهِ لَيسَتْ لَهُ، وإنَّمَا هِيَ لرَسُولِ اللهِ ﷺ، قالَ اللهُ تَعَالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

ثُمَّ دخلَ عَبدُ اللهِ بآمنَةَ بنتِ وَهبٍ وَأقامَ عِندَهَا ثَلاثًا، فحَمَلَت برَسُولِ اللهِ ﷺ،

وفي ذَلكَ يَقُولُ ﷺ: «**خَرجْتُ مِن نِكَاحٍ غَيرِ سِفَاحٍ**»، وقَال ﷺ: «**خَرجتُ مِن نِكَاحٍ، وَلَم أخرُجْ مِن سِفَاحٍ، مِن لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَن وَلدَنِي أَبِي وَأُمِّي، لَم يُصِبْنِي مِن سِفَاحِ الجَاهليَّةِ شَيْءٌ**».

ولحِكمَةٍ يُريدُهَا اللهُ تعَالى فقَد تُوفِّي أبُو النبيِّ ﷺ وهُو حَمْلٌ في بَطْنِ أمِّهِ، وهَذا أبلَغُ اليُتْمِ وأعلَى مَرَاتِبِهِ.

فَقَد خَرجَ عَبدُ اللهِ بنُ عَبدِ المُطلبِ معَ جَمَاعَةٍ إلَى الشَّامِ في تِجَارةٍ لقُريشٍ، فلمَّا فرَغُوا مِن تجَارتِهم ومَرُّوا بالمَدينَةِ مَرضَ عبدُ اللهِ، فقالَ: أتخَلَّفُ عندَ أخوَالي بنِي عَديٍّ بنِ النَّجارِ، فأقامَ عِندَهُم مَريضًا شَهرًا، ومضَى أصحابُهُ فقَدِمُوا مكةَ، فسألَهُم عبدُ المطلبِ عَن ابنِهِ عبدِ اللهِ، فقَالُوا تَركناهُ عندَ أخوَالِهِ وهُو مَريضٌ، فبَعثَ إلَيهِ عَبدُ المطلبِ وَلدَهُ الحَارثَ، فوجدَهُ قد تُوفِّي ودُفِنَ في دَارِ النابِغَةِ، فرجَعَ إلى أبِيهِ فأخبَرهُ، فحزِنَ عَليهِ عبدُ المطلبِ وإخوتُهُ وأخوَاتُهُ حُزنًا شَديدًا، وله يومَ تُوفِّي خَمسٌ وعِشرونَ سنَةً.

وفي عَامِ الفيلِ كانَت نُقطةُ التحولِ في حيَاةِ البشَريَّةِ، حيثُ وُلدَ خَيرُ البَريَّةِ، مُؤْذِنًا بقُدومِ عهدٍ جديدٍ، قالَ ﷺ: «**أنَا دَعوَةُ أَبِي إبرَاهِيمَ، وبُشرَى عِيسَى** عليه السلام، **ورَأتْ أمِّي حِينَ حَملَت بِي أنَّهُ خرَجَ مِنهَا نُورٌ أضَاءَتْ لهُ قُصورُ الشَّامِ**».

فلمَّا وُلدَ ﷺ ختنَهُ جدُّهُ عبدُ المطلبِ، وعملَ لهُ دَعوةً جمَعَ قُريشًا عَليهَا، فلمَّا أكلُوا قالُوا: يا عبدَ المُطلبِ، أرَأيتَ ابنَكَ هذَا الذي أكرَمتَنَا على وَجهِهِ، ما سَمَّيتَهُ؟ قال: سَمَّيتُهُ مُحمَّدًا، قالُوا: فلِمَ رَغبتَ بِهِ عَن أسمَاءِ أهلِ بَيتِهِ؟ قالَ: أرَدتُ أن يَحمَدَهُ اللهُ تعَالى في السَّماءِ وخَلقُهُ في الأرضِ.

فألهمَهُمُ اللهُ ﷻ أن سَمَّوْهُ مُحمدًا لِمَا فيهِ مِنَ الصفَاتِ الحَميدَةِ، ليَلتَقِيَ الاسمُ والفِعلُ، ويتطابَقَ الاسمُ والمُسمَّى في الصورَةِ والمَعنَى.

ثُم دفعَتهُ أمُّهُ إلى حَليمةَ السَّعديَّةِ لتُرضِعَهُ، فظهَرَ عليهِ مِنَ البَركةِ وآياتِ النُّبوةِ مَا أبْهَرَ العقولَ وشَرحَ الصدُورَ، حتى رَأتْ مِنهُ حَليمةُ وزَوجُهَا عجَبًا.

قالت حليمَةُ السعديَّةُ: قَدمتُ مكَّةَ في عَشرَةِ نِسوَةٍ مِن بنِي سَعدِ بنِ بَكرٍ نَلتمِسُ الرُّضعَاءَ في سنَةٍ شَهبَاءَ، فقَدِمتُ على حمَارٍ لي كانَ قَد حبَسَ الرَّكبَ لضَعفِهِ، ومَعي صَبيٌّ لنَا، وناقَةٌ هَرمَةٌ مُسِنَّةٌ، واللهِ مَا تَنزلُ قطرةٌ مِن لبنٍ، وما ننَامُ ليلَنَا ذلكَ أجمعَ مَعَ صَبيِّنَا ذاكَ، وما نجِدُ في ثَديَيَّ مَا يُغنِيهِ، ولا في نَاقتِنَا ما يُغَذِّيهِ، ولكنَّا كنَّا نَرجُو الغَوثَ والفَرجَ.

فقَدِمنَا مكةَ، فوَاللهِ مَا عَلمتُ امرأةً منَّا إلَّا وقَد عُرِضَ عَليهَا رسُولُ اللهِ ﷺ، فتَأبَاهُ إذَا قيلَ إنهُ يَتيمٌ، ونقُولُ: مَاذا عسَى أن تَصنَعَ إلينَا أمُّهُ؟ إنمَا نَرجُو المعروفَ مِن أبِي الولَدِ، فأمَّا أمُّهُ فماذا عسَى أن تَصنعَ إلَينَا؟

فواللهِ مَا بقِيَ مِن صَواحِبِي امرَأةٌ إلَّا أخَذَتْ رَضيعًا إلَّا أنَا، فلمَّا لَم نَجِد غَيرَهُ وعَزَمنَا على الانطِلاقِ، قُلتُ لزَوجِي الحَارثِ بنِ عَبدِ العُزَّى: واللهِ إنِّي لأكرَهُ أنْ أرجِعَ مِن بَينِ صَواحِبِي ليسَ مَعي رَضيعٌ، لأنطَلقَنَّ إلى ذَلكَ اليَتيمِ فآخذهُ، فقالَ: لَا عليكِ أن تَفعَلي، فعسَى أن يجعَلَ اللهُ لنَا فيه بركَةً، فذَهَبتُ فأخَذتُهُ، وواللهِ مَا أخذتُهُ إلا أنِّي لَم أجِدْ غَيرَهُ.

فمَا هُو إلَّا أن أخَذتُهُ فجِئتُ بِهِ إلَى رَحْلِي حتَّى أقْبَلَ عَليهِ ثَديَايَ بمَا شَاءَ مِن

لَبَنٍ، فشَربَ حتَّى رَوِيَ، وشَرِبَ أَخُوهُ حتَّى رَوِيَ، وقامَ صَاحبِي إلى نَاقَتِنَا تلكَ فإذَا بِهَا مَليئةٌ باللَّبنِ، فحَلَبَ وشَرِبَ وشَرِبْتُ حتى روينَا، فبِتْنَا بخَيرِ لَيلةٍ.

فقالَ صَاحِبِي حينَ أصبَحنَا: يا حَليمَةُ، واللهِ إنِّي لأراكِ قَد أخَذتِ نَسمَةً مُباركةً، ألَم تَرَي مَا بِتنَا بِهِ الليلةَ منَ الخَيرِ والبَركةِ حِينَ أخَذنَاهُ، فلَم يَزَلِ اللهُ ﷻ يَزيدُنَا خَيرًا.

ثُم خَرجنَا راجعِينَ إلى بِلادنَا، وقَد سبقَ حمَارِي الركْبَ، حتَّى إنَّ صَواحِبِي ليَقُلنَ: وَيلكِ يا بِنتَ أبي ذُؤَيبٍ! أهَذا حمَارُكِ الذي خَرجتِ عليهِ معنَا؟ فأقُولُ: نَعَم، واللهِ إنهُ لَهُو، فيَقُلنَ: واللهِ إنَّ لهَا لشَأنًا، حتى قَدِمنَا أرضَ بنِي سعدٍ، ومَا أعلمُ أرضًا مِن أرضِ اللهِ أجدَبَ منهَا، فإن كَانَت غَنمِي لتسرَحُ ثُم ترجعُ شِباعًا لَبنًا فنَحلبُ ما شِئنَا، وما حَولَنا أحدٌ تُخرِجُ له شَاةٌ قَطرةَ لَبنٍ، وإنَّ أغنامَهُم لتَرجعُ جِياعًا حتى إنَّهم ليَقولونَ لرُعيانِهِم: وَيحكُم، انظُروا حيثُ تَسرحُ غنمُ بنتِ أبي ذُؤَيبٍ فاسرَحُوا مَعَهَا، فيَسرحُونَ معَ غَنمِي حيثُ تَسرحُ، فتَرجعُ أغنَامُهم جيَاعًا ما فيهَا قَطرةُ لَبنٍ، وتَرجعُ أغنَامي شِباعًا لَبَنًا نَحلبُ مَا شِئنَا.

فلم يَزَلِ اللهُ يُرينَا البَركةَ نَتعرَّفُها فيهِ حتَّى بلغَ سَنَتَينِ، فكانَ يَشِبُّ شبَابًا لا يُشبهُ الغِلمانَ، فواللهِ مَا بلَغَ السَّنَتَيْن حتَّى كانَ غُلامًا قد انتفَخَ لحْمُهُ وأكلَ، فقَدِمنَا بهِ عَلى أمِّهِ ونَحنُ أحرَصُ شَيءٍ عَليهِ ممَّا رَأينَا فيهِ مِنَ البَركَةِ، فلمَّا رَأتهُ أمهُ قُلتُ لهَا: دَعِينَا نَرجعْ بِابنِنَا هذِهِ السنَةَ الأخرَى فإنَّا نخشَى عليهِ وباءَ مكَّةَ، فمَا زِلنا بِها حتَّى قَالتْ: نَعَم، وسَرَّحتْهُ مَعنَا.

فأقَمنَا بهِ شَهرَينِ أو ثَلاثَةً، وبَينمَا هوَ خَلفَ بُيوتِنا معَ أخٍ لهُ مِنَ الرَّضاعةِ فِي

غَنمٍ لنَا، إذْ جاءَ أَخُوهُ يَشتَدُّ رَاكِضًا فقالَ: ذَاكَ أَخِي القُرَشيُّ جاءَهُ رجُلانِ عَليهِمَا ثيَابٌ بِيضٌ، فَأَضجعَاهُ فشَقَّا بَطنَهُ، فخَرَجتُ أنَا وأَبُوه نَشتَدُّ نحوَهُ فوَجدنَاهُ قَائمًا مُتغَيرًا لونُهُ، فاعتنَقَهُ أبوهُ وقالَ: يَا بُنَيَّ، مَا شَأْنُكَ؟ قالَ: جاءَنِي رجُلانِ عَليهِمَا ثيابٌ بِيضٌ فأضجعَانِي وشَقَّا بَطنِي، ثُم استَخرَجَا منهُ شَيئًا فطرَحَاهُ ثُم رَدَّاهُ كمَا كانَ، فرَجعنَا بِهِ معنَا، فقالَ أَبُوهُ: يَا حَليمةُ، لقَد خَشيتُ أنْ يَكُونَ ابنِي قَد أُصِيبَ، فانْطَلِقِي بنَا نَرُدَّه إلَى أهلِهِ قَبلَ أَن يَظهَرَ بِهِ مَا نَتخَوَّفُ مِنهُ.

فاحتمَلناهُ، فقَدِمنَا بِهِ عَلى أمِّهِ، فقَالَت: مَا رَدَّكُمَا بِهِ يَا حَليمَةُ، فقَد كُنتُما عَليهِ حَرِيصَيْنِ؟ فقُلتُ: لا واللهِ، إلَّا أنَّ اللهَ قَد أدَّى عنَّا، وقَضَينَا الذِي عَلينَا، وقُلنَا: نَخشَى الإتلافَ والأَحدَاثَ فَنَرُدُّهُ إلَى أهلِهِ، فقَالَت: مَا ذَاكَ بِكُمَا، فَاصدُقَانِي، فَلَم تَدعْنَا حَتى أخبَرْنَاهَا خَبَرَهُ، فقَالَت: أخشَيتُمَا عَليهِ الشَّيطانَ، كَلَّا واللهِ مَا للشَّيطانِ عَليهِ مِن سَبيلٍ، واللهِ إنهُ لكَائنٌ لابنِي هذَا شَأنٌ، ألَا أخبِرُكُمَا خَبَرَهُ؟ قُلنَا: بَلى، قَالَت: حمَلتُ بِهِ فمَا حمَلتُ حَمْلًا قطُّ أخفَّ عليَّ مِنهُ، فَأُرِيتُ فِي النَّومِ حينَ حَملتُ بِهِ كأنهُ خَرجَ منِّي نُورٌ أضاءَتْ لهُ قصورُ الشامِ.

وقد سأَلَ رَجُلٌ النبيَّ ﷺ فقالَ: كيفَ كَانَ أولُ شَأنِكَ يَا رسُولَ اللهِ؟ فقَالَ: **«كَانَتْ حَاضِنَتِي مِن بَنِي سَعدِ بنِ بَكرٍ، فانطَلَقْتُ أنَا وَابنٍ لهَا فِي بَهمٍ لنَا، ولَم نَأخُذْ مَعنَا زَادًا، فقُلتُ: يَا أَخِي، اذهَبْ فائتِنَا بزَادٍ مِن عندِ أمِّنَا، فانطَلَقَ أخِي ومَكثتُ عِندَ البَهمِ، فَأقبَلَ إليَّ طائرَانِ أبيضَانِ كأنَّهُمَا نَسْرَانِ، فقَالَ أحدُهُما لصاحِبِهِ: أَهُو هُوَ؟ فقالَ: نَعَم، فأقبَلَا يبتدرَانِي فأخذَانِي فبَطحانِي للقَفَا فشقَّا بَطنِي ثُم استَخرجَا قَلبِي فشَقَّاهُ، فأخرَجَا منهُ عَلقَتَيْنِ سَودَاوَيْنِ، فقَالَ أحدُهُما**

لصَاحبِهِ: ائتِني بمَاءِ ثَلجٍ، فغَسَلَا بِهِ جَوفِي، ثُم قَالَ: ائتِني بمَاءِ بَرَدٍ، فغَسَلَا بِهِ قَلبِي، ثُم قالَ: ائتِنِي بالسَّكينَةِ، فَذَرَّهَا فِي قَلبِي، ثُم قالَ أحدُهُمَا لصاحبِهِ: خِطْهُ، فخَاطَهُ، وخَتمَ عَلى قَلبِي بخَاتمِ النبوَّةِ، ثُم انطلقَا فترَكانِي، وفَرِقتُ -أي: خِفتُ- **فَرَقًا شَدِيدًا، ثُم انطلقْتُ إلى أمِّي** -أي: من الرَّضاعَةِ- **فأخبَرتُهَا بالذِي لقيتُ، فأشفَقتْ أن يَكونَ قَد التُبِسَ بِي، فقَالَت: أُعيذُكَ بِاللهِ، فرَحَّلَتْ بَعِيرًا لهَا، وحَملتنِي عَلى الرَّحْلِ، ورَكِبَتْ خَلفِي، حتى بَلغنَا إلَى أمِّي، فقَالَت: أَدَّيتُ أمانَتِي وذِمَّتِي، وحَدثَتْهَا بالذِي لَقِيتُ، فَلَم يَرُعهَا وقَالَت: إنِّي رَأيتُ خَرجَ مِنِّي نُورٌ أضاءَتْ منهُ قصُورُ الشَّامِ**»، قالَ أنسٌ: وقَد كنتُ أرَى أثَرَ ذَلكَ المَخيطِ فِي صَدْرِهِ ﷺ.

وبعدَ أنْ أعادَتْ حَليمةُ رسُولَ اللهِ ﷺ إلَى أمِّهِ آمِنَةَ بِنتِ وَهبٍ، بَقِيَ ﷺ معَ أمهِ، يكفُلُهُ جدُّهُ عبدُ المُطَّلبِ، ويعيشُ فِي حفظِ اللهِ تَعَالى ورِعَايَتِهِ لهُ، يُنبتُهُ نَباتًا حسَنًا لِمَا يريدُ بهِ مِن كَرَامَتِهِ.

فلمَّا بلغَ ﷺ ستَّ سِنينَ، خَرجَت بِهِ أمُّهُ ومعَهَا أمُّ أيمَنَ إلَى المَدينَةِ، فزَارَتْ أخوَالَهُ مِن بَنِي عَدِيِّ بنِ النَّجَّارِ.

وفِي ذَاتِ يومٍ جاءَ رجُلانِ مِن يَهودِ المَدينةِ إلَى أمِّ أيمنَ فقَالَا: أَخْرِجي إلَينَا أحمَدَ نَنظُرْ إلَيهِ، فنظَرَا إلَيهِ وقَلَّبَاهُ، فقَالَ أحدُهُما لصَاحبِهِ: هذَا نَبيُّ هذهِ الأمةِ وهذِهِ دارُ هِجرَتِهِ، وسيَكُونُ بِها منَ القَتلِ والسَّبْي أمرٌ عَظيمٌ.

فلمَّا سَمعَت أمهُ ذلكَ خَافَت، فرَجَعَت بهِ مُسرعَةً إلى مَكةَ، فلمَّا بَلغَتِ الأبوَاءَ بينَ مَكةَ والمَدينَةِ تُوفِّيَت، فبَقِي ﷺ معَ جَدِّهِ عَبدِ المُطلبِ بنِ هَاشِمٍ

يَحفظُهُ ويَرعَاهُ، ورَقَّ عَليهِ رِقَّةً لم يَرقَّهَا عَلى وَلدِهِ، وكانَ يُقربُهُ مِنهُ ويُدنيهِ، ويَدخُلُ عَليهِ إذَا خَلَا وإذَا نامَ، وكانَ يُوضَعُ لعَبدِ المُطَّلبِ فِراشٌ في ظِلِّ الكَعبَةِ، ويَجلسُ بنُوهُ حَولَ فِراشِهِ ذَلكَ حتى يَخرُجَ إلَيهِ، لَا يجلسُ عَليهِ أحدٌ مِن بَنيهِ إجلَالًا لهُ، فيَأتِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وهُو غلامٌ حتَّى يَجلسَ عَليهِ، فيأخُذُهُ أعمَامُهُ ليُؤخِّرُوهُ عنهُ، فيَقُولُ عَبدُ المُطلبِ: دَعُوا ابنِي، فَواللهِ إنَّ لهُ لشَأنًا، إنهُ يُؤسِّسُ مُلكًا، ثُم يُجلسُهُ مَعهُ عَلى فِراشِهِ ويَمسحُ ظَهرَهُ بيدِهِ، ويَسُرُّهُ مَا يَراهُ يَصنَعُ.

ولَم يَزلِ النَّبيُّ ﷺ يَعيشُ فِي كَنَفِ جَدِّهِ عَبدِ المُطَّلبِ، حتَّى إذَا بَلغَ ثَمانِ سِنِينَ، حضَرَتْ جَدَّهُ عَبدَ المُطلبِ الوَفاةُ، فأوصَى ابنَهُ أبَا طَالبٍ بحِفظِهِ وحيَاطَتِهِ، ثُم ماتَ عبدُ المُطلبِ ودُفِنَ بالحُجُونِ.

فلمَّا أخذَ أبُو طالبٍ رسُولَ اللهِ ﷺ أحبَّهُ حبًّا شدِيدًا لَم يُحبَّهُ لولَدِهِ، فكَانَ يكُونُ معهُ في غَالبِ أحوَالِهِ، فلا ينَامُ إلا إلى جَنبِهِ، وإذَا خَرجَ أخذَهُ مَعهُ.

وقَد جَرَى لهُ ﷺ وهُو في كَنَفِ عَمِّهِ أَبِي طَالبٍ مِن الحَوَادثِ مَا يُشِيرُ إلَى دَلائلِ نُبوَّتِهِ، ومَا سَيكونُ عَليهِ أمرُهُ.

فقَد قدِمَ إلَى مكَّةَ رَجلٌ كَانَ عَائِفًا يتكَهَّنُ، وكَانَ إذَا قدمَ مَكَّةَ أتاهُ رجَالٌ مِن قُريشٍ بغِلمانِهِم يَنظُرُ إلَيهِم ويَعتافُ لَهُم، فرَأى رسُولَ اللهِ ﷺ وهُوَ غُلامٌ معَ أبِي طالبٍ ثُم شغَلَهُ عنهُ شَيءٌ، فلمَّا فرَغَ قالَ: الغُلام، عَليَّ بهِ، فلمَّا رَأى أبُو طالبٍ حِرصَهُ عَليهِ غَيَّبَهُ عنهُ، فجعَلَ يَقولُ: وَيلَكُم رُدُّوا عليَّ الغُلامَ الذِي رَأيتُهُ آنِفًا، فوَاللهِ ليَكُونَنَّ لهُ شَأنٌ.

ولمَّا أرادَ أبُو طالبٍ أن يَخرُجَ في تجارَةٍ إلى الشَّامِ، وتَهيَّأَ للرَّحيلِ، تَعلقَ بهِ

رَسُولُ اللهِ ﷺ، فرَقَّ لهُ أَبُو طالبٍ وقَالَ: واللهِ لأخرُجَنَّ بهِ مَعِي، لا أفارِقُهُ ولا يُفارِقُنِي أبدًا.

فخرجَ بِهِ، فلمَّا نزلَ الرَّكْبُ بُصرَى من أرضِ الشَّامِ، كانَ بِها رَاهِبٌ يُقالُ لهُ: بَحِيرَى، فِي صَومعةٍ لهُ، والصَّومعةُ: هي المكانُ الذي يتخَلَّى فيهِ الرَّاهبُ عن أشغَالِ الدنيَا ومَلاذِّهَا، زاهِدًا فيهَا مُعتزلًا أهلَهَا، وكانَ إليهِ علمُ أهلِ النَّصرانيةِ الذِي يتَوارثُونَهُ كابرًا عن كَابرٍ، ولَم يَزَلْ فِي تلكَ الصومعَةِ منذُ زَمنٍ لا يَنزلُ إلَيهِم، وكانُوا كَثيرًا ما يمُرونَ بِهِ فَلا يُكلِّمُهم ولا يَعرِضُ لهُم.

فلما كَانَ ذلكَ العامُ نزَلُوا قَريبًا من صَومعَتِهِ، فرَأى رسُولَ الله ﷺ في الرَّكْبِ لمَّا أقبَلَ، وغمَامةٌ تُظلِّلُهُ مِن بَينِ القَومِ، ثُمَّ أقبَلُوا فنزلُوا في ظِلِّ شجرَةٍ قَريبًا منهُ، فنظرَ إلَى الغمامَةِ حينَ أظَلَّتِ الشَّجرَةَ ومَالَت أغصَانُ الشَّجرةِ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ حتَّى استَظَلَّ تحتَهَا.

فلمَّا رأى بَحيرَى ذلكَ نَزلَ مِن صَومَعتِهِ، وصنَعَ لَهُم طعَامًا كثيرًا، ثُم أرسَلَ إلَيهِم وقَالَ: يا مَعشرَ قُريشٍ، إنِّي صَنعتُ لَكُم طعَامًا وأحبُّ أن تَحضُروا كُلُّكم، كَبيرُكُم وصغِيرُكُم، عبدُكُم وحُرُّكُم، فقَالَ لهُ رَجلٌ مِنهُم: واللهِ يا بَحيرَى إنَّ لكَ اليومَ لشَأنًا، ما كنتَ تصنعُ هذَا بنَا، وقد كُنا نَمُرُّ بكَ كَثيرًا، فما شأنُكَ اليومَ؟!

فقالَ لهُ بَحيرَى: صدَقْتَ قَد كانَ مَا تقولُ، ولكنَّكُم ضَيفٌ، وقَد أحبَبتُ أن أُكرِمَكُم وأصنعَ لكُم طعَامًا فتأكلُوا منهُ كُلُّكُم.

فاجتمَعُوا إلَيهِ، وتَخلَّفَ رسُولُ اللهِ ﷺ مِن بَينِ القَومِ لحدَاثةِ سِنِّهِ فِي رِحَالِ القَومِ تحتَ الشجرَةِ، فلمَّا رآهُم بَحيرَى لَم يَرَ الصفَةَ التِي يَعرفُ ويَجدُهَا عِندهُ،

فقالَ: يَا معشرَ قُريشٍ، لا يتخَلَّفنَّ أحدٌ منكُم عَن طعَامِي، قالُوا: يَا بَحيرَى، ما تخلَّفَ أحدٌ ينبغِي لهُ أن يأتِيَكَ إلا غُلامٌ، وهو أحدثُنا سِنًّا فتخَلَّفَ فِي رِحَالنَا، قال: لا تَفعلُوا، ادعُوهُ فليَحضُرْ هذَا الطعامَ مَعكُم.

فقامَ رجلٌ مِن قُريشٍ فجاءَ برَسولِ اللهِ ﷺ حتى أجلسَهُ معَ القَومِ، فلمَّا رآهُ بَحيرَى جعلَ يَلحظُهُ، وينظُرُ إلى أشياءَ مِن جسَدِهِ قَد كانَ يَجدُها عندَهُ مِن صِفَتِهِ، حتَّى إذَا فَرغَ القَومُ من طعامِهم وتفرَّقُوا، قامَ إليهِ بحيرَى فجعلَ يسألُهُ عن أشيَاءَ مِن حَالِهِ مِن نَومِهِ وهَيئتِهِ وأمُورِهِ، ورسُولُ اللهِ ﷺ يُخبِرُهُ، فوافَقَ ذَلكَ مَا عندَ بَحيرَى مِن صفتِهِ، ثُم نظرَ إلى ظَهرِهِ فرَأى خاتَمَ النبُوةِ بينَ كَتفَيهِ، فلمَّا فرغَ أقبَلَ على عَمِّه أبي طَالبٍ، فقالَ لهُ: مَا هذَا الغُلامُ مِنكَ؟ قالَ: ابنِي، قالَ بَحيرَى: ما هُو بابنِكَ، ومَا يَنبَغِي لهَذا الغلامِ أن يكُونَ أبوهُ حَيًّا، قالَ: إنهُ ابنُ أخِي، قالَ: فمَا فعلَ أبُوهُ؟ قالَ: ماتَ وأمهُ حُبلَى بهِ، قالَ: صَدقتَ.

ثُم قالَ لهُ: ارجِع بابنِ أخيكَ إلَى بلدِهِ واحذَرْ عَليهِ اليَهُودَ، فوَاللهِ لَئِن رَأوهُ وعَرفُوا منهُ مَا عَرفتُ ليَبغونَ بهِ شَرًّا، فإنهُ كائنٌ لابنِ أخيكَ هذَا شأنٌ عَظيمٌ، فأسرِعْ بهِ إلَى بِلادِهِ.

فلمَّا فرغَ عمُّهُ أبُو طالبٍ مِن تجَارتِهِ بالشَّامِ خرجَ بهِ سَريعًا حتَّى أقدمَهُ مكةَ.

وشبَّ رسُولُ اللهِ ﷺ معَ عمِّهِ أبِي طالبٍ يَحفَظُهُ اللهُ ﷻ ويَرعاهُ، ويَحُوطُهُ مِن أمورِ الجَاهليَّةِ ومَعائبِهَا، فكانَ أفضلَ قومِهِ مُروءةً، وأحسنَهُم خُلُقًا، وأكرمَهُم مُخالطةً، وأحسنَهُم جِوارًا، وأعظمَهُم حِلمًا وأمانةً، وأصدقَهُم حَدِيثًا، وأبعَدَهُم مِن الفُحشِ والأذَى، ما رُئِي مُخاصِمًا ولا مُجَادلًا أحدًا، حتى سمَّاهُ قَومُهُ:

الأَمِينَ، لِمَا جمعَ اللهُ فِيهِ مِن الصفاتِ الصَّالِحَةِ، وكانَ أَبُو طالبٍ يَحفَظُهُ وَيَحُوطُهُ وَيَنصُرُهُ وَيَعضُدُهُ حتى مَاتَ.

❊ ❊ ❊

(٣) زَواجُه ﷺ ومَنزِلَتُهُ بينَ قَومِهِ

لقَد شَبَّ رسُولُ اللهِ ﷺ حتَّى بلغَ مَبلغَ الرجَالِ، ولَم يزَلِ اللهُ تعَالى يَحفظُهُ ويحُوطُهُ مِن أقذارِ الجَاهليةِ، فكانَ أبعدَ الناسِ عنِ الفُحشِ والأخلَاقِ التي تُدنِّسُ الرجَالَ، مُتَهيِّئٌ لمَا أعدَّ اللهُ لهُ منَ الكرامَةِ والرسَالةِ، وقد مَرَّ بهِ مِنَ الوقَائعِ ما يَشهَدُ بحِفظِ اللهِ لهُ في صِغَرِهِ، ووقايتِهِ لهُ من أفعَالِ أهلِ الجاهليَّةِ.

فلمَّا أعادَت قُريشٌ بناءَ الكَعبَةِ، ذهبَ رسُولُ اللهِ ﷺ ينقلُ معهُمُ الحجارَةَ، فقالَ لهُ العباسُ رضي الله عنه: اجعَلْ إزارَكَ عَلى عاتِقِكَ ليَقِيَكَ منَ الحجارَةِ، ففعَلَ فخَرَّ إلى الأرضِ، وطمحَتْ عيناهُ إلى السمَاءِ، فقالَ: إزَارِي، فشدَّ عليه إزَارَهُ.

ولمَّا بلغَ رسولُ اللهِ ﷺ أربعَ عشرَةَ سنَةً، أو خمسَ عشرَةَ سنةً، هاجَت حربُ الفِجَارِ بينَ قريشٍ ومَن معهَا مِن كنانَةَ وبَينَ قَيسِ عَيلانَ، وسُمِّيتْ حَربَ الفجَارِ بذلكَ؛ لأن القتالَ جرَى في الشَّهرِ الحرَامِ ففَجَرُوا فيهِ جَمِيعًا.

وكانَ الذِي أهاجَهَا: أنَّ عُروةَ الرَّحَّالَ بنَ عُتبَةَ أجَارَ تجَارَةً للنُّعمانِ بنِ المُنذِرِ، فقالَ لهُ البَرَّاضُ بنُ قَيس أحدُ بَنِي ضَمرَةَ بنِ كِنَانةَ: أتُجيرُهَا عَلى كنانَةَ؟

قالَ: نَعَم، وعَلى الخَلقِ، فخرجَ فيهَا عُروةُ الرَّحَّالُ، ولحِقَهُ البَرَّاضُ يَطلُبُ غَفلتَهُ، حتَّى إذا صارَ بوَادٍ في عَاليةِ نَجدٍ غفَلَ عُروَةُ، فوثَبَ عليهِ البَرَّاضُ فقتَلَهُ في

الشَّهرِ الحرامِ، وقال البَراضُ في ذَلكَ:

ودَاهــيَةٍ تَهُــمُّ الــنَّاسَ قَبْلِــي	شَــددْتُ لَهَـا بَنِـي بَكْـرٍ ضُـلُوعِي
هَـدَمْتُ بِهَـا بُـيوتَ بَنِـي كِـلَابٍ	وَأرضَـعْتُ المَوَالِـيَ بالـضُّرُوعِ
رَفَعــتُ لَــهُ بِــذِي طَـلَّالَ كَفِّـي	فَخَـرَّ يَمِـيدُ كَالجِـذْعِ الـصَّرِيعِ

فأتَى آتٍ إلَى قُريشٍ فقالَ: إن البَراضَ قد قتلَ عُروَةَ وهُو في الشَّهرِ الحرَامِ، فهَبُّوا للحَاقِ بالبَراضِ ومَن مَعهُ، فأدركُوهُم قَبلَ أن يَدخُلُوا الحرَمَ، فاقتَتَلُوا حتَّى إذا جَاءَ الليلُ دخَلُوا الحرَمَ، فأمسَكُوا عَن القتَالِ، ثُمَّ التَقَوْا بَعدَ هَذا اليَومِ أيَّامًا، والقَومُ مُتسَانِدُونَ، كُلُّ قبيلَةٍ عَلى جِهَةٍ.

وقَد شَهدَ رسُولُ اللهِ ﷺ بعضَ أيَّامِهِم، قَد أخرجَهُ أعمَامُهُ مَعهُم، وكانَ يَرُدُّ عَلى أعمامِهِ نَبلَ عَدُوِّهِم إذَا رَمَوهُم بِهَا.

ولمَّا بلغَ رسُولُ اللهِ ﷺ عِشرينَ عَامًا شهِدَ حِلْفَ الفُضولِ، وكانَ هذَا الحِلفُ أكرَمَ حلفٍ سُمِعَ بهِ وأشرفَهُ عِندَ العَربِ، وقَد كانَ لهُ أبلَغُ الأثَرِ في نَفسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حتَّى امتدحَهُ بعدَ ذلكَ بقَولِهِ: «**لَقد شَهدتُ فِي دَارِ عبدِ الله بنِ جُدعَانَ حِلفًا لَو دُعيتُ لهُ فِي الإسلامِ لأَجبْتُ**»، حيثُ تعاهدَتْ قُريشٌ عَلى نَصرِ المَظلومِ على ظَالمِهِ، وكانَ هذَا الحِلفُ قبلَ بَعثةِ النبيِّ ﷺ بعِشرينَ سنَةً، وبَعدَ حَربِ الفِجَارِ بأربعَةِ أشهُرٍ.

وكانَ هذَا الحلفُ يُشبهُ حِلفًا قَديمًا كان بمكةَ أيامَ جُرْهُمٍ، قامَ عَلى التناصُفِ، والأخذِ للضَّعيفِ منَ القَويِّ، وللغَريبِ منَ المُقيمِ، وكانَ الدَّاعِي إليهِ

ثلاثةً من أشرافِهِم كُلُّهُم يُسمَّى الفَضْل: الفَضلُ بنُ الحَارثِ، والفَضلُ بنُ ودَاعَةَ، والفَضلُ بنُ فضالَةَ، فقامَت قُريشٌ بِهذا الحِلفِ وسَمَّتهُ حِلفَ الفُضُولِ، وقالُوا: لَقَد دخَلَ هَؤلاءِ في فَضلٍ منَ الأَمرِ، وكانَ أولَ مَن تكلَّمَ بِهذا الحِلفِ ودَعا إليهِ الزُّبيرُ بنُ عَبدِ المُطَّلبِ.

وسببُ هذا الحِلفِ أن رجُلًا من زُبَيْدٍ قَدمَ مكةَ بِبضاعَةٍ، فاشتَراهَا منه العاصُ بنُ وائلٍ، فحبَسَ عنهُ حقَّهُ، فاستعدَى عليهِ الناسَ فأبَوْا أن يُعينُوهُ عَلى العاصِ بنِ وَائلٍ، وانتهَرُوهُ، فلمَّا رَأى الزُّبَيدِيُّ الشرَّ وقفَ على جَبلِ أَبِي قَبيسٍ عندَ طلوعِ الشَّمسِ، وقُريشٌ في مجَالِسِهِم حولَ الكعبَةِ، فنادَى بأعلى صَوتِهِ:

يَا آلَ فِهْرٍ لمَظلُومٍ بِضَاعَتُهُ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ

وَمُحْرِمٍ أَشْعَثٍ لَم يَقْضِ عُمرَتَهُ ... يَا لَلرِّجَالِ وَبَينَ الحِجْرِ وَالحَجَرِ

إنَّ الحَرامَ لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُهُ ... وَلَا حَرامَ لِثَوبِ الفَاجِرِ الغُدَرِ

فقَامَ في ذلكَ الزُّبيرُ بنُ عبدِ المُطلبِ وقالَ: ما لهَذا مَتْرَكٌ، فاجتمَعَتْ قبائلُ مِن قُريشٍ إلى الحِلفِ واجتمَعُوا لهُ في دَارِ عبدِ الله بنِ جُدعانَ لشَرفِهِ وسِنِّهِ، فصنَعَ لَهُم طعَامًا، فتحالَفُوا في شَهرِ ذِي القَعدَةِ، وتعَاقَدُوا وتعاهَدُوا باللهِ عَلى ألَّا يَجدُوا بمكةَ مظلُومًا مِن أهلِهَا أو ممَّن دخَلهَا من سَائرِ الناسِ إلَّا كانُوا معَهُ، وكانُوا عَلى مَن ظَلَمَهُ حتَّى يُؤدَّى إلَيهِ حَقُّهُ، ثُم مَشَوْا إلَى العَاصِ بنِ وَائلٍ فانتزَعُوا منهُ سِلعةَ الزُّبَيدِيِّ فدفَعُوهَا إلَيهِ، وقَالَ الزُّبيرُ بنُ عَبدِ المُطَّلبِ في ذَلكَ:

حَلفْتُ لَنَعقِدَنْ حِلْفًا عَلَيهِمْ ... وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهلَ دَارِ

نُسَمِّيهِ الفُضُولَ إذَا عَقَدْنَا   يُعَزُّ بِهِ الغَرِيبُ لِذِي الجِوَارِ
ويَعلَمُ مَن حَوَالِي البَيْتِ أَنَّا   أُبَاةُ الضَّيْمِ نَمنَعُ كُلَّ عَارِ

ولمَّا بلغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خمسًا وعِشرينَ سنَةً، تزوجَ صِدِّيقةَ النسَاءِ خَديجَةَ بِنتَ خُويلِدٍ ، وسِنُّهَا أربعُونَ، وقَد كانَت مَطمَعَ العَرَبِ لِمَا جمَعَ اللهُ لهَا منَ العَقلِ والحِكمَةِ، إلَّا أنَّها طَمِعَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا عَلِمَت عنهُ مِن صفَاتِ الخَيرِ، وهِي أولُ امرأةٍ تزَوَّجَها، ولَم يتَزَوَّج عَليهَا غَيرَهَا فِي حَيَاتِهَا، وأولُ امرَأةٍ ماتَت مِن نِسَائِهِ، وأمَرَهُ جبريلُ أن يَقرَأَ عَليهَا السلامَ مِن رَبِّها وأنْ يُبَشِّرَهَا ببيتٍ في الجنَّةِ مِن قَصبٍ لا صَخَبَ فيهِ وَلا نَصَبَ.

ولمَّا دعَا ﷺ إلى اللهِ ﷻ استَجَابَ لهُ عبَادُ اللهِ مِن كُلِّ قَبيلَةٍ، فكَانَ أسبَقَهُم إلى الإسلامِ مِن الرجَالِ أبُو بكرٍ الصِّدِّيقُ ، وأولُهُم مِنَ النسَاءِ خَديجَةُ بنتُ خُويلِدٍ .

وكانَت خديجَةُ بنتُ خُويلدٍ امرَأةً تاجِرَةً ذاتَ شَرفٍ ومَالٍ، تستَأجِرُ الرجالَ عَلى مالِهَا مُضَاربَةً، فلمَّا بلغَهَا عَن رسُولِ اللهِ ﷺ ما بَلَغَهَا مِن صِدقِ حَدِيثِهِ، وعِظَمِ أمَانَتِهِ، وكَرَمِ أخلاقِهِ بَعثَتْ إليهِ، فعَرَضَتْ عَليهِ أن يَخرُجَ في مَالِهَا تَاجِرًا إلى الشامِ، وتُعطِيهِ أفضلَ مَا تُعطِي غَيرَهُ مِن التجَّارِ.

فقبِلَ رسُولُ اللهِ ﷺ منهَا، واستَحسَنَ ما عَرضَتْ عَليهِ، وخرجَ في مَالهَا ذَلكَ مَع غُلامٍ لهَا يُقالُ لهُ: مَيسرَةُ، فلمَّا بَلغَا الشامَ نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في ظِلِّ شجرَةٍ قَريبًا مِن صومعَةِ رَاهبٍ منَ الرُّهبانِ، فاطَّلعَ الراهبُ إلى مَيسرَةَ، فقالَ: مَن هذا الرجُلُ الذِي نزلَ تحتَ الشَّجرَةِ؟ فقالَ مَيسرةُ: هذَا رجلٌ من قُريشٍ مِن أهلِ

الحَرَمِ، فقَالَ لَهُ الراهِبُ: ما نَزلَ تحتَ هذهِ الشجرةِ إلَّا نبيٌّ، ثُم بَاعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تِجَارَتَهُ التي خَرجَ بِها، واشتَرَى ما أَرَادَ أن يَشتَرِيَ، ثُم رجعَ قَافلًا إلى مكَّةَ.

وكانَتْ خديجَةُ امرأةً حازِمَةً رفيعَةَ القَدْرِ، ولمَّا أرادَ اللهُ كرَامَتَهَا، فإنهُ لمَّا أخبرَها مَيسرةُ عَن حالِ رسُولِ اللهِ ﷺ، بَعثَتْ إلَيهِ وعَرَضَتْ نَفسَهَا عَليهِ، وقَالَت لَهُ: يَا ابنَ عَمِّ، إنِّي قَد رَغِبتُ فِيكَ زَوْجًا لقَرابَتِكَ وقَدْرِكَ في قَومِكَ، وأمانَتِكَ وحُسنِ خُلُقِكَ وصِدقِ حَدِيثِكَ، وكانَت خَديجَةُ أوسَطَ نِسَاءِ قُرَيشٍ نَسَبًا، وأعظَمَهُنَّ شَرَفًا، وأكثَرَهُنَّ مَالًا، وكُلُّ قَومِهَا كَانَ حَرِيصًا عَلى الزَّواجِ منهَا لَو قَدرَ عَليهِ، فلمَّا قَالَت خَديجةُ ذلكَ لرسُولِ اللهِ ﷺ، ذَكرَ ذَلكَ لأعمَامِهِ، فخَرجَ معهُ عمُّهُ حمزَةُ حتى دخَلَ على خُويلدِ بنِ أسدٍ فخَطَبَ مِنهُ خَديجَةَ، فتزَوَّجَها ﷺ.

وكانَ ﷺ قبلَ أن يتزَوَّجَ خَديجَةَ يَشتغلُ بِرَعْيِ الغَنَمِ، وقَد قالَ ﷺ: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إلَّا رَعَى الغَنَمَ**»، فقالَ لهُ أصحَابُهُ: وأنتَ يَا رسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**وَأَنَا كُنتُ أرعَاهَا لأهْلِ مكَّةَ بالقَرَارِيطِ**»، أي: بجُزءٍ منَ الدَّنانيرِ أو الدَّراهِمِ.

والحِكمَةُ في إلهَامِ الأنبياءِ لرَعْيِ الغنَم قبلَ النبُوةِ أن يَحصُلَ لهُم التمرُّنُ برَعْيِها عَلى ما يُكلَّفُونَهُ منَ القيامِ بأمْرِ أمَّتهِم، واكتسَابُ الحِلْمِ والسَّكِينَةِ، كمَا قالَ ﷺ: «**السَّكينَةُ فِي أَهلِ الغَنَمِ**»، أي: الوقَارُ والرحمَةُ والطمأنينَةُ، وذلكَ أنَّهم يكتسبُونَ مِن مُخالطَتِهم لهَا من الحِلْمِ والشفقَةِ، والصَّبر على رَعْيهَا، وجَمعِها بعد تفَرُّقِهَا في المَرعى، ونقلِهَا من مَسرَحٍ إلى مَسرحٍ، ودَفعِ عَدُوِّهَا عنهَا مِن سبُعٍ وغَيرِهِ، واختِلافِ طبَاعِهَا، وضَعفِهَا واحتيَاجِهَا إلى المُعَاهَدَةِ، ما يألفُونَ بسَببِهِ الصَّبْرَ والحِلمَ والسَّكينَةَ حتى يكُونَ لهُم ذلكَ طبعًا وسَجيةً، حتى إذا كُلِّفُوا بمهَامِّ النبُوةِ

اعتادُوا على تلكَ الأخلاقِ، فعرَفُوا اختلافَ طباعِ الناسِ، وتفاوتَ عقُولِهِم، فأحسَنُوا الرعايَةَ لهُم، وتحملُوا المشقَّةَ في سَبيلِ ذلكَ، وهذا أسهَلُ مما لو كُلِّفُوا القيامَ بذلكَ مِن أولِ وَهلَةٍ.

وفي ذِكرِ النبيِّ ﷺ لعمَلِهِ برَعْيِ الغنَمِ بعدَ أن عُلِمَ كَونُهُ أكرَمَ الخَلقِ على اللهِ، دَلِيلٌ عَلى ما كانَ عَليهِ ﷺ من عَظيمِ التواضُعِ لرَبِّهِ، والتصريحُ بمِنَّتِهِ عَليهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولما بلَغَ رسولُ اللهِ ﷺ خمسًا وثلاثينَ سنَةً، عَزَمَتْ قُريشٌ على هَدمِ الكعبَةِ وتَجدِيدِ بنَائِهَا، وقد حَمَلَهُم على ذلكَ أن الكعبَةَ كانَت من حجَارةٍ فوقَ القامَةِ، وكانَت السيولُ تَأتِي من فَوقِ رَدمٍ جَعلتْهُ قُريشٌ دُونَها، فسقَطَ الرَّدمُ فخَافُوا أن يدخُلَهَا الماءُ، فعزَمُوا على أن يُشَيِّدُوا بنيانَها، وأن يَسقفُوهَا، وأن يجعَلُوا لها بَابًا واحدًا مِن ناحيةِ الشَّرقِ ويَجعَلُوهُ مرتفعًا لئلَّا يدخلَ إليهَا كلُّ أحَدٍ، فيُدخِلُوا مَن شَاءُوا ويَمنعُوا مَن شَاءُوا.

فأعَدُّوا لذلكَ نفقَةً وعُمَّالًا، ثُم غَدَوا إليهَا ليَهدمُوهَا على شَفقٍ وحَذرٍ أن يُمنَعُوا منَ الذي أرادُوا، فلمَّا تقدَّمُوا لهَدمِهَا هابَ الناسُ ذلكَ وخافُوا منهُ، فقالَ الوليدُ بنُ المُغيرَةِ: أنَا أبدَؤُكُم في هَدمِهَا، فأخذَ المِعوَلَ ثُم قامَ عَليهَا وهُوَ يقُولُ: اللهُمَّ لَم تُرَعْ، اللهُمَّ إنَّا لا نُريدُ إلا الخَيرَ.

ثُم هدمَ مِن ناحيَةِ الرُّكنَيْنِ، فانتظرَ الناسُ تلكَ الليلَةَ، وقالُوا: ننظُرُ، فإن أُصيبَ لَم نَهدمْ منهَا شَيئًا ورَددنَاهَا كمَا كانَت، وإن لَم يُصِبْهُ شَيءٌ فقَد رَضيَ اللهُ مَا صَنَعنَا مِن هَدمِهَا، فأصبَحَ الوَليدُ غَاديًا على عَملهِ، فهَدمَ وهدَمَ الناسُ مَعهُ، حتى انتهَوا إلَى أساسِ إبراهِيمَ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

فلمَّا أَرَادُوا أن يَأْخُذُوا في بُنيَانِهَا وأحضَرُوا عُمَّالَهُم رَأَوْا حَيَّةً قد أحاطَت بِالبَيتِ، رأسُهَا عندَ ذَنَبِهَا، لا يَدنُو منها أحدٌ إلا فَتَحَت فَمهَا، فَلَم يَقدِر رَجلٌ مِنهُم أن يتَقَدَّمَ ليَبنِيَ، وأشفَقُوا منَ الحيَّةِ شفقَةً شَديدةً، وخَشُوا أن يكُونُوا قد وقَعُوا ممَّا عَمِلُوا في هلَكَةٍ.

وكانتِ الكعبَةُ حرزَهُم ومنعَتَهُم من الناسِ، وشَرَفًا لهُم، فلما التبَسَ عليهِم أمرُهُم، وتحسَّرُوا بسببِ ما وقَعُوا فيهِ، قامَ المُغيرةُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ مَخزُومٍ ناصِحًا لهُم وآمِرًا إياهُم ألا يتحَاسَدُوا في بنَائِهَا ولا يتشاجَرُوا، وألَّا يُدخِلُوا في بنائِهَا مالًا حرَامًا.

وقامَ أبو وَهبِ بنُ عَمرٍو، وهُو مِن أخوالِ أبِي النبيِّ ﷺ وكانَ شَريفًا مُمَدَّحًا، فقالَ: يَا مَعشرَ قُريشٍ، لا تُدخِلُوا في بُنيانِها من كَسبِكم إلا طَيبًا، لا يدخلُ فيهَا مَهرُ بغِيٍّ، ولا بَيعُ ربًا، ولا مَظلمَةُ أحدٍ منَ الناسِ.

وبينمَا الحيَّةُ يومًا تُشرفُ على جِدارِ الكَعبةِ كمَا كانَت تصنَعُ، بعثَ الله عليهَا طائرًا فاختطَفَهَا فذهبَ بِها، فقَالَت قُريشٌ عندَ ذلكَ: إنَّا لنَرجُو أن يكُونَ اللهُ تعَالى قَد رضِيَ مَا أَردنَا، عِندنَا عَاملٌ، وعندَنَا خشَبٌ، وقد كفَانا اللهُ الحيَّةَ، وكانَ البحرُ قَد رمَى بسفينَةٍ لرَجُلٍ من تُجَّارِ الرومِ إلى جُدَّةَ، فتَحطَّمَت، فأخَذُوا خشَبهَا فأعَدُّوهُ لتَسقِيفِهَا، وكانَ بمكةَ رجُلٌ قِبطيٌّ نجارٌ، فهَيَّأَ لهُم بعضَ مَا يُصلحُهَا، فبَنَوهَا عَلى ذَلكَ، ولَكِن قَد قصُرَتْ بِهِمُ النفقَةُ، فأخرَجُوا مِنهَا الحِجْرَ.

وممَّا جرَى حالَ بنَائِها: أنَّ القبائلَ من قُريشٍ جمَعتِ الحجَارَةَ لبنَائِهَا، وكانَت كُلُّ قبيلَةٍ تَبنِي عَلى حِدَةٍ، فلمَّا بلَغَ البنَاءُ مَوضِعَ الركْنِ اختَصَمُوا في الحَجَرِ

الأسوَدِ، كُلُّ قبيلةٍ تُريدُ أن تَرفعَهُ إلى مَوضعِهِ وتنَالَ شَرفَ ذَلكَ دُونَ الأُخرَى.

فتحاوَرُوا وتنَازَعُوا طَويلًا، حتَّى أعَدُّوا للقتَالِ، فقَرَّبَتْ بنُو عبدِ الدارِ جَفنَةً مملوءَةً دمًا، ثُم تعاقَدُوا هُم وبنُو عدِيٍّ بنِ كَعبٍ عَلى المَوتِ، وأدخَلُوا أيدِيَهُم في ذَلكَ الدَّمِ في تلكَ الجَفنةِ، فَسُمُّوا: لَعَقَةَ الدَّمِ.

فمكَثَتْ قُريشٌ عَلى ذلكَ أربَعَ لَيَالٍ أو خَمسًا، ثمَّ إنَّهم اجتمَعُوا في المَسجدِ فتشَاوَرُوا وتناصَفُوا، فقالَ أبُو أميَّةَ بنُ المُغيرَةِ -وكانَ حِينهَا أسنَّ قُريشٍ-: يَا مَعشرَ قريشٍ، اجعَلُوا بَينكُم حَكَمًا فيمَا تَختلفونَ فيهِ أولَ مَن يَدخُلُ مِن بابِ هذَا المَسجدِ، ففَعلُوا، فكانَ أولَ دَاخلٍ دَخلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فلمَّا رَأوهُ قَالُوا: هذَا مُحمدٌ، هذَا الأمينُ، رَضِينَا.

فلمَّا انتَهَى إليهِم وأخبَرُوهُ الخَبَرَ، قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: ائتُونِي بثَوبٍ، فأحضَرُوهُ إليهِ، وأخذَ الركنَ فوضَعَهُ فيهِ بيَدِهِ، ثُم قالَ: لتَأخُذْ كلُّ قبيلَةٍ بناحِيَةٍ مِنَ الثوبِ ثُم ارفَعُوهُ جَميعًا، ففَعَلُوا، حتَّى إذَا بلَغُوا بِهِ موضِعَهُ وضَعهُ هُو بيدِهِ ﷺ، ثُم بُنِيَ عَليهِ.

وكانَ إجماعُهُم عَلى رَأيهِ دليلَ فَضلِهِ، واتفَاقِهِم عَلى صِدقِهِ واستقَامةِ حَالِهِ حتَّى قبلَ أن يُبعثَ، لتقومَ عَليهِم الحجَّةُ مِن أنفُسِهم على أنفُسِهِم إن كَذَّبوهُ بعدَ ذلكَ ورَدُّوا قولَهُ.

ولمَّا تقَاربَ زمانُ بَعثةِ النبيِّ ﷺ كانَتِ الأحبَارُ منَ اليَهودِ، والرُّهبانُ منَ النصَارَى، يتحدَّثونَ بِأمرِهِ ﷺ قبلَ مَبعثِهِ، لِمَا وجَدُوا في كُتبِهم مِن صفتِهِ وصِفةِ زمانِهِ، وما كانَ مِن عَهدِ أنبيَائِهِم إلَيهِم فيهِ، قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ

ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: ما بعثَ اللهُ نَبيًّا إلا أخذَ عَليهِ المِيثاقَ لئِنْ بُعثَ محمدٌ وهُوَ حَيٌّ ليُؤمِنَنَّ بهِ وليَنصُرَنَّهُ، وأمرَهُ أن يأخُذَ على أُمَّتهِ المِيثاقَ، لَئِن بُعثَ مُحمدٌ وهُم أحيَاءٌ ليُؤمِنُنَّ بهِ وليَنصُرُنَّهُ وليَتَّبِعُنَّهُ.

ومِن ذلكَ: يُعلمُ أن جميعَ الأنبيَاءِ -عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ- قد بشَّرُوا بهِ ﷺ، وأمرُوا باتِّباعِهِ، وهذَا دليلٌ على عُلوِّ مقَامِهِ على البَشرِ وبيَان فضلِهِ، ومِن أجلِ ذلكَ فقَد بَعثَهُ اللهُ تعَالى فِي خَيرِ القُرونِ، وفَضَّلهُ على سَائرِ الخَلقِ أجمَعِينَ، قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**بُعِثتُ مِن خَيرِ قُرونِ بَنِي آدَمَ قَرنًا فقَرنًا، حتَّى بُعِثتُ منَ القَرنِ الذِي كُنتُ فِيهِ**».

وقَدِ اصطفَاهُ سُبحانَهُ مِن خَيرِ البُيوتِ نَسَبًا، وأعلاهَا حَسَبًا، قالَ ﷺ: «**إنَّ اللهَ اصطفَى مِن وَلدِ إبرَاهِيمَ إسمَاعِيلَ، واصطَفَى مِن بنِي إسمَاعيلَ بنِي كِنانَةَ، واصطَفَى مِن بنِي كنانَةَ قُريشًا، واصطَفَى مِن قُريشٍ بنِي هَاشِمٍ، واصطفَانِي مِن بنِي هَاشمٍ**».

وكانَ ﷺ في ذِروَةٍ مِن قَومِهِ، وهكَذَا كانَ الأنبيَاءُ مِن بعدِ لُوطٍ عليه السلام يكونُونَ أعلَى أقوامِهِم نسَبًا، فلمَّا ذكَرَ ﷺ ما جرَى من استضعَافِ قَومِ لوطٍ لهُ، قالَ: «**رَحمَةُ اللهِ علَى لوطٍ، إنْ كانَ ليَأوِي إلَى رُكنٍ شَديدٍ، إذْ قالَ لِقَومِهِ: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ**

قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود:٨٠]، **فمَا بَعثَ اللهُ بَعدَهُ مِن نَبيٍّ إلَّا فِي ذِروَةٍ مِن قَومِهِ**»؛ أي: أعلى نَسبِ قومِهِ، حتى تكُونَ لهُ عَشيرةٌ يستندُ إليهِم، فيَحصُلَ لهُ بسَببِ ذلكَ العِزُّ والمَنعةُ والحِمايةُ.

كمَا أنهُ كانَ من عَادةِ العَربِ ألَّا تُذعِنَ فِي الأمورِ الكَبيرةِ ولا تَستَجيبَ إلا لِذَوِي الأنسابِ العَاليةِ، وحتَّى لا يظُنَّ ظانٌّ أنهُ قَد اتخَذَ دَعوَاهُ للنبوةِ والرسَالةِ وَسيلَةً لتَغييرِ وَضعِهِ الاجتمَاعِيِّ، ولذلكَ لمَّا التقَى هِرَقْلُ الرومِ بأبِي سُفيانَ بنِ حربٍ -قبلَ أن يُسلمَ- سألَهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ جُملةً منَ الأسئلَةِ، وكانَ أولُ ما سَألهُ عنهُ أن قَالَ: كيفَ نسبُهُ فِيكُم؟ فقالَ أبُو سُفيانَ: هُو فينَا ذُو نَسَبٍ، فقالَ هِرقلُ: فكذَلكَ الرسُلُ تُبعَثُ فِي نسَبِ قَومِهَا.





(٤) نُزُولُ الوَحيِ عَلَى النَّبيِّ ﷺ

لمَّا أرادَ اللهُ كرامَةَ نبيِّهِ ﷺ اصطَفَاهُ لرِسَالتِهِ، وكانَ أوَّلُ ما بُدِئَ به مِنَ الوحيِ الرؤيَا الصَّالحةَ في النَّومِ، فكانَ لا يَرَى رُؤيَا إلا جاءَت مثلَ فلَقِ الصُّبحِ، وكانَ إذَا خرجَ لحاجةٍ أبعَدَ حتى تَغيبَ عَنهُ البُيوتُ، ويُفضِي إلى شِعابِ مكةَ وبُطونِ أودِيَتِهَا، فلا يمُرُّ بحَجرٍ ولا شجَرٍ، إلا قَالَ: السلامُ عَليكَ يَا رسُولَ اللهِ، فيلتَفتُ حولَهُ عَن يَمينِهِ، وعَن شِمالِهِ، وخَلفَهُ، فلا يَرى إلا الشجرَ والحِجارةَ، فبقيَ كذلكَ يرَى ويَسمعُ ذلكَ ما شاءَ اللهُ أن يَبقَى، قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنِّي لأعرِفُ حَجرًا بمكَّةَ كانَ يُسلِّمُ عَليَّ قَبلَ أَن أُبعثَ، إنِّي لأعرِفُهُ الآنَ**».

ثُمَّ حُبِّبَ إلَيهِ ﷺ الخَلاءُ، فكانَ يخلُو بغَارِ حِراءَ فيتَعبَّدُ اللياليَ ذَواتِ العَددِ قَبلَ أن يرجِعَ إلى أهلِهِ، ثُم يرجِعُ إلى خَديجَةَ فيتزَوَّدُ لمِثلِهَا، حتى جاءَهُ جِبريلُ -عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- بكرامَةِ اللهِ لهُ وهو في غَارِ حرَاءٍ، فجاءَهُ المَلَكُ فقالَ: اقرَأ، قالَ: «**مَا أنَا بقَارِئٍ**»، أي: لستُ ممَّن يُحسِنُ القراءَةَ، فأخذَهُ فضمَّهُ ضمَّةً شديدَةً حتى بلَغَ منهُ الجَهْدُ ثُم تَركَهُ، فقالَ: اقرَأ، قال: «**مَا أنَا بقَارِئٍ**»، فأخذَهُ فضمَّهُ الثانيَةَ حتى بلَغَ منهُ الجَهْدُ ثُمَّ تركَهُ، فقالَ: اقرَأ، فقَالَ: «**مَا أنَا بقَارِئٍ**»، فأخذَهُ فضمَّهُ الثالثَةَ ثُم تركَهُ، فقالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ

﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:١-٥].

فرجَعَ بِهَا رسولُ اللهِ ﷺ يرجُفُ فُؤادُهُ، فدخَلَ عَلى خَديجَةَ بنتِ خُويلِدٍ رضي الله عنها، فقالَ: «**زمِّلوني زَمِّلُوني**»؛ أي: دَثِّرُوني، فأبصَرَتْ ما بوجهِهِ مِن تغيُّرِ لونِهِ، فأفزَعَهَا ذلكَ، فقَامَت إليهِ ودثَّرتْهُ، ودنَتْ منهُ وجعلَتْ تمسَحُ على وجهِهِ حتَّى ذهبَ عنهُ الرَّوْعُ، فقالَ لخَديجةَ -وقَد أخبرَها الخَبرَ-: «**لقَد خشِيتُ عَلى نَفسِي**»، فعصَمَ اللهُ خديجَةَ عَنِ التَّكذِيبِ، وشرَحَ صَدرَهَا للتَّصدِيقِ، فقَالَت: «كَلَّا واللهِ، مَا يُخزِيكَ اللهُ أبدًا، إنكَ لتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعدُومَ، وتَقْرِي الضَّيفَ، وتُعينُ على نَوائبِ الحَقِّ».

ثم انطلَقَتْ بهِ خَديجَةُ حتَّى أتَتْ بِهِ ورَقَةَ بنَ نَوفَلٍ ابنَ عَمِّ خَديجَةَ، وكانَ امرَأً تنصَّرَ في الجَاهليَّةِ، وكانَ يكتُبُ الكتَابَ العِبرانِيَّ، فيكتُبُ منَ الإنجِيلِ بالعِبرانيَّةِ مَا شاءَ اللهُ أن يكتُبَ، وكانَ شَيخًا كبيرًا قد عَمِيَ، فقالَت لهُ خَديجَةُ: يا ابنَ عَمِّ، اسمَعْ مِن ابنِ أخيكَ، فقالَ له ورقَةُ: يا ابنَ أخِي، ماذَا ترَى؟ فأخبَرهُ رسولُ اللهِ ﷺ خبرَ ما رَأَى، فقالَ لهُ ورَقَةُ: هذَا الناموسُ الذِي نزَّلَهُ اللهُ عَلى مُوسَى، يا لَيتَنِي فيهَا جَذَعًا، ليتَنِي أكونُ حيًّا إذ يُخرِجُكَ قَومُكَ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**أوَمُخرِجِيَّ هُمْ؟!**»، قالَ: نَعَم، لَم يأتِ رجُلٌ قَطُّ بمِثلِ مَا جِئتَ بهِ إلَّا عُودِيَ، وإن يُدرِكْنِي يومُكَ أَنصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُم لَم يَنشَبْ وَرَقَةُ أَن تُوفِّي.

ثم فترَ الوَحيُ عَن رسولِ اللهِ ﷺ فحزِنَ حُزنًا شَدِيدًا، ثُمَّ وبينَمَا هو يَمشِي إذْ سَمعَ صَوتًا مِنَ السمَاءِ، فرفَعَ بَصرَهُ، فإذَا المَلَكُ الذِي جاءَهُ بحِراءٍ جَالسٌ عَلى كُرسِيٍّ بينَ السمَاءِ والأرضِ، فَرُعِبَ منهُ، ورجعَ إلى أهلِهِ فقَالَ: «**دَثِّرونِي دَثِّرونِي**»،

فأنزلَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر:١-٥]، ثمَّ حمِيَ الوَحيُ بعدَ ذَلكَ وتتَابعَ شَيئًا بعدَ شَيءٍ، فأحيَانًا يأتِيهِ مثلَ صَلصلَةِ الجَرسِ، وهُو أشدُّهُ عَليهِ، فيَفصِمُ عَنهُ وقَد وَعَى ما قَالَ، وأحيَانًا يتمَثَّلُ لهُ المَلكُ رَجُلًا، فيُكَلِّمُهُ فيَعِي مَا يَقُولُ، قالَت عَائشَةُ ﵂: «ولقَد رَأيتُهُ ﷺ ينزلُ عَليهِ الوَحيُ فِي اليَومِ الشَّديدِ البَردِ، فيَفصِمُ عَنهُ، وإنَّ جبينَهُ ليتَفَصَّدُ عَرَقًا».

وحِينئذٍ قامَ رسُولُ اللهِ ﷺ في الرسَالَةِ أتَمَّ القِيامِ، وشَمَّرَ عَن سَاقِ العَزْمِ، ودَعَا إلَى اللهِ القَريبَ والبَعيدَ عَلى مرَاحِلَ، فآمَنَ بهِ كُلُّ مَن أرَادَ اللهُ سَعادَتَهُ، واستمَرَّ عَلى مخالفَتِهِ وعِصيانِهِ كُلُّ جبَّارٍ عَنيدٍ.

وكانَ أوَّلَ مَن آمنَ بِهِ مِنَ النسَاءِ زَوجتُهُ خَديجَةُ بنتُ خُويلِدٍ ﵂، وقَد كَانَت خديجَةُ مِن أكثَرِ الناسِ تَثبيتًا لهُ في بدَايةِ أمرِهِ، وآزرَتهُ في المَوقفِ الضَّنكِ ﵂، فلَمَّا بَيَّنَ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ مَا أكرَمَهُ بهِ مِن نُبوَّتِهِ ومَجيءِ المَلَكِ إلَيهِ في أوَّلِ أمرِهِ، قَالَت خديجَةُ: يَا ابنَ عَمٍّ، تستطِيعُ أن تُخبِرَنِي بصَاحبِكَ هذَا الذِي يَأتيكَ إذَا جَاءكَ؟ فقَالَ: «**نَعَم**»، قَالَت: إذَا جاءَكَ فأخبِرْنِي، فبَينَمَا رسولُ اللهِ ﷺ عندَهَا إذ جَاءَهُ جِبريلُ، فرَآهُ رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: «**يَا خَديجَةُ، هذَا جِبريلُ**»، فقَالتْ: أتَراهُ الآنَ؟ قالَ: «**نَعَم**»، قَالَت: فاجلِسْ إلَى شِقِّي الأَيمَنِ، فتَحوَّلَ فجَلسَ، فقَالَت: أتَراهُ الآنَ؟ قالَ: «**نَعَم**»، قَالَت: فتَحوَّل فاجلِسْ فِي حِجْرِي، فتَحوَّلَ فجَلسَ فِي حِجرِهَا، فقَالَت: هَل تَراهُ الآنَ؟ قالَ: «**نَعَم**»، فَحَسَرتْ عَن رَأسِهَا، فشَالَت خِمَارَهَا، ورَسُولُ اللهِ ﷺ جالسٌ في حِجرِهَا، فقَالَت: هَل تَراهُ الآنَ؟ قَالَ: «**لا**»،

قالَت: مَا هذَا بشَيطانٍ، إنَّ هذَا لمَلَكٌ يَا ابنَ عَمٍّ، فاثبُتْ وأَبْشِرْ، ثُم آمَنَتْ بِهِ وشَهِدَتْ أنَّ مَا جاءَ بِهِ هُو الحقُّ، وصَدَّقَت بمَا جَاءَهُ مِن اللهِ، وآزرَتْهُ على أمرِهِ، فخَفَّفَ اللهُ بذَلكَ عَن رسُولِهِ ﷺ، فَلا يَسمَعُ شَيئًا يَكرهُهُ، مِن ردٍّ عَليهِ، وتَكذيبٍ لهُ، فيُحزِنُهُ ذَلكَ، إلَّا فَرَّجَ اللهُ عَنه بِها، إذا رَجعَ إلَيهَا تُثَبِّتُهُ، وتُخَفِّفُ عنهُ، وتُصَدِّقُهُ، وتُهَوِّنُ عَليهِ أمرَ النَّاسِ رضي الله عنها، ولذَلكَ قَالَ ﷺ: «**أُمِرتُ أَن أُبَشِّرَ خَديجَةَ ببَيتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ** -وهُو: اللؤلُؤُ المُجَوَّفُ- **لا صخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ**».

ومضَى رسُولُ اللهِ ﷺ عَلى مَا أَمَرَهُ اللهُ، مُصَدِّقًا بمَا جاءَهُ مِنهُ، مُستَعِدًّا لتحَمُّلِ أعبَاءِ النبُوَّةِ، وأثقَالِ الرِّسالَةِ التِي لا يُطيقُهَا إلا أهلُ القُوةِ والعَزمِ، مُتهَيِّئًا لمَا سَيلقَاهُ مِن قَومِهِ منَ الخِلافِ والأذَى، وردِّ قَولِهِ والحَقِّ الذِي جاءَ بِهِ.

وجعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يدعُو مَن يَطمَئنُّ إلَيهِ مِن أَهلِهِ سِرًّا، ويُخبِرُهُ أَنَّهُ رَسُولُ الله ﷺ إلى الخَلقِ أجمَعِينَ، فكَانَ أولَ مَن بَادرَ إلَى التَّصديقِ بِهِ منَ الرِّجالِ أبُو بكرٍ الصِّديقُ، ومِن الغِلمَانِ عَليُّ بنُ أبي طَالبٍ، ومِن المَوَالِي مَولاهُ زَيدُ بنُ حَارثَةَ رضي الله عنهم.

فقَد كانَ أبُو بكرٍ الصِّديقُ صَاحبَ رسُولِ اللهِ ﷺ قَبلَ البَعثَةِ، وكانَ يَعلَمُ مِن صِدقِهِ، وأمَانَتِهِ، وحُسنِ سَجِيَّتِهِ، وكَرَمِ أخلَاقِهِ، مَا يَمنَعُهُ مِنَ الكَذبِ عَلى الخَلْقِ، فكَيفَ يَكذِبُ عَلى اللهِ؟

فقد جَاءَ أبُو بَكرٍ رضي الله عنه إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقَالَ: يَا أبَا القَاسِمِ، فُقِدتَ مِن مَجَالسِ قَومِكَ، واتَّهَمُوكَ بالعَيبِ لآبَائهَا وأمَّهاتِهَا، فقَالَ لهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أبَا بَكرٍ، إنِّي**

نَبيُّ اللهِ، بَعثَنِي لأبلِّغَ رِسالَتَهُ، وأدعُوكَ إلَى اللهِ بِالحقِّ، فوَاللهِ إنَّهُ للحَقُّ، أدعُوكَ يَا أبَا بَكرٍ إلَى اللهِ وَحدَهُ لا شَريكَ لَهُ لا يُعبَدُ غَيرُهُ، وَالمُوالاةِ عَلى طَاعَتِهِ»، ثُم قَرَأَ عَليهِ القُرآنَ، فبَادَرَ إلى تَصدِيقِهِ وأسلَمَ، لَم يتَردَّدْ وَلَم يتَلعثَمْ، وكَفَرَ بالأصنَامِ، وخَلَعَ الأندادَ، وأقَرَّ بحَقِّ الإسلامِ، فانطَلَق عَنهُ رسُولُ اللهِ ﷺ ومَا بَينَ الأَخشَبَينِ أحَدٌ أكثَرَ سُرورًا منهُ بإِسلامِ أَبِي بَكرٍ، وفي ذَلكَ يَقُولُ النَّبيُّ ﷺ: «**مَا دَعوتُ أَحَدًا إلى الإسلَامِ إلَّا كَانَت عِندَهُ كَبوَةٌ وتَرَدُّدٌ ونَظَرٌ، إلَّا أبَا بَكرٍ مَا تَردَّدَ فِيهِ، وَلَا عَكَمَ عَنهُ حِينَ ذَكرتُهُ**»؛ أي: لَم يتَلَبَّثْ.

ولمَّا جَرَى بينَ أَبِي بَكرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما ذاتَ مَرةٍ شَيءٌ منَ الخُصومَةِ، قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُغضَبًا، وقالَ: «**إنَّ اللهَ بَعثَنِي إلَيكُم، فقُلتُم: كَذبتَ، وقَالَ أَبُو بَكرٍ: صَدقْتَ، ووَاسانِي بنَفسِهِ ومَالِهِ، فهَلْ أنتُم تَارِكُوا لِي صَاحِبي؟**» قالَهَا مَرَّتَيْنِ، فمَا أوذِيَ بَعدَهَا.

وكانَ إسلامُ أَبِي بَكرٍ رضي الله عنه مِن أعظَمِ النَّفعِ للإسلامِ وأهلِهِ، إذْ كانَ صَدرًا مُعظَّمًا، ورَئيسًا مُكرَّمًا في قُريشٍ، وصاحبَ مَالٍ، وكانَ مُحَبَّبًا مُتَألَّفًا، يَبذُلُ المالَ في طاعةِ اللهِ ورسُولِهِ، ودَاعيَةً إلى الإسلامِ، فإنَّهُ لمَّا أسلَمَ ذَهبَ إلَى عُثمَانَ بنِ عَفانَ وطَلحَةَ بنِ عُبيدِ اللهِ وَالزُّبَيرِ بنِ العَوامِ وسَعدِ بنِ أَبِي وقَّاصٍ، فدَعَاهُم إلى الإسلَامِ، فأسلَمُوا، ولمَّا كانَ مِنَ الغَدِ جاءَ بعُثمانَ بنِ مَظعُونٍ وأَبِي عُبيدَةَ بنِ الجَرَّاحِ وعَبدِ الرَّحمنِ بنِ عوفٍ وأَبِي سَلمَةَ بنِ عَبدِ الأسَدِ والأَرقَمِ بنِ أَبِي الأَرقَمِ، فأسلَمُوا.

وأمَّا عَليٌّ بنُ أَبي طَالبٍ، فكَانَ ممَّا أنعَمَ اللهُ بِهِ عَليهِ أنَّهُ كانَ يَعيشُ فِي حِجرِ رسُولِ اللهِ ﷺ قَبلَ الإسلَام، وذَلكَ أن قُرَيشًا أصَابتهُم أزمَةٌ شَديدةٌ، وكَانَ أبُو طالبٍ ذَا عيالٍ كَثيرَةٍ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ لعَمِّهِ العَبَّاسِ ﵁، وكانَ مِن أيسَرِ بَنِي هَاشمٍ: «**يَا عبَّاسُ، إنَّ أخاكَ أبَا طالبٍ كثيرُ العِيالِ، وقَد أصابَ الناسَ مَا تَرَى مِن هذِهِ الأزمَةِ، فانطَلِقْ حتَّى نُخفِّفَ عَنهُ مِن عيَالِهِ**»، فأخَذَ رسُولُ اللهِ ﷺ عَليًّا فضمَّهُ إلَيهِ، فلَمْ يَزلْ معَ رسُولِ اللهِ ﷺ حتى بعثَهُ اللهُ نَبيًّا، فاتَّبَعَهُ وآمَنَ بِهِ وصَدَّقهُ.

فقَد دخَلَ عَليُّ بنُ أَبِي طالِبٍ ﵁ يومًا عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ وهُو يُصَلِّي، فقالَ: يَا محمَّدُ، ما هَذا؟ فقالَ ﷺ: «**هذَا دِينُ اللهِ الذِي اصطَفَى لنَفسِهِ، وبَعثَ بِهِ رُسُلَهُ، فأَدعُوكَ إلَى اللهِ وَحدَهُ لَا شَريكَ لَهُ، وإلَى عِبَادَتِهِ، وأَن تَكفُرَ باللَّاتِ وَالعُزَّى**»، فقَال عَليٌّ: هذَا أمرٌ لَم أسمَعْ بِهِ قَبلَ اليَومِ، فَلستُ بقَاضٍ أمْرًا حتَّى أُحَدِّث بِهِ أبَا طَالبٍ.

فكرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أن يُفشِيَ عَليهِ سِرَّهُ قَبلَ أَن يُعلنَ أمرَهُ، فقَالَ لَهُ: «**يَا عَليُّ، إذَا لَم تُسلِمْ فَاكتُمْ**»، فمَكثَ عَليٌّ تِلكَ الليلةِ، ثُم إنَّ اللهَ أوقَعَ في قَلبِهِ الإسلامَ، فأصبَحَ غادِيًا إلى رسُولِ اللهِ ﷺ حتَّى جاءَهُ، فقَالَ: ماذَا عَرضتَ عَليَّ يَا مُحَمَّدُ؟ فقَال لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَشهَدُ أن لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وتَكفُرَ باللَّاتِ والعُزَّى، وتَبرَأُ مِنَ الأندَادِ**»، ففَعلَ عَليٌّ ذَلكَ وأسلَمَ، ومَكثَ يَأتيهِ على خَوفٍ مِن أبِي طَالبٍ، وكتَمَ إسلامَهُ ولَم يُظهِرْهُ.

فهكَذَا كانَت أُولى مراحِلِ الدَّعوةِ، بدَأَ النبيُّ ﷺ بمَن يَثِقُ بهِ مِنَ المُقرَّبينَ، ولَم يكُنْ مَعهُ مِنَ النَّاسِ عَلى دِينِهِ سِوَى هذَا العَددِ اليَسيرِ، حتَّى قالَ عفيفٌ أخَا

الأشعثِ بنِ قَيسٍ لأمِّهِ -يُحدِّثُ عَن تلكَ المَرحلةِ-: كُنتُ امرَأً تاجِرًا، فقدِمْتُ منًى أيامَ الحَجِّ، وكانَ العبَّاسُ بنُ عبدِ المُطَّلبِ امرَأً تَاجرًا، فأَتَيتُهُ أشتَرِي مِنهُ وأَبيعُهُ، فبَينَا نَحنُ كَذلكَ، إذْ خرَجَ رجُلٌ مِن خِباءٍ فقَامَ يُصلِّي تُجَاهَ الكعبَةِ، ثُم خَرجَتِ امرَأةٌ فقَامَت تُصَلِّي، وخرَجَ غلامٌ فقَامَ يُصلِّي معَهُ، فقُلتُ: يَا عبَّاسُ، مَا هذَا الدِّينُ الذِي مَا ندرِي مَا هُو؟

فقالَ: هذَا ابنُ أخِي مُحمدُ بنُ عَبدِ اللهِ، يَزعُمُ أنَّ اللهَ أَرسَلَهُ، وأنَّ كنُوزَ كِسرَى وقَيصَرَ ستُفتَحُ عَلَيهِ، وهَذِهِ امرَأتُهُ خَديجَةُ بِنتُ خُويلِدٍ آمنَتْ بِهِ، وهذَا الغُلامُ ابنُ عمِّهِ عليُّ بنُ أبِي طَالبٍ آمَنَ بِهِ، قَالَ عَفيفٌ: فليتَنِي كنتُ آمنتُ يَومَئذٍ فكُنتُ أكُونُ رَابعًا.

ثُم بَدأتِ الدَّعوةُ تَنتَشِرُ شَيئًا فشَيئًا، وكانَ المسلمُونَ إذْ ذَاكَ يَستَسِرُّونَ بإِسلامِهِم، فلا يُطلِعُونَ عَلى أمرِهِم أحَدًا حتى قَرابَاتِهِم، وكان أولَ مَن أظهَرَ الإسلامَ بَعدَ رسُولِ اللهِ ﷺ أبُو بَكرٍ وعَمَّارٌ وأُمُّهُ سُميَّةُ وصُهيبٌ وبِلالٌ والمِقدَادُ.

فأمَّا رسولُ اللهِ ﷺ فحَمَاهُ اللهُ بعَمِّهِ، وأمَّا أبُو بكرٍ فمَنعَهُ اللهُ بقَومِهِ، وأمَّا سائِرُهُم فأخَذَهُمُ المُشرِكُونَ، فألبَسُوهُمْ أدرُعَ الحَديدِ، وصَهرُوهُم فِي الشمسِ، فمَا مِنهُم مِن أحدٍ إلَّا وقَد واتَاهُم عَلى مَا أرَادُوا، إلا بِلالَ بنَ رَباحٍ فإنَّهُ هانَت عَليهِ نَفسُهُ فِي اللهِ وَهَانَ عَلى قَومِهِ، فَأخَذُوهُ فأعطَوْهُ الوِلدَانَ ليَمَسُّوهُ بأنوَاعِ العذَابِ، فجَعلُوا يَطُوفُونَ بهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، وهُو يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ.

وقال عمرُو بنُ عَبسَةَ السُّلَميُّ ﷺ: أتَيتُ رسُولَ اللهِ ﷺ فِي أولِ مَا بُعثَ

بمكَّةَ، وهُو حِينئذٍ مُستَخْفٍ، فقُلتُ: مَا أنتَ؟ قالَ: «**أَنَا نَبيٌّ**»، قُلتُ: ومَا النبيُّ؟ قالَ: «**رسُولُ اللهِ**»، قلتُ: آللهُ أرسَلَكَ؟ قالَ: «**نَعَم**»، قُلتُ: بِمَ أرسلكَ؟ قالَ: «**بِأن تَعبُدَ اللهَ وحدَهُ لا شَريكَ لهُ، وتَكسرَ الأصنَامَ، وتَصِلَ الأرحَامَ**»، قُلتُ: نِعمَ مَا أرسَلكَ بهِ، فمَن معَكَ عَلى هذَا؟ قالَ: «**حُرٌّ وعَبدٌ**»، فأسلَمتُ، وقُلتُ: فأتَّبعُك يا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: «**لَا، ولَكِن الحَقْ بقَومِكَ، فإذَا أُخبِرتَ أنِّي قَد خَرجتُ فاتَّبِعْنِي**».

وقدِمَ رجُلٌ يُدعَى ضِمَادًا إلى مكَّةَ وهُو رجلٌ مِن أَزْدِ شَنُوءَةَ، وكانَ يَرْقِي مِنَ الرِّيحِ، فسَمعَ سُفهاءَ مِن سُفهاءِ النَّاسِ يَقُولُونَ: إن مُحَمدًا مَجنونٌ، فقالَ: أينَ هذَا الرجلُ لعَلَّ اللهَ أن يَشفِيَهُ عَلى يَدِي؟ فلَقِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فقالَ: إنِّي أرْقِي مِن هذهِ الريَاحِ، وإنَّ اللهَ يَشفِي على يَدِي مَن شَاء، فهَلُمَّ.

فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ الحَمدَ للهِ، نَحمَدُهُ، ونَستَعِينُهُ، مَن يَهدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، ومَن يُضلِلْ فَلا هَادِيَ لهُ، أشهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لا شَريكَ لَهُ**»، ثَلاثَ مَرَّاتٍ.

فقال ضِمَادٌ: واللهِ لقَد سَمعتُ قَولَ الكَهنَةِ، وقَولَ السَّحرَةِ، وقَولَ الشُّعرَاءِ، فمَا سمعتُ مثلَ هَؤلاءِ الكَلماتِ، فهَلُمَّ يَدَكَ أُبايِعْكَ عَلى الإسلامِ، فبَايَعهُ رَسولُ اللهِ ﷺ وقالَ لهُ: «**وعَلى قَومِكَ؟**»، فقالَ: وعَلى قَومِي، فبعثَ النبيُّ ﷺ بعدَ ذَلكَ سَريَّةً، فمَرُّوا بقَومِ ضِمادٍ، فقالَ صاحِبُ الجَيشِ للسَّريَّةِ: هَل أصبتُم مِن هؤلاءِ القَومِ شَيئًا؟ فقالَ رجلٌ مِنهُم: أصبتُ مِنهُم مِطهَرَةً، فقَالَ: رُدَّهَا عَليهم، فَإنَّهم قَومُ ضِمَادٍ.

ثم بدَأَ الناسُ مِن الرجالِ والنِّساءِ يَدخُلُون فِي الإسلامِ تِبَاعًا، حتَّى فشَا أمرُ

الإِسلَامِ بمكَّةَ وتُحُدِّثَ بهِ، فازدَادَ المُشرِكُونَ غَيظًا وحِقدًا، واعتَرَضَ أبُو جَهلٍ رسُولَ اللهِ ﷺ عند الصفَا، فآذاهُ وشتَمهُ، ونالَ منهُ ما يكرَهُ منَ العَيبِ لدِينِهِ، فَذُكِرَ ذلكَ لحَمزةَ بنِ عبدِ المُطَّلبِ، فأقبلَ نَحوَ أَبِي جَهلٍ فقامَ عَلى رَأسِهِ ورَفعَ القَوسَ فضَربَهُ بِها ضَربَةً شجَّهُ مِنهَا شَجَّةً مُنكَرَةً، فقَامَت رجَالٌ مِن بَنِي مَخزُومٍ إلى حَمزةَ، لِيَنصُرُوا أبَا جَهلٍ منهُ، وقالُوا: مَا نَراكَ يا حَمزةُ إلَّا قَد صبَأتَ، فقالَ حَمزةُ رضي الله عنه: ومَن يَمنَعُنِي وقَد استبَانَ لِي منهُ، وأنَا أَشهَدُ أنهُ رَسُولُ اللهِ وأنَّ الذِي يقُولُهُ حَقٌّ، فَوَاللهِ لا أَنزِعُ، فامنَعُونِي إن كُنتُم صادِقِينَ، فقَالَ أَبُو جهلٍ: دَعُوا أَبَا عمَارَةَ، فإنِّي واللهِ لقَد سَببتُ ابنَ أَخِيهِ سَبًّا قَبيحًا.

فلمَّا أسلَمَ حمزةُ عرَفتْ قُريشٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَد عزَّ وامتنَعَ، فكَفُّوا عمَّا كَانُوا يتنَاوَلُونَ مِنهُ.

وكانَ أصحابُ رسُولِ الله ﷺ إذَا صَلَّوا ذهبُوا في الشِّعابِ، واستَخفَوْا بصَلاتِهِم مِن قَومِهِم، فَبَينَا سَعدُ بنُ أَبِي وقَّاصٍ فِي نَفرٍ يُصَلُّونَ بشِعابِ مَكَّةَ إذ ظَهرَ عليهِم بَعضُ المُشركينَ، فنَاكَرُوهُم وعابُوا عَليهِم مَا يَصنعونَ حتَّى قاتَلُوهُم، فضرَبَ سعدٌ رجُلًا منَ المُشركين بلَحْيِ جَملٍ فشَجَّهُ، فكَانَ أولَ دَمٍ أُرِيقَ في الإِسلامِ.

* * *

(٥) أَمرُهُ ﷺ بالصَّدْعِ بالدَّعوةِ، ومَا نَالَهُ مِنَ الأذى

بعدَ ثلاثِ سِنينَ مِن البَعثةِ أمرَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بأنْ يَصدَعَ بِمَا أُمِرَ، وأن يُبَلِّغَ رسَالَتَهُ إلى الخَاصِّ والعَامِّ، وأنْ يَصبِرَ عَلى أذَى المُشرِكِينَ، وأنزَلَ اللهُ عَلى رسُولِهِ ﷺ قَولَهُ تعَالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، فأتَى النَّبيُّ ﷺ الصفَا، فصَعدَ عَليهِ، ثُم نادَى: «**يَا صبَاحَاهُ**»، فاجتمعَ الناسُ إلَيهِ بينَ رجُلٍ يجِيءُ إلَيهِ، وبَينَ رجُلٍ يَبعثُ رسولَهُ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا بَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ، يَا بَنِي فِهرٍ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ، أَرَأيْتُم لَو أخبَرتُكُمْ أَنَّ خَيلًا بسَفْحِ هذَا الجَبلِ تُرِيدُ أَن تُغِيرَ عَليكُم، أصدَّقْتُمُوني؟**» قَالوا: نَعَم، قالَ: «**فَإنِّي نذِيرٌ لَكُم بَينَ يَدَي عَذابٍ شَديدٍ**».

ثُم قامَ ﷺ مُناديًا، فخَصَّ وعَمَّ، فقَالَ: «**يَا مَعشرَ قُريشٍ، أنقِذُوا أنفُسَكُم مِنَ النَّارِ، يا مَعشَرَ بَنِي هاشِمٍ، أنقِذُوا أنفُسَكُم مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ بنتُ مُحمَّدٍ، أنقِذِي نَفسَكِ مِنَ النارِ، يا صفيَّةُ بنتُ عَبدِ المُطَّلِبِ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، أنقِذِي نَفسَكِ منَ النارِ، فإنِّي وَاللهِ لا أملِكُ لَكُم مِنَ اللهِ شَيئًا**».

فقالَ أبُو لَهبٍ: تَبًّا لكَ سائرَ اليَومِ، أمَا دعوتَنا إلا لهَذا؟ فأنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١].

وقد استَمَرَّ رسُولُ اللهِ ﷺ فيمَا أُمِرَ بِهِ منَ الدَّعوةِ إلى اللهِ تعَالى لَيلًا ونَهارًا، سِرًّا وجِهارًا، لا يَصرفُهُ عَن ذلكَ صَارفٌ، ولَا يَرُدُّهُ عَنهُ رَادٌّ، ولَا يَصُدُّهُ عنهُ صَادٌّ، يتَتَبَّعُ الناسَ في مجَالِسِهِم ومجَامِعِهِم، وفِي المَواسِمِ ومَوَاقِفِ الحَجِّ، يدعُو جَميعَ مَن لقِيَهُ إلى اللهِ، عَلى الرَّغمِ ممَّا يَلقَاهُ مِنَ العَنَتِ والشِّدَّةِ وتَسلُّطِ الأعدَاءِ مِن مُشرِكِي قُرَيشٍ عليهِ وعَلى مَن اتَّبَعَهُ مِن ضُعفَاءِ المُسلِمِينَ بالأذِيَّةِ القَولِيَّةِ والفِعلِيَّةِ، ولَولَا أنَّ اللهَ تعَالى قد حَالَ بَينَهُم وبَينَ أذيَّةِ رسُولِهِ ﷺ، لنَالُوا مِن ذلكَ الأمرِ مُنتَهَاهُ وبَلَغُوا منهُ أَشَدَّ الأذَى.

ومِن ذلكَ أنَّ أبَا جَهلِ بنَ هشَامٍ قَالَ: يَا مَعشَرَ قُرَيشٍ، إنَّ مُحمَّدًا قَد أبَى إلا مَا تَرونَ مِن عَيبِ دِينِنَا، وشَتمِ آبَائِنَا، وتَسفِيهِ أحلامِنَا، وسَبِّ آلهَتِنَا، وإنِّي أعاهِدُ اللهَ لأجلسَنَّ لَهُ غَدًا بحَجرٍ، فإذَا سَجدَ في صَلاتِهِ، فضَخْتُ بِهِ رَأسَهُ، فليَصْنَعْ بَعدَ ذَلِكَ بَنُو عبدِ مَنافٍ مَا بدَا لَهُم.

فلمَّا أصبحَ أبُو جهلٍ أخذَ حَجَرًا، وجلسَ ينتظِرُ رسُولَ اللهِ ﷺ، فغدَا رسُولُ اللهِ ﷺ كما كانَ يغدُو، فلمَّا قامَ يُصلِّي بينَ الرُّكنَيْنِ الأسوَدِ واليَمَانِيِّ، قعَدَتْ قُريشٌ فجلَسُوا في مكَانِهِم ينتظِرُونَ، فلمَّا سجدَ رسُولُ اللهِ ﷺ حمَلَ أبُو جهلٍ الحَجرَ ثُم أقبَلَ نَحوَهُ، حتى إذَا دنَا مِنهُ رجَعَ مُنبَهتًا مَخطُوفًا لونُهُ مَرعُوبًا، قَد يَبِسَت يَدَاهُ عَلى حَجرِهِ، حتى قذَفَ الحَجرَ مِن يَدِهِ، وقَامَت إلَيهِ رجَالٌ مِن قُرَيشٍ، فقَالُوا لَهُ: مَا بِكَ يَا أبَا الحَكَمِ؟ فقالَ: قُمتُ إلَيهِ لأفعَلَ مَا قُلتُ لَكُم البارِحَةَ، فلمَّا دَنوتُ مِنهُ عَرضَ لِي دُونَهُ فَحلٌ مِنَ الإبِلِ، واللهِ مَا رَأيتُ مثلَ هَامَتِهِ وَلا أنيَابِهِ لفَحلٍ قَطُّ، فهَمَّ أن يَأكُلَنِي، قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ذَلكَ جِبريلُ، لَو دنَا مِنِّي لأَخَذَهُ**».

وقالَ أبُو جَهلٍ: أيُعَفِّرُ مُحمدٌ وَجهَهُ بَينَ أظهُرِكُم؟ واللَّاتِ والعُزَّى لَئِنْ رَأيتُهُ يُصَلِّي كذَلكَ لأطَأَنَّ عَلى رَقبتِهِ، ولأُعفِّرنَّ وَجهَهُ فِي التُّرابِ، فأتَى إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وهُو يُصَلِّي ليَطَأَ عَلى رَقَبتِهِ، فمَا فَجِئَهُم مِنهُ إلَّا وهُو يَنكُصُ على عَقِبَيْهِ، ويتَّقي بيَدَيْهِ، فقِيلَ لهُ: مَا لَكَ؟ قالَ: إن بَينِي وبَينَهُ خَندَقًا مِن نارٍ وهَولًا وأجنحَةً، قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَو دنَا مِنِّي لاختَطَفَتْهُ المَلائِكَةُ عُضوًا عُضوًا**».

وممَّا نالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنَ الأذَى: أنهُ كانَ يُصلِّي، وجماعَةٌ من قُريشٍ جُلوسٌ، وقَريبٌ منهُم سَلَى جَزُورٍ، فقَالُوا: مَن يأخذُ هذَا السَّلَى فيُلقِيهِ عَلى ظَهرِهِ؟ فقَالَ عُقبَةُ بنُ أبِي مُعيطٍ: أنَا، فأخذَهُ فألقَاهُ عَلى ظَهرِ النَّبيِّ ﷺ، فلمَّا فَعلُوا ذلكَ استَضحَكُوا حتى جعلَ بعضُهُم يَميلُ عَلى بعضٍ مِن شِدَّةِ الضَّحِكِ، فَلَم يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَاجدًا حتى جاءَتْ فَاطمَةُ فألقَتْهُ عَن ظَهرِهِ وسَبَّتْهُم، فلمَّا فرَغَ ﷺ مِن صَلاتِهِ رفَعَ يَدَيهِ يَدعُو عليهِم، فقَالَ: «**اللَّهُمَّ عَليكَ بهَذَا المَلأِ مِن قُريشٍ، اللهُمَّ عَليكَ بعُتبَةَ بنِ رَبيعَةَ، اللهُمَّ عَليكَ بشَيبَةَ بنِ رَبِيعَةَ، اللهُمَّ عَليكَ بِأبِي جَهلِ ابنِ هِشَامٍ، اللهُمَّ عَليكَ بعُقبَةَ بنِ أبِي مُعَيطٍ، اللهُمَّ عَليكَ بأُميَّةَ بنِ خَلَفٍ**»، فلمَّا رَأَوْا ذَلك سكنَ عنهُم الضحِكُ، وخَافُوا دعوَتَهُ.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مَسعُودٍ ﷺ: فلَقَد رَأيتُهُم قُتِلُوا يَومَ بَدرٍ جَميعًا، ثُم سُحِبُوا إلَى القَليبِ، غيرَ أميَّةَ فَإنَّهُ كانَ رَجُلًا ضَخمًا فتَقَطَّعَ.

وقَدِ اجتمَعَ كُبَراءُ قُريشٍ يَومًا في الحِجْرِ، فذكَرُوا رسولَ اللهِ ﷺ فقَالُوا: مَا رَأينَا مثلَ مَا صَبَرنَا عليهِ مِن هذَا الرجُلِ قطُّ، سَفَّهَ أحلامَنَا، وشتمَ آباءَنَا، وعابَ دِينَنَا، وفرَّقَ جمَاعتَنَا، وسَبَّ آلهَتَنَا، وصَبَرْنَا مِنهُ عَلى أمرٍ عَظيمٍ، فبَينَمَا هُم فِي

ذَلكَ إِذ طَلَعَ عَلَيهِم رَسُولُ اللهِ ﷺ فأقبَلَ يَمشِي حتَّى استَلَمَ الرُّكنَ، ثُم مَرَّ بِهِم طَائِفًا بالبَيتِ فغَمَزُوهُ ببَعضِ القَوْلِ، فعُرِفَ ذَلكَ فِي وَجهِ رسُولِ اللهِ ﷺ، فمَضَى، فلمَّا مرَّ بِهِم الثانِيَةَ غَمزُوهُ بمِثلِهَا، فمضَى، ثمَّ مرَّ الثالثةَ فغَمزُوهُ بمِثلِهَا، فقالَ: «**أتسمَعُونَ يَا مَعشرَ قُريشٍ، أمَا وَالذِي نفسِي بيدِهِ لقَد جِئتُكُم بالذَّبْحِ**».

فأخذَتِ القَوْمَ كَلِمَتُهُ حتَّى مَا منهُم مِن رجُلٍ إلَّا وكأنَّما عَلى رَأسِهِ طَائرٌ وَاقِعٌ، حتَّى إنَّ أشدَّهُم أذًى لهُ قَبلَ ذَلكَ ليتَلطَّفُ بِهِ، حتَّى إنهُ ليَقولُ: انصَرِفْ أبَا القَاسمِ راشِدًا فمَا كُنتَ بجَهُولٍ.

فانصرفَ رسُولُ اللهِ ﷺ، حتَّى إذا كانَ الغدُ اجتمَعُوا في الحِجرِ، فقَالَ بَعضُهُم لبَعضٍ: ذَكرتُم مَا بَلغَ مِنكُم ومَا بَلغَكُم عَنهُ، حتَّى إذَا بادَأَكُم بمَا تكرَهُونَ تَركتُمُوهُ، فبَينَمَا هُم عَلى ذَلكَ طَلَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فوَثَبُوا إلَيهِ وَثبَةَ رجُلٍ واحِدٍ، فأحَاطُوا بِهِ يقُولُونَ: أنتَ الذِي تقُولُ كذَا وكذَا؟ لمَا كانَ يَبلُغُهم مِن عَيبِ آلهتِهِم ودِينِهِم، فيَقُولُ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَم، أنَا الذِي أقُولُ ذَلكَ**»، وقَامَ رجلٌ منهُم فأخَذَ بمَجامعِ ردَائِهِ فخنَقَهُ خَنقًا شَديدًا، فأقبَلَ أبُو بَكرٍ ﵁ حتَّى أخذَ بمَنكِبِهِ ودَفعَهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ وهُو يَبكِي ويقُولُ: وَيلَكُم ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ**﴾ [غافر:٢٨]، فانصرَفُوا عَنهُ.

وفِي ذَلكَ يَقولُ ﷺ: «**لقَد أُخِفتُ في اللهِ ومَا يُخافُ أحَدٌ، ولقَد أُوذِيتُ في اللهِ ومَا يُؤذَى أحَدٌ، ولقَد أتَتْ عَليَّ ثلاثُونَ مِن بَينِ يَومٍ ولَيلَةٍ ومَا لِي وَلبِلالٍ طَعامٌ يَأكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إلا شَيءٌ يُوارِيهِ إبطُ بِلالٍ**»، يَعنِي: الشَّيءَ اليَسِيرَ.

وعلى الرَّغمِ ممَّا كانَ يتَعرَّضُ لهُ النَّبيُّ ﷺ مِن أنوَاعِ الأَذَى، إلَّا أنَّ اللهَ قَد

غَرسَ هيبَتَهُ في قُلوبِ المُشرِكِينَ، وأَيَّدَهُ بالآياتِ المُبهرَةِ التي تُثبِّتُ قَلبَهُ ويَزدادُ بِها يَقينُهُ، فقَد قدِمَ رجلٌ مِن إِرَاشٍ بإبلٍ لهُ إِلَى مكَّةَ، فاشتَرَاهَا منهُ أبو جَهلٍ فمَطلَهُ بأثمَانِهَا، فأقبَلَ الإرَاشِيُّ حتى وقَفَ على مُجتَمعِ قُريشٍ، ورسُولُ اللهِ ﷺ جالسٌ في نَاحيَةِ المَسجدِ، فقالَ: يا مَعشرَ قُريشٍ، هَل من رَجلٍ ينصُرنِي عَلى أبي الحَكمِ ابنِ هشَامٍ؟ فإنِّي غَريبٌ وابنُ سَبيلٍ، وقد غَلبنِي على حَقِّي.

فقالَ أهلُ المَجلسِ وهُم يهزَأون بهِ: أرَأيتَ ذلكَ الرجُلَ، وهُم يُشيرونَ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ: اذهَبْ إلَيهِ، فهُو يَنصُرُكَ عَليهِ، فأقبَلَ الإرَاشيُّ حتى وقَفَ على رَسُولِ اللهِ ﷺ فذكَرَ ذلكَ لهُ، فقامَ معَهُ، فلمَّا رَأوهُ قامَ معَهُ، قالُوا لرجُلٍ ممَّن معَهُم: اتبَعْهُ فانظُرْ ماذَا يَصنَعُ؟

فخرجَ رسُولُ اللهِ ﷺ حتَّى جاءَ إلى دَارِ أَبِي جَهلٍ، فضَربَ عَليهِ بَابَهُ، فقالَ: مَن هَذا؟ قالَ: «**مُحمَّدٌ، فَاخْرُج**»، فخرَجَ إلَيهِ ومَا في وَجههِ قطرَةُ دَمٍ، وقَد تغيَّرَ لونُهُ، فقَالَ: «**أَعطِ هذَا الرجُلَ حَقَّهُ**»، فقالَ: لا تَبرحْ حَتى أُعطِيَهُ الذِي لهُ، فدخلَ ثمَّ خرَجَ إلَيهِ بحَقِّهِ فدفَعَهُ إلَيهِ، ثُم انصرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وقالَ للإرَاشِيِّ: «**الحَقْ بشَأنِكَ**».

فأقبلَ الإراشيُّ حتى وقَفَ عَلى ذلكَ المَجلسِ، فقَالَ: جزَاهُ اللهُ خَيرًا، فقَد أخَذتُ الذِي لِي، وجاءَ الرجلُ الذِي بَعثُوا معَهُ، فقَالُوا: وَيحكَ! ماذَا رأيتَ؟ قالَ: عَجَبًا من العَجَبِ، واللهِ ما هُو إلا أن ضَربَ عَليهِ بابَهُ، فخَرجَ ومَا معَهُ رُوحُهُ، فقَالَ: أعطِ هذَا الرجلَ حقَّهُ، فقَال: نَعَم، لا تَبرحْ حتى أُخرِجَ إليهِ حقَّهُ، فدخَلَ فأخرَجَ إليهِ حقَّهُ فأعطَاهُ.

ثُم لَم يَلبَثُوا حتَّى جاءَ أَبُو جهلٍ فقَالُوا لهُ: وَيلَكَ! مَا لَكَ؟! فَواللهِ مَا رَأينَا مِثلَ مَا صَنعتَ؟ فقالَ: وَيحَكُم! واللهِ مَا هُو إلَّا أن ضَربَ عليَّ بابِي وسَمعتُ صوتَهُ، حتَّى مُلِئتُ رُعبًا، ثُم خَرجتُ إلَيهِ، وإنَّ فَوقَ رَأسِهِ فَحْلًا مِنَ الإبِلِ، مَا رَأيتُ مِثلَ هَامَتِهِ وَلَا أنيابِهِ لفَحلٍ قَطُّ، فَوَاللهِ لَو أَبَيْتُ لأَكَلَنِي.

وممَّا يَسَّرَ اللهُ لِرسُولِهِ ﷺ مِن أسبَابِ الحمَايَةِ عَمَّهُ أَبَا طَالبِ بنَ عَبدِ المُطَّلبِ، فقَد امتَحنَ اللهُ تَعالى قلبَ أَبِي طَالبٍ بِحُبِّ النبيِّ ﷺ، فكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أحبَّ خَلقِ اللهِ إلَيهِ، وكانَ يَحنُو عليهِ ويُحسِنُ إليهِ، ويُدافعُ عنهُ ويُحامِي، ويُخالِفُ قَومَهُ فِي ذَلكَ مع أنهُ عَلى دِينِهِم، وهذَا مِن حِكمَةِ اللهِ تَعَالى؛ لأنهُ لَو كَانَ أسلَمَ أَبُو طَالبٍ لمَا كانَ لهُ عندَ مُشرِكِي قُريشٍ وَجاهَةٌ وَلا كَلمَةٌ، ولَم يَكونُوا ليَهابُوهُ ويَحترِمُوهُ، ولاجترَأوا عليهِ، ومَدُّوا أيدِيَهُم وألسِنَتَهُم بِالسُّوءِ إليهِ.

وقد مشَى رجالٌ مِن أشرافِ قُريشٍ إلَى أَبِي طالبٍ فَقالُوا: يَا أَبَا طَالبٍ، إنَّ ابنَ أخِيكَ قَد سَبَّ آلهتَنَا، وعابَ دِينَنَا، وسَفَّهَ أحلامَنَا، وضَلَّلَ آباءَنَا، فإمَّا أن تكُفَّهُ عنَّا وإمَّا أن تُخلِيَ بَينَنَا وبَينَهُ، فإنَّكَ عَلى مثلِ مَا نحنُ عَليهِ مِن خِلافِهِ فنكفِيكَ إيَّاهُ، فقَالَ لهُم أَبُو طالبٍ قَولًا رَفِيقًا، ورَدَّهُم ردًّا جَميلًا، فانصَرَفُوا عَنهُ.

فلمَّا جاءَهُ رسولُ اللهِ ﷺ، قَالَ لَهُ: يَا ابنَ أخِي، إنَّ قومَكَ قَد جَاءُونِي وزَعمُوا أنكَ تُؤذِيهِم فِي مجَالِسِهم، وأنَّكَ تَقولُ كذَا وكَذَا، فأَبْقِ عَليَّ وعَلى نَفسِكَ، ولا تُحمِّلْنِي مِنَ الأمرِ مَا لَا أُطِيقُ أَنَا وَلا أنتَ، فاكفُفْ عَن قَومِكَ مَا يَكرَهُونَ مِن قَولِكَ، فظَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ قَد بَدَا لعَمِّهِ فِيهِ مَا بَدَا، وأنهُ خَاذِلُهُ، وضَعُفَ عنِ القِيَامِ معَهُ، فاستَعبَرَ رسُولُ اللهِ ﷺ ثمَّ بَكى، فلما أدبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ورَأى منهُ

أبُو طالبٍ مَا رَأى، نَاداهُ فقَالَ: يَا ابنَ أخِي، امضِ عَلى أمرِكَ، وافعَلْ مَا أحبَبتَ، فوَاللهِ لا أُسلِمُكَ لشَيءٍ أبَدًا، وقال أبُو طالبٍ في ذَلكَ:

وَاللَّـهِ لَـنْ يَـصِلُوا إِلَـيْكَ بِجَمْعِهِـمْ ... حَتَّـى أُوَسَّـدَ فِـي التُّـرَابِ دَفِيـنَا

فَـامْضِ لأَمْـرِكَ مَـا عَلَـيكَ غَـضَاضَةٌ ... أَبْـشِرْ وَقَـرَّ بِـذَاكَ مِـنكَ عُـيُونَا

ودَعَوتَنِـي وعَلِمْـتُ أَنَّـكَ نَاصِـحِي ... فلَقَـدْ صَـدقْتَ وَكُـنتَ ثَـمَّ أَمِيـنَا

وعَرَضْـتَ دِيـنًا قَـد عَـرَفْتُ بِأَنَّـهُ ... مِـنْ خَيـرِ أَدْيَـانِ البَـرِيَّةِ دِيـنَا

لَـوْلا المَلَامَـةُ أَو حَـذَارِ مَـسَبَّةٍ ... لَوجَدْتَنِـي سَـمْحًا بِـذَاكَ مُبِيـنَا

ومَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلى مَا هُوَ عَليهِ، يُظهِرُ دِينَ اللهِ ويَدعُو إلَيهِ.

فلمَّا رَأتْ قُريشٌ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لا يَستَجِيبُ إلَى شَيءٍ ممَّا أنكَرُوهُ عَليهِ مِن فِراقِهِم، وعَيْبِ آلهَتِهِم، وانتشَارِ أمرِهِ ﷺ بينَ الناسِ، ورَأَوا أنَّ عمَّهُ أبَا طَالبٍ قَد تحَامَى لهُ وقَامَ دُونَهُ، فحِينئذٍ أكثَرُوا ذِكرَ رسولِ اللهِ ﷺ بَينَهُم، وازدادَ حِقدُهُم وضَغِينَتُهُم عَليهِ، ثم تآمَرُوا فيمَا بَينَهُم، ومَشَوا إلى أبِي طَالبٍ مَرَّةً أُخرَى، فقالُوا: يَا أبَا طالبٍ، إنَّ لكَ سِنًّا وشَرفًا ومنزلَةً فينَا، وإنَّا قَد استنهينَاكَ مِن ابنِ أخِيكَ، فلَم تَنهَهُ عنَّا، وإنَّا واللهِ لا نَصبرُ على هَذا، مِن شَتْمِ آبائِنَا، وتَسفِيهِ أحْلامِنَا، وعَيبِ آلهَتِنَا، حتَّى تَكُفَّهُ عنَّا أو نُنازِلَهُ وإيَّاك في ذَلكَ حتَّى يَهلِكَ أحدُ الفَرِيقَيْنِ.

وقالُوا لهُ: يَا أبَا طالبٍ، هَذا عمَارَةُ بنُ الوَليدِ أشَدُّ فتًى فِي قُريشٍ وأجمَلُهُ، فخُذْهُ، فلكَ عَقلُهُ ونَصرُهُ، واتخِذْهُ وَلَدًا فهُوَ لَكَ، وأسلِمْ إلينَا ابنَ أخِيكَ هذَا الذِي قَد خالفَ دينَكَ ودِينَ آبَائِكَ، وفرَّقَ جماعَةَ قَومِكَ، وسَفَّهَ أحلامَهَا، فنقتُلَهُ، فإنَّمَا هُو رجلٌ برَجُلٍ.

فقالَ: لبِئسَ مَا تَسومُونَنِي واللهِ، أتُعطونَنِي ابنكُم أغذُوهُ لَكُم، وأُعطِيكُم ابنِي تقتُلُونَهُ؟! هذَا واللهِ مَا لا يَكُونَ أبَدًا.

فقالَ المُطعِمُ بنُ عَدِيٍّ: واللهِ يَا أبَا طالبٍ لقَد أنصفَكَ قَومُكَ، وجَهِدُوا عَلى التخلُّصِ ممَّا تَكرَهُ، فمَا أراكَ تُريدُ أنْ تَقبلَ مِنهُم شَيئًا.

فقالَ أبُو طالبٍ للمُطعِمِ: واللهِ مَا أنصفُونِي، ولكنَّكَ قَد أجمَعتَ خِذلَانِي، ومظاهَرَةَ القَومِ عَليَّ، فاصنَعْ مَا بَدَا لَكَ.

ثم انصَرَفُوا عنهُ وقَد عَلِمُوا أنَّ أبا طالبٍ لَم يَطِبْ نَفسًا بتَسليمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهُم ولا خِذلَانِهِ، وقَد أجمَعَ عَلى فِراقِهِم في ذَلكَ وعَدَاوَتِهِم.

فاشتَدَّ الأمرُ، وحَمِيَتِ الحَربُ، وتنَابَذَ القَومُ، فقالَ أبُو طَالبٍ فِي ذَلِكَ:

وَلَمَّا رَأيْتُ القَوْمَ لا وُدَّ فِيهِمُ ... وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَى وَالوَسَائِلِ

وَقَدْ صَارَحُونَا بِالعَدَاوَةِ وَالأذَى ... وَقَدْ طَاوَعُوا أَمْرَ العَدُوِّ المُزَايِلِ

وَقَدْ حَالَفُوا قَوْمًا عَلَيْنَا أَظِنَّةً ... يَعَضُّونَ غَيْظًا خَلفَنَا بِالأنَامِلِ

صَبَرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمْرَاءَ سَمْحَةٍ ... وَأَبْيَضَ عَضْبٍ مِنْ تُرَاثِ المَقَاوِلِ

وأَحْضَرْتُ عِندَ البَيْتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي ... وَأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالوَصَائِلِ

أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ ... عَلَيْنَا بِسُوءٍ أَوْ مُلِحٍّ بِبَاطِلِ

وَمِنْ كَاشِحٍ يَسْعَى لَنَا بمَعِيبَةٍ ... وَمِنْ مُلحِقٍ فِي الدِّينِ مَا لَم نُحَاوِلِ

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ نَتْرُكُ مَكَّةً ... وَنَظْعَنُ إِلَّا أَمرُكُمْ فِي بَلَابِلِ

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ نُبْزَى مُحَمَّدًا ... وَلَمَّا نُطَاعِنْ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ

وَنُسلِمُهُ حَتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ   وَنَذْهَلَ عَنْ أبنائِنَا وَالحَلَائِلِ
ومَا تَرْكُ قَومٍ لا أَبَا لَكَ سَيِّدًا   يَحُوطُ الذِّمَارَ غَيرَ ذَرْبٍ مُوَاكِلِ
وَأبْيَضَ يُستَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ   ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ للأَرَامِلِ
يَلُوذُ بِهِ الهُلَّاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ   فَهُمْ عِندَهُ فِي رَحمَةٍ وَفَوَاضِلِ
لَعَمْرِي لَقَدْ كُلِّفْتُ وَجْدًا بِأَحْمَدٍ   وَإِخوَتِهِ دَأبَ المُحِبِّ المُوَاصِلِ
فَمَنْ مِثلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤَمَّلٍ   إِذَا قَاسَهُ الحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضُلِ

وحينَ رَأتْ قُريشٌ ذلكَ حرَّضُوا مَن عندَهُم منَ القبائلِ على مَن أسلَمَ مِنهُم واتَّبعَ رسولَ اللهِ ﷺ، ليَمسُّوهُم بأنواعِ العذابِ والأذَى، فوثبَتْ كلُّ قبيلَةٍ على مَن فيهَا ممَّن استَضعفُوهُ منَ المُسلمينَ، فجعَلُوا يَحبسُونَهُم ويُعذبونَهُم بالضربِ والجُوعِ والعَطشِ، ويَسحبونَهُم برَمضاءِ مكةَ إذا اشتَدَّ الحَرُّ ليَفتنوهُم عَن دِينِهم، فمِنهُم مَن يُفتَنُ مِن شدَّةِ البلاءِ الذي يُصيبُهُم، ومنهُم مَن يَقوَى على ما يُذيقُونَهُ مِن أنواعِ الأذَى ويَعصمُهُ اللهُ مِنهُم، فقَد كانَ أميَّةُ بنُ خَلَفٍ يَخرُجُ ببلالِ بنِ ربَاحٍ رضي الله عنه إذَا حَمِيَتِ الظهيرَةُ، ثم يأمُرُ بالصَّخرَةِ العظيمَةِ فتُوضَعُ على صَدرِهِ، ثُم يقولُ لهُ: واللهِ لا تَزالُ هكذَا حتى تموتَ أو تكفُرَ بمُحمدٍ وتَعبُدَ اللاتَ والعُزَّى، فيقولُ وهُو في تِلكَ الحالِ: أَحَدٌ أَحَدٌ.

فمَرَّ بهِ أبُو بَكرٍ رضي الله عنه وهُو يُعذَّبُ، فاشتَراهُ مِن أميَّةَ بنِ خَلفٍ فأعتَقَهُ وأراحَهُ مِنَ العَذابِ.

وكانَ أبُو بكرٍ الصَّديقُ رضي الله عنه كُلَّما مرَّ بأحدٍ يُعذَّبُ ممَّن أسلَمَ مِنَ العَبيدِ والإمَاءِ

اشتَرَاهُ فأعتَقَهُ، حتَّى اشتَرَى جماعَةً كبيرَةً مِنهُم، فقالَ لهُ أبُوهُ أبُو قُحافَةَ: يَا بُنَيَّ، إنِّي أراكَ تُعتِقُ ضِعَافًا، فلَو أنَّكَ إذ فَعلتَ مَا فَعلتَ أعتَقْتَ رجَالًا جُلدَاءَ يَمنَعُونَكَ ويَقُومُونَ دُونَكَ، فقالَ أبُو بَكرٍ: يَا أبتِ، إنِّي إنَّما أريدُ مَا أريدُ، فأنزَلَ اللهُ تعَالَى فِيهِ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٧-٢١].

وكانَ بنُو مَخزُومٍ يَخرُجُونَ بعَمَّارِ بنِ يَاسرٍ وأبيهِ وأمِّهِ إذَا حَمِيَتِ الظَّهيرَةُ فيُعذِّبونَهُم برَمضَاءِ مَكَّةَ، فيَمُرُّ بِهِم رَسُولُ اللهِ ﷺ فيَقُولُ: «**صَبرًا آلَ يَاسِرٍ، مَوعِدُكُمُ الجَنَّةُ**»، وكانَت سُميَّةُ أمُّ عمَّارٍ أولَ شَهيدٍ في الإسلامِ، طَعنَهَا أبُو جَهلٍ بِحرْبَةٍ فقَتَلَهَا.

وسُئلَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أكانَ المُشرِكونَ يَبلُغونَ مِن أصحَابِ رسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ العذَابِ مَا يُعذَرُونَ بهِ في تَرْكِ دِينِهِم؟ قالَ: «نَعَم واللهِ، إنْ كانُوا ليَضرِبُونَ أحدَهُم ويُجيعونَهُ ويُعطِّشُونَهُ، حتى مَا يقدِرُ أن يَستويَ جَالِسًا مِن شدَّةِ الضُّرِّ الذِي بِهِ، حتَّى يُعطِيَهم مَا سألوهُ مِن الفِتنةِ، حتى يقولُوا لهُ: اللاتُ والعُزَّى إلَهُكَ مِن دونِ اللهِ؟ فيقولُ: نَعَم، افتدَاءً مِنهُم ممَّا يَبلغُونَ مِن جَهدِهِم»، وفي مثلِ هؤُلاءِ أنزلَ اللهُ تعَالى قَولَهُ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:١٠٦]، فهؤلاءِ كانُوا مَعذُورينَ بمَا حصَلَ لَهُم مِنَ الإهانَةِ والعَذابِ الشَّديدِ.

وكانَ خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ رضي الله عنه يعمَلُ حَدَّادًا بمكَّةَ، فصنَعَ للعاصِ بنِ وَائلٍ سَيفًا،

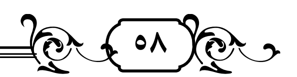
فجاءَ ليتقَاضَاهُ، فقَالَ: لا وَاللهِ، لا أقضِيكَ حتَّى تكفُرَ بمُحمَّدٍ.

فقالَ خبَّابٌ: لا واللهِ لا أكفُرُ بمُحمدٍ حتى تمُوتَ ثُم تُبعثُ، فقالَ العاصُ ابنُ وائلٍ: فإنِّي إذَا أنَا مِتُّ ثُمَّ بُعثتُ جِئتَنِي ولِي ثَمَّ مالٌ ووَلدٌ فَأعطِيكَ، فأنزَلَ اللهُ تعَالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:٧٧-٨٠].

وفي ذلكَ يقولُ خبَّابٌ رضي الله عنه: أتَيتُ النبيَّ ﷺ وهُو مُتوسِّدٌ بِبُردَةٍ وهُو في ظِلِّ الكعبَةِ، وقَد لقِينَا منَ المُشركينَ شدَّةً، فقُلتُ: ألا تَدعُو اللهَ؟

فقعدَ وهُو مُحمَرُّ الوَجهِ فقَالَ: **«قَد كانَ مَن كانَ قَبلَكُم ليُمشَّطُ بِأمشَاطِ الحَديدِ مَا دُونَ عِظامِهِ مِن لَحمٍ أَو عَصبٍ، مَا يَصرفُهُ ذَلكَ عَن دِينِهِ، ويُوضَعُ المِنشارُ عَلى مَفرِقِ رَأسِهِ فيُشقُّ باثنَتَينِ، مَا يَصرِفُهُ ذَلكَ عَن دِينِهِ، ولَيُتِمَّنَّ اللهُ هذَا الأَمرَ حتَّى يَسيرَ الراكِبُ مِن صَنعاءَ إلَى حَضرَمَوْتَ، مَا يخَافُ إلَّا اللهَ عز وجل، والذِّئبَ عَلى غَنَمِهِ، ولكِنَّكُم تَستَعجِلُونَ»**.

❊ ❊ ❊



(٦) مُجادلَةُ المُشركِينَ للنَّبيِّ ﷺ بالشُّبهَاتِ، والهِجرَةُ إلَى الحبَشَةِ

لمَّا يئسَ المُشركونَ مِن بلوغِ أذيَّةِ النبيِّ ﷺ، وحالَ اللهُ ﷻ بينَهُم وبينَ ذلكَ ممَّا يَسَّرَهُ اللهُ لهُ مِن أسبَابِ الحمَايَةِ، عمَدُوا إلى اتِّباعِ الشبهَاتِ والمجَادلَةِ بالباطلِ، مِن بَعدِ ما تبيَّنَ لهُم الحقُّ واستقرَّ في أنفُسِهم، وإن أظهَرُوا المخَالفَةَ عِنادًا وحَسدًا وبَغيًا وجُحُودًا، ومِن ذلكَ قولُ الوليدِ بنِ المُغيرَةِ: أيُنزَّلُ على مُحمدٍ، وأُترَكُ وأنَا كَبيرُ قُريشٍ وسَيِّدُهَا، ويُترَكُ عَمرُو بنُ عُمَيرٍ الثَّقفِيُّ سيدُ ثَقيفٍ؟! فنَحنُ عظيمَا القَريَتَيْنِ، فنزلَ فيهِ قولُ اللهِ تعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣١-٣٢].

ومشَى أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ بِعظْمٍ بالٍ قَد أرِمَ، فقالَ: يَا محمدُ، أنتَ تَزعُمُ أنَّ اللهَ يَبعثُ هذا بعدَ ما أرِمَ؟! ثُمَّ فتَّهُ بيدِهِ، ثم نَفخَهُ في الرِّيحِ نَحوَ رسُولِ اللهِ ﷺ، فقَالَ: «**نَعَم، يَبعثُهُ اللهُ وإيَّاكَ بعدَمَا تكونَانِ هَكذَا، ثُمَّ يُدخِلُكَ النَّارَ**»، وأنزلَ اللهُ تَعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٨-٨٨].

وقَد قالَتْ قريشٌ للنبيِّ ﷺ: ادعُ لنَا ربَّكَ يَجعَلْ لنَا الصَّفَا ذَهبًا ونُؤمِنُ بِكَ، قالَ: «**وتَفعَلُونَ؟**»، قالُوا: نَعَم، فدعَا، فأتاهُ جبريلُ فقالَ: إنَّ ربَّكَ يَقرأُ عَليكَ السلامَ، ويقولُ لكَ: إن شِئتَ أصبَحَ الصفَا لَهُم ذَهبًا، فمَن كفَرَ مِنهُم بعد ذَلكَ عَذَّبتُهُ عَذَابًا لا أُعذِّبُهُ أحدًا من العَالمينَ، وإن شِئتَ فَتحتُ لهُم بابَ الرَّحمَةِ والتَّوبَةِ، قالَ: «**بَل التَّوبَةُ والرَّحمَةُ**».

وجاءَ الوَليدُ بن المُغيرةِ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ فقرَأَ عليهِ القُرآنَ، فكأنَّهُ رقَّ لهُ، فبلغَ ذلكَ أبَا جَهلٍ فأتاهُ، فقَالَ: يَا عمِّ، إنَّ قومَكَ يُريدونَ أن يَجمعُوا لكَ مالًا، قالَ: لِمَ؟ قالَ: ليُعطوكَ إيَّاهُ، فإنكَ أتَيتَ مُحمدًا لتَعرضَ لمَا قَبلَهُ، قالَ: قَد علمَتْ قُريشٌ أنِّي أكثَرُهَا مالًا، قالَ: فقُل فيهِ قَولًا يعرِفُ منهُ قَومُكَ أنكَ مُنكِرٌ لهُ، قالَ: وماذَا أقُولُ؟ فواللهِ ما منكُم رجُلٌ أعلَمُ بالأشعارِ منِّي، ولا أعلَمُ برَجَزِهِ ولا بقَصيدِهِ منِّي، ولا بأشعَارِ الجنِّ، واللهِ ما يُشبِهُ الذي يقولُ شَيئًا مِن هَذا، وواللهِ إن لقَولِهِ الذِي يقُولُهُ حَلاوَةً، وإنَّ عَليهِ لطَلاوَةً -أي: رَوْنقًا وحُسنًا-، وإنه لمُثمرٌ أعلَاهُ، مُغدِقٌ أسفَلُهُ، وإنهُ ليَعلُو ولا يُعلَى عَليهِ، وإنهُ ليَحطِمُ مَا تَحتَهُ.

قالَ: لا يرضَى عنكَ قَومُكَ حتَّى تقُولَ فيهِ، قالَ: فدَعنِي حتى أفكِّرَ فِيهِ، فلمَّا فكَّرَ قالَ: هذَا سحرٌ يُؤثَرُ، يأخذُهُ عَن غَيرِهِ، فأنزلَ اللهُ تَعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر:١١-٢٩].

ولمَّا حَضَرَ المَوسمُ اجتمَعَ الوليدُ بنُ المُغيرةِ ونفَرٌ مِن قريشٍ، وكانَ ذَا سنٍّ فِيهِم، فقالَ: إنَّ وفودَ العَربِ ستَقدمُ عَليكُم فيهِ، وقد سَمعُوا بأمرِ صَاحِبِكُم هذَا، فأجمِعُوا فيهِ رأيًا وَاحدًا، ولا تَختلِفُوا فيُكذِّبَ بَعضُكُم بَعضًا، ويَرُدَّ بَعضُكُم قولَ بَعضٍ.

فقالُوا: نقُولُ: كاهِنٌ، فقالَ: مَا هُو بكَاهِنٍ، فقَد رأيتُ الكهَّانَ، فمَا هُو بزَمزَمَةِ الكُهَّانِ، قالُوا: نقُولُ: مَجنونٌ، قالَ: ما هو بمَجنونٍ، ولقَد رَأينَا الجُنونَ وعَرفنَاه، فما هو بخَنقِهِ ولا وَسوسَتِهِ، قالُوا: فنَقُولُ: شاعرٌ، قالَ: مَا هُو بشَاعرٍ، قد عَرفْنَا الشِّعرَ برَجَزِهِ، وهَزَجِهِ، وقَريضِهِ، ومَقبُوضِهِ، ومبسُوطِهِ، فمَا هُو بالشِّعرِ، قالُوا: فنقُولُ: ساحرٌ، قال: مَا هُو بسَاحرٍ، قَد رأينَا السحَّارَ وسِحرَهُم، فمَا هو بنفثِهِ، ولا بعُقَدِهِ.

قالُوا: فمَا نقُولُ يَا أبَا عبدِ شَمسٍ؟ قالَ: واللهِ إنَّ لقَولِهِ لحَلاوَةً، وإنَّ أصلَهُ لمُغدِقٌ، وإنَّ فَرعَهُ لجَنِيٌّ، فمَا أنتُم بقَائلينَ مِن هَذا شَيئًا إلا عُرِفَ أنهُ بَاطلٌ، وإنَّ أقربَ القولِ أنْ تقُولُوا: هو سَاحرٌ، يُفرِّقُ بينَ المَرءِ وأبيهِ، وبينَ المَرءِ وزَوجِهِ، وبينَ المَرءِ وأخيهِ، وبينَ المَرءِ وعشِيرَتِهِ.

فتفرَّقُوا عنهُ بذَلكَ، وجعَلُوا يَجلسُونَ للناسِ حينَ قَدمُوا المَوسِمَ، لا يمُرُّ بهِم نفرٌ إلا حذَّرُوهُم إياهُ، وذكَرُوا لهُم أمرَهُ، فأنزلَ اللهُ فِيهِم قَولَهُ تعَالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩١-٩٣].

واجتمَعَت قُريشٌ يَومًا فقالُوا: انظُروا أعلَمَكُم بالسِّحرِ والكهَانَةِ والشِّعرِ،

فلْيَأتِ هذا الرجُلُ الذِي فرَّقَ جماعَتَنَا، وشتَّتَ أمرَنَا، وعابَ دِينَنَا، فليُكلِّمْهُ ولينظُرْ ماذَا يَرُدُّ عليهِ، فقَالُوا: ما نعلَمُ أحدًا غيرَ عُتبَةَ بنِ رَبيعةَ، فقَالُوا: أنتَ يَا أبَا الوَليدِ.

فأتاهُ عُتبَةُ فقَالَ: يَا مُحمَّدُ، أنتَ خيرٌ أم عَبدُ اللهِ؟ فسَكتَ رسُولُ اللهِ ﷺ، فقَالَ: أنتَ خَيرٌ أم عَبدُ المُطلبِ؟ فسَكتَ رسُولُ اللهِ ﷺ، فقالَ: إن كُنتَ تزعُمُ أنَّ هؤلاءِ خَيرٌ منكَ، فقَد عَبدُوا الآلِهَةَ التي عِبْتَ، وإن كُنتَ تَزعُمُ أنكَ خَيرٌ مِنهُم فتكَلَّم حتَّى نَسمَعَ قولَكَ، إنَّا وَاللهِ مَا رَأينَا رَجُلًا قطُّ أشأمَ عَلى قَومِهِ مِنكَ، فرَّقتَ جَماعَتَنَا، وشتَّتَّ أمرَنَا، وعِبتَ دِينَنَا، وفَضحتَنَا في العَربِ، حتَّى لقَد طَارَ فِيهِم أنَّ في قُريشٍ سَاحرًا، وأنَّ في قُريشٍ كَاهنًا، واللهِ مَا ننتظِرُ إلا مِثلَ صَيحَةِ الحُبلَى، أن يقُومَ بَعضُنَا إلى بَعضٍ بالسُّيوفِ حتَّى نتَفَانَى.

يا ابنَ أخِي، إن كُنتَ إنمَا تريدُ بمَا جِئتَ بهِ مِن هذَا الأمرِ مالًا جَمعنَا لكَ من أموَالنَا حتى تكُونَ أكثرَنَا مَالًا، وإن كُنتَ تُريدُ بهِ شَرفًا سَوَّدنَاكَ عَلينَا حتَّى لا نَقطعَ أمرًا دُونَكَ، وإن كُنتَ تُريدُ بهِ مُلكًا ملَّكنَاكَ عَلينَا، وإن كُنتَ تُريدُ زَوجَةً فاختَرْ أيَّ نسَاءِ قريشٍ شِئتَ، فنُزوِّجَكَ عَشرًا، وإنْ كانَ هذَا الذِي يَأتيكَ رِئيًا تَراهُ، لا تَستطيعُ رَدَّهُ عَن نفسِكَ طَلبْنَا لكَ الطبَّ، وبَذَلنَا فيهِ أموَالَنَا، حتى نُبْرِئَكَ منهُ، فإنهُ ربَّمَا غَلبَ التابعُ على الرجُلِ حتَّى يُداوَى مِنهُ.

حتَّى إذَا فرغَ عُتبَةُ ورَسُولُ اللهِ ﷺ يَستَمِعُ منهُ، قالَ لهُ النبيُّ ﷺ: «**أفرَغتَ يَا أبَا الوَليدِ؟**»، قالَ: نَعَم، قالَ: «**فَاسمَعْ مِنِّي**»، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [فصلت:١-٣]، فمضَى رسُولُ اللهِ ﷺ يَقرَؤُها، فلمَّا سمعَهَا عُتبةُ

أنصَتَ لهَا، وألقَى بيدَيهِ خَلفَ ظَهرِهِ مُعتَمِدًا عَليهمَا، حتى انتهَى رسولُ اللهِ ﷺ إلَى قولِهِ تعَالى: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت:١٣]، فأمسَكَ عُتبةُ عَلى فِيهِ، وناشَدَهُ الرَّحِمَ أن يَكُفَّ عنهُ، ثُمَّ رجَعَ إلَى أصحَابِهِ، فقالَ بَعضُهُم لبَعضٍ: نَحلفُ بِاللهِ، لقَد جاءَكُم أبُو الوليدِ بغَيرِ الوَجهِ الذي ذهبَ بهِ.

فلمَّا جلَسُوا إلَيهِ، قالُوا: ما ورَاءَك يا أبَا الوَليدِ؟ قالَ: ورَائِي أنِّي واللهِ قَد سَمعتُ قولًا ما سَمعِتُ مثلَهُ قَطُّ، واللهِ مَا هُو بالشِّعرِ، ولا الكهَانَةِ، وقصَّ عَليهِم القصَّةَ، وقالَ: فلمَّا بلغَ مُحمَّدٌ: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾، أمسَكتُ بفِيهِ، ونَاشدْتُهُ الرَّحمَ أن يَكُفَّ، وقَد عَلمتُم أن مُحمَّدًا إذا قالَ شَيئًا لم يَكذِب، فخِفتُ أن ينزِلَ عَليكُمُ العذَابُ.

يا مَعشرَ قُريشٍ، أطيعُونِي واجعَلُوهَا بِي، خَلُّوا بينَ هَذا الرجلِ وبَينَ مَا هُو فِيهِ واعتَزِلُوهُ، فواللهِ ليَكُونَنَّ لقَولِهِ الذي سَمعتُ نَبأً، فإنْ تُصبْهُ العربُ فقَد كُفِيتُمُوهُ بغَيرِكُم، وإن يَظهَرْ عَلى العربِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُم، وعِزُّهُ عِزُّكُم، وكُنتُم أسعَدَ الناسِ بِهِ، قالُوا: سَحرَكَ واللهِ يا أبَا الوَليدِ بلِسانِهِ، قالَ: هذَا رَأيي لكُم، فاصنَعُوا مَا بَدَا لَكُم.

فقالَ أبُو جَهلٍ: يَا مَعشرَ قُريشٍ، واللهِ مَا نَرَى عُتبَةَ إلا صَبَأَ إلى مُحمَّدٍ، وأعجبَهُ طعَامُهُ، ومَا ذَاكَ إلا مِن حَاجَةٍ أصَابَتْهُ، انطَلِقُوا بنَا إلَيهِ.

فأَتَوْهُ، فقالَ أبُو جهلٍ: واللهِ يا عُتبَةُ مَا جاءَ بنَا إلا أنكَ صَبوتَ إلَى مُحمدٍ، وأعجبَكَ أمرُهُ، فإن كانَ بكَ حَاجَةٌ جمَعنَا لكَ مِن أموَالِنَا ما يُغنِيكَ عَن طعامِ مُحمدٍ، فغضِبَ وقَالَ: لقَد عَلمتُم أنِّي مِن أكثرِ قُريشٍ مَالًا، وأقسَمَ بِاللهِ لا يُكَلِّمُ مُحمدًا أبَدًا.

وأَتَى الأَخنَسُ بنُ شَرِيقٍ إلى أَبِي جهلٍ فدخَلَ عَليهِ بَيتَهُ، فقَالَ: يَا أَبَا الحَكَمِ، مَا رأْيُكَ فِيمَا سَمعتَ مِن مُحمَّدٍ؟ فقَالَ: ماذَا سَمعتُ؟! تنَازَعْنَا نَحنُ وبنُو عَبدِ منَافٍ الشرفَ، أطعَمُوا فأطعَمْنَا، وحمَلُوا فحَمَلنَا، وأعطَوْا فأعطَيْنَا، حتَّى إذَا تجَاثَيْنَا عَلى الرُّكَبِ، وكنَّا كفَرَسَي رِهَانٍ، قَالُوا: منَّا نَبيٌّ يأتِيهِ الوَحيُ مِنَ السَّماءِ، فمَتَى نُدركُ هذِهِ؟ واللهِ لا نَسمعُ بِهِ أبَدًا، ولا نُصدِّقُهُ.

وفِي سنَةِ خَمسٍ مِنَ البَعثَةِ، كانَت هِجرَةُ مَن هَاجَرَ مِن أصحَابِ رسُولِ اللهِ ﷺ مِن مكَّةَ إِلَى أرضِ الحَبشَةِ، وكانُوا اثنَيْنِ وثمَانِينَ رَجُلًا، سِوَى نسَائِهِم وأبنَائِهِم.

وذلكَ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ لمَّا رَأى مَا يُصيبُ أصحَابَهُ مِنَ البَلاءِ، وأنهُ لا يَقدِرُ عَلى أن يَحمِيَهُم ممَّا هُم فِيهِ مِنَ المَشقَّةِ والأذَى، قالَ لَهُم: «**لَو خَرجتُم إِلَى أَرضِ الحَبشَةِ، فإِنَّ بهَا مَلِكًا لا يُظلَمُ عِندَهُ أحدٌ، وهِيَ أرضُ صِدقٍ، حتَّى يَجعَلَ اللهُ لَكُم فَرَجًا ممَّا أنتُم فِيهِ**».

فخَرَجَ عِندَ ذلكَ المُسلمونَ مِن أصحَابِ رسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى أرضِ الحَبشَةِ، مخَافَةَ الفِتنَةِ، وفرارًا إِلَى اللهِ بدِينِهِم، فكَانَت أولَ هِجرَةٍ في الإِسلامِ.

فلمَّا قَدِمُوا على النجَاشِيِّ، وجَدُوا عَمرَو بنَ العَاصِ وعبدَ اللهِ بنَ أَبِي رَبيعَةَ قَد سبَقُوهُم إلى النجَاشِيِّ، ليُحَرِّضُوهُ عَليهِم فيَرُدَّهُم مَعهُم إلى مكةَ، فقالَ جعفَرُ ابنُ أَبِي طالبٍ رضي الله عنه: لا يتكَلَّمُ مِنكُم أحَدٌ، أنَا خَطِيبُكُم اليَومَ، فلمَّا دَخلُوا على النجَاشِيِّ سَألَهُم عمَّا جاءَ بِهِم، فقالَ لَهُ جَعفَرٌ رضي الله عنه: «إنَّ الله بعَثَ فِينَا رسُولًا، وهُو الرسولُ الذِي بَشَّرَ بِهِ عيسَى بنُ مَريمَ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-، فدعَانَا إلى اللهِ، وأمرَنَا أن نَعبُدَ اللهَ وحدَهُ ولا نُشرِكَ بِهِ شَيئًا، ونَخلَعَ مَا كُنَّا نَعبدُ نَحنُ وآباؤُنَا مِن

دُونِهِ منَ الحجَارَةِ والأوثَانِ، ونُقيمَ الصلاةَ، ونُؤتِي الزكَاةَ، وأمرَنَا بصِدقِ الحديثِ، وأداءِ الأمانَةِ، وصِلةِ الرحِمِ، وحُسنِ الجوَارِ، والكفِّ عَنِ المَحارمِ والدمَاءِ، ونَهانا عن الفوَاحشِ، وقولِ الزُّورِ، وأكلِ مالِ اليَتيمِ، وقَذفِ المُحصَنَةِ، فصدَّقنَاهُ وآمَنَّا بِهِ، واتَّبعنَاهُ على مَا جاءَ بِهِ مِن عندِ اللهِ، فعَبَدنَا اللهَ وَحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ولَم نُشرِكْ بِهِ شَيئًا، وحَرَّمْنَا ما حَرَّمَ عَلينَا، وأحلَلْنَا مَا أحلَّ لنَا، فعَدَا عَلينَا قَومُنَا فعذَّبُونَا وفتَنُونَا عَن دِينِنَا، ليَرُدُّونَا إلى عبَادَةِ الأوثَانِ مِن عبَادَةِ اللهِ، وأنْ نَستَحِلَّ مَا كُنَّا نَستحِلُّ مِنَ الخبائِثِ، فلمَّا قهَرُونَا وظلَمُونَا، وضَيَّقُوا عَلينَا، وحالُوا بينَنَا وبينَ دِينِنَا، خرَجنَا إلى بلادِكَ، واختَرْنَاكَ على مَن سِواكَ، ورغِبنَا في جوَارِكَ، ورجَوْنَا ألا نُظلَمَ عِندَكَ أيهَا المَلِكُ».

فقالَ النجاشيُّ: هَل معكَ شيءٌ ممَّا جاءَ بِهِ؟ وقَد دعَا أساقِفَتَهُ فأمرَهُم فنشَرُوا المصَاحفَ حولَهُ، فقالَ لهُ جَعفرٌ: نَعَم، فقرَأَ عَليهِ صَدرًا مِن سُورةِ مَريمَ، فبكَى النجاشيُّ حتَّى اخضَلَّتْ لِحيَتُهُ، وبكَتْ أساقِفَتُهُ حتَّى أخضَلُوا مصَاحِفَهُم، ثمَّ قالَ: إنَّ هذَا الكلامَ ليَخرُجُ مِن المِشكاةِ التي جاءَ بِها موسَى، انطلِقُوا رَاشِدِينَ، لا واللهِ لا أرُدُّكُم عَليهِم.

فخرَجُوا مِن عِندِهِ، فقالَ عَمرُو بنُ العاصِ: واللهِ لآتيَنَّهُ غَدًا بمَا أستَأصَلُ بِهِ خضرَاءَهُم، ولأخبِرَنَّهُ أنَّهُم يَزعُمُونَ أن إلَهَهُ عِيسَى بنَ مَريمَ الذِي يَعبُدُهُ عَبدٌ، فقَالَ لَهُ عبدُ اللهِ بنُ أبِي رَبِيعَةَ: لا تَفعَلْ، فإنَّهُم وإن كَانُوا خَالَفُونَا فإنَّ لَهُم رَحِمًا ولَهُم حقًّا، فقالَ: واللهِ لأفعَلَنَّ.

فلما كانَ الغدُ دخَلَ عَليهِ، فقالَ: أيهَا المَلِكُ، إنَّهم يقولُونَ في عِيسَى قولًا

عَظيمًا، فأرسِلْ إلَيهِم فسَلْهُم عَنهُ، فبَعثَ إلَيهِم، فَلَم يَنزِلْ بجَعفَرٍ ومَن معَهُ مُصيبَةٌ مثلهَا، فقال بعضُهُم لبَعضٍ: ماذا تقُولونَ لهُ فِي عيسَى إن هو سَألَكُم عنهُ؟ فقالُوا: نقولُ واللهِ الذي قالَهُ اللهُ فِيهِ، والذِي أمرَنَا نبيُّنَاﷺ أن نقُولَهُ فِيهِ.

فدخَلُوا عليهِ وعندَهُ بطَارقَتُهُ، فقالَ: ما تَقُولونَ فِي عِيسى بنِ مَريمَ؟ فقالَ لهُ جَعفرٌ: نقُولُ: هُو عبدُ اللهِ ورسولُهُ، ورُوحُهُ وكَلمَتُهُ ألقَاهَا إلى مَريمَ العَذرَاءِ البَتُولِ، فدَلَّى النجاشيُّ يدَهُ إلَى الأرضِ فأخَذَ عُودًا بينَ أُصبعَيْهِ، فقالَ: ما عدَا عِيسَى بنَ مَريمَ ممَّا قُلتَ هذَا العُويْدَ.

فتناخَرَتْ بطَارِقَتُهُ، فقالَ: وإنْ تنَاخَرْتُم واللهِ، اذهَبُوا فأنتُم سُيومٌ في الأرضِ -والسُّيومُ: الآمِنونَ فِي الأرضِ- مَنْ سَبَّكُم غَرِمَ، مَن سَبَّكُم غَرِمَ، مَن سَبَّكُم غَرِمَ، مَا أحبُّ أن لي جَبلًا مِن ذَهَبٍ وأنِّي آذَيتُ رَجُلًا مِنكُم.

فواللهِ مَا أخذَ اللهُ منِّي الرشوَةَ حِينَ رَدَّ عَليَّ مُلْكِي، ولا أطاعَ الناسَ فِيَّ فأُطِيعُ الناسَ فيهِ، وأمرَ بإخرَاجِ عَمرٍو وصَاحِبِهِ مِن بِلادِهِ.

وأقامَ جَعفرٌ وأصحَابُهُ مِن المُهاجِرينَ معَ خَيرِ جَارٍ فِي خَيرِ دَارٍ، ثُم لَم يَلبَثُوا قَلِيلًا حتى خرجَ عَلى النجاشيِّ رجلٌ منَ الحَبشَةِ يُنازِعُهُ في مُلكِهِ، فمَا عَلِمُوا حُزنًا قطُّ كانَ أشدَّ ممَّا مَرَّ بِهِم، خَوفًا مِن أنْ يَنتصِرَ ذلكَ الرجُلُ عَليهِ، فيَأتِي مَلِكٌ لا يَعرفُ مِن حقِّهِم مَا كانَ يَعرفُهُ النجاشِيُّ، فجعَلُوا يدعُونَ الله ويَستنصرُونَهُ للنَّجَاشِيِّ.

فخرجَ النجاشيُّ إليهِ سَائرًا، فقالَ أصحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بعضُهُم لبَعضٍ: هَل مِن رجلٍ يخرُجُ فيَحضُرَ الوَقعَةَ حتى يَنظُرَ عَلى مَن تَكُونُ؟ فقالَ الزُّبَيرُ وكانَ مِن أحدَثِهِم سِنًّا: أنَا.

فنفَخُوا لهُ قِربَةً فجعَلَهَا في صَدرِهِ، ثمَّ خرَجَ يَسْبَحُ عَليهَا في النِّيلِ، حتى خرَجَ مِن شقِّهِ الآخرِ إلى حيثُ التقَى الناسُ، فحضرَ الوقعَةَ، فهَزمَ اللهُ ذلكَ الرجلَ ونصَرَ النجاشيَّ عليهِ وقتَلَهُ.

فجاءَ الزبيرُ وجعلَ يرفَعُ صوتَهُ ويقولُ: ألا فَأبشِرُوا، فقَد أظهَرَ اللهُ النجاشيَّ، فمَا فرِحُوا بشيءٍ قطُّ فرحَهُم بظُهورِ النجاشِيِّ.

فأقامُوا عندَهُ هانِئِينَ مُنَعَّمِينَ حتى رَجعُوا إلى مكَّةَ بعدَ أن أظهَرَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ عَليهَا.

وقَد خصَّ اللهُ تعَالى النجَاشيَّ بالفَضلِ العَظيمِ، لنُصرتِهِ المُستَضعَفِينَ مِن المُسلِمِينَ، حيثُ هدَاهُ للإسلامِ، ولمَّا ماتَ رَحِمَهُ اللهُ نعاهُ النبيُّ ﷺ للصحَابَةِ وقالَ: «**ماتَ اليَومَ رَجلٌ صَالِحٌ، قُومُوا فصَلُّوا عَلى أخِيكُم أصحَمَةَ**»، ثُم خرَجَ بالصحابَةِ إلى المُصلَّى، فصفَّ بِهِم وكبَّرَ أربَعَ تَكبِيرَاتٍ، فأيُّ فَضْلٍ هُو أكبَرُ من ذَلكَ وأعظَمُ، وأيُّ عطَاءٍ أوسَعُ مِن ذلكَ وأكرَمُ؟

وإنمَا صلَّى رسولُ الهُدَى ﷺ عَلى النجاشيِّ؛ لأنهُ كانَ يكتُمُ إيمَانَهُ مِن قَومِهِ، ولَم يكُنْ عِندَهُ يومَ ماتَ مَن يُصَلِّي عَليهِ، وكانَ مَوتُهُ رَحِمَهُ اللهُ في السَّنَةِ التي رجَعَ فيهَا بقِيَّةُ المُهاجِرينَ معَ جَعفرِ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه إلى مكَّةَ، بعدَ فَتحِ خَيبرَ.

❊ ❊ ❊

(٧) إسلامُ عمرَ رضي الله عنه، وحصَارُ قُرَيشٍ لبَنِي هَاشمٍ، ووفَاةُ أبِي طَالبٍ

فِي العامِ الذي خرجَ فيهِ مَن خرَجَ مِن أصحابِ رسُولِ اللهِ ﷺ إلَى الحبشَةِ كانَ إسلامُ عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه، فقَدِ استجابَ اللهُ تعَالى لدعَاءِ نبيِّهِ ﷺ حيثُ قالَ: «**اللَّهُمَّ أعِزَّ الإسلامَ بعُمرَ بنِ الخطَّابِ، وأَعِزَّ بإسلَامِهِ الإسلَامَ وَأهلَهُ**».

قالَ ابنُ مَسعُودٍ رضي الله عنه: ما زِلنَا أعزَّةً مُنذُ أسلَمَ عُمرُ بنُ الخطَّابِ.

وَقَالَت أمُّ عَبدِ اللهِ بنتُ أبِي حَثْمَةَ: واللهِ إنَّا لنَترَحَّلُ إلى أرضِ الحَبشَةِ، وقد ذَهبَ زَوجِي عامرٌ فِي بعضِ حَاجتِنَا، إذْ أقبلَ عُمرُ حتَّى وقفَ عليَّ وهُو على شِرْكِهِ، وكنَّا نَلقَى منهُ بَلاءً وأذًى لنَا وشدَّةً عَلينَا، فقالَ: إنهُ لَلانطِلاقُ يَا أمَّ عَبدِ اللهِ؟ قُلتُ: نَعَم، واللهِ لنَخرُجَنَّ فِي أرضِ اللهِ إذْ آذَيتُمُونَا وقهرتُمُونَا، حتى يَجعلَ اللهُ لنَا مَخرَجًا، فقالَ: صَحِبَكُم اللهُ، ورَأيتُ لهُ رِقَّةً لَم أكُن أرَاهَا، ثُم انصرَفَ وقَد أحزنَهُ فيمَا أرَى خُرُوجُنَا، فجاءَ عامرٌ بحَاجَتِهِ تِلكَ، فقُلتُ لهُ: يَا أبَا عَبدِ اللهِ، لو رَأيتَ عُمرَ آنِفًا ورِقَّتَهُ وحُزنَهُ عَلينَا، قالَ: أطَمِعْتِ فِي إسلامِهِ؟ قُلتُ: نَعَم، قال: لا يُسلِمُ الذي رأيتِ حتَّى يُسلِمَ حمارُ الخطَّابِ، قالَ ذلكَ يَأسًا منهُ لِمَا كانَ يَرَى مِن غِلظَتِهِ وقَسوَتِهِ على الإسلَامِ.

قال عُمرُ رضي الله عنه: كنتُ للإسلامِ مُبَاعدًا، وكنتُ صَاحبَ خَمرٍ فِي الجاهليَّةِ،

أُحبُّهَا وأشرَبُهَا، وكانَ لنَا مَجلسٌ يَجتمِعُ فيهِ رجالٌ مِن قُريشٍ بالحَزورَةِ، فخرجتُ ليلةً أُريدُ جلسَائِي أولئِكَ، فلَم أجِد فِيهِ مِنهُم أحَدًا، فقلتُ: لو أنِّي جئتُ فُلانًا الخمَّارَ، لعَلِّي أجدُ عِندَهُ خَمرًا فأشربَ مِنهَا، فخَرجتُ فجِئتُهُ فَلم أجدْهُ، فقلتُ: لَو أنِّي جئتُ الكعبَةَ فطفتُ سَبعًا أو سَبعِينَ، فجئتُ المَسجِدَ، فإذَا رسولُ اللهِ ﷺ قائمٌ يُصَلِّي، وكانَ إذَا صلَّى استقبلَ الشامَ، وجعلَ الكَعبَةَ بَينَهُ وبَينَ الشَّامِ، وكانَ مُصَلَّاهُ بَينَ الرُّكنَيْنِ الأسوَدِ واليَمانِيِّ، فقُلتُ حِينَ رَأيتُهُ: واللهِ لَو أنِّي استَمعْتُ لمُحمدٍ الليلَةَ حَتَّى أسمَعَ مَا يَقُولُ، ثم قُلتُ: لو دَنوتُ مِنهُ أستَمعُ منهُ لأرُوعَنَّهُ، فجِئتُ الكعبَةَ مِن قِبَلِ الحِجْرِ، فدخَلتُ تَحتَ ثيابِها فجعَلتُ أمشِي رُوَيدًا، ورسُولُ الله ﷺ قائمٌ يُصلِّي يقرَأُ القرآنَ، حتَّى قُمتُ في قِبلَتِهِ مُستَقبِلُهُ، مَا بَينِي وبَينَهُ إلا ثيَابُ الكعبَةِ، فلمَّا سَمعتُ القُرآنَ رقَّ لهُ قَلبِي وبَكيتُ ودَخلَنِي الإسلامُ، فلَمْ أزَلْ فِي مكَانِي قَائِمًا، حتَّى قَضَى رسُولُ اللهِ ﷺ صلاتَهُ ثُمَّ انصرَفَ، فتَبعْتُهُ حتَّى إذَا كانَ فِي بعضِ الطَّريقِ أدرَكتُهُ، فلمَّا سَمعَ حِسِّي عَرفَنِي، فظَنَّ أنِّي إنمَا اتَّبعتُهُ لأؤذِيَهُ، فنَهَمَنِي -أي: زَجَرَنِي وصَاحَ بِي- ثمَّ قالَ: «**مَا جَاءَ بِكَ يَا ابنَ الخطَّابِ هَذِهِ السَّاعَةَ؟**».

قلتُ: جِئتُ لأؤمنَ باللهِ ورَسُولِهِ، وبمَا جاءَ مِن عندِ اللهِ، فحَمِدَ اللهَ تَعَالَى ثُمَّ قالَ: «**قَد هَداكَ اللهُ يَا عُمَرُ**»، ثُم مسَحَ صَدرِي، ودَعَا لِي بالثَّباتِ، ثُمَّ انصرَفْتُ، ودَخلَ رسُولُ اللهِ ﷺ بيتَهُ.

فلمَّا أسلَمْتُ قُلتُ: أيُّ قُريشٍ أنقَلُ للحَديثِ؟ فقِيلَ لِي: جَميلُ بنُ مَعمَرٍ، فغَدوتُ عليهِ فقلتُ: أعلمتَ يَا جميلُ أنِّي أسلَمتُ ودخلتُ في دِينِ مُحمدٍ؟ فمَا

راجعَنِي حتى قامَ يجُرُّ رِداءَهُ، واتَّبعتُهُ حتَّى إذا قامَ على بابِ المسجدِ صرَخَ بأعلَى صوتِهِ: يا مَعشرَ قريشٍ -وهُم في مجَالسِهِم حولَ الكعبَةِ- ألَا إنَّ ابنَ الخطابِ قَد صَبَأَ، فأقولُ وأنَا مِن خلفِهِ: كذَبَ، ولكنِّي قد أسلَمْتُ وشَهدتُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ، وأن مُحمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ.

فثارُوا إليَّ، فمَا بَرحْتُ أقَاتِلُهُم ويُقاتِلُونَنِي حتَّى قامتِ الشمسُ عَلى رُؤوسِنَا، وتَعبتُ فقَعدتُ، وقامُوا على رَأسِي، فقُلتُ: افعَلُوا ما بدَا لَكُم، فأحلِفُ بِاللهِ أن لو قَد كنَّا ثَلاثمِائةِ رَجُلٍ لقد تَركنَاهَا لكُم أو تركتُمُوهَا لنَا.

فبينَمَا هُم على ذلكَ، إذ أقبلَ العاصُ بنُ وائلٍ السَّهميُّ، حتَّى وقفَ عَليهِم، فقالَ: ما شَأنُكُم؟ فقالُوا: صبَأَ عُمرُ، قالَ: فَمَهْ؟ رجلٌ اختارَ لنَفسِهِ أمْرًا، فمَاذا تُريدُونَ؟ أتَرونَ بنِي عَديٍّ يُسلِمونَ لَكُم صَاحبَهُم هكَذا؟ خَلُّوا عن الرجُلِ، فواللهِ لكأنَّمَا كانُوا ثوبًا كُشِطَ عَنِّي.

وكانَ إسلامُ عُمرَ قَبلَ الهِجرَةِ بأَرْبعِ سِنينَ، وذلكَ بَعدَ البَعثَةِ بتِسعِ سِنِينَ.

ولمَّا رأى المُشركُونَ إقبَالَ الناسِ عَلى الإسلامِ اشتَدُّوا على المُسلمينَ كأشَدِّ مَا كانُوا، حتَّى بَلغَ المُسلمِينَ الجَهدُ واشتَدَّ عَليهِمُ البَلاءُ، وأجمَعَتْ قُريشٌ مَكرَهًا عَلى أن يَقتُلُوا رسُولَ اللهِ ﷺ عَلانِيَةً، فلمَّا عَلمَ أبُو طالبٍ بمَا أجمَعَ عَليهِ القَومُ، جمعَ بنِي عبدِ المُطلبِ وَأمَرَهُم أن يُدخِلُوا رسُولَ اللهِ ﷺ شِعبَهُم، وأمرَهُم أن يَمنعُوهُ ممَّن أرادُوا قَتلَهُ، فاجتَمَعُوا على ذَلكَ كُلُّهُم، مُسلِمُهُم، حيثُ فعلَ ذلكَ إيمَانًا ويَقينًا، وكافِرُهُم ممَّن كانَ على خِلافِ ما كانَ عَليهِ رسُولُ اللهِ ﷺ، لَكِن أخَذَتْهُ الحميَّةُ وأنِفَ أن يَستَذِلَّ ويُسلِمَ أخاهُ إلى الذلِّ والهوَانِ.

فلمَّا رَأى المُشركُونَ مِن قُريشٍ أنَّ القومَ قَد مَنعُوا رسُولَ اللهِ ﷺ وأجمَعُوا أمْرَهُم على ذَلكَ، ائتَمَرُوا فيمَا بَينَهُم واتفَقُوا ألَّا يُجالِسُوهُم، ولا يُناكِحُوهُم، ولا يُبايعُوهُم ولا يَشتَرُوا منهُم، ولا يَدخُلُوا بُيوتَهُم، حتى يُسلِمُوا رسُولَ اللهِ ﷺ للقَتلِ، وأخذَ بعضُهُم على بَعضٍ العهُودَ والمَواثيقَ، وكتَبُوا صحيفَةً في ذلكَ، لا يَقبَلُوا مِن بني هاشِمٍ صُلحًا أبدًا، ولا تأخُذُهُم بِهِم رأفَةٌ، حتى يُسلِمُوا رسُولَ اللهِ ﷺ للقَتلِ.

فَلَبثَ بنُو هاشمٍ في شِعبِهم ثلاثَ سِنينَ، واشتَدَّ عَليهمُ البلاءُ والجهدُ، وقطعُوا عنهمُ الأسواقَ، فلا يتركُوا لهُم طعَامًا يقدمُ إلى مكةَ ولا بَيعًا إلا سبَقُوهُم إليهِ فاشتَرَوْهُ، ولا يَصلُ إليهِم شيءٌ إلا سِرًّا، يستَخفِي به مَن أرادَ صِلتَهُم من قُريشٍ، يُريدُونَ بذلكَ أن يَضطرُّوهم لتَسليمِ رسُولِ اللهِ ﷺ حتى يَسفِكُوا دمَهُ.

وكانَ أبُو طالبٍ إذَا أخذَ الناسُ مضَاجِعَهُم، أمرَ رسُولَ اللهِ ﷺ فاضطَجَعَ علَى فراشِهِ حتى يَرَى مَن يُريدُ أن يمكُرَ بِهِ أو يغتَالَهُ، فإذَا نامَ الناسُ أمرَ أحدَ بَنِيهِ أو إخوَتِهِ أو بَنِي عَمِّهِ فاضطَجَعَ على فرَاشِ رسُولِ اللهِ ﷺ، وأمرَ رسُولَ اللهِ ﷺ أنْ يأتِيَ بَعضَ فُرشِهِم فينَامَ عَليهِ.

وبَعدَ مُرورِ ثَلاثِ سِنينَ تَلاوَمَ رجالٌ مِن بَنِي عَبدِ مَنافٍ، ومِن قُصَيٍّ، ورجالٌ مِن سِواهُمْ مِن قُريشٍ، ورَأَوْا أنَّهم قد قطعُوا الرحِمَ، واستخَفُّوا بالحَقِّ، واجتمَعَ أمرُهُم مِن لَيلتِهِم عَلى نَقضِ مَا تعَاهَدُوا عَليهِ مِنَ الغَدرِ والبَراءَةِ منهُ، وبَعثَ اللهُ عَلى صحيفَتِهِم الأَرَضَةَ، فَلَم تترُكِ اسمًا للهِ فِيهَا إلَّا لَحَسَتْهُ، وتركَتْ مَا كانَ فِيهَا مِن شِركٍ وظُلمٍ وقَطيعَةِ رَحِمٍ، وأطْلعَ اللهُ ﷻ رسولَهُ عَلى الذِي صنَعَ بصَحيفَتِهِمْ،

فذكَرَ رسولُ اللهِ ﷺ ذلكَ لأبِي طالبٍ، فانطلَقَ أبُو طالبٍ يَمشِي بعِصَابَتِهِ مِن بنِي عَبدِ المُطلبِ، حتى أتَى المسجِدَ وهو حافِلٌ مِن قُريشٍ، فلمَّا رَأَوْهُم عامِدينَ لجمَاعتِهِم أنكَرُوا ذَلكَ، وظنُّوا أنَّهم خرَجُوا مِن شدَّةِ البلاءِ فأتَوْهُم ليُعطُوهُم رَسُولَ اللهِ ﷺ، فتكلَّمَ أبُو طالبٍ فقالَ: قَد حَدثَتْ أمورٌ بَينكُم لَم نَذكُرْهَا لَكُم، فَأْتُوا بصَحِيفَتِكُم التي تعاهَدْتُم عَليهَا، فلعَلَّهُ أن يكُونَ بَينَنَا وبينكُم صُلحٌ، وإنَّما قالَ ذلكَ خَشيَةَ أن يَنظُرُوا في الصحيفَةِ قَبلَ أن يَأتُوا بِها فيَعمَدُوا إلى إصلَاحِ مَا فَسَدَ مِنهَا.

فَأَتَوْا بصَحِيفَتِهِم مُعجَبِينَ بِها، لا يشُكُّونَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مَدفوعٌ إلَيهِم، فوضعُوهَا بَينَهُم، وقالُوا: قَد آن لَكُم أن تَقبَلُوا، وترجِعُوا إلى أمرٍ يجمَعُ قَومَكُم، فإنمَا قطَعَ بينَنَا وبينكُم رجُلٌ واحِدٌ، جعلتُمُوهُ خطَرًا لهَلَكَةِ قَومِكُم وعَشِيرَتِكُم وفَسَادِهِم.

فقالَ أبُو طَالبٍ: إنمَا أتيتُكُم لأعطيكُم أمرًا لَكُم فيهِ نَصَفٌ، إنَّ ابنَ أخِي قَد أخبَرنِي ولَم يَكذِبْنِي، أنَّ اللهَ بريءٌ مِن هذِهِ الصَّحيفَةِ التِي فِي أيدِيكُم، ومحَا كلَّ اسمٍ هوَ لهُ فِيهَا، وترَكَ فيهَا غَدرَكُم وقَطيعَتَكُم إيَّانَا، وتظاهُرَكُم عَلينَا بالظُّلمِ، فإن كانَ الحديثُ الذِي قالَ ابنُ أخِي كمَا قالَ، فأفِيقُوا، فواللهِ لا نُسلمُهُ أبدًا حتى نمُوتَ مِن عندِ آخرِنَا، وإن كانَ الذي قالَ بَاطلًا، دفعنَاهُ إلَيكُم، فقَتلتُمُوهُ أو أبقَيْتُمُوهُ حَيًّا.

قالُوا: قَد رَضِينَا بالذي تقولُ، ففتَحُوا الصحيفَةَ، فوجَدُوا الصادقَ المَصدوقَ ﷺ قد أخبَرَ خبَرَهَا، فلمَّا رَأتْهَا قريشٌ كالذِي قالَ أبُو طالبٍ قالُوا: واللهِ إن كانَ هذَا إلَّا سِحرًا مِن صاحبِكُم، فقالَ بنُو عبدِ المُطلبِ: إنَّ أولَى الناسِ بالكذبِ والسِّحرِ غَيرُنَا.

فانتكسَتْ قُرَيشٌ، وعادُوا بِشَرٍّ ممَّا كانُوا عليهِ مِن كُفرِهِم، والشدَّةِ عَلى رسولِ اللهِﷺ وقومِهِ، والقيامِ بمَا تعاهَدُوا عليهِ، وتَشديدِ الحِصارِ عَلى بنِي هاشِمٍ وبنِي عَبدِ المُطلبِ فِي الشِّعبِ، فَلا يَصِلُهُم شَيءٌ منَ الطَّعامِ إلَّا مَا كانَ يَأتِيهِم خُفيَةً عَلى حِينِ غَفلَةٍ مِن قُريشٍ، وكانَ هشَامُ بنُ عَمرِو بنِ رَبيعَةَ أعظمَ الناسِ صِلةً ونَفعًا لبَنِي هَاشمٍ ومَن مَعهُم، فكانَ يأتِي بالبَعيرِ لَيلًا قَد حمَّلَهُ طَعَامًا، حتى إذَا بلغَ بِهِ فَمَ الشِّعبِ، خَلعَ خطَامَهُ مِن رأسِهِ، ثُم ضربَ عَلى جَنبَيْهِ، فيدخُلُ عَليهِمُ الشِّعبَ، ولا يزَالُ يُكرِّرُ ذلكَ.

ثُم إنهُ مشَى إلى زُهَيرِ بنِ أَبِي أمَيَّةَ بنِ المُغيرَةِ -وكانَتْ أمُّهُ عَاتكَةَ بنتَ عَبدِ المطلبِ- فقَالَ: يا زُهيرُ، أرضِيتَ أن تَأكُلَ الطعَامَ، وتَلبسَ الثيَابَ، وتَنكحَ النسَاءَ، وأخوَالُكَ حَيثُ قَد عَلمتَ لا يُبَاعُونَ ولا يُشتَرَى منهُم، ولا يُزَوَّجونَ ولا يُتزَوَّجُ منهُم؟ أمَا إنِّي أحلفُ باللهِ لَو كانُوا أخوالَ أبِي الحكَمِ بنِ هشَامٍ ثُم دَعوتَهُ إلى مِثلِ مَا دعَاكَ إلَيهِ مِنهُم، مَا أجابَكَ إلَيهِ أبَدًا.

قالَ: ويحكَ يا هشَامُ، فمَاذا أصنَعُ؟ إنمَا أنَا رجُلٌ وَاحدٌ، واللهِ لَو كانَ مَعي رجلٌ آخرَ لقُمتُ فِي نَقضِهَا، قالَ: قَد وَجدتَ رَجُلًا، قالَ: مَن هُوَ؟ قالَ: أنَا، فقالَ لهُ زُهَيرٌ: أَبْغِنَا ثَالثًا، فذهَبَ إلَى المُطعِمِ بنِ عَدِيٍّ فقالَ لهُ: يَا مُطعِمُ، أرضِيتَ أن يَهلِكَ بَطنانِ مِن بنِي عَبدِ منَافٍ، وأنتَ شاهدٌ عَلى ذَلكَ، مُوافقٌ لقُريشٍ فيهِ؟! أمَا واللهِ لئِنْ أمكنْتُمُوهُم مِن هذِهِ، لَتَجِدُوهُم إلَيهَا مِنكُم سِرَاعًا، قالَ: وَيحَكَ، فمَاذَا أصنَعُ؟ إنمَا أنَا رجُلٌ واحِدٌ، قالَ: قَد وَجدتُ لكَ ثَانيًا، قالَ: مَن؟ قالَ: أنَا، قالَ: أَبْغِنَا ثَالثًا، قَالَ: قَد فَعلتُ، قالَ: مَن هُوَ؟ قالَ: زُهيرُ بنُ أَبِي أُميَّةَ، قالَ: أَبْغِنَا رَابعًا،

فذَهبَ إلَى أَبِي البَخْتَرِيِّ بنِ هشامٍ فقَالَ لهُ نَحوًا ممَّا قالَ للمُطعِمِ بنِ عَدِيٍّ، فقالَ: وهَل تَجدُ أحَدًا يُعينُ عَلى هذَا؟ قالَ: نَعَم، قالَ: مَن هُوَ؟ قالَ: زُهَيرُ بنُ أَبِي أُميَّةَ والمُطعِمُ بنُ عَدِيٍّ وأنَا معَكَ، قالَ: أَبْغِنَا خَامسًا، فذهَبَ إلى زَمْعَةَ بنِ الأَسْوَدِ بنِ المُطَّلبِ بنِ أَسَدٍ، فكلَّمَهُ وذَكَرَ لَهُ قَرَابَتَهُم وحقَّهُم، فقالَ لَهُ: وهَل عَلى هذَا الأمرِ الذِي تَدعُونِي إلَيهِ مِن أحَدٍ؟ قالَ: نَعَم، ثُم سَمَّى القَومَ.

فتواعَدُوا في الحُجونِ ليلًا بأعْلَى مَكةَ واجتَمَعُوا هنالِكَ، وأجمَعُوا أمرَهُم وتعاقَدُوا على القيَامِ على مَا في الصَّحيفَةِ حتى يَنقُضُوهَا، وقال زُهيرٌ: أنَا أَبدَؤُكُم، فأكُونُ أولَ مَن يَتكَلَّمُ.

فلمَّا أصبَحُوا غَدَوا إلى مجَالِسِهِم، وغدَا زُهيرُ بنُ أَبِي أميَّةَ عَليْهِ حُلَّةٌ، فطَافَ بالبَيتِ سَبعًا، ثُم أقبلَ عَلى الناسِ فقَالَ: يَا أهلَ مَكَّةَ، أنَأكُلُ الطَّعَامَ، ونَلبَسُ الثيَابَ، وبنُو هَاشِمٍ هَلكَى، والله لَا أقعُدُ حتى تُشَقَّ هذِهِ الصحيفَةُ القاطعَةُ الظَّالمَةُ.

فقالَ أبُو جَهلٍ -وكانَ في نَاحيَةِ المَسجدِ-: كَذَبتَ، واللهِ لا تُشَقُّ، فقالَ زَمعَةُ ابنُ الأسوَدِ: أنتَ واللهِ أكذَبُ، مَا رَضينَا كتابَتَهَا حيثُ كُتِبَت، وقالَ أبو البَختَرِيِّ: صدقَ زَمعةُ؛ لا نَرضَى ما كُتبَ فيهَا ولا نُقرُّ بِهِ، وقالَ المُطعمُ بنُ عَديٍّ: صَدقتُمَا وكذَبَ مَن قالَ غيرَ ذَلكَ، نَبْرَأُ إلى اللهِ منهَا وممَّا كُتبَ فيهَا، وقالَ هشَامُ بنُ عَمرٍو نَحوًا مِن ذلكَ، فقالَ أبُو جَهلٍ: هذَا أمرٌ قَد قُضيَ بلَيلٍ، تُشُووِرَ فيهِ بغَيرِ هذَا المكَانِ، وقامَ المُطعمُ بنُ عدِيٍّ إلى الصَّحيفَةِ ليَشُقَّهَا، فوجَدَ الأَرَضَةَ قَد أكَلَتْهَا إلا بعضَ مَا فِيهَا.

ثُم خَرجَ بنُو هاشِمٍ منَ الشِّعبِ، وكانَ ذلكَ فِي السنَةِ العاشِرَةِ منَ البَعثَةِ، قبلَ هجرَةِ النبيِّ ﷺ بثَلاثِ سِنِينَ.

وأنشَأَ أبُو طَالبٍ يَقُولُ الشِّعرَ في شَأنِ صَحِيفَتِهِم، ويَمتَدِحُ النَّفرَ الذِينَ تَبَرَّأوا منهَا، ونقَضُوا ما كانَ فيهَا مِن عَهدٍ.

ولمَّا ضاقَت مكَّةُ عَلى أبِي بكرٍ الصِّدِيقِ ﷺ، وأصَابَهُ فيهَا الأذَى، ورأى مِن تكالُبِ قُريشٍ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ وأصحَابِهِ، استَأذنَ مِن النَّبيِّ ﷺ في الهِجرَةِ، فأذِنَ لَهُ.

فخرجَ أبُو بكرٍ ﷺ مهَاجِرًا، حتَّى إذا سارَ مِن مكَّةَ يَومًا أو يَومَيْنِ، لَقِيَهُ ابنُ الدُّغُنَّةِ وهوَ يَومئذٍ مِن سادَاتِ العَربِ، فقالَ: إلَى أينَ يَا أبَا بَكرٍ؟ قالَ: أخرَجَنِي قَومِي، وآذَونِي، وضيَّقُوا عليَّ، قالَ: ولِمَ؟ فواللهِ إنكَ لتُزَيِّنُ العشيرَةَ، وتُعينُ على النَّوائبِ، وتفعَلُ المَعروفَ، وتَكسِبُ المَعدومَ، ارجِعْ فإنَّك في جِوَارِي.

فرجعَ معَهُ حتَّى إذا دخَلَ مكَّةَ قامَ ابنُ الدُّغُنَّةِ فقَالَ: يا معشَرَ قُريشٍ، إنِّي قَد أَجَرتُ ابنَ أبِي قُحافَةَ فلا يَعرِض لهُ أحَدٌ إلَّا بخَيرٍ؛ فكَفُّوا عَنهُ.

وكانَ لأبِي بكرٍ ﷺ مَسجدٌ عندَ بابِ دَارِهِ في بَنِي جُمحٍ، فكَانَ يُصلِّي فيهِ، وكانَ رَجُلًا رقيقًا إذَا قرأَ القُرآنَ استَبكَى، فيَقفُ عَليهِ الصبيَانُ والعَبيدُ والنسَاءُ، يَعجَبُونَ لمَا يَرونَ مِن هَيئَتِهِ، فمَشَى رجَالٌ مِن قُريشٍ إلَى ابنِ الدُّغُنَّةِ فقَالُوا: يَا ابنَ الدُّغنةِ، إنكَ لَم تُجِرْ هذَا الرجُلَ ليُؤذِيَنَا، إنهُ رجلٌ إذَا صلَّى وقرأَ مَا جَاءَ بهِ مُحمدٌ يَرقُّ وتَكُونُ لَهُ هَيئَةٌ، فنحنُ نتخَوفُ منهُ عَلى صِبيَانِنَا ونِسَائِنَا وضُعفَائِنَا أن يَفتِنَهُم، فَأْتِهِ فمُرْهُ أَن يَدخُلَ بَيتَهُ، فلْيَصْنَعْ فِيهِ مَا شَاءَ.

فمشَى ابنُ الدُّغنَّةِ إليهِ، فقالَ: يَا أبَا بكرٍ، إنِّي لَم أُجِرْكَ لتُؤذِيَ قَومَكَ، وقَد كَرهُوا مكانَكَ الذِي أنتَ بهِ، وتأذَّوْا بذَلكَ مِنكَ، فادخُلْ بَيتَكَ فَاصنَعْ فِيهِ مَا أَحْبَبْتَ، فقَالَ أَبُو بَكرٍ ﵁: أَو أَرُدَّ عليكَ جِوارَكَ وأَرضَى بجِوَارِ اللهِ، قالَ: فَارْدُدْ عليَّ جِوَارِي، قالَ: قَد رَدَدْتُهُ عَليكَ، فقَامَ ابنُ الدُّغنَّةِ فقَالَ: يَا مَعشرَ قُريشٍ، إنَّ ابنَ أبِي قُحافَةَ قَد رَدَّ عَليَّ جِوارِي، فشأنُكُم بصَاحِبِكُم.

وفي هذَا العامِ -العاشِرِ منَ البَعثَةِ- وبعدَ خُروجِ بنِي هاشمٍ منَ الشِّعبِ تُوفِّي أَبُو طالبٍ عَمِّ رسُولِ اللهِ ﷺ، ثُم تُوفِّيتْ زَوجَتُهُ خَديجَةُ بنتُ خُويلدٍ ﵂، فتتَابَعتْ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ المصَائِبُ.

فقد كانَ أبُو طالبٍ رَغمَ كُفرِهِ عَضُدًا لرَسُولِ اللهِ ﷺ، ومَانعًا لهُ ونَاصِرًا على قَومِهِ، فلمَّا هلَكَ أبُو طالبٍ نَالتْ قُريشٌ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الأَذَى مَا لَم تكُن تَطمَعُ بِهِ فِي حياتِهِ، حتَّى قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا نَالَتْ منِّي قُريشٌ شَيئًا أكرَهُهُ حَتَّى مَاتَ أَبُو طَالبٍ**».

ولمَّا اشتَكَى أبو طَالبٍ، وعَلِمَت قُريشٌ بذَلِكَ، قالَ بَعضُهُم لبَعضٍ: إن حَمزَةَ وعُمَرَ قَد أَسْلَمَا، وقَد فشَا أمرُ مُحمدٍ فِي قَبائلِ قُريشٍ كُلِّها، فانطلِقُوا بنَا إلى أبي طَالبٍ فليأخُذْ لنَا عَلى ابنِ أخِيهِ، فإنَّا واللهِ مَا نَأمَنُ أن يَبتَزُّونَا أمرَنَا.

فمشَى إليهِ كبَارُ قَومِهِ، عُتبَةُ بنُ رَبيعَةَ، وشَيبَةُ بنُ رَبيعَةَ، وأبُو جَهلِ بنُ هشَامٍ، وأميَّةُ بنُ خَلَفٍ، وأبُو سُفيانَ بنُ حَربٍ، في رجَالٍ مِن كبَارِهِم، فكَلَّمُوهُ، فقَالُوا: يَا أبَا طالبٍ، إنكَ منَّا حيثُ قَد عَلمتَ، وقَد حضَرَكَ مَا تَرَى وتَخَوَّفْنَا عَليكَ، وقد

عَلمتَ الذي بيننَا وبينَ ابنِ أخيكَ، فادعُهُ فخُذْ لنَا منهُ وخُذ لَهُ منَّا، ليَكُفَّ عنَّا ولنَكُفَّ عنهُ، ولْيَدَعْنَا ودِينَنَا ولنَدَعْهُ ودِينَهُ.

فبعثَ إليهِ أبُو طالبٍ، فجاءَهُ، فقالَ: يا ابنَ أخِي، هؤلاءِ كبَارُ قَومِكَ قَد اجتَمعُوا لكَ ليُعطوكَ وليَأخُذُوا منكَ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَم، كَلمةٌ واحِدَةٌ تُعطُونِيهَا، تَملكُونَ بهَا العربَ، وتَدينُ لَكُم بهَا العَجمُ**».

فقالَ أبُو جهلٍ: نَعَم وَأبِيكَ، وعشرَ كَلماتٍ، قالَ: «**تَقُولُونَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وتَخلَعُونَ مَا تَعبُدُونَ مِن دُونِهِ**»، فصفَّقُوا بأيدِيهِم ثُمَّ قَالُوا: يَا مُحمَّدُ، أتُريدُ أن تَجعَلَ الآلهَةَ إلَهًا وَاحِدًا، إنَّ أمرَكَ لعَجبٌ، ثُم قالَ بعضُهُم لبَعضٍ: واللهِ إنَّ هذَا الرجُلَ لَيسَ بمُعطِيكُم شيئًا ممَّا تُريدُونَ، فانطلِقُوا وامضُوا على دِينِ آبائِكُم حتى يَحكُمَ اللهُ بَينكُم وبَينَهُ، ثم تَفرَّقُوا.

فقالَ أبُو طالبٍ: واللهِ يَا ابنَ أخِي، مَا رَأيتُكَ سَألتَهُم شَطَطًا، فطَمِعَ رسُولُ اللهِ ﷺ فيهِ، فجعَلَ يَقُولُ لهُ: «**أي عَمِّ، فَأنتَ فَقُلهَا، أستحِلُّ لكَ بِهَا الشفاعَةَ يَومَ القِيامَةِ**».

فلمَّا رَأى حِرصَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قالَ: يَا ابنَ أخِي، واللهِ لَولَا أن تُعيِّرَنِي قُريشٌ، يَقولونَ: ما حمَلَهُ عليهَا إلا جَزعُ الموتِ، لأقرَرْتُ بِها عينَكَ، ولا أقولُهَا إلا لأُقرَّ بِها عَينَكَ.

فلمَّا حضَرَتْ أبَا طالبٍ الوفَاةُ، دخلَ عَليهِ النبيُّ ﷺ وعندَهُ أبُو جَهلٍ وعبدُ الله بنُ أَبِي أُمَيَّةَ، فقَالَ: «**أَي عَمِّ، قُلْ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِندَ اللهِ**»، فقالَ أبُو جهلٍ وعَبدُ اللهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أبَا طَالِبٍ، أترَغَبُ عَن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ؟ فَلَم

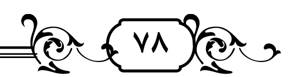
يَزَلْ رسُولُ اللهِ ﷺ يَعرِضُها عَليهِ، ويَعودَانِ لهُ بتِلكَ المقَالَةِ، حتَّى كانَ آخرَ مَا قَالَ: عَلى مِلَّةِ عبدِ المُطَّلبِ، فقَالَ النبيُّ ﷺ: «**لأستَغفِرَنَّ لكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»، فنَزَلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣]، ونَزَلَت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

وقَد كانَ أَبُو طالبٍ يتحَامَى لرَسُولِ اللهِ ﷺ ويُدافِعُ عنهُ، وقالَ فيهِ منَ الممَادِحِ التِي لا تُدانَى ولا تُسَامَى، وأظهَرَ لَهُ مِنَ المَودَّةِ والمَحبَّةِ والشَّفقةِ في أشعَارِهِ مَا لا يُجارَى، وعابَ مَن خَالَفَهُ وكَذَّبَهُ، وهُو في ذَلكَ كُلِّهِ يَعلمُ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ الصَّادقُ البارُّ الراشِدُ، فَلَم تَنفَعْهُ تلكَ المعرفَةُ ولَم تُغْنِ عنهُ شَيئًا عندَ اللهِ؛ لأنَّهُ لم يُؤمِنْ قَلبُهُ، وفَرقٌ بَينَ عِلمِ القلبِ وتَصدِيقِهِ.

وقَد قالَ العباسُ بنُ عَبدِ المُطلبِ لرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أغنَيْتَ عَن عَمِّكَ؟ فإنَّهُ كانَ يَحُوطُكَ ويَغضَبُ لكَ، فقالَ: «**هُوَ في ضَحْضَاحٍ مِن نَارٍ، وَلَولَا أَنَا لكَانَ فِي الدَّرْكِ الأسفَلِ منَ النَّارِ**».

❋ ❋ ❋

(٨) وَفاةُ خَديجَةَ رضي الله عنها وحَادِثَةُ الإسرَاءِ وَالمِعرَاجِ



بعدَ وفَاةِ أَبِي طالبٍ تُوفِّيتْ خَديجةُ بنتُ خُويلدٍ رضي الله عنها في نَفسِ العَامِ، وقَد كانَت لرسُولِ اللهِ ﷺ وَزيرَ صِدْقٍ عَلى الإسلامِ، فقَد تقَدَّمَ إسلامُهَا، وكانَ لهَا مقَامَ صِدْقٍ مِن أولِ البَعثَةِ، حيثُ بَذَلَتْ نَفسَهَا ومَالَهَا لرَسُولِ اللهِ ﷺ، وكَانَ يَسكُنُ إِلَيهَا، وتَطمَئنُّ نَفسُهُ عِندَهَا، مَا أَهمَّهُ أَمرٌ إلَّا وَجدَ عِندَهَا مَا يُهَوِّنُ عَنهُ ويُسَلِّيهِ، كُسِيَت مِنَ الأُلفةِ والوقَارِ والهُدوءِ مَا جَعلهَا تتبَوَّأُ المَنزِلَةَ العَاليَةَ في جَنَّاتِ الخُلدِ، حيثُ بُشِّرَتْ ببَيتٍ في الجنَّةِ مِن قَصَبٍ، لا صَخَبَ فِيهِ وَلا نَصَبَ، فقَد جاءَ جِبريلُ عليه السلام إلَى النبيِّ ﷺ، فقَالَ: يَا رسُولَ اللهِ، هذِهِ خَديجَةُ قَد أَتَتْ مَعهَا إناءٌ فِيهِ طعَامٌ، فإذَا هِيَ أَتَتكَ، فاقرَأْ عَليهَا السلامَ مِنْ رَبِّهَا ومِنِّي، وبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِن قَصَبٍ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلا نَصَبَ.

قالَ أهلُ العِلمِ: وإنمَا بشَّرهَا ببَيتٍ في الجنَّةِ مِن قَصَبٍ، يعنِي: قَصبَ اللُّؤلُؤِ المُجَوَّفِ، لا صخَبَ فِيه وَلا نَصبَ؛ لأنَّها لم تَرفَعْ صَوتَهَا على النبيِّ ﷺ، ولَم تُتعِبْهُ يومًا مِنَ الدَّهرِ، فَلَم تَصخَبْ عَلَيهِ يومًا وَلَا آذَتْهُ أَبدًا.

ومِن إكرامِ النبيِّ ﷺ لهَا أنهُ لَم يَتزوَّجْ عَليهَا حتَّى ماتَت، وكانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يُحبُّها حبًّا عظيمًا، حتَّى قالَت عائشَةُ رضي الله عنها: ما غِرتُ عَلى امرَأةٍ للنَّبيِّ ﷺ مَا غِرتُ

عَلى خديجَةَ، ومَا رَأيتُها، ولَكِن كانَ يُكثِرُ ذِكْرَهَا، ورُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أعضَاءً، ثُمَّ يَبعَثُهَا فِي صدَائِقِ خَديجَةَ، فرُبَّمَا قُلتُ لهُ: كأنَّهُ لَم يَكُن فِي الدُّنيَا امرأةٌ إلَّا خَدِيجَةَ، فيقُولُ: «**إنَّها كَانَت وَكَانَت، وكَانَ لِي مِنهَا وَلَدٌ**».

وقالَتْ: كانَ النبيُّ ﷺ إذَا ذَكرَ خَديجَةَ أثنَى عَليهَا بأحسَنِ الثَّناءِ، فَغِرتُ يَومًا فقُلتُ: مَا أكثَرَ مَا تَذكُرُهَا، وقَد أَبْدَلَكَ اللهُ خَيرًا منهَا، قَالَ: «**مَا أبدَلَنِي اللهُ خَيرًا منهَا، قَد آمنَتْ بِي إذْ كَفرَ بِي النَّاسُ، وصدَّقَتْنِي إذْ كَذَّبنِي الناسُ، ووَاسَتْنِي بمَالِهَا إذْ حَرَمَنِي الناسُ، ورَزقَنِي اللهُ وَلدَهَا إذْ حَرمَنِي أولادَ النسَاءِ**».

ولمَّا تُوفِّي أبُو طالبٍ وخَديجَةُ، وكانَ بَينهُمَا شَهرٌ وخَمسَةُ أيَّام، اجتمَعَت على رسُولِ اللهِ ﷺ مُصيبتانِ، فلَزِمَ بَيتَهُ، وأقَلَّ الخروجَ، ونَالَت منهُ قُريشٌ مَا لَم تكُن تَطمَعُ فيهِ.

فأيَّدهُ الله بآيةٍ مِن أعظَمِ الآياتِ التي تدُلُّ على كمَالِ قُدرةِ اللهِ وعَظِيمِ سُلطانِهِ، حيثُ أُسرِيَ بِهِ ﷺ ببَدنِهِ ورُوحِهِ مِن المسجدِ الحرامِ إلى المَسجدِ الأقصَى وهو بَيتُ المَقدسِ، وكانَ ذلكَ قبلَ هجرَتِهِ إلى المَدينَةِ بسِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا.

وكانَ فِي مَسرَاهُ ﷺ بلاءٌ وتَمحِيصٌ وعِبْرَةٌ لأولِي الألبَابِ، وهُدًى ورَحمَةٌ وثباتٌ لمَن آمَنَ وصَدَّقَ وكانَ مِن أمرِ اللهِ عَلى يَقِينٍ.

فبينَمَا رسولُ اللهِ ﷺ مُضطَجِعٌ فِي الحِجْرِ، إذْ أتاهُ آتيَانِ -ورَسُولُ اللهِ ﷺ يسمَعُ- فقالَ أحدُهُما لصَاحِبِهِ: شُقَّ مَا بَينَ هذِهِ إلى هذِهِ، يعنِي مِن أعلَى صَدرِهِ إلَى أسفلِ بَطنِهِ، فاستخرَجَ قَلبَهُ، ثمَّ أُتِيَ بطَسْتٍ مِن ذَهبٍ مَملوءةٍ إيمَانًا، فغسَلَ قَلبَهُ، ثم حُشِيَ، ثُمَّ أُعيدَ.

ثم أُتِيَ ﷺ بالبُرَاقِ، وهيَ دَابَّةٌ أبيضُ، بَينَ البَغلِ والحِمَارِ، تضَعُ حَافِرَهَا عِندَ مُنتَهَى طَرْفِهَا، فحُمِلَ عليهاﷺ، ومضَى معَهُ جِبريلُ حتَّى انتهَى إلى بَيتِ المَقدِسِ، فوجَدَ فِيهِ إبراهيمَ ومُوسَى وعِيسَى في نَفرٍ منَ الأنبيَاءِ ، فأَمَّهُم رسُولُ اللهِ ﷺ فِي الصلاةِ، ثُم أُتِيَ بإنَاءَيْنِ، في أحدِهِمَا لبنٌ، والآخَرُ فيهِ خَمرٌ، فقِيلَ لَهُ: خُذْ أَيَّهُمَا شِئتَ، فأخذَ اللبَنَ فشَرِبَهُ، فقيلَ لهُ: هُدِيتَ الفطرَةَ، أمَا إنَّك لو أخَذتَ الخمرَ غَوَتْ أمَّتُكَ.

ثمَّ عُرِجَ برَسُولِ اللهِﷺ مِن بَيتِ المَقدِسِ إلى السَّماءِ، فانطَلَقَ بهِ جِبريلُ حتَّى أتَى السماءَ الدنيَا فاستَفتَحَ، فقِيلَ: مَن هذَا؟ قالَ: جِبريلُ، قِيلَ: ومَن مَعك؟ قالَ: مُحمدٌ، قيلَ: وقَد أُرسلَ إليهِ؟ قالَ: نَعَم، قِيلَ: مَرحبًا به، فنِعمَ المجيءُ جاءَ، فَفُتِحَ له.

فلمَّا بلغَ السماءَ الدنيَا فإذَا بِهَا آدَمُ، فقَالَ جِبريلُ : هذَا أَبُوكَ آدمُ، فسَلِّم عليهِ، فسَلَّمَ عليهِ، فرَدَّ السلامَ، ثُم قالَ: مَرحبًا بالابنِ الصالحِ، والنبيِّ الصالحِ.

ثم صعدَ بهِ إلى السمَاءِ الثانيَةِ، فإذا بِها يَحيى وعيسَى، وهما ابنَا خَالةٍ، فسَلَّمَ عليهِمَا فردَّا السلامَ، ثُمَّ قالا: مَرحَبًا بالأخِ الصالحِ، والنبيِّ الصالحِ.

ثم صعدَ بهِ إلى السمَاءِ الثالثَةِ، فلمَّا خَلَصَ إليهَا فإذَا بها يُوسفُ ، فسلَّمَ عليهِ، فرَدَّ السلامَ ثُم قالَ: مَرحَبًا بالأخِ الصَّالحِ، والنَّبيِّ الصالحِ.

ثم صَعدَ بهِ إلى السمَاءِ الرَّابعةِ، فإذَا بِها إدريسُ ، فسلَّمَ عليهِ، فردَّ السلامَ ثُمَّ قالَ: مَرحبًا بالأخِ الصالحِ، والنبيِّ الصالحِ.

ثم صعدَ بهِ إلى السمَاءِ الخامسَةِ، فإذَا بِها هارونُ ﷺ، فسلَّمَ عَليهِ، فردَّ السلامَ ثم قالَ: مَرحبًا بالأخِ الصالحِ، والنبيِّ الصالحِ.

ثم صعدَ بهِ حتَّى أتَى السماءَ السادِسَةَ، فإذَا بِها مُوسى ﷺ، فسلَّمَ عَليهِ، فردَّ السلامَ ثُم قالَ: مَرحبًا بالأخِ الصَّالحِ، والنبيِّ الصالحِ.

فلما تجَاوَزَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ بكَى، فقِيلَ لهُ: مَا يُبكِيكَ؟ قال: أبكِي لأنَّ غُلامًا بُعِثَ بعدِي يدخلُ الجنَّةَ مِن أمتِهِ أكثَرُ ممَّن يدخُلُهَا من أمَّتِي، وهذَا من الغِبطَةِ على الخَيرِ.

ثم صعدَ برسُولِ اللهِ ﷺ إلى السمَاءِ السَّابعَةِ، فإذَا بِها إبراهِيمُ ﷺ، قالَ: هذَا أبوكَ إبرَاهيمُ فسلِّمْ عَليهِ، فسَلَّمَ عَليهِ، فردَّ السلامَ ثُم قالَ: مَرحبًا بالابنِ الصالحِ، والنبيِّ الصالحِ.

ورُؤيَةُ النبيِّ ﷺ للأنبيَاءِ عليهم السلام في هَذَا المقَامِ، رُؤيَةٌ لأرواحِهِم مُتشَكِّلةً بصُوَرِ أجسَادِهِمُ الحَقيقِيَّةِ.

ثُم رُفِعَت لرسولِ الله ﷺ سدرَةُ المُنتَهَى، فإذا نَبقُهَا مثلُ قِلالِ هَجَرَ، وإذَا ورَقُهَا مثلُ آذانِ الفِيلَةِ، فَقِيلَ لهُ: هذِهِ سِدرَةُ المُنتَهَى، وإذَا أربعَةُ أنْهَارٍ، نَهْرانِ ظَاهِرَانِ، ونَهْرانِ باطنَانِ، فقالَ ﷺ: «**مَا هذَا يَا جِبرِيلُ؟**»، قالَ: أمَّا الباطِنَانِ فنَهرَانِ فِي الجنَّةِ، وأمَّا الظاهِرَانِ فالنِّيلُ والفُرَاتُ.

ثُمَّ رُفِعَ لهُ البَيتُ المَعمُورُ، يدخلُهُ كلَّ يومٍ سبعُونَ ألفَ مَلَكٍ لا يعُودُونَ إلَيهِ، وهذا دَليلٌ عَلى كثرَةِ المَلائكَةِ -عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

ثُم أُتِيَ النَّبيُّ ﷺ بإنَاءٍ مِن خَمرٍ وإنَاءٍ مِن لَبَنٍ، وإنَاءٍ مِن عَسَلٍ، فأخذَ اللَّبنَ، فقِيلَ: هي الفِطرَةُ التِي أنتَ عَليهَا وأمَّتُكَ.

ثُم فُرِضَتْ عليهِ الصلوَاتُ خَمسينَ صلاةً كلَّ يومٍ، فرجَعَ فمَرَّ عَلى موسَى -عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ-، فقالَ: بِمَ أُمرتَ؟ قالَ: «**أُمِرتُ بخَمسِينَ صَلاةً كُلَّ يَومٍ**»، قالَ: إنَّ أمتَكَ لَا تَستَطِيعُ خَمسِينَ صَلاةً كُلَّ يَومٍ، وإنِّي واللهِ قَد جَرَّبتُ الناسَ قَبلَكَ، وعَالجْتُ بنِي إسرَائِيلَ أشدَّ المُعالَجَةِ، فارجِعْ إلى ربِّكَ فسَلْهُ التَّخفيفَ لأمَّتِكَ، فرجَعَ فوضَعَ اللهُ عنهُ عَشرًا، فرجَعَ إلى مُوسَى فقَالَ مِثلَهُ، فرجَعَ إلى اللهِ تعَالى فوضَعَ عَنهُ عَشرًا، فَرَجَعَ إلى مُوسَى فقَالَ مِثلَهُ، فرجَعَ إلى اللهِ تَعَالى فَوضَعَ عَنهُ عَشْرًا، فرجَعَ إلَى مُوسَى فقَالَ مثلَهُ، فرجَعَ إلَى اللهِ تَعَالى فأمَرَ بعَشْرِ صَلواتٍ كُلَّ يَومٍ، فرجَعَ إلَى مُوسَى فقالَ مِثلَهُ، فرجَعَ إلى اللهِ تَعَالى فأمَرَ بخَمسِ صَلواتٍ كُلَّ يَومٍ، فرجَعَ إلى مُوسَى فقَالَ: بِمَ أُمِرتَ؟ قالَ: «**أُمِرتُ بخَمسِ صَلواتٍ كُلَّ يَومٍ**»، قالَ: إنَّ أمَّتَكَ لا تَستَطِيعُ خَمسَ صلواتٍ كلَّ يَومٍ فارجِعْ إلَى رَبِّكَ فسَلْهُ التَّخفيفَ لأُمَّتِكَ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ عندَ ذاكَ: «**سَألتُ رَبِّي حتَّى استَحْيَيْتُ، ولكنِّي أرضَى وأُسَلِّمُ**»، فقالَ اللهُ ﷻ: لَا يُبدَّلُ القولُ لدَيَّ، هُن خَمسٌ، وهُن خَمسونَ، أي: في الأَجرِ.

ثم نزَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ إلى بَيتِ المَقدِسِ، فرَكبَ البُراقَ وانطَلَقَ رَاجعًا إلى مكَّةَ، فأصبَحَ بِهَا وهُوَ في غايَةِ الثبَاتِ والسَّكينَةِ، لكنَّهُ قَد عَلاهُ السُّكونُ وبَقِيَ ﷺ مُتَفَكِّرًا، يَخشَى إنْ أخبرَ قَومَهُ بمَا رَأى أن يُسَارِعُوا إلى تكذِيبِهِ، وبينَمَا هُو جالسٌ في المَسجدِ الحرَامِ، إذْ مرَّ بهِ أبُو جَهلٍ -قبَّحَهُ اللهُ-، فلمَّا رَأى رسُولَ اللهِ ﷺ جَالسًا

مُتَفَكِّرًا، قالَ لهُ: هل مِن خَبَرٍ؟ قالَ: «**نَعَم**»، قالَ: ومَا هُو؟ قالَ: «**إنِّي أُسرِيَ بِيَ الليلَةَ إلَى بَيتِ المَقدِسِ**»، قالَ: بَيتُ المَقدسِ؟! قالَ: «**نَعَم**»، فظنَّ أَبُو جهلٍ أنهُ أُوتِيَ الفُرصةَ ليَتَّهِمَ رسولَ اللهِ ﷺ بالكَذِبِ، فقَالَ لهُ: أرَأيتَ إن دَعوتُ قَومَكَ لكَ لتُخبِرَهُم، أتُخبِرُهُم بمَا أخبرتَنِي بهِ؟ قالَ: «**نَعَم**».

فأرادَ أبُو جهلٍ جمعَ قُريشٍ ليَسمعُوا منهُ ذلكَ، وأرادَ رسُولُ اللهِ ﷺ جمْعَهُم ليُخبِرَهُم ذلكَ ويُبلِّغَهُم.

فنادَى أبُو جهلٍ: يَا معشرَ قُريشٍ، فاجتَمَعُوا من مَجَالِسِهِم، فقَالَ: أخبِرْ قَومَكَ بمَا أخبَرْتَنِي بهِ، فقَصَّ عليهِم رسولُ اللهِ ﷺ خبرَ مَا رَأَى، وأنَّهُ جاءَ بَيتَ المَقدِسِ هذِهِ الليلَةَ وصَلَّى فِيهِ، فكذَّبَهُ أكثَرُ الناسِ، فمِن بَينِ مُصَفِّقٍ، وبَينَ مُصَفِّرٍ، تَكذِيبًا لهُ واستبعَادًا لخبَرِهِ، وطارَ الخَبَرُ بمَكةَ، وارتَدَّتْ طائفَةٌ بعدَ إسلامِهَا.

وجاءَ الناسُ إلى أبِي بَكرٍ رضي الله عنه، فأخبَرُوهُ أنَّ مُحمَّدًا ﷺ يقُولُ كذَا وكذَا، فقالَ: إنَّكُم تَكذِبُونَ عَليهِ، فقَالُوا: واللهِ إنَّهُ ليَقُولُهُ، فقالَ: إن كَانَ قَالَهُ فلَقَد صَدَقَ، قالُوا: وتُصدِّقُهُ في ذلكَ؟ قالَ: إنِّي لأصدِّقُهُ في خبَرِ السماءِ يَأتِيهِ بُكرَةً وعَشِيَّةً، أفَلَا أُصدِّقُهُ فِي بَيتِ المَقدسِ، فيَومَئذٍ سُمِّي أبو بَكْرٍ: الصِّدِّيقَ.

ثمَّ قامَ أبُو بكرٍ رضي الله عنه حتَّى وقفَ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ، وحَولَهُ مُشرِكُو قُريشٍ، فسَأَلَهُ عَن ذَلكَ فأخبَرَهُ، فقَالَ: يَا رسُولَ اللهِ، صِفْهُ لنَا، وإنَّمَا فعلَ أبُو بكرٍ ذلكَ ليَسمَعَ المُشرِكُونَ ويَعلَمُوا صِدقَهُ فِيمَا أخبَرَهُم بهِ، فجعَلَ النبيُّ ﷺ يُخبِرُهُم عَن صِفَتِهِ، فالتبَسَ عَليهِ بعضُ الشَّيءِ، فجَلَّى اللهُ لهُ بَيتَ المَقدِسِ، حتَّى جعلَ يَنظُرُ

إلَيهِ دُونَ دَارِ عَقِيلِ بن أَبي طَالِبٍ ﷺ ويَصفُهُ لَهُم، فقَالُوا: أَمَّا الصِّفَةُ فقَد أصَابَ.

وقَد أخبَرَ اللهُ ﷻ عمَّا حَدثَ لرَسُولِ اللهِ ﷺ ليلَةَ الإسرَاءِ والمِعراجِ ومَا رَأَى مِنَ الآياتِ والعِبَرِ، وأنَّ ذلكَ كانَ اختِبارًا للناسِ وامتِحانًا لَهُم، فقالَ سُبحَانَهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠]، وهذِهِ الرؤيَا كانَت رُؤيَا حقيقيَّةً لا منامِيَّةً، قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: هيَ رُؤيَا عَينٍ أُريهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وذَلكَ أنَّ الإسرَاءَ بالنبيِّ ﷺ كانَ ببَدنِهِ ورُوحِهِ.

ولمَّا أصبَحَ رسُولُ اللهِ ﷺ صَبيحَةَ ليلةِ الإسرَاءِ، جاءَهُ جِبريلُ عليه السلام عندَ الزَّوالِ، فبَيَّنَ لهُ كيفيَّةَ الصلاةِ وأوقَاتَها، وأمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أصحَابَهُ فاجتَمَعُوا، وصَلَّى بهِ جِبريلُ فِي ذلكَ اليَومِ إلى الغَدِ، والمُسلمونَ يَأتَمُّونَ بالنبيِّ ﷺ وهُو يَقتَدِي بجِبريلَ عليه السلام.

ولَم يَزَلْ أهلُ مكةَ في تَعنُّتِهِم واستِكْبَارِهِم، ولَم يَزَالُوا يَطلُبُونَ مِنَ النبيِّ ﷺ أنْ يأتِيَهُم بالآيَاتِ الخارِقَةِ، لا يَسألُونَها إلا جَدلًا ومُمَاطَلَةً، حتَّى إذَا جاءَهُم ﷺ بمَا أرادُوا، رَدُّوا قولَهُ وبَقُوا في طُغيَانِهم يَعمَهُونَ، ومِن ذلكَ أنَّهُم سألُوا النبيَّ ﷺ أن يُرِيَهُم آيةً، فأراهُمُ القمَرَ نِصفَيْنِ، نِصْفًا على الصَّفَا، ونِصفًا على المَروةِ، حتى رَأَوا حِراءَ بينَهُمَا، فنَظَرُوا ثُم مسحُوا بأبصارِهِم، ثم أعادُوا النظرَ فنظَرُوا ثم مسَحُوا أعيُنَهُم، فقَالُوا: يا مُحمدُ، ما هذَا إلا سِحرٌ ذاهبٌ، فأنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:١-٢].

ولمَّا لقيَ النبيُّ ﷺ مِن أهلِ مكةَ مَا لقِيَ، ذهَبَ إلَى أهلِ الطَّائفِ يَدعُوهُم إلى دِينِ اللهِ وإلَى نُصرَةِ دِينِهِ، فخرَجَ ﷺ إلى ثَقيفٍ يَلتَمِسُ مِنهُمُ النصرَةَ والمَنعَةَ من قَومِهِ، ورجَاءَ أن يَقبَلُوا منهُ مَا جاءَهُم بهِ مِنَ الله تَعَالى، فلمَّا وصَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الطائِفِ، عَمَدَ إلَى نَفرٍ مِن ثَقيفٍ، هُم سادَةُ ثَقيفٍ وأشرَافُهُم، وهُم إخوةٌ ثَلاثةٌ: عَبدُ يَالِيل، ومَسعُودٌ، وحَبِيبٌ، فجَلسَ إلَيهِم ودعَاهُم إلى اللهِ ﷻ، وكَلَّمَهُم بمَا جاءَهُم لَهُ مِن نُصرَتِهِ عَلى الإسلامِ، والقيَامِ معَهُ عَلى مَن خَالَفَهُ مِن قَومِهِ، فقالَ أحدُهُم: إن كَانَ اللهُ أرسلَكَ، وقالَ الآخَرُ: أمَا وَجدَ اللهُ أحَدًا يُرسِلُهُ غَيرَكَ؟ وقالَ الثالثُ: واللهِ لَا أُكلِّمُكَ أبَدًا، لئِن كُنتَ رسُولًا مِنَ اللهِ كمَا تَقولُ، لأنتَ أعظَمُ شَأنًا مِن أن أرُدَّ عَليكَ الكلامَ، ولَئِن كُنتَ تَكذِبُ عَلى اللهِ، فمَا يَنبَغِي لي أن أُكَلِّمَكَ.

فقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن عِندِهِم وقَد يَئِسَ مِن خَيرِ ثَقيفٍ، وقالَ لَهُم عِندَ ذَلكَ: إن فَعلتُم ما فَعلتُم فاكتُمُوا عليَّ، وكرِهَ رسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَبْلُغَ قَومَهُ عَنهُ ذَلكَ فيُجَرِّئَهُم عَليهِ، فَلَم يَفعَلُوا، وأغرَوْا بِهِ سُفهَاءَهُم وعَبيدَهُم يَسُبُّونَهُ ويَصِيحُونَ بِهِ، حتَّى اجتمَعَ عليهِ النَّاسُ وأَلْجَأوهُ إلى بُستانٍ لعُتبَةَ بنِ رَبيعَةَ، وشَيبَةَ بنِ رَبيعَةَ، وهُمَا فِيهِ، ورَجعَ عَنهُ من سُفهَاءِ ثَقيفٍ مَن كانَ يَتبَعُهُ، فعَمدَ إلى ظِلِّ شَجرةٍ مِن عِنَبٍ فجَلسَ فِيهِ، وابنَا رَبيعَةَ ينظرَانِ إلَيهِ ويَريَانِ مَا يَلقَى مِن سُفهَاءِ أَهلِ الطَّائفِ.

وقَد قَالَت عَائشَةُ ﵂ لرسُولِ اللهِ ﷺ: هَل أَتى عليكَ يَومٌ كانَ أشَدَّ مِن يَومِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: «**لَقَد لَقيتُ مِن قَومِكَ مَا لَقِيتُ، وكانَ أشدَّ مَا لقِيتُ مِنهُم يَومَ العَقبَةِ، إذ عَرضتُ نَفسِي عَلى ابنِ عَبدِ يَاليل بنِ عَبدِ كُلالٍ، فَلَم يُجِبنِي إلَى مَا أَردْتُ، فانطَلَقتُ**

وأَنَا مهمُومٌ عَلى وَجهِي، فَلَم أستَفِقْ إلا وأَنَا بقَرنِ الثَّعالبِ، فرَفَعتُ رَأسِي، فإذَا أنا بسَحابَةٍ قَد أظلَّتنِي، فنَظرتُ فإذَا فيهَا جِبريلُ ﷺ، فنادَانِي، فقالَ: إنَّ اللهَ قد سَمعَ قولَ قومِكَ لكَ، ومَا رَدُّوا عَليكَ، وقَد بعثَ إليكَ مَلكَ الجبَالِ لتَأمُرَهُ بمَا شِئتَ فِيهِم، ثُم نَادانِي مَلَكُ الجبَالِ فسَلَّم عَليَّ، ثُم قالَ: يا مُحمدُ، إنَّ الله قَد سمعَ قَولَ قَومِكَ لكَ، وأَنَا ملَكُ الجِبالِ قَد بَعثنِي إليكَ ربُّكَ لتَأمُرَني بأمرِكَ، فمَا شِئتَ؟ إنْ شِئتَ أنْ أُطبِقَ عَليهِمُ الأخشَبَيْنِ» -وهُما جَبَلَانِ بِمَكَّةَ-، فقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«بَل أرجُو أنْ يُخرِجَ اللهُ مِن أصلَابِهِم مَن يَعبدُ اللهَ وَحدَهُ، لا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا»**.

ثمَّ رجعَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى مَكةَ، وفي طريقِهِ إليهَا بعثَ عبدَ اللهِ بنَ أُرَيقِطٍ إلَى الأخنَسِ بنِ شَريقٍ يطلُبُ مِنهُ أن يُجِيرَهُ بمَكَّةَ، فقالَ: إنَّ حَليفَ قُريشٍ لا يُجيرُ عَلى صَميمِهَا، ثمَّ بعثَهُ إلى سُهيلِ بنِ عَمرٍو ليُجيرَهُ، فقالَ: إنَّ بنِي عامرِ بنِ لُؤَيٍّ لا تُجِيرُ عَلى بنِي كعبِ بنِ لُؤَيٍّ، فبعثَهُ إلَى المُطعِمِ بنِ عَدِيٍّ ليُجيرَهُ، فقَالَ: نَعَم، قُل لَهُ: فَلْيَأتِ.

فذَهَبَ إليهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فباتَ عندَهُ تلكَ الليلَةَ، فلمَّا أصبَحَ خرَجَ مَعهُ هُو وبَنُوهُ ستةٌ أو سَبعَةٌ مُتقلِّدِي السيوفِ جَميعًا فدخَلُوا المسجدَ، وقالَ لرسُولِ اللهِ ﷺ: طُفْ، وتَوشَّحُوا بسيوفِهِم في المطَافِ، فأقبلَ أبُو سُفيانَ إلَى المُطعِمِ فقالَ: أمُجِيرٌ أم تَابعٌ؟ قالَ: لا، بَل مُجِيرٌ، قالَ: إذَن لا تُخفَرُ، فجلسَ معهُ حتَّى قضَى رسولُ اللهِ ﷺ طوافَهُ، فلمَّا انصرَفَ انصرَفُوا معهُ، وذهبَ أبُو سُفيانَ إلَى مجلِسِهِ، وقد ازدَادَ أهلُ مكَّةَ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ حَنَقًا وغَيظًا وجُرأَةً وتَكذِيبًا وعِنَادًا.

وقد مَكَثَ رسولُ اللهِ ﷺ أيَّامًا ثُمَّ أُذِنَ لهُ في الهِجرَةِ، فلما هاجَرَ ﷺ إلى

المَدينَةِ تُوفِّي المُطعِمُ بنُ عَدِيٍّ بعدَهُ بِيَسِيرٍ، ولم يَزَلِ النَّبيُّ ﷺ يَحفَظُ ذَلكَ للمُطعِمِ بنِ عَدِيٍّ، حتَّى قالَ يومَ أُسارَى بَدرٍ: «**لَو كانَ المُطعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ سَألَنِي هَؤلاءِ النَّتنَى لوَهَبْتُهُم لَهُ**».



(٩) إسـلامُ الأنصَارِ، وبَيعَةُ العَقَبَةِ

لمَّا رجعَ رسولُ اللهِ ﷺ منَ الطائفِ إلَى مكةَ بعدَ أن أجارَهُ المُطعِمُ بنُ عَدِيٍّ، وجدَ قَومَهُ على أشَدِّ ممَّا كانُوا عليهِ مِن خِلافِهِ وفِرَاقِ دِينِهِ، إلا قَليلًا مُستضعَفِينَ ممَّن آمنَ بهِ، فأخذَ رسُولُ اللهِ ﷺ في عَرضِ نَفسِهِ الكريمَةِ على أحيَاءِ العَربِ في مَواسِمِ الحجِّ، أن يُؤْوُوهُ ويَنصُرُوهُ ويحمُوهُ ممن كذَّبَهُ وخَالفَهُ، فَلَم يُجِبْهُ أحدٌ منهُم، لِمَا ذَخرَهُ اللهُ تعالى للأنصَارِ رضي الله عنهم منَ الكرامَةِ العظيمَةِ.

فكانَ يأتِي القبيلةَ مِن قبائلِ العرَبِ يدعوهُم إلى اللهِ عز وجل، فيَقُولُ: «**يَا بَنِي فلانٍ، إنِّي رسولُ اللهِ إلَيكُم، آمُرُكُم أن تَعبدُوا اللهَ ولا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وأَن تَخلَعُوا مَا تَعبُدُونَ من دُونِهِ من هذِهِ الأندادِ، وأن تُؤمنُوا بي وتُصدِّقونِي، وتَمنَعونِي** -أي: تَحمُونِي- **حتى أُبيِّنَ عنِ الله مَا بَعثَنِي بهِ، يا أيُّها الناسُ، قُولُوا: لا إلَه إلا اللهُ، تُفلِحُوا**».

فأتَى كِنْدَةَ في منازِلِهِم، فدعَاهُم إلى اللهِ عز وجل وعرَضَ عَليهِم نَفسَهُ فأبَوْا عَليهِ، وأتَى كَلبًا في مَنازِلِهِم، فدعَاهُم إلى اللهِ سُبحانَهُ، وعرَضَ عليهِم نَفسَهُ، فلَم يَقبَلُوا منهُ ما عَرضَ عَليهِم.

وأتى بنِي عَامرِ بنِ صَعصَعَةَ، فدعَاهُم إلى اللهِ وعَرَضَ عَليهِم نَفسَهُ، فقَالَ رجُلٌ مِنهُم: واللهِ لَو أنِّي أخذتُ هذَا الفتَى من قُريشٍ، لأكلتُ بِهِ العَربَ، ثُم قالَ

لَهُ: أرَأيتَ إن نَحنُ تَابعنَاكَ عَلى أمرِكَ، ثُمَّ أظهرَكَ اللهُ عَلى مَن يُخَالِفُكَ، أيكُونُ لنَا الأمرُ مِن بَعدِكَ؟ قالَ: «**الأَمرُ للهِ يَضعُهُ حَيثُ يشَاءُ**»، فقالَ لهُ: أفنَهدِفُ نُحورَنَا للعَربِ دُونَكَ، فإذَا أظهرَكَ اللهُ كانَ الأمرُ لغَيرِنَا! لا حاجَةَ لنَا بِأمرِكَ، فأبَوْا عَليهِ.

فلمَّا رجعَ الناسُ رجَعَت بنُو عامرٍ إلى شَيخٍ لَهُم كانَ قَد أدركَهُ السنُّ فلا يَقدِرُ أن يُوافِيَ مَعهُم المَوسمَ، فكانُوا إذا رجَعُوا إليهِ حدَّثوهُ بمَا يكونُ في ذلكَ المَوسمِ، فلمَّا قدِمُوا عليهِ ذلكَ العامَ سألَهُم عمَّا كانَ في مَوسِمِهِم، فقالُوا: جاءنَا فتًى مِن قُريشٍ، أحَدُ بنِي عبدِ المطلبِ، يزعُمُ أنهُ نَبيٌّ، يدعُونَا إلى أن نَمنَعَهُ ونقُومَ مَعهُ، ونخرجَ بهِ إلَى بلادِنَا، فوضَعَ الشيخُ يدَهُ عَلى رَأسِهِ، ثمَّ قالَ: يَا بنِي عَامرٍ، هل لهَا مِن تَلافٍ؟ والذِي نفسِي بِيدِهِ مَا تَقَوَّلَهَا إسمَاعِيليٌّ قطُّ، وإنَّها لحَقٌّ، فأينَ رَأيُكُم كانَ عَنكُم؟!

واستمرَّ رسُولُ اللهِ ﷺ في تلكَ السِّنِينَ يَعرضُ نَفسَهُ عَلى قبَائلِ العَربِ في كُلِّ موسِمٍ، ويُكلمُ كلَّ شريفِ قَومٍ، لا يَسألُهُم إلَّا أَن يُؤوُوهُ ويَمنَعُوهُ، ويقُولُ: «**لا أُكرِهُ أحَدًا مِنكُم عَلى شَيءٍ، مَن رَضِيَ مِنكُم بالذِي أدعُوهُ إلَيهِ فذَاكَ، ومَن كَرِهَ لَم أُكرِهْهُ، إنمَا أُريدُ أَن تُحرِزُونِي ممَّا يُرادُ بِي منَ القَتلِ حتَّى أبلِّغَ رسَالَةَ رَبِّي، وحتَّى يَقضِيَ اللهُ لِي ولِمَن صَحِبَنِي بمَا شَاءَ**».

فَلَم يَقبلْهُ أحدٌ مِنهُم، ولم يَأتِ أحدٌ مِن تلكَ القبَائلِ إلا قالَ: قومُ الرجُلِ أعلمُ بهِ، أترَونَ أنَّ رَجُلًا يُصلِحُنَا وقد أفسَدَ قَومَهُ ولَفَظُوهُ؟!

ولم يَزَلِ النبيُّ ﷺ عَلى ذَلكَ مِن أمرِهِ، كلَّما اجتمَعَ الناسُ بالموسمِ، أتاهُم يَدعُو القبائلَ إلى اللهِ وَإلى الإسلامِ، ويَعرضُ عليهِمْ نَفسَهُ وما جَاءَ بِهِ منَ الهُدَى

والرَّحمةِ، ولا يَسمَعُ بقَادمٍ يقدُمُ مكَّةَ منَ العَربِ لهُ اسمٌ وشَرفٌ، إلا تصَدَّى لهُ ودعَاهُ إلى اللهِ تعَالى، وعَرضَ عَليهِ مَا عِندَهُ.

فلمَّا أرادَ اللهُ إظهَارَ دِينِهِ، وإعزازَ نَبيِّهِ ﷺ، وإنجازَ مَوعِدِهِ لهُ، خرجَ رسُولُ اللهِ ﷺ في المُوسمِ الذِي لقِيَهُ فيهِ النَّفرُ من الأنصَارِ، فعرضَ نَفسَهُ على قبائلِ العَربِ كمَا كانَ يصنعُ فِي كُلِّ مَوسمٍ، فبَينَا هو عِندَ العَقبَةِ لقِيَ ستَّةَ نَفرٍ منَ الخَزرجِ أرَادَ اللهُ بِهم خَيرًا، فلمَّا لقِيَهُم رسُولُ اللهِ ﷺ قالَ لَهُم: «**مَن أنتُم؟**»، قالُوا: نفَرٌ منَ الخَزرجِ، قالَ: «**أفَلَا تجلِسُونَ أُكَلِّمكُم؟**»، قالُوا: بَلى، فجلَسُوا معَهُ فدعَاهُم إلَى اللهِ، وعرضَ عَليهِم الإسلامَ، وتَلَا عليهِم القُرآنَ.

وكانَ مِن قصَّةِ الخَزرجِ أن اليَهودَ كانُوا مَعهُم فِي بِلادهِم، وكانُوا أهلَ كتَابٍ وعِلمٍ، وكانَ الخزرجُ أهلَ شِركٍ وأصحَابَ أوثَانٍ، وكانُوا إذَا حدَثَ بَينَهُم وبينَ اليَهُودِ شيءٌ منَ الجدالِ والخُصومَةِ، قالتِ اليَهودُ: إنَّ نبيًّا مَبعوثٌ الآنَ قَد أظلَّ زمَانُهُ، نتَّبعُهُ ونقتُلُكُم معَهُ قَتلَ عَادٍ وإرَمَ، فلمَّا كلَّمَ رسُولُ اللهِ ﷺ أولئِكَ النَّفرَ، ودعَاهُم إلى اللهِ، قالَ بَعضُهُم لبَعضٍ: يَا قَومِ، تَعلمَونَ وَاللهِ إنَّهُ للنَّبيُّ الذِي تَوعَّدكُم بِهِ يَهودُ، فَلَا يَسبقُونكُم إلَيهِ.

فأجابُوهُ فيمَا دعَاهُم إلَيهِ، وصدَّقوهُ وقَبِلُوا منهُ مَا عَرضَ عَليهِم منَ الإسلامِ، وقالُوا لهُ: إنَّا قَد تَركنَا قَومنَا ولا قَومَ بَينَهُم من العَداوَةِ والشرِّ مَا بَينَهُم، فعسَى اللهُ أن يجمَعَهُم بكَ، فسنقدُمُ عَليهِم فنَدعُوهُم إلَى أمرِكَ، ونَعرضُ عَليهِم الذِي أجبنَاكَ إليهِ مِن هذَا الدِّينِ، فإن يَجمَعْهُم اللهُ عَليكَ فَلا رجُلَ أعَزُّ مِنكَ، ثُم انصرَفُوا رَاجِعِينَ إلَى بلادِهِم، قَد آمَنُوا وصَدَّقُوا، ووَاعَدُوهُ إلى قَابلٍ.

فلمَّا قَدِمُوا المدينَةَ إلى قَومِهِم، ذكرُوا لهُم رسُولَ اللهِ ﷺ، ودَعَوْهُم إلى الإسلَامِ حتَّى فشَا فِيهِم، فَلَم يَبقَ دارٌ مِن دُورِ الأنصَارِ إلا وفِيهَا ذِكرُ رسُولِ اللهِ ﷺ.

قالَ جابِرُ بنُ عَبدِ اللهِ رضي الله عنهما: مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بمَكَّةَ عَشرَ سِنِينَ يَتبَعُ الناسَ فِي منَازِلِهِم بعُكاظٍ ومَجَنَّةَ، وفي المَواسِمِ بمِنًى، يقُولُ: «**مَن يُؤوِينِي، مَن يَنصُرُنِي حتَّى أبلِّغَ رسَالَةَ رَبِّي ولَهُ الجنَّةُ؟**» فلا يجِدُ أحدًا يُؤويهِ ولا يَنصُرُهُ، حتَّى إن الرجُلَ ليَخرُجُ مِنَ اليمنِ أو مِن مُضَرَ، فيَأتِيهِ قَومُهُ فيَقُولُونَ: احذَرْ غُلامَ قُريشٍ لا يَفتِنُكَ، ويَمشِي بَينَ رحَالِهِم وهُم يُشيرُونَ إلَيهِ بالأصَابعِ، حتَّى بَعثَنَا اللهُ إلَيهِ مِن يَثرِبَ، فآوَينَاهُ وصَدَّقنَاهُ، فيخرُجُ الرجُلُ منَّا فَيؤمِنُ بهِ ويُقرِئُهُ القُرآنَ، فيَنقَلِبُ إلى أَهلِهِ فيُسلِمُونَ بإسلامِهِ، حتَّى لَم يَبقَ دارٌ مِن دُورِ الأنصَارِ إلَّا وفِيهَا رَهطٌ منَ المُسلِمينَ يُظهِرُونَ الإسلامَ.

فلمَّا كانَ العامُ المُقبلُ حضَرَ المَوسِمَ مِنَ الأنصَارِ اثنَا عَشرَ رجُلًا، وعزَمُوا عَلى الاجتمَاعِ برَسُولِ اللهِ ﷺ، فلَقَوهُ بِالعَقبَةِ، فبَايعُوهُ عندَهَا بَيعَةَ العَقبةِ الأُولَى، ألَّا يُشرِكُوا باللهِ شيئًا، ولا يَسرقُوا، ولا يَزنُوا، ولا يَقتُلُوا أولادَهُم، ولا يَأتُوا ببُهتَانٍ يَفترونَهُ بَينَ أيدِيهِم وأرجُلِهِم، ولا يَعصُونَهُ في مَعرُوفٍ.

قالَ عُبادَةُ بنُ الصَّامتِ رضي الله عنه: بَايَعَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيلَةَ العَقبَةِ الأُولَى ألَّا نُشرِكَ بِاللهِ شيئًا، ولا نَسرِقَ، ولا نَزنِي، ولا نَقتُلَ أَولادَنَا، ولا نَأتِي ببُهتانٍ نَفترِيهِ بينَ أيدِينَا وأرجُلِنَا، ولا نَعصِيهِ فِي مَعروفٍ، فإن وَفَّيْتُم فلَكُمُ الجنَّةُ، وإن غَشِيتُم مِن ذلكَ شَيئًا فأُخِذْتُم بِحَدِّهِ فِي الدنيَا فَهُو كفَّارَةٌ لَهُ، وإنْ سُترتُم عَليهِ إلَى يومِ القِيَامَةِ فأمرُكُم إلَى اللهِ، إن شاءَ عَذَّبَ وإن شَاءَ غَفَرَ.

فلمَّا انصرَفَ عنهُ القَومُ، بَعثَ رسُولُ اللهِ ﷺ مَعهُم مُصعَبَ بنَ عُمَيرٍ، وأمرَهُ أن يُقرِئَهُمُ القُرآنَ، ويُعلِّمَهُمُ الإسلامَ، ويُفَقِّهَهُم فِي الدِّينِ.

فنَزَلَ مُصعَبٌ رضي الله عنه عَلى أَسعَدَ بنِ زُرَارَةَ، وكانَ سعدُ بنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه ابنَ خَالَةِ أسعَدَ ابنِ زُرارَةَ رضي الله عنه، فدخَلَ مُصعَبٌ وأسعَدُ بُستَانًا مِن بسَاتينِ المَدينَةِ، فجلسَا في البُستانِ واجتمَعَ إلَيهمَا رجَالٌ ممَّنْ أسلَمَ، وكانَ سَعدُ بنُ مُعاذٍ وأُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ رضي الله عنهما يَومَئذٍ سَيِّدَا قَومِهمَا من بَنِي عبدِ الأشهَلِ، وكلاهُمَا مُشركٌ على دِينِ قَومِهِ، فلمَّا سمِعَا بهِ، قالَ سَعدٌ لأُسيدٍ: لَا أبَا لَكَ، انطلِقْ إلى هذَا الرجُلِ الذِي قَد أتَى دَارَنَا ليُسَفِّهَ ضُعفَاءَنَا فازجُرْهُ، وانْهَهُ عن أن يأتِيَ دارَنَا، فإنَّهُ لَولا أسعَدُ بنُ زُرارَةَ منِّي حيثُ قَد عَلمتَ، كفَيتُكَ ذَلكَ، لكنَّهُ ابنُ خَالَتِي ولا أجدُ عَليهِ مَقدَمًا.

فأخَذَ أُسيدُ بنُ حُضَيرٍ حَربَتَهُ ثُمَّ أقبَلَ إلَيهِمَا، فلمَّا رَآهُ أسعَدُ بنُ زُرارَةَ رضي الله عنه، قَالَ لمُصعَبٍ: هذا سَيدُ قَومِهِ، وقد جَاءَكَ فاصدُقِ اللهَ فِيهِ، قالَ مُصعبٌ: إن يَجلِسْ أُكلِّمْهُ، فوَقَفَ عَليهِمَا مُغضَبًا ثم قالَ: مَا جاءَ بكَ إلَينَا تُسفِّهُ ضُعفاءَنَا؟ اعتزِلْنَا إن كَانَت لكَ بنَفسِكَ حَاجةٌ.

فقالَ لهُ مُصعبٌ: أَوْ تَجلسُ فتَسمَعُ، فإنْ رَضِيتَ أَمرًا قَبِلتَهُ، وإن كَرهتَهُ كفَفْتُ عنكَ مَا تَكرَهُ، قالَ: أنصَفْتَ، فرَكَزَ حَربتَهُ وجلسَ إليهِمَا، فكَلَّمَهُ مُصعَبٌ بالإسلَامِ، وقرَأَ عَليهِ القُرآنَ، حتَّى عُرِفَ فِي وَجهِهِ الإسلامُ قَبلَ أن يَتكَلَّمَ، فِي إشراقِهِ وتَسَهُّلِهِ، فَقَالَ: ما أحسَنَ هذَا وأجمَلَهُ! كيفَ تَصنَعُونَ إذَا أردتُم أنْ تَدخُلُوا في هذَا الدِّينِ؟ قالَ: تَغتسلُ، فتَطَّهَّرُ، وتُطَهِّرُ ثَوبَيْكَ، ثُم تشهَدُ شَهادَةَ الحَقِّ، فقامَ فاغتَسَلَ وطَهَّرَ ثَوبَيْهِ وتَشهَّدَ شَهادَةَ الحَقِّ، ثُم قامَ فَركَعَ رَكعَتَينِ، ثمَّ قالَ لَهُما: إن

ورَائِي رَجُلًا إنِ اتَّبَعَكُمَا لم يَتَخَلَّف عَنهُ أحَدٌ مِن قَومِهِ، وسَأُرسِلُهُ إلَيكُمَا الآنَ، ثُم أخذَ حربَتَهُ وانصرَفَ إلَى سعدٍ وقَومِهِ وهُم جُلوسٌ في مَجلِسِهِم، فلمَّا نظَرَ إلَيهِ سَعدُ بنُ مُعَاذٍ مُقبِلًا قالَ: أحلِفُ باللهِ لقَد جَاءَكُم أُسَيدٌ بغَيرِ الوَجهِ الذِي ذَهبَ بِهِ مِن عِندِكُم.

فلمَّا وقفَ عَلى مَجلِسِهِم قالَ لهُ سَعدٌ: مَا فَعلتَ؟ قَالَ: كَلَّمتُ الرجُلَينِ، فَوَاللهِ مَا رأيتُ بِهِمَا بَأسًا، وقَد نَهيتُهُما فقَالَا: نَفعَلُ مَا أَحبَبْتَ، وقَد حُدِّثتُ أن بَنِي حارِثَةَ قَد خرجُوا إلَى أسعدَ بنِ زُرارَةَ ليَقتُلُوهُ، وذلكَ أنَّهم عرفُوا أنهُ ابنُ خَالتِكَ ليخفِرُوكَ، فقامَ سعدُ بنُ مُعاذٍ ﷺ مُغضَبًا مُبادرًا مُتخَوِّفًا منَ الذِي ذُكِرَ لهُ عَن بنِي حارِثَةَ، وأخذَ الحَربَةَ في يدِهِ ثُم قالَ: واللهِ مَا أَرَاكَ أغنَيتَ شَيئًا، ثم خرجَ إليهِما، فلمَّا أقبلَ إليهِمَا قالَ أسعَدُ لمُصعبٍ: جاءَكَ واللهِ سيدٌ مِن ورَائِهِ قَومُهُ، إن يَتَّبِعْكَ لا يَتخَلَّفُ عنكَ مِنهُم اثنَانِ.

فلمَّا رآهُمَا سعدٌ مطمئِنَّينِ عرفَ أنَّ أسيدًا إنمَا أرادَ مِنهُ أن يَسمَعَ مِنهُما، فوقفَ عليهِمَا مُغضبًا ثم قَالَ لأسعدَ بنِ زُرارَةَ: يا أبَا أمامَةَ، واللهِ لولَا مَا بينِي وبَينَك منَ القرابَةِ مَا بَلغتَ هَذا منِّي، أتغشَانَا في دَارنَا بمَا نكرَهُ؟

فقالَ له مُصعبٌ ﷺ: أَوْ تقعدُ فتَسمَعُ، فإن رَضِيتَ أَمرًا ورَغِبتَ فِيهِ قَبِلْتَهُ، وإن كَرِهتَهُ عزَلنَا عَنكَ مَا تَكرَهُ، قالَ سعدٌ: أنصَفْتَ، ثُم ركزَ الحَربَةَ وجَلسَ، فعَرَضَ عَليهِ الإسلَامَ، وقَرأَ علَيهِ القُرآنَ، فَعُرِفَ في وَجهِهِ الإسلَامُ قَبلَ أَن يتكَلَّمَ لإشرَاقِهِ وتَسهُّلِهِ، فقالَ لهُمَا: كيفَ تَصنَعُونَ إذَا أنتُم أسلَمتُم ودخَلتُم فِي هذَا الدِّينِ؟ قالَ: تَغتسِلُ فتَطَّهَّرُ، وتُطهِّرُ ثَوبَيْكَ، ثُم تَشهدُ شهَادَةَ الحَقِّ، فقامَ فاغتَسَلَ وطهَّرَ ثَوبَيْهِ

وشهِدَ شهَادَةَ الحقِّ، ثُم ركعَ رَكعتَينِ، ثُم أخذَ حربَتَهُ ومضَى إلى قَومِهِ.

فأقبلَ عامِدًا إلى مَجلسِ قَومِهِ ومَعهُ أُسيدُ بنُ حُضيرٍ، فلمَّا رآهُ قَومُهُ مُقبلًا قالُوا: نحلِفُ باللهِ لَقَد رجَعَ إلَيكُم سَعدٌ بغَيرِ الوَجهِ الذِي ذَهبَ بِهِ مِن عِندِكُم.

فلما وقَفَ عَليهِم قَالَ: يَا بَنِي عبدِ الأشْهَلِ، كيفَ تَعلَمونَ أمرِي فِيكُم؟ قالُوا: سيدُنَا، وأفضَلُنَا رَأيًا، وأيمَنُنَا نَقيبَةً، قالَ: فإنَّ كلامَ رجَالِكُم ونِسائِكُم عليَّ حَرَامٌ حتَّى تُؤمِنُوا باللهِ ورَسُولِهِ، فمَا أمسَى في دَارِ بنِي عبدِ الأَشهَلِ رجلٌ ولَا امرَأةٌ إلا مُسلِمًا أَو مُسلمَةً، ورجَعَ أسعدُ ومُصعبٌ ﭬ إلى مَنزِلِ أسعَدَ بنِ زُرارَةِ، فأقَامَا يَدعوانِ الناسَ إلَى الإسلامِ، حتَّى لَم تَبقَ دَارٌ مِن دُورِ الأنصَارِ إلا وفِيهَا رجالٌ ونساءٌ مسلمونَ، إلا نَفرٌ قليلٌ تأخَّرَ إسلامُهُم إلَى مَا بَعدَ غَزوَةِ الخَندَقِ.

ثُم رجعَ مُصعبُ بنُ عُميرٍ إلَى مَكةَ، وخَرجَ مَن خَرجَ مِنَ الأنصَارِ مِن المُسلمينَ مع حُجَّاجِ قَومِهِم مِن أهلِ الشِّركِ حتَّى قَدِمُوا مكَّةَ، وكانُوا يكتُمُونَ أَمرَهُم عَنهُم، ثُم إنَّهُم ائتَمَرُوا بَينَهُم وقَالُوا: حتَّى متَى نَترُكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُطرَدُ في جبَالِ مكَّةَ ويُخَافُ؟ فواعَدُوا رسولَ اللهِ ﷺ في العقبَةِ أوسَطَ أيامِ التَّشرِيقِ.

فلمَّا فَرَغُوا مِنَ الحجِّ وكانَتِ اللَّيلَةُ التِي وَاعدُوا فيهَا رسُولَ اللهِ ﷺ، كانَ مَعهُم عبدُ اللهِ بنُ عَمرِو بنِ حَرامٍ أَبُو جَابرٍ، سَيدٌ مِن سادَاتِهِم وشَريفٌ مِن أشرَافِهِم، فقَالُوا لَهُ: يَا أبا جَابر، إنكَ سيدٌ مِن سادَاتِنَا، وشريفٌ مِن أشرَافِنَا، وإنَّا نَرغَبُ بكَ عمَّا أنتَ فيهِ أن تكُونَ حَطَبًا للنارِ غَدًا، ثُم دَعَوهُ إلى الإسلامِ فأسلَمَ، وأخبَرُوهُ بمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إيَّاهُم العقبَةَ، لِيَشهَدَهَا مَعهُم.

فنامُوا تلكَ الليلَةَ معَ قَومِهِم في رِحالِهِم، حتى إذَا مضَى ثلثُ الليلِ، خرَجُوا

مِن رحالِهِم لمِيعادِ رسُولِ اللهِ ﷺ، يتسَلَّلونَ تَسلُّلَ القَطَا مُستَخفِينَ، حتى اجتمَعُوا في الشِّعبِ عندَ العقبَةِ ينتظرونَ رسُولَ اللهِ ﷺ، وهُم ثلاثةٌ وسَبعونَ رَجُلًا، ومَعهُم امرأتَانِ من نِسَائِهِم: أمُّ عُمارَةَ نُسيبَةُ بِنتُ كَعبٍ، وأسمَاءُ بنتُ عَمرِو بنِ عَدِيٍّ.

فجاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وكانَ مَعهُ العبَّاسُ بنُ عَبدِ المُطَّلبِ، وهُو يَومَئذٍ على دِينِ قومِهِ، إلَّا أنهُ أحَبَّ أن يَحضُرَ أمرَ ابنِ أخِيهِ ويتَوثَّقَ لهُ، فلمَّا جلَسُوا كانَ العبَّاسُ ابنُ عبدِ المُطَّلبِ أوَّلَ مُتكَلِّمٍ، فقَالَ: يَا مَعشَرَ الخَزرَجِ، -وكَانَت العَربُ تُسمِّي هَذا الحَيَّ من الأنصَارِ الخَزرجَ -خَزرَجَهَا وأوسَهَا- إن مُحمَّدًا منَّا حيثُ عَلمتُم، وقد منعنَاهُ مِن قَومِنَا ممَّن هُو عَلى مِثلِ رَأينَا فِيهِ، فهُوَ في عِزَّةٍ من قَومِهِ ومَنعَةٍ في بَلَدِهِ، وإنهُ قَد أبَى إلا الانحيَازَ إلَيكُم واللحُوقَ بِكُم، فإن كُنتُم ترونَ أنكُم وافُونَ لهُ بمَا دَعوتُمُوهُ إلَيهِ، ومانِعُوهُ ممَّن خالَفَهُ، فأنتُم ومَا تَحمَّلتُم مِن ذلكَ، وإن كُنتُم تَرونَ أنكُم مُسلِمُوهُ وخَاذِلُوهُ بعدَ الخُروجِ بِهِ إلَيكُم، فمِنَ الآنَ فدَعُوهُ، فإنهُ في عِزٍّ ومَنعَةٍ مِن قَومِهِ وبَلَدِهِ، فقالُوا لهُ: قد سَمعنَا ما قُلتَ، فتكلَّم يَا رسُولَ اللهِ، فخُذ لنَفسِكَ ولرَبِّكَ مَا أحبَبتَ، فتكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فتَلَا القُرآنَ، ودَعَا إلى اللهِ، وَرَغَّبَ فِي الإسلامِ، وطلَبَ منهُم المبايعَةَ عَلى ذلكَ، فقَالُوا: يا رسُولَ اللهِ، علامَ نُبايعكَ؟ قال: «**تبَايعُوني على السمعِ والطاعَةِ في النشَاطِ والكسَلِ، والنفقَةِ في العُسرِ واليُسرِ، وعَلى الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكرِ، وأن تقُولُوا في اللهِ لا تخَافُونَ في اللهِ لومَةَ لائِمٍ، وعَلى أن تنصُرونِي فتمنَعُونِي إذا قَدِمتُ عَليكُم ممَّا تمنَعُونَ منهُ أنفُسَكُم وأزواجَكُم وأبنَاءَكُمْ، ولَكُم الجنَّةُ**».

فقامُوا إليهِ ليُبايعُوهُ، فأخذَ أسعدُ بنُ زُرارَةَ ﷺ بيَدِهِ، وهُو مِن أصغَرِهِم،

فقالَ: رُويدًا يا أهلَ يَثربَ، فإنَّا لَم نضرِبْ إلَيهِ أكبَادَ الإبلِ إلا ونَحنُ نَعلمُ أنهُ رسُولُ اللهِ، وأن إخراجَهُ اليومَ مُفارقَةُ العَربِ كافَّةً، وقَتلُ خِيَارِكُم، وأن تَعضَّكُمُ السُّيوفُ، فإمَّا أنتُم قومٌ تَصبِرُونَ على ذلكَ، فخُذوهُ وأجرُكُم على اللهِ، وإمَّا أنتُم قومٌ تخافُونَ مِن أنفُسِكُم خيفَةً فَبَيِّنوا ذَلكَ، فهُو أعذَرُ لَكُم عندَ اللهِ، قالُوا: أَمِطْ عنَّا يَا أَسعَدُ، فوَاللهِ لا نَدعُ هَذِه البيعةَ ولا نُسلَبُهَا أَبدًا.

وقالَ العباسُ بنُ عُبادةَ بنِ نَضلَةَ الأنصَاريُّ: يا مَعشرَ الخَزرجِ، هَل تَدرُونَ عَلَامَ تبايعُونَ هذَا الرجُلَ؟ قالُوا: نَعَم، قال: إنكُم تُبايعونَهُ على حَربِ الأحمَرِ والأسوَدِ مِن الناسِ، فإن كُنتُم تَرَونَ أنكُم إذَا نَهَكَتْ أموَالَكُم مُصيبَةٌ، وأشرافَكُم قَتلٌ، أسلمْتُمُوهُ، فمِنَ الآنَ، فهُو واللهِ إن فَعلتُم خِزيُ الدنيَا والآخرَةِ، وإن كنتُم ترَونَ أنكُم وافُونَ لهُ بمَا دعوتُمُوهُ إليهِ عَلى نَهَكَةِ الأموالِ، وقَتلِ الأشرافِ، فخُذوهُ فهوَ واللهِ خيرُ الدنيَا والآخرَةِ، وإنمَا قال العباسُ بنُ عبادَةَ ذلكَ ليَشُدَّ البَيعةَ في أعنَاقِهِم ويُؤكِّدَها عَليهِم.

قالُوا: فإنا نَأخذُهُ عَلى مُصيبَةِ الأموالِ وقتلِ الأشرَافِ، فما لنَا بذَلكَ يا رَسُولَ الله إن نَحنُ وَفَينَا؟ قالَ: «**الجنَّةُ**»، قالُوا: فابسُطْ يدَكَ، فبَسطَ يدَهُ فبايَعُوهُ، فأخذَ عَليهِم وشرَطَ، ويُعطيهِمْ على ذلكَ الجنَّةَ.

وكانَ البَراءُ بنُ مَعرُورٍ ﵁ أولَ مَن بَايَعَ، فأخذَ بيدِ النبيِّ ﷺ ثُم قالَ: نَعَم، فوَالذِي بعثَكَ بالحقِّ لنَمنعنَّكَ ممَّا نمنَعُ مِنهُ أُزُرَنَا، فبَايعْنَا يَا رسُولَ اللهِ، فنحنُ واللهِ أبنَاءُ الحُروبِ، وأهلُ الحَلْقَةِ -أي: السِّلاحِ- ورِثنَاهَا كَابرًا عَن كابِرٍ.

ثُم قامَ أبُو الهَيثمِ بنُ التَّيِّهَانِ فقالَ: يَا رسُولَ اللهِ، إنَّ بَينَنَا وبينَ الرجالِ حِبَالًا

-يَعنِي: اليَهودَ- وإنَّا قَاطعُوهَا، فهَل عَسيتَ إن فَعلنَا ذلكَ ثُم أظهرَكَ اللهُ، أَن تَرجعَ إلَى قومِكَ وتَدعَنَا؟ فتبَسَّمَ رسُولُ اللهِ ﷺ، ثُم قالَ: «**بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، والهَدْمَ الهَدْمَ، أنَا مِنكُم وأنتُم مِنِّي، أحَارِبُ مَن حَاربْتُم، وأُسالِمُ مَنْ سَالَمتُم**».

فلمَّا بايَعُوا رسولَ الله ﷺ رجَعُوا إلى فُرشِهِم فنَامُوا فيهَا حتى الصباحِ، فجَاءَهُم جماعَةٌ مِن قُريشٍ في منَازِلِهِم، فقالُوا: يا مَعشرَ الخَزرجِ، إنهُ قَد بَلغَنَا أنكُم قد جِئتُم إلى صاحبِنَا هذَا، تستخرِجُونَهُ مِن بينِ أظهُرِنَا، وتبايعُونَهُ عَلى حَربِنَا، وإنهُ واللهِ مَا مِن حَيٍّ منَ العرَبِ أبغضُ إلينَا مِن أن تنشِبَ الحربُ بينَنَا وبَينَهُم مِنكُم، فقامَ مَن هناكَ مِن مُشركِي القومِ يَحلِفُونَ: ما كانَ من هَذَا شَيءٌ ومَا عَلِمنَاهُ، وقَد صَدقُوا، حيثُ إنَّ أهلَ البيعَةِ لم يُطلِعُوهُم على أمرِهِم، فصَدَّقَتهُم قُريشٌ وانصَرفُوا عَنهُم.





(١٠) الهِجرَةُ إلى المَدينَةِ

لمَّا رجعَ الأنصارُ الذينَ بَايعُوا رسولَ اللهِ ﷺ لَيلَةَ العَقبَةِ الثانيةِ إلى المَدينَةِ، أظهَرُوا الإسلامَ بِهَا، وقد بَقِي بقَايَا من شُيوخِ قَومِهِم عَلى دِينِهِم مِنَ الشِّركِ، مِنهُم عمرُو بنُ الجَموحِ، وكانَ ابنُهُ مُعاذُ بنُ عَمرٍو ممَّن شَهدَ العَقبَةَ، وكانَ عَمرُو ابنُ الجَمُوحِ مِن سادَاتِ بني سَلِمَةَ وأشرَافِهِم، وكانَ قَد اتخَذَ صَنمًا من خشَبٍ في دارِهِ، يتخذُهُ إلهًا يُعظمُهُ ويُطهِّرُهُ، فلمَّا أسلمَ فتيانُ بنِي سَلِمَةَ، ابنُه معَاذٌ ومُعاذُ ابنُ جَبلٍ، كانُوا إذا غَشِيهُمُ الليلُ قامُوا إلى صَنمِ عَمرٍو، فيَحمِلُونَهُ إلى بَعضِ حُفرِ بنِي سَلِمَةَ التِي يتغَوَّطُ بِها الناسُ، فيَطرَحُونَهُ مُنكَّسًا عَلى رأسِهِ، فإذَا أصبَحَ عَمرٌو قالَ: وَيلَكُم مَن عدَا على إلَهِنَا هذِهِ الليلَةَ؟ ثُم يَغدُو يلتمِسُهُ حتَّى إذَا وجدَهُ غسَلَهُ وطَهَّرَهُ وطَيَّبَهُ، ثُم قالَ: أمَا واللهِ لَو أعلمُ مَن فعلَ هذَا بكَ لأُخزِيَنَّهُ، فإذَا أمسَى ونامَ عَدَوا عليهِ، ففعَلُوا مثلَ ذلكَ، فيَغدُو فيَجدُهُ في مثلِ مَا كانَ فِيهِ منَ الأذَى، فيَغسلُهُ ويُطهِّرُهُ ويُطَيِّبُهُ، ثُم يَغدُونَ عليهِ إذا أمسَى، فيفعَلُونَ بهِ مثلَ ذَلكَ.

فلمَّا أكثَرُوا عليهِ استخرَجَهُ يَومًا فغسلَهُ وطهَّرَهُ وطيَّبَهُ، ثمَّ جاءَ بسَيفِهِ فعلَّقَهُ عَليهِ، ثم قالَ لهُ: إنِّي واللهِ مَا أعلَمُ مَن يصنعُ بكَ مَا أرَى، فإن كَانَ فيكَ خَيرٌ فامتَنِعْ، فهَذَا السيفُ معَكَ.

فلمَّا أمسَى عمرٌو ونَام غَدَوْا عليهِ، فأخذُوا السيفَ مِن عنقِهِ، ثُم أخذُوا كلبًا

مَيتًا فقرَنُوهُ بِهِ بحبلٍ، ثمَّ ألقَوْهُ في بئرٍ من آبَارِ بَنِي سلِمَةَ فيهَا عَذِرَةُ الناسِ، وغدَا عمرُو بنُ الجَمُوحِ فلَم يَجدْهُ في مكَانِهِ الذِي كانَ بهِ، فخرَجَ يتبعُهُ حتى وجدَهُ في تِلكَ البِئرِ مُنكَّسًا مَقرُونًا بكلبٍ مَيتٍ.

فلمَّا رآهُ أبصرَ شَأنَهُ، وكلمَهُ مَن أسلَمَ مِن قومِهِ، فأسلَمَ برَحمَةِ اللهِ، وحَسُنَ إسلامُهُ، فقالَ حينَ أسلَمَ وعَرفَ مِنَ اللهِ ما عَرفَ، وهو يذكُرُ صنَمَهُ ذلكَ، وما أبصَرَ مِن أمرِهِ، ويشكُرُ اللهَ الذِي أنقذَهُ مما كانَ فِيهِ منَ العمَى والضَّلالَةِ:

واللَّـهِ لَـو كُـنْتَ إلَهًـا لَـم تَكُـنْ ... أَنـتَ وَكَلـبٌ وَسْـطَ بِئـرٍ فِـي قَـرَنْ

أُفٍّ لمَلقَـاكَ إلَهًـا مُـسْتَدَنْ ... الآنَ فَتَّـشنَاكَ عَـن سُـوءِ الغَـبَنْ

الحَمـدُ للَّـهِ العَلِـيِّ ذِي المِـنَنْ ... الـوَاهبِ الـرَّزَّاقِ دَيَّـانِ الـدِّيَنْ

هُـوَ الـذِي أنقَذَنِـي مِـن قَـبْلِ أَنْ ... أَكُـونَ فِـي ظُلمَـةِ قَبْـرٍ مُـرتَهَنْ

ولما أذِنَ اللهُ سُبحانَهُ، وبايعَ الأنصارُ رضي الله عنهم رسُولَ اللهِ ﷺ عَلى الإسلامِ، والنصرَةِ لهُ ولمَنِ اتَّبعَهُ وأَوَى إليهِم منَ المُسلمِينَ، أمرَ رسُولُ اللهِ ﷺ أصحابَهُ ممَّن كانَ معَهُ بمَكَّةَ مِنَ المُسلِمِينَ بالخُروجِ إلى المَدينَةِ والهِجرَةِ إليهَا واللحُوقِ بإخوَانِهِم مِنَ الأنصَارِ، وكانَ النَّبيُّ ﷺ قَد رَأى المَدينَةَ في منَامِهِ وأنَّها ستكُونُ دارَ هِجرَتِهِ وأصحَابِهِ، فقَد قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ للمُسلِمِينَ وهُو يَومَئِذٍ بمكَّةَ: «**قَد أُريتُ دارَ هجرَتِكُم، أُريتُ سَبخَةً ذَاتَ نَخلٍ بينَ لابَتَيْنِ**»، وقالَ ﷺ: «**رَأيتُ في المنَامِ أنِّي أهَاجِرُ مِن مَكَّةَ إلَى أرضٍ بهَا نَخلٌ، فذَهَبَ وَهلِي إلَى أنَّها اليمَامَةُ أو هَجرُ، فإذَا هِيَ المَدينَةُ يَثرِبُ**».

فهاجَرَ مَن هاجَرَ إلى المَدينَةِ حينَ ذَكرَ رسُولُ اللهِ ﷺ ذلكَ، ورجعَ إلى

المَدينَةِ مَن كانَ هاجَرَ إلى أرضِ الحَبشَةِ مِنَ المُسلِمينَ.

وكانَ أَولَ مَن هَاجَرَ إلَى المدينَةِ مِن أصحَابِ رسُولِ اللهِ ﷺ منَ المُهَاجرينَ مِن قريشٍ أبُو سَلمَةَ عَبدُ اللهِ بنُ عبدِ الأسَدِ ﵁، وقَد أصابَهُ وأهلَهُ في هِجرَتِهِم كَربٌ شَديدٌ ومَشقَّةٌ وبَلاءٌ.

قالَت أمُّ سلَمَةَ ﵂: لمَّا أجمعَ أبُو سلَمَةَ الخُروجَ إلى المَدينَةِ رَحَّلَ لِي بَعيرَهُ، ثُم حمَلَنِي عَليهِ، وجعَلَ ابنِي سَلمَةَ فِي حِجْرِي، ثُم خرَجَ يَقُودُ بِي بَعيرَهُ، فلمَّا رَأتهُ رجالُ بنِي المُغيرَةِ قامُوا إلَيهِ، فقَالُوا: هذِهِ نَفسُكَ غَلبْتَنَا عَليهَا، أرأيتَ صَاحبَتَنَا هَذِهِ علامَ نَترُكُكَ تَسيرُ بِهَا في البِلادِ؟ فنزَعُوا خطامَ البَعيرِ مِن يَدِهِ، وأخذُونِي مِنهُ، وغَضبَ عندَ ذلكَ بنُو عَبدِ الأسدِ رَهطُ أبِي سَلمَةَ، فقَالُوا: واللهِ لا نَترُكُ ابننَا عندَهَا إذ نَزعتُمُوهَا مِن صَاحِبنَا، فتجَاذَبُوا ابنِي سَلمَةَ بَينَهُم حتَّى خَلعُوا يَدَهُ، وانطَلقَ بهِ بنُو عَبدِ الأسدِ، وحبَسنِي بنُو المغيرَةِ عِندَهُم، وانطَلقَ زَوجِي أبُو سلَمَةَ إلَى المَدينَةِ، ففُرِّقَ بَينِي وبَينَ ابنِي وبَينَ زَوجِي، فكُنتُ أخرُجُ كُلَّ صباحٍ فأجلِسُ في الأَبطَحِ، فَمَا أَزَالُ أَبكِي حَتَّى أُمسِي، سَنَةً أو قَرِيبًا مِنهَا.

حَتَّى مَرَّ بِي رَجُلٌ مِن بَنِي عَمِّي أَحَدُ بَنِي المُغِيرَةِ، فَرَأَى مَا بِي فَرَحِمَنِي، فَقَالَ لِبَنِي المُغِيرَةِ: أَلا تُخرِجُونَ هَذِهِ المِسكِينَةَ؟ فَرَّقتُم بَينَهَا وَبَينَ زَوجِهَا وَبَينَ وَلَدِهَا؟!

فَقَالُوا لِي: الحَقِي بِزَوجِكِ إن شِئتِ، وَرَدَّ بَنُو عَبدِ الأَسَدِ إِلَيَّ عِندَ ذَلِكَ ابنِي.

فَارتَحَلتُ بَعِيرِي، ثُمَّ أَخَذتُ ابنِي فَوَضَعتُهُ فِي حِجرِي، ثُمَّ خَرَجتُ أُرِيدُ زَوجِي بِالمَدِينَةِ، وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِن خَلقِ اللهِ.

حَتَّى إِذَا كُنتُ بِالتَّنعِيمِ لَقِيتُ عُثمَانَ بنَ طَلحَةَ، فَقَالَ: إِلَى أَينَ يَا ابنَةَ أَبِي أُمَيَّةَ؟ قُلتُ: أُرِيدُ زَوجِي بِالمَدِينَةِ.

قَالَ: أَوَمَا مَعَكِ أَحَدٌ؟ قُلتُ: مَا مَعِي أَحَدٌ إِلَّا اللهُ وَابني هَذَا، فَقَالَ: وَاللهِ مَا لَكِ مِن مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ البَعِيرِ فَانطَلَقَ مَعِي يَهوِي بِي، فَوَاللهِ مَا صَحِبتُ رَجُلًا مِنَ العَرَبِ قَطُّ أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكرَمَ مِنهُ، كَانَ إِذَا بَلَغَ المَنزِلَ أَنَاخَ بِي، ثُمَّ استَأخَرَ عَنِّي حَتَّى إِذَا نَزَلتُ استَأخَرَ بِبَعِيرِي فَحَطَّ عَنهُ ثُمَّ قَيَّدَهُ فِي الشَّجَرِ، ثُمَّ تَنَحَّى إِلَى شَجَرَةٍ فَاضطَجَعَ تَحتَهَا.

فَإِذَا دَنَا الرَّوَاحُ قَامَ إِلَى بَعِيرِي فَقَدَّمَهُ فَرَحَّلَهُ، ثُمَّ استَأخَرَ عَنِّي وَقَالَ: اركَبِي، فَإِذَا رَكِبتُ فَاستَوَيتُ عَلَى بَعِيرِي أَتَى فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ فَقَادَنِي حَتَّى يَنزِلَ بِي.

فَلَم يَزَل يَصنَعُ ذَلِكَ بِي حَتَّى أَقدَمَنِي المَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى قَريَةِ بَنِي عَمرِو ابنِ عَوفٍ بِقُبَاءٍ وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ نَازِلًا بِهَا، قَالَ: زَوجُكِ فِي هَذِهِ القَريَةِ، فَادخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، ثُمَّ انصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ.

فَكَانَت أُمُّ سَلَمَةَ ﵂ بعد ذَلِك تَقُولُ: مَا أَعلَمُ أَهلَ بَيتٍ فِي الإِسلَامِ أَصَابَهُم مَا أَصَابَ آلَ أَبِي سَلَمَةَ، وَمَا رَأَيتُ صَاحِبًا قَطُّ كَانَ أَكرَمَ مِن عُثمَانَ بنِ طَلحَةَ.

ولما هَمَّ عُمرُ بنُ الخطابِ ﵁ على الهِجرَةِ، اتفقَ مع عيَّاشِ بنِ أَبِي رَبيعَةَ وهشَامِ بنِ العَاصِ، وتواعَدُوا على الاجتمَاعِ في مكَانٍ يُقالُ لَهُ: سَرِفٌ، وقالَ بَعضُهُم لبَعضٍ: أَيُّنَا لَم يُصبِحْ عِندَهَا فقَد حُبِسَ، فليَمْضِ صاحِبَاهُ.

فأصبَحَ عُمرُ وعيَّاشٌ عِندَ سَرِفٍ، وحُبِسَ هشَامٌ وفُتِنَ فافتَتَنَ، فلمَّا قَدِمَ عُمرُ وصَاحِبُهُ إلَى المَدينَةِ نَزَلَا فِي بَنِي عَمرِو بنِ عَوفٍ بقُبَاءٍ، وخَرجَ أبُو جَهلِ بنُ هِشَامٍ وصَاحبٌ لهُ إلى عياشٍ -وكانَ أبُو جَهلٍ ابنَ عمِّهِ وأخاهُ لأمِّهِ-، حتَّى قدِمَ المَدينَةَ، فكلَّمهُ وقالَ لهُ: إن أمَّكَ قد نَذَرتْ ألَّا يمَسَّ رأسَهَا مِشطٌ ولا تَستظِلَّ مِن شَمسٍ حتى ترَاكَ، فرَقَّ لهَا، فقالَ لهُ عُمرُ: واللهِ إنمَا يُريدُكَ القومُ ليَفتِنُوكَ عن دِينِكَ فاحذَرْهُم، فواللهِ لَو قَد آذَى أمَّكَ القَملُ لامتَشَطَتْ، ولَو قَد اشتَدَّ عَليهَا حرُّ مكةَ لاستظَلَّت، قالَ: أبَرُّ قَسَمَ أمِّي ولِي هُنالكَ مالٌ فآخذُهُ، فقالَ عُمرُ: واللهِ إنكَ لتعلَمُ أنِّي لَمِن أكثَرِ قُريشٍ مَالًا، فلكَ نِصفُ مَالِي ولَا تَذهَب مَعهُمَا، فأبَى عليهِ إلَّا أن يَخرُجَ مَعهُمَا، فلمَّا أبَى إلَّا ذلكَ قالَ لهُ عُمرُ: أمَا إذْ قَد فعَلتَ مَا فعَلتَ، فخُذ ناقَتِي هذِهِ فإنَّها ناقَةٌ نَجيبَةٌ ذَلولٌ، فالزَمْ ظهرَهَا، فإنْ رَابَكَ مِن أمرِ القَومِ رَيبٌ فانْجُ عَليهَا، فخرَجَ عَليهَا مَعهُمَا، حتَّى إذا كانُوا ببَعضِ الطريقِ، قالَ لهُ أبُو جهلٍ: يَا أخِي، واللهِ لقَد استغلَظتُ بَعيرِي هذَا، أفَلَا تَحمِلُنِي عَلى نَاقتِكَ هذِهِ؟ قَالَ: بَلى، فأناخَا ليَتَحَوَّلَ عَليهَا، فلمَّا استوَوْا بالأرضِ عدَوَا عليهِ، فأوثقَاهُ رِبَاطًا، ثُم دخَلا به مكَّةَ، وفتَنُوهُ فَافتَتَنْ.

ولمَّا خرجَ صُهيبُ بنُ سِنَانٍ ﷺ مُهَاجِرًا، قالَ لهُ كفَّارُ قُريشٍ: أتَيتَنَا صُعلوكًا حقيرًا، فكثُرَ مالُكَ عندَنَا وبَلغتَ الذِي بَلغتَ، ثُم تُريدُ أن تَخرُجَ بمَالِكَ ونَفسِكَ؟ واللهِ لا يَكُونُ ذَلكَ، فقالَ لَهُم صُهيبٌ: أرَأيتُم إن جَعلتُ لكُم مَالِي أتُخَلُّون سَبِيلِي؟ قالُوا: نَعَم، قالَ: فإنِّي قَد جَعلتُ مَالي لَكُم، فبَلغَ ذلكَ رسُولَ اللهِ ﷺ فقَالَ: «**رَبحَ صُهَيبٌ، رَبِحَ صُهَيبٌ**».

ثمَّ تتابَعَ المُهاجرونَ رضي الله عنهم على الهجرةِ إلى المدينةِ، فارِّينَ بدِينِهِم مِنَ الفِتَنِ، ومُفَارِقِينَ المَالَ والأهلَ والوَطنَ، طَلَبًا لمَا عِندَ الله مِنَ الجزَاءِ، وطَمَعًا في جنَّةِ اللهِ ورِضوَانِه.

وأقامَ رسولُ اللهِ ﷺ بمكَّةَ بعدَ أصحَابِهِ مِنَ المُهاجِرينَ ينتظرُ أن يُؤذنَ لهُ في الهجرَةِ، ولَم يتخَلَّف مَعهُ بمَكَّةَ إلَّا أبُو بَكرٍ الصديقُ وعَليُّ بنُ أبِي طالبٍ رضي الله عنهما، ومَن حُبِسَ أَو فُتِنَ، وكانَ أبُو بَكرٍ كَثِيرًا مَا يَستَأذِنُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ في الهِجرَةِ، فيَقُولُ لَهُ: «**لا تَعجَل لعَلَّ اللهَ أَن يَجعَلَ لَكَ صَاحِبًا**»، فيَطمَعُ أبُو بَكرٍ أن يَكُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وأرشَدَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ وألهَمَهُ أن يَدعُوَ اللهَ بِأن يَجعَلَ لَهُ ممَّا هُوَ فِيهِ فَرَجًا قَرِيبًا ومَخرَجًا عَاجِلًا، وأنزَلَ عَليهِ: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾ [الإسراء:٨٠]، قالَ أهلُ العِلمِ: ﴿أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾: المَدينَةَ، ﴿وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾: الهِجرَةَ مِن مَكَّةَ.

ثُمَّ أذِنَ اللهُ سبحانه وتعالى لنَبيِّهِ ﷺ في الهِجرَةِ إلَى المَدينَةِ النَّبويَّةِ حيثُ الأنصَارُ والأحبَابُ، فصَارَتْ لَهُ دَارًا وقَرَارًا، وصارَ أهلُهَا لهُ أنصَارًا.

ولمَّا رَأتْ قُريشٌ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قَد صارَ لهُ جماعَةٌ وأصحَابٌ مِن غيرِ بلدِهِم، ورَأَوْا خُروجَ أصحابِهِ منَ المُهاجِرِينَ إليهِم، وعرَفُوا أنَّهُم قَد نزَلُوا دَارَ عِزٍّ وأصابُوا مِنهُم منَعَةً، فقَد حَذِرُوا خُروجَ رسُولِ اللهِ ﷺ إلَيهِم، وعرَفُوا أنهُ قَد أجمَعَ لحَربِهِم، فاجتَمَعُوا في دارِ النَّدوَةِ -وهِي دارُ قُصيِّ بنِ كِلابٍ التِي كانَت قُريشٌ لا تَقضِي أمرًا إلا فيهَا- وأخذُوا يتشَاوَرُونَ فيمَا يصنَعُونَ في أَمرِ رسُولِ اللهِ ﷺ حينَ خَافُوهُ.

فقالَ بعضُهُم لبَعضٍ: إنَّ هذَا الرجلَ قَد كانَ مِن أمرِهِ مَا قَد رَأيتُم، وإنَّا وَاللهِ مَا نأمَنُهُ عَلى الوثُوبِ عَلينَا بمَن قَد اتَّبعَهُ مِن غَيرِنَا، فأجمِعُوا فِيهِ رَأيًا.

فقالَ أبو جهلِ بنُ هشَامٍ: واللهِ إنَّ لي فِيهِ لَرَأيًا مَا أَراكُمْ وَقعتُم عَلَيهِ بَعدُ، قالُوا: ومَا هوَ يا أبَا الحَكَمِ؟ قالَ: أرَى أن نَأخُذَ مِن كلِّ قَبيلَةٍ فتًى شابًّا جَلِيدًا نَسيبًا وَسِيطًا فينَا، ثُمَّ نُعطي كلَّ فتًى مِنهُم سَيفًا صَارِمًا، فيَعمَدُوا إليهِ فيَضرِبُوهُ بِها ضَرْبَةَ رَجلٍ وَاحدٍ، فيَقتُلوهُ فنَستَرِيحَ مِنهُ، فإنَّهُم إذَا فَعَلُوا ذلكَ تَفرَّقَ دمُهُ في القبَائلِ جَمِيعًا، فَلَم يَقدِرْ بَنُو عبدِ منَافٍ عَلى حربِ قَومِهِم جَمِيعًا، وحِينئذٍ يَرضَونَ منَّا بالدِّيَةِ فنَبذُلُهَا لَهُم.

فأتَى جِبريلُ ﷺ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ فقالَ لهُ: لَا تَبِتْ هذِهِ الليلَةَ عَلى فِرَاشِكَ الذِي كُنتَ تَبيتُ عَليهِ.

فلمَّا كَانَت عتمَةٌ مِنَ الليلِ اجتمَعُوا على بابِهِ يرصُدونَهُ متَى ينامُ فَيثِبُونَ عَليه، فلمَّا رَأى رسُولُ اللهِ ﷺ مكانَهُم، قالَ لعليِّ بنِ أَبِي طالبٍ: «**نَمْ عَلى فِرَاشِي، وتَسَجَّ ببُرْدِي هذَا فنَمْ فِيهِ، فإنَّهُ لَن يَخلُصَ إلَيكَ شَيءٌ تكرَهُهُ مِنهُم**»، وكانَ رسُولُ اللهِ ﷺ إذَا أَرَادَ أَن ينامَ تَغطَّى في بُردِهِ ذلكَ.

فلمَّا اجتَمَعُوا على بابِ رسُولِ اللهِ ﷺ وفيهِم أبُو جهلٍ، خرجَ رسُولُ اللهِ ﷺ فأخذَ حَفنَةً مِن تُرابٍ في يَدِهِ، فجَعلَ يَنثُرُ ذلكَ التُّرابَ عَلى رُؤوسِهِم، وهُو يتلُو قولَهُ تَعالَى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس:١-٤] إلَى قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، فأخذَ اللهُ عَلى أبصارِهِم عنهُ فَلا يَرونَهُ، ولَم يَبقَ منهُم

رجلٌ إلَّا وقَد وضَعَ عَلى رأسِهِ تُرابًا، ثُمَّ انصرَفَ إلى حَيثُ أرادَ أن يَذهَبَ، فأتاهُم آتٍ ممَّن لَم يكُنْ معهُم، فقالَ: مَا تنتَظِرُونَ هاهُنا؟ قالُوا: محمدًا، قالَ: خيَّبَكُم اللهُ، قَد واللهِ خَرجَ عَليكُم مُحمَّدٌ وانطلَقَ لحاجَتِهِ، أفمَا تَرونَ مَا بِكُم؟ إنَّهُ مَا تَركَ مِنكُم رَجُلًا إلا وقَد وضَعَ عَلى رأسِهِ تُرَابًا.

فوضَعَ كلُّ رجلٍ مِنهُم يدَهُ عَلى رأسِهِ فإذَا عَليهِ تُرابٌ، ثُمَّ جعلُوا يتطَلَّعُونَ، فيَرونَ عَليًّا عَلى الفِراشِ مُتسَجِّيًا ببُردِ رسُولِ اللهِ ﷺ، فيَقُولونَ: واللهِ إن هذَا لمُحمدٌ نَائمًا عَليهِ بُردُهُ، فلَم يَبرحُوا كذلكَ حتَّى أصبَحُوا، فقامَ عَليٌّ عَن الفِراشِ فقَالُوا: واللهِ لقَد صَدقنَا الذي كانَ حَدَّثَنَا، وأنزلَ اللهُ في ذلكَ اليومِ ومَا كانُوا أجمَعُوا لهُ، قولَهُ تعَالَى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠].

ولمَّا أذِنَ اللهُ لنَبيِّهِ ﷺ بالهجرَةِ، جاءَ إلى بَيتِ أبِي بَكرٍ عندَ اشتِدادِ الحرِّ في نِصفِ النهارِ، فدخلَ عَليهِ وأخبَرهُ بمَا عزَمَ عَليهِ مِن الهِجرَةِ، قالَت عائشَةُ رضي الله عنها: «كانَ لَا يُخطِئُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أن يَأتِي بَيتَ أبِي بَكرٍ أحَدَ طَرَفَي النَّهارِ إمَّا بُكرَةً وإمَّا عشيَّةً، حتَّى إذَا كانَ اليومُ الذِي أذنَ اللهُ فِيهِ لرسُولِهِ ﷺ في الهِجرَةِ، والخُروجِ من مكةَ مِن بَينِ ظهرَانَي قَومِهِ، أتانَا رسولُ اللهِ ﷺ في ساعَةٍ كانَ لَا يأتِي فيهَا، فلمَّا رآهُ أبُو بكرٍ قالَ: مَا جاءَ رسُولُ اللهِ ﷺ هذِهِ الساعَةَ إلا لأَمرٍ قَد حدَثَ.

فلمَّا دخلَ رسولُ اللهِ ﷺ تأخَّرَ لهُ أبُو بكرٍ عَن سَريرِهِ، فجَلسَ ﷺ، وليسَ عندَ أبِي بكرٍ أحدٌ إلا أنَا وأُختِي أسمَاءُ بنتُ أبِي بكرٍ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَخرِجْ عنِّي مَن عندَكَ**»، قالَ: يَا رسُولَ اللهِ، إنَّما هُما ابنتَايَ، وما ذَاك -فِدَاك أبي وأمي-؟

قالَ: «**إنَّ اللهَ قَد أذِنَ لِي فِي الخُروجِ والهِجرَةِ**»، فقالَ أبُو بكرٍ ﷺ: الصُّحبَةَ يَا رسُولَ اللهِ؟ قالَ: «**الصُّحبَة**»، فواللهِ ما شَعرتُ قَطُّ قبلَ ذلكَ اليومِ أنَّ أحَدًا يبكِي منَ الفَرحِ حتى رأيتُ أبَا بكرٍ يَومئذٍ يَبكِي، فقالَ أبُو بكرٍ: يا نبيَّ اللهِ، إن هاتَينِ راحلتَانِ كنتُ أعدَدتُهُما لهَذا، فاستأجَرَا عبدَ اللهِ بنَ أُريْقطٍ، رجُلًا من بنِي الدِّيلِ بنِ بَكرٍ -وكانَ مُشرِكًا- يدُلُّهُمَا على الطريقِ، ودفَعَا إليه راحلتَيْهِمَا، فكانَتَا عندَهُ يرعَاهُمَا لمِيعَادِهِمَا.

ولم يَعلَم بخُروجِ رسُولِ اللهِ ﷺ أحدٌ حينَ خرجَ إلا عَليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأبُو بكرٍ الصديقُ، وآلُ أبِي بَكرٍ، أمَّا عليٌّ فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أمرَهُ أن يتخَلَّفَ حتَّى يُؤَدِّيَ عَن رسولِ اللهِ ﷺ الودائِعَ التي كانَت عندَهُ للناسِ، وكانَ رسُولُ اللهِ ﷺ ليسَ بمَكَّةَ أحدٌ عِندَهُ شيءٌ يخشَى عليهِ إلا وضَعَهُ عِندَهُ، لِمَا يعلَمُ مِن صِدقِهِ وأمَانَتِهِ.

فلمَّا أجمعَ رسُولُ اللهِ ﷺ على الخُروجِ أتَى أبَا بَكرٍ، فخرجَا مِن بابٍ لأبي بَكرٍ فِي ظَهرِ بَيتِهِ، ثُمَّ عَمَدَا إلى غارٍ بجَبلِ ثَورٍ فدخَلاَهُ، وأمَرَ أبُو بكرٍ الصديقُ ابنَهُ عبدَ اللهِ أن يتسَمَّعَ لِمَا يَقُولُ الناسُ فِيهِمَا نَهارَهُ، ثُم يَأتيهِمَا إذَا أمسَى بمَا يَكونُ فِي ذلكَ اليومِ مِن الخَبَرِ، وأمرَ عامِرَ بنَ فُهَيْرَةَ مَولَاهُ أن يَرعَى غنَمَهُ نَهَارَهُ، ثُم يُرِيحَهَا عَليهِما إذَا أمسَى فِي الغَارِ، فكانَ عبدُ اللهِ بنُ أبِي بَكرٍ يَكونُ فِي قُريشٍ نَهَارَهُ مَعهُم، يسمَعُ مَا يأتمِرُونَ بهِ ومَا يقُولونَ في شأنِ رسُولِ اللهِ ﷺ وأبِي بَكرٍ الصديقِ ﷺ، ثُم يَأتيهِمَا إذَا أمسَى فيُخبِرُهُمَا الخبَرَ، وكانَ عامرُ بنُ فُهيرَةَ يَرعَى فِي رُعيَانِ أهلِ مكَّةَ، فإذا أمسَى أراحَ عَليهِمَا غنَمَ أبي بكرٍ فاحتَلَبَا وذَبَحَا، فإذَا غدَا عبدُ الله بنُ أبِي بَكرٍ من عِندِهِمَا إلَى مكةَ اتَّبعَهُ عَامرُ بنُ فُهَيرَةَ بالغَنَمِ ليُخفِيَ أثَرَهُ.

وكانَت أسمَاءُ بنتُ أَبِي بَكرٍ ﵄ إذَا أمسَت تَأْتِيهِمَا بالطعَامِ الذِي يَصلُحُ لَهُمَا، قالَت أسمَاءُ: لمَّا خرجَ رسُولُ اللهِ ﷺ وأبُو بَكرٍ ﵁ أتانَا نَفرٌ مِن قريشٍ فِيهِم أَبُو جَهلِ بنُ هشَامٍ، فوقَفُوا على بَابِ أبِي بَكرٍ، فخَرَجتُ إلَيهِم، فقالُوا: أينَ أبُوكِ يَا ابنَةَ أَبِي بكرٍ؟ قُلتُ: لا أدرِي واللهِ أينَ أَبِي؟ فرفَعَ أبو جَهلٍ يَدهُ -وكان فَاحشًا خَبيثًا- فلَطَمَ خدِّي لطمَةً طَرحَ مِنهَا قُرْطِي-أَي: حَلقَ الأُذنِ- ثُم انصَرَفُوا.

قالَت أسمَاءُ: لمَّا خرَجَ رسُولُ اللهِ ﷺ وخرَجَ أبُو بكرٍ معَهُ، أخذَ أبُو بكرٍ مَالَهُ كُلَّهُ معَهُ، فدخَلَ علَينَا جَدِّي أَبُو قُحافَةَ وقَد ذَهبَ بَصرُهُ فقَالَ: واللهِ إنِّي لأرَاهُ قَد فَجعَكُم بمالِهِ معَ نَفسِهِ، فقُلتُ: كَلا يَا أَبتِ إنَّه قَد تَركَ لنَا خَيرًا كَثيرًا، وأخَذْتُ أحجَارًا فوَضَعْتُهَا في كيسٍ فِي البَيتِ حيثُ كانَ أَبِي يضعُ مَالَهُ فِيهَا، ثم وضَعتُ عَليهَا ثَوبًا، ثُم أخَذتُ بِيدِهِ، فقُلتُ: يَا أبتِ ضَع يَدكَ عَلى هذَا المَالِ، فوضَعَ يَدَهُ عَليهِ، فقَالَ: لا بَأسَ، إن كانَ قَد ترَكَ لَكُم هذَا فَقَد أحسَنَ، وفي هذَا بَلاغٌ لَكُم، ولا وَاللهِ مَا تَركَ لنَا شَيئًا، ولَكِن أرَدتُ أن أُسَكِّنَ الشَّيخَ بذَلِكَ.

وقد لجَأ رسولُ اللهِ ﷺ وصاحِبُهُ إلى الغَارِ، فأقامَا فيهِ ثلاثةَ أيامٍ ليَسكُنَ الطلبُ عنهُمَا؛ وذلكَ لأنَّ المشركينَ حينَ فقَدُوهُما ذهبُوا في طَلبِهِمَا كُلَّ مَذهبٍ من سَائرِ الجهاتِ، وجعَلُوا لمَن ردَّهُمَا أو أحدَهُمَا مائةً منَ الإبلِ، واقتَصُّوا آثارَهُمَا حتى اختلَطَتْ عَليهِم، وكانَ الذِي يقتَصُّ الأثَرَ لقُريشٍ سُراقةُ بنُ مَالكٍ، فصَعدُوا الجبلَ الذِي هُمَا فيهِ، وجعَلُوا يمُرُّونَ عَلى بابِ الغارِ، فتُحاذِي أرجُلُهُم بابَ الغَارِ ولَا يرونَهُمَا، حِفظًا منَ اللهِ لَهُمَا، حتَّى قالَ أبُو بكرٍ للنبيِّ ﷺ: لَو أنَّ أحدَهُم نظَرَ إِلَى قَدمَيْهِ لأبصَرَنَا تَحتَ قَدَمَيْهِ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أبَا بَكرٍ، مَا ظَنُّكَ**

بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»، قالَ تعَالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].



(١١) مَا حَدثَ لرَسُولِ اللهِ ﷺ في طَرِيقِ الهِجرَةِ منَ الآيَاتِ

لمَّا هاجرَ النبيُّ ﷺ معَ أَبِي بَكرٍ رضي الله عنه، جعَلَ كفَّارُ قُريشٍ جَائزَةً لمَن قتَلَ وَاحِدًا منهُمَا أو أَسَرَه أن يُعطُوهُ دِيَتَهُ، وأرسَلُوا رُسُلَهُم بذَلِكَ، وكانَ ممَّن سَمعَ بذَلكَ سُراقَةُ بنُ مَالكٍ، فبينَمَا هو جالسٌ في مَجلسٍ مِن مَجَالسِ قَومِهِ بنِي مُدلِجٍ، إذْ أقبَلَ رجُلٌ منهُم حتَّى قَامَ عَليهِم وهُم جُلوسٌ، فقَالَ: يا سُراقَةُ، إنِّي رَأيتُ آنِفًا أسودَةً بالسَّاحِلِ، أراهَا مُحمدًا وأصحَابَهُ، فعَرفَ سُراقَةُ أنَّهُم هُم، فقالَ لَهُ: إنَّهم لَيسُوا مُحمَّدًا وأصحَابَهُ، ولكنَّكَ رَأيتَ فُلانًا وفُلانًا انطلَقُوا بأعيُنِنَا، ثم لَبثَ في المَجلسِ سَاعَةً، ثُم قامَ فدَخلَ، فأمرَ جَاريتَهُ أن تَخرُجَ بفَرسِهِ بحيثُ لا يرَاها أحدٌ، وأخذَ رُمحَهُ وخرجَ مِن ظَهرِ البَيتِ، وركِبَ فرسَهُ ثُم انطَلَقَ، حتَّى إذَا دَنَا مِنهُم عَثَرَتْ بِهِ فَرسُهُ فسَقطَ منهَا، فقامَ فامتَطَى فرسَهُ وأسرَعَ لَحَاقًا بالنبيِّ ﷺ، حتى إذَا اقتَربَ منهُ سمعَهُ يقرَأُ القرآنَ وهُو لا يلتفِتُ، وأبُو بكرٍ يُكثرُ الالتفاتَ، فساخَتْ يدَا فرسِهِ فِي الأرضِ حتَّى بلغتَا الرُّكبَتَيْنِ، فخَرَّ عَنهَا، ثم زَجرَهَا فنهَضَتْ فَلَم تَكَدْ تُخرِجُ يَدَيْهَا، فلمَّا استَوت قائمَةً فَإذْ لأثَرِ يدَيْهَا غُبارٌ ساطعٌ فِي السمَاءِ مثلُ الدخَانِ، فنادَى سَراقَةُ النبيَّ ﷺ وصاحبَهُ بالأمَانِ فوقَفُوا، فركبَ فرسَهُ حتى جاءَهُم، ووقعَ فِي نفسِهِ حينَ لقيَ ما لقِيَ من حبسِهِ عنهُم أن سيظهَرُ أمرُ رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ لهُ: إن قومَكَ قَد جعلُوا فيكَ الدِّيةَ، وأخبرَهُم أخبارَ مَا يُريدُ الناسُ بِهم،

وعرضَ عليهِمُ الزادَ والمتاعَ، فلَم يسألَاهُ ولَم يأخُذَا مِنهُ شَيئًا، إلا أن قالَ له النبيُّ ﷺ: «**أخْفِ عنَّا**»، فسألَهُ سُراقةُ أن يكتبَ لهُ كتابَ أمْنٍ، فأمَرَ عامِرَ بنَ فُهيرَةَ فكتبَ لهُ في رُقعَةٍ مِن جِلدٍ، ثم مضَى رسولُ اللهِ ﷺ.

ولمَّا رجعَ سُراقَةُ جعلَ لا يَلقَى أحدًا من الطَّلَبِ إلَّا ردَّهُ، وقالَ: كُفِيتُم هذِهِ الجهَةَ، فلمَّا ظهَرَ أن رسُولَ اللهِ ﷺ قَد وصَلَ إلى المَدينَةِ، جعَلَ سُراقَةُ يقُصُّ عَلَى الناسِ مَا رَأى وما شاهَدَ من أمرِ النبيِّ ﷺ، وما كانَ مِن قضيَّةِ فَرسِهِ.

ولقَد كانَت أسماءُ بنتُ أبِي بَكرٍ رضي الله عنهما تأتِي للنبيِّ ﷺ وصاحبِهِ بالطعَامِ فِي سُفرَةٍ من جِلدٍ، فنَسِيَت أن تَجعَلَ لهَا رِباطًا لتُعلِّقَهَا بهِ، فلمَّا ارتَحَلَا ذهبَت لتُعَلِّقَ السُّفرَةَ فإذَا ليسَ لهَا رِباطٌ، فحَلَّت نِطَاقَهَا -وهو الربَاطُ الذِي تَجعلُهُ المرأَةُ عَلى وَسطِهَا عندَ اشتِدادِ العَملِ- فجعَلَتهُ رِباطًا للسفرَةِ ثُم عَلَّقَتْهَا بهِ، فسُمِّيَت: ذاتَ النِّطاقَيْنِ لذَلِكَ.

وفي هذِهِ الرحلَةِ أجرَى اللهُ عَلى يَدَي نَبيِّهِ ﷺ منَ الآياتِ العَظيمَةِ ما يَدُلُّ عَلى بركَتِهِ وصِدقِ نُبُوتِهِ، فلمَّا خرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن مَكَّةَ، انتَهَى هُو وأصحابُهُ أبُو بَكرٍ، وعَامرُ بنُ فُهيرَةَ مَولَى أبي بَكرٍ، وعبدُ اللهِ بنُ أُرَيْقِطٍ، إلى حَيٍّ مِن أحيَاءِ العَربِ عِندَ المسَاءِ، فنظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى بَيتٍ مُتفَرِّدٍ عن البُيوتِ فقَصَدَ إلَيهِ، فلمَّا نزَلَ لَم يَكُن فيهِ إلا امرَأةٌ، يُقَالُ لهَا: أمُّ مَعبَدٍ الخُزاعيَّةُ، وكَانَت أمُّ مَعبَدٍ امرَأةً بَرزَةً جَلدَةً، تَجلسُ بفنَاءِ الخَيمَةِ، فتُطعِمُ وتَسقِي، فسَألُوهَا هَل عِندهَا لَحمٌ أو لَبنٌ يَشتَرونَهُ منهَا؟ فَلَم يَجدُوا عندَهَا شَيئًا مِن ذلكَ، وقَالَت: لَو كانَ عِندَنَا شَيءٌ مَا أعوزَكُم القِرَى، وإنمَا أنَا امرأةٌ ولَيسَ مَعِي أحدٌ، فعَليكُمَا بعَظيمِ الحَيِّ إن أرَدتُمُ

الضيَافَةَ، وإذَا القومُ مُرمِلُونَ قَد أَضَرَّتْ بِهِم الحاجَةُ.

فنظَرَ رسُولُ اللهِ ﷺ فإذَا شاةٌ في كَسْرِ خَيمَتِهَا، فقالَ: «**مَا هذِهِ الشَّاةُ يَا أَمَّ مَعبَدٍ؟**»، فقالَت: شاةٌ خَلَّفَهَا الجَهدُ عنِ الغَنمِ، قالَ: «**فهَل بهَا مِن لَبَنٍ؟**»، قالَت: هِي أجهَدُ مِن ذلكَ، قالَ: «**تَأذَنِينَ لِي أَن أَحلِبَهَا؟**»، قالَت: إنْ كانَ بِهَا حَلبٌ فَاحلِبْهَا، فدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بالشَّاةِ، فذكرَ اسمَ اللهِ، ومسحَهَا ومسَحَ ضَرعَهَا، ثم دعَا بإناءٍ لهَا يَكفِي العدَدَ مِنَ الناسِ، فانفَجَرَ ضَرعُهَا باللَّبَنِ، فحَلبَ فِيهَا ثَجًّا حتَّى علاهُ البهَاءُ، فسقاهَا وسقَى أصحابَهُ، حتَّى إذَا رَوُوا شرِبَ آخرَهُم، وقالَ: «**سَاقي القَومِ آخرُهُمْ**»، ثم حلَبَ فِيهِ ثانيًا وتركَهُ عِندَهَا، ثمَّ ارتحَلُوا، فلَم تَلبث أمُّ مَعبَدٍ إلا قليلًا حتى جاءَ زَوجُها أبُو مَعبدٍ يسوقُ أعنُزًا عِجَافًا هَزلَى، فلمَّا رأى اللبنَ عَجِبَ وقالَ: مِن أينَ هذَا اللبنُ يَا أمَّ مَعبدٍ، ولا حَلوبَةَ في البَيتِ، والشاةُ عازِبٌ، فقَالَت: لا واللهِ، إلا أنهُ مرَّ بنَا رجلٌ مُباركٌ كانَ مِن حديثِهِ كَيْتَ وكَيْتَ، فقالَ: صِفيهِ لِي، فواللهِ إنِّي لأراهُ صاحِبَ قُريشٍ الذِي تَطلُبُ، فوصفَتهُ لهُ فقَالَ: هذَا واللهِ صاحبُ قريشٍ الذي تَطلُبُ، ولو صادَفتُهُ لالتمَستُ أن أصحبَهُ، ولأجهدَنَّ إنْ وجدتُ إلَى ذلكَ سَبِيلًا.

وكانَت أم مَعبدٍ تُسمِّي رسُولَ اللهِ ﷺ المُبارَك، ولم تَكُن تعرفُهُ، وقد كثُرَت غنَمُهَا بعد أن مرَّ بِهَا النبيُّ ﷺ حتَّى جَلبَتْ جَلْبًا إلى المَدينَةِ، فمَرَّ أبُو بَكرٍ ﵁ فرَآهُ ابنُهَا فعرفَهُ، فقالَ: يا أُمَّهْ، هذَا الرجلُ الذي كانَ مع المُبارَكِ، فقامَت إلَيهِ فقَالَت: يا عبدَ اللهِ، مِنِ الرجلُ الذي كانَ معَكَ؟ قالَ: أَوَمَا تَدرِينَ مَن هُو؟ قالَت: لا، قال: هُو نَبيُّ اللهِ، قالَت: فأدخِلنِي عَليهِ، فانطَلَقَتْ معَهُ، وأهدَتْ لرَسُولِ اللهِ ﷺ

شَيئًا من أَقْطٍ ومتَاعِ الأعرابِ، فكسَاهَا رسُولُ اللهِ ﷺ وأعطَاهَا، فأسلَمَتْ.

ولمَّا علِمَ المُسلمُونَ بالمَدينَةِ بمَخرجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ من مكَّةَ، كانُوا يَخرُجُونَ كُلَّ صباحٍ إلى الحَرَّةِ، فينتَظِرُونَهُ حتى يَرُدَّهُم حرُّ الظهيرَةِ، فرجَعُوا يَومًا بعدَمَا طالَ انتظارُهُم، فلمَّا أَوَوْا إلى بُيُوتِهِم قامَ رجُلٌ منَ اليَهودِ علَى حِصنٍ مِن حُصُونِهِم لأمرٍ ينظُرُ إلَيهِ، فبَصُرَ برَسُولِ اللهِ ﷺ وأصحَابِهِ يَزولُ بِهِمُ السَّرابُ، فلَم يَملِكِ اليهودِيُّ أنْ قالَ بِأعلَى صوتِهِ: يا مَعشرَ العربِ، هذَا جَدُّكُم الذي تَنتَظِرُونَ.

فثارَ المسلمونَ إلى السِّلاحِ فتلَقَّوْا رسُولَ اللهِ ﷺ بظهرِ الحَرَّةِ، فنزَلَ في بنِي عَمرِو بنِ عَوفٍ، وذلكَ يومَ الإثنَيْنِ مِن شَهرِ رَبيعٍ الأوَّلِ، والتَقَوْا برسُولِ اللهِ ﷺ وهُو جَالسٌ في ظِلِّ نخلةٍ ومعَهُ أبو بكرٍ رضي الله عنه في مِثلِ سِنِّهِ، وأكثرُهُم لم يكُن رَأى رسُولَ اللهِ ﷺ قبلَ ذلكَ، حتَّى زالَ الظلُّ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ فقامَ أَبُو بَكرٍ رضي الله عنه فأظَلَّهُ بردَائِهِ، فعَرَفُوهُ عِندَ ذلكَ.

وبَقِيَ رسُولُ اللهِ ﷺ في بَنِي عمرِو بنِ عَوفٍ ليَاليَ، وأسَّسَ مسجدَ قُباءٍ الذِي أُسِّسَ على التَّقوى، وصلَّى ﷺ فيهِ، ثُم ارتحَلَ عَنهُم حيثُ كانَ يُريدُ، فلمَّا ركبَ رَاحِلَتَهُ مَشَى معه الناسُ مُتَحَلِّقِينَ حَولَ نَاقَتِهِ، فلا يَزالُ أحدُهُم يُنازِعُ صاحِبَهُ زمَامَ الناقَةِ شُحًّا علَى كرامَةِ رسُولِ اللهِ ﷺ وتَعظِيمًا لهُ، وكُلَّما مَرَّ بدَارٍ مِن دُورِ الأنصَارِ دَعَوْهُ إلَى المَنزلِ، فيقُولُ ﷺ: «**دَعُوا الناقَةَ فإنَّهَا مَأمُورةٌ، فإنما أنزلُ حيثُ أنزَلَنِي اللهُ**»، وقالَ: «**أنزِلُ الليلَةَ علَى بنِي النَّجَّارِ أخوَالِ عَبدِ المُطَّلبِ، لأُكرِمَهُم بذَلِكَ**».

ولمَّا مرَّ ﷺ بحَيٍّ مِن بنِي النجَّارِ، إذ بجَوارٍ يَضرِبْنَ بالدفُوفِ يَقُلنَ:

نَحْــنُ جَــوارٍ مِــن بَنِــي الــنَّجَّارِ يَــا حَــبَّذَا مُحمَّــدٌ مِــنْ جَــارِ

فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَعلَمُ اللهُ أَنَّ قَلبِي يُحِبُّكُنَّ**».

ولَم تَزلِ النَّاقَةُ تَسيرُ حتَّى انتهَتْ إلَى دارِ أَبِي أيوبَ الأنصَارِيِّ ﷺ، فبَرَكَتْ بِهِ على البَابِ، فدَخَلَ ﷺ بيتَ أَبِي أَيُّوبَ ﷺ وقَالَ: «**هذَا إنْ شَاءَ اللهُ المَنزِلُ**»، ولَم يَزلْ ﷺ مُقِيمًا في دارِ أَبِي أيوبَ حتَّى ابتَنَى مَسجِدَهُ ومسَاكِنَهُ.

ولمَّا نزَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ عَلى أَبِي أيوبَ في بَيتِهِ نزَلَ في أسفَلِ البَيتِ، وأبُو أيوبَ وزوجُهُ فِي أعلاَهُ، فقالَ لهُ أبُو أيوبَ: بِأَبِي أنتَ وأمِّي يا رَسُولَ اللهِ، إنِّي أكرَهُ وأُعظِمُ أَن أكونَ فَوقَكَ، وتكُونَ تَحتِي، فاظهَرْ أنتَ فَكُن فِي العُلوِّ، ونَنزلُ نَحنُ فنكونُ في الأسفَلِ، فقالَ: «**يَا أبَا أَيُّوب، إنَّهُ أرفَقُ بنَا وبِمَنْ يَغشَانَا أَن أكُونَ فِي سُفْلِ البَيتِ**».

قالَ أبُو أَيُّوبَ ﷺ: فكَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ في سُفلِهِ، وكنَّا فوقَهُ فِي المَسكنِ، فلَقَد انكسَرَت جَرَّةٌ لنَّا فيهَا مَاءَ، فقُمتُ أنَا وأمُّ أيوبَ بقَطيفَةٍ لنَا -ما لنَا لحافٌ غَيرُهَا- ننشِّفُ بِها الماءَ تَخوُّفًا أن يَقطُرَ على رسُولِ اللهِ ﷺ منهُ شيءٌ فيُؤذِيَهُ، وكنَّا نَصنَعُ لهُ العَشاءَ ثُمَّ نبعثُ إليهِ، فإذَا ردَّ عَلينَا فَضلَةً، تيمَّمتُ أنَا وأمُّ أيوبَ مَوضِعَ يَدِهِ فأكَلنَا مِنهُ، نبتَغِي بذلكَ البَركَةَ، حتى بَعثنَا إليهِ ليلَةً بعَشائِهِ، وقَد جَعلنَا لهُ فِيهِ بَصَلًا أو ثُومًا، فرَدَّهُ رسُولُ اللهِ ﷺ فَلَم أرَ ليَدِهِ فِيهِ أثَرًا، فجِئتُهُ فَزِعًا، فقُلتُ: يَا رسُولَ اللهِ، بِأبي أنتَ وأُمِّي، رَددتَ عشاءَكَ، ولَم أرَ فيهِ مَوضِعَ يَدِكَ؟ فقالَ:

«**إنِّي وَجدتُ فِيهِ رِيحَ هذِهِ الشَّجرَةِ، وأَنَا رجُلٌ أُناجَى، فأمَّا أنتُم فكُلُوهُ**»، فأكَلنَاهُ، ولَم نَصنعْ لهُ تِلكَ الشجرَةَ بَعدُ.

وقد جمَعَ اللهُ ﷻ للأنصارِ ﭫ الفَضيلَةَ السابقَةَ، لنُصرَتِهم لرسُولِ اللهِ ﷺ، وإيوَائِهم وحِمَايَتِهم لَهُ، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الأنصَارُ لا يُحبُّهُم إلا مُؤمِنٌ، ولا يُبغِضُهُم إلَّا مُنافِقٌ، فمَنْ أحبَّهُم أحَبَّهُ اللهُ، ومَن أبغَضَهُم أبغَضَهُ اللهُ**»، وقَالَ: «**آيَةُ الإيمَانِ حُبُّ الأنصَارِ، وآيَةُ النفَاقِ بُغضُ الأنصَارِ**».

وقَد شرُفَتِ المدينَةُ بِهجرَتِهِ ﷺ إلَيهَا، وصارَتْ مَأوًى لأولِيَاءِ اللهِ وعبَادِهِ الصَّالحينَ، ومَعقلًا وحِصنًا مَنيعًا للمُسلمينَ، ودارَ هُدًى للعَالَمِينَ، وقَد جَعلَ اللهُ لَهَا منَ الفضَائلِ التي تَدعُو القلوبَ إلى التعلُّقِ بِها والشوقِ إليهَا، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ الإيمَانَ ليَأرِزُ إلَى المَدينَةِ، كمَا تَأرِزُ الحيَّةُ إلَى جُحرِهَا**»، وقالَ: «**أُمِرْتُ بقَريَةٍ تأكُلُ القُرَى، يقُولُونَ: يَثربَ، وهِيَ المَدينَةُ، تنفِي الناسَ كمَا يَنفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَديدِ**».

وقد قدمَ إليهَا النبيُّ ﷺ بعدَ أن أقَامَ بمَكةَ ثَلاثَ عَشرَةَ سَنَةً، وكانَ عُمرُهُ حِينَ هاجَرَ إلَيهَا ثَلاثًا وخَمسينَ سَنَةً، وبَقِي فيها ﷺ إلَى أن توفَّاهُ اللهُ ﷻ.

ولمَّا استقَرَّتْ قَدَمُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بالمَدينَةِ، لَحِقَ بهِ عَليُّ بنُ أَبِي طَالبٍ ﭬ، بَعدَ أَن أقامَ بمكةَ ثَلاثَ ليَالٍ وأيَّامِهَا، حتَّى يُؤدِّي عن رَسُولِ اللهِ ﷺ الودائِعَ التِي كانَت عِندَهُ للنَّاسِ.

ولمَّا أقامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالمَدينةِ، كانَ يُصلي حيثُ أدركَتهُ الصلاةُ، ونَظَرًا لأهميَّةِ المَسجدِ لإقامَةِ الجماعَةِ، وبَثِّ العِلمِ بَينَ الناسِ ليَفقَهُوا دِينَهُم، وانطِلاقِ

الدَّعوَةِ، واجتمَاعِ الكلمةِ، ورفعِ رايَةِ الجهَادِ، فقَد عَزمَ النبيُّ ﷺ عَلى بناءِ مَسجِدِهِ الشريفِ، فرَأى أرضًا تصلُحُ لهذِهِ الغَايةِ، فعزَمَ ﷺ عَلى أن يتخذَهَا مَسجدًا، فسأَلَ عَن صاحِبِ الأرضِ فقِيلَ: هِيَ لسُهَيْلٍ وسَهْلٍ غُلامَيْنِ يتيمَيْنِ فِي حِجرِ أسعدَ بنِ زُرَارَةَ ﷺ، فدعَا رسولُ اللهِ ﷺ بالغُلامَيْنِ فسَاوَمَهُمَا على الأرضِ ليتَّخِذَهَا مَسجدًا، فقالَا: بل نَهَبُهَا لكَ يا رسُولَ اللهِ، فأبَى رسُولُ اللهِ ﷺ أن يَقبَلَهَا منهُمَا هِبَةً، حتَّى اشترَاهَا مِنهُمَا.

ثمَّ شَرعَ الناسُ فِي بنَاءِ المَسجدِ، وجعلَ رسُولُ اللهِ ﷺ يعمَلُ فيهِ ليُرغِّبَ المُسلمينَ فِي العَملِ فيهِ، وكانَ ينقِلُ معَهُمُ التُّرابَ، وهُو يقُولُ:

هَــذَا الحِمَــالُ لَا حِمَــالَ خَيبَــرْ ... هَــــذَا أَبَــــرُّ رَبَّــــنَا وَأَطهَـــــرْ

ويقُولُ:

اللَّهُــمَّ إِنَّ الأَجــرَ أَجــرُ الآخِــرَهْ ... فَــــارحَمِ الأَنــــصَارَ وَالمُهَاجِــــرَهْ

وعَملَ المُهاجرونَ والأنصارُ فِي البنَاءِ، ولَم يزَالُوا مُستمِرِّينَ فِي العمَلِ حتَّى فَرغُوا منهُ، وكانُوا إذَا رَأوا النبيَّ ﷺ وهُو يَعملُ مَعهُم، قالَ قَائِلُهُم:

لَــــئِن قَعَــــدنَا وَالنَّبِــــيُّ يَعمَــــلُ ... لَــــذَاكَ مِــــنَّا العَمَــــلُ المُــــضَلِّلُ

فأتَمُّوا بناءَ المسجدِ باللَّبِنِ، وسقفُوهُ بالجَريدِ، وجعلُوا أعمدتَهُ مِن خشَبِ النَّخلِ.

ومِن كرامَةِ اللهِ تعَالى لرسُولِهِ ﷺ أنْ مَيَّزَهُ بالأجرِ عَلى سائِرِ المسَاجِدِ سِوَى المسجِدِ الحَرامِ، فقَالَ ﷺ: «**صَلاةٌ فِي مَسجِدِي هذَا خَيرٌ مِن أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا**

سِوَاهُ، إلا المَسجِدَ الحَرَامَ».

ولمَّا انتهَى رسولُ اللهِ ﷺ مِن بناءِ مسجدِهِ، بنَى حولَ مَسجدِهِ حُجَرًا، لتكُونَ مساكِنَ لهُ ولأهلِهِ، وكانَتْ مَساكنَ قصيرَةَ البنَاءِ، صغيرةَ الاتِّساعِ، مَبنيَّةً مِن جَريدٍ عَليهِ طِينٌ، وبَعضُهَا مِن حجَارَةٍ مَرضُومَةٍ -بعضُهَا فَوقَ بَعضٍ-، وسقُوفُهَا كُلِّها مِن جَريدٍ، وهذَا مِن أعظمِ الأدِلَّةِ عَلى تواضُعِهِ ﷺ وتَقَلُّلِهِ مِن الدُّنيَا.

ولمَّا رجَعَ عبدُ اللهِ بنُ أُريقِطٍ إلَى مكَّةَ، بعثَ معهُ رسُولُ اللهِ ﷺ وأبُو بَكرٍ ﵁ زَيدَ بنَ حَارثَةَ وأبَا رَافِعٍ، ليَأتُوا بأهَالِيهِم مِن مكَّةَ، وبعثَا مَعهُم بحِمْلَيْنِ وخَمسِمِائَةِ دِرهَمٍ ليَشترُوا بِهَا إبلًا، فذَهَبُوا فجَاءُوا ببِنْتَي النَّبيِّ ﷺ فاطمَةَ وأُمِّ كُلثُومٍ، وزَوجتَيْهِ سَودَةَ وعائشَةَ وأمِّهَا أُمِّ رُومَانَ -رَضِي الله عَنهُنَّ-، ولَم يَكُن ﷺ قَد دخَلَ بعَائشَةَ ﵂ آنذَاكَ، فنَزلُوا بالسُّنْح -وهُو مكَانٌ بالمَدِينَةِ-، ثم دخَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ بعائشَةَ فِي شَوالٍ بَعدَ ثَمانِيَةِ أشهُرٍ.

ولمَّا أقامَ المُهاجرونَ أصابَتهُم حُمَّى المَدينةِ، فوجَدُوا مِن ذلكَ مَشقَّةً، فدعَا رسولُ اللهِ ﷺ ربَّهُ ﷻ فأزَاحهَا بحَولِهِ وقُوَّتِهِ عَنهُم، قالتَ عائشَةُ ﵂: لمَّا قَدمَ رسولُ اللهِ ﷺ المَدينَةَ وُعِكَ أبُو بكرٍ وبِلالٌ ﵄، فدَخَلتُ عَليهِمَا فقُلتُ: يَا أَبَهْ، كيفَ تَجدُكَ؟ ويَا بِلالُ كَيفَ تجدُكَ؟ قالَتْ: فكَانَ أبُو بَكرٍ إذَا أخذَتْهُ الحُمَّى يقُولُ:

كُلُّ امرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهلِهِ ... وَالمَوتُ أَدنَى مِن شِرَاكِ نَعلِهِ

وكانَ بِلالٌ إذَا أقلَعَتْ عنهُ الحُمَّى يَرفعُ رَأسَهُ، ويقُولُ:

أَلَا لَيتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ

وَهَلْ أَرِدَنْ يَومًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَلْ تَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ

اللهم العَنْ عُتبَةَ بنَ رَبيعَةَ، وشَيبَةَ بنَ رَبيعَةَ، وأُميَّةَ بنَ خَلفٍ، كمَا أخرَجُونَا إلى أرضِ الوبَاءِ.

فجئتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فأخبَرْتُهُ، فقَالَ: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إلَينَا المَدينَةَ كَحُبِّنَا مكَّةَ أَو أَشَدَّ، اللَّهمَّ بَارِكْ لنَا فِي صَاعِهَا وفِي مُدِّهَا، وصَحِّحْهَا لنَا، وانقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الجُحفَةِ**».





(١٢) استيطَانُ النَّبيِّ ﷺ المَدينَةَ وأعمَالُهُ فِيهَا

لمَّا استَوطَنَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينَةَ واستقَرَّ بِهَا، حالَفَ بينَ المُهاجرينَ والأنصَارِ في دَارِ أنسِ بنِ مَالكٍ، وكتبَ كتَابًا بينَهُم أن يَعقِلُوا مَعَاقِلَهُم، وأَنْ يَفْدُوا عَانِيَهُم بالمَعروفِ والإصلَاحِ بينَ المسلمِينَ، وكتَبَ كتابًا وَادَعَ فيهِ اليَهودَ وعَاهَدَهُم، وأقَرَّهُمْ عَلى دِينِهِم وأموَالِهِم، واشتَرَطَ عَليهِم وشَرَطَ لَهُم.

ثُم آخَى ﷺ بينَ المُهاجرينَ والأنصَارِ، حتى كانَ المُهاجِرِيُّ يَرثُ الأنصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ، للأُخُوَّةِ التِي آخَى النبيُّ ﷺ بَينَهُم، حتَّى نزَلَ قولُهُ تَعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٣٣]، فرَفَعَت هذَا الحُكمَ وأَلْغَتِ التَّوارُثَ فِيمَا بَينَهُم، فبَقِيَ عقدُ الأُخُوَّةِ يتَضَمَّنُ النَّصرَ والتعَاوُنَ والنَّصيحَةَ والوصِيَّةَ لَهُ.

وآخَى النبيُّ ﷺ بينَ بَعضِ أصحابِهِ عَلى وَجهِ الخُصوصِ، فآخَى بَينَ عبدِ الرَّحمنِ ابنِ عَوفٍ وسَعدِ بنِ الرَّبيعِ، وآخَى بَينَ سَلمَانَ الفَارِسيِّ وأبِي الدَّردَاءِ رضي الله عنهم.

ولمَّا آخَى النبيُّ ﷺ بينَ عَبدِ الرحمَنِ بنِ عوفٍ وسعدِ بنِ الرَّبيعِ الأنصَارِيِّ، عرَضَ سَعدٌ عَلى عبدِ الرَّحمنِ أن يُناصِفَهُ مالَهُ، فقَالَ عبدُ الرَّحمنِ: بارَكَ اللهُ لكَ

فِي أهلِكَ ومَالِكَ، دُلَّنِي عَلى السُّوقِ، فرَبِحَ شَيئًا مِن أَقطٍ وسَمنٍ، فرَآهُ النبيُّ ﷺ بعدَ أيَّامٍ وعَليهِ لَونٌ مِن صُفرَةٍ، فقَالَ النبيُّ ﷺ: «**مَهْيَمْ يَا عَبدَ الرَّحمَنِ؟**»، قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تزوَّجتُ امرَأةً مِنَ الأنصَارِ، قالَ: «**فمَا سُقتَ فِيهَا؟**»، قالَ: وَزنَ نَواةٍ مِن ذَهبٍ، فقَالَ النبيُّ ﷺ: «**أَوْلِم وَلَو بشَاةٍ**».

وقَد ضرَبَ الأنصَارُ رضي الله عنهم أروعَ الأمثِلَةِ فِي البَذلِ والعطَاءِ معَ سخَاءِ النَّفسِ، حتَّى قالَ المُهاجِرُونَ رضي الله عنهم: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا رَأينَا مِثلَ قَومٍ قَدِمنَا عَليهِم أحسَنَ مُواساةً في قَليلٍ، وَلَا أحسَنَ بَذلًا مِن كَثيرٍ، لقَد كَفَوْنَا المَؤونَةَ، وأشرَكُونَا فِي المَهنَأِ حتَّى لقَد خَشِينَا أَن يَذهَبُوا بالأَجرِ كُلِّهِ، فقَالَ ﷺ: «**لا، مَا أثنَيتُم عَلَيهِم، ودَعَوْتُم اللهَ لَهُمْ**».

وقَالَت الأنصَارُ للنبيِّ ﷺ: اقسِمْ بَينَنَا وبَينَ إخوَانِنَا النخِيلَ، قالَ: «**لَا**»، فقَالُوا: تَكفُونَا المَؤونَةَ ونُشْرِكُكُم فِي الثَّمرَةِ، قَالُوا: سَمِعنَا وَأَطَعْنَا.

وقَد أثنَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلى الأنصَارِ، ومَا وُفِّقُوا إلَيهِ مِن كَريمِ الخِصالِ وحُسنِ السَّجايَا؛ فقَالَ سُبحانَهُ: ﴿ **وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ** ﴾ [الحشر:٩].

وفي شَوالٍ مِن سنَةِ الهِجرَةِ وُلِدَ عَبدُ اللهِ بنُ الزُّبَيرِ بالمَدينَةِ، فكَانَ أولَ مَولُودٍ وُلِدَ في الإِسلَامِ مِنَ المُهاجِرِينَ، فَقَد حَمَلَتْ بهِ أسمَاءُ بِنتُ أبِي بَكرٍ فِي مَكَّةَ، وهاجَرَتْ بِهِ إلى المَدينَةِ وهِي مُتِمٌّ قَد دنَا وَضعُهَا، فلمَّا أتَتِ المَدينَةَ ونزَلَت بقُبَاءٍ ولَدتْهُ، ثُم أتَتْ بِهِ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فوضَعَهُ في حِجرِهِ، ثُم دَعَا بتَمرَةٍ فمضَغَهَا، ثُم

تفَلَ فِي فِيهِ، فكَانَ أَولَ شَيءٍ دَخَلَ جَوفَهُ رِيقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُم حَنَّكَهُ بتَمرَةٍ، ثُم دعَا لَهُ وبَرَّكَ عَليهِ.

وقَد فَرِحَ المُسلِمُونَ بمَولِدِهِ فَرَحًا عَظِيمًا، وكَبَّرُوا عِندَ وِلادتِهِ تكبيرَةً عَظِيمَةً؛ لأَنَّهُ كانَ قَد بَلغَهُم عَنِ اليَهودِ أَنَّهُم سَحَرُوهُم، حتَّى لا يُولَدَ لَهُم بَعدَ هِجرَتِهِم وَلَدٌ، فأكذَبَ اللهُ اليَهودَ فِيمَا زَعَمُوا.

ولمَّا اطمَأنَّ رسُولُ اللهِ ﷺ بالمَدينَةِ، واجتمَعَ المُهاجِرُونَ والأنصَارُ، استَحْكَمَ أمرُ الإسلامِ، فقَامَت الصلاَةُ، وفُرضَت الزكَاةُ والصيَامُ، وأُقيمَتِ الحُدودُ، وفُرضَ الحلالُ والحرَامُ، وقَوِيَ الإسلامُ بَينَ أظهُرِهِم، وقَد كانَ الناسُ يَجتمعُونَ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ في الصَّلاة لحِينِ مَواقِيتِهَا بغَيرِ دَعوَةٍ، ثُم هَمَّ رسُولُ اللهِ ﷺ أَن يَجعَلَ وَسيلَةً ليُنَادي بها المُسلمُونَ لصَلاتِهم، لكنَّهُم لَم يَستَقِرُّوا عَلى شَيءٍ، وبَينَا هُم عَلى ذَلكَ رَأى عبدُ اللهِ بنُ زَيدٍ رُؤيَا في الأذَانِ، فأتَى إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّهُ طافَ بِي هذِهِ الليلَةَ طَائفٌ، مَرَّ بِي رَجلٌ عَليهِ ثَوبَانِ أخضرَانِ، يحمِلُ نَاقوسًا في يدِهِ، فقلتُ: يَا عبدَ اللهِ، أتبيعُ هذَا الناقوسَ؟ فقالَ: ومَا تصنعُ بهِ؟ قُلتُ: نَدعُو بهِ إلَى الصلاةِ، قالَ: ألَا أدُلُّكَ على خَيرٍ مِن ذلكَ؟ قلتُ: ومَا هُوَ؟ قالَ: تَقولُ: اللهُ أكبَرُ اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ اللهُ أكبَرُ، أشهَدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ، أشهَدُ أن لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، أشهَدُ أن مُحمَّدًا رسُولُ اللهِ، أشهَدُ أنَّ مُحمدًا رسُولُ اللهِ، حيَّ عَلى الصَّلاةِ، حيَّ عَلى الصَّلاةِ، حيَّ عَلى الفَلاحِ، حيَّ عَلى الفَلاحِ، اللهُ أكبَرُ اللهُ أكبَرُ، لَا إلَهَ إلَّا اللهُ.

فلمَّا أخبرَ بِهَا رسُولَ اللهِ ﷺ، قالَ: «**إنَّهَا لرُؤيَا حَقٌّ إنْ شاءَ اللهُ، فقُمْ مَع بِلالٍ**

فألقِهَا عَلَيهِ فَليُؤَذِّنْ بهَا، فإنَّهُ أندَى صَوتًا مِنكَ»، فلمَّا أذَّنَ بِها بلالٌ سَمِعَهُ عُمرُ بنُ الخطَّابِ ﵁ وهُو في بَيتِهِ، فخَرجَ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ وهُو يَجُرُّ رداءَهُ، وهُو يَقُولُ: يَا نَبيَّ اللهِ، والذِي بَعثَكَ بالحَقِّ، لقَد رَأيتُ مِثلَ الذِي رَأَى، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَلِلَّهِ الحَمدُ**».

وقَد بَقِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعدَ قُدومِهِ المَدينَةَ سَبعَةَ عشَرَ شَهرًا يُصَلِّي إلَى بَيتِ المَقدِسِ، وقَد كانَ يُعجِبُهُ أنْ تَكونَ قِبلَتُهُ إلَى الكَعبَةِ، فأنزَلَ اللهُ تَعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٤]، ثُم أُذِنَ لهُ أن يَستقبِلَ الكعبَةَ في بدَايَةِ الشَّهرِ الثامِنَ عشَرَ، وقد نزَلَ تَحويلُهَا بينَ صَلاتَي الظُّهرِ والعَصرِ، فكَانَت أولَ صَلاةٍ صَلاهَا رسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الكعبَةِ، العَصْرُ.

وفِي هذِهِ السنَةِ الثانيَةِ فُرِضَ صِيامُ شَهرِ رَمضَانَ، وفُرِضَتِ الزكَاةُ معَ بيَانِ أنصِبَتِهَا.

وبعدَ مَقدَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ المَدينَةَ نزَلَ قَولُهُ تَعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ﴾ [الحج:٣٩]، وهِيَ أولُ آيةٍ فِي القتَالِ، فقَامَ ﷺ فيمَا أمرَهُ اللهُ بهِ مِن جِهَادِ عَدُوِّهِ وقتَالِ مَن أُمِرَ بِهِ مِمَّن يَليهِ مِنَ المُشرِكِينَ، فخَرَجَ رسُولُ اللهِ ﷺ غَازيًا حتَّى بَلَغَ وَدَّانَ يُريدُ قُرَيشًا وبَنِي ضَمرَةَ، فوادَعَتْهُ بَنُو ضَمرَةَ، وكانَ الذِي وادَعَهُ مِنهُم مَخشِيُّ بنُ عَمرٍو الضَّمْرِيُّ، وكانَ سَيدَهُم في زمَانِهِ ذَلكَ، ورَجعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى المَدينَةِ ولَم يَلقَ كَيدًا، وهِيَ أولُ غَزوَةٍ غَزَاها ﷺ وتُسَمَّى غَزوَةَ الأبْوَاءِ.

ثم بَعثَ رسُولُ اللهِ ﷺ عبدَ اللهِ بنَ جَحشٍ الأَسَدِيَّ في سَرِيَّةٍ، وبَعثَ معهُ جمَاعَةً منَ المُهاجِرينَ، لَيسَ فِيهِم مِن الأنصَارِ أحَدٌ، وكتَبَ لهُ كِتابًا، وأمرَهُ ألا يَنظُرَ فِيهِ حتَّى يسيرَ يَومَيْنِ، ثُمَّ يَنظُرَ فِيهِ ويَمضِيَ لِمَا أَمَرَهُ بِهِ، ولَا يَستكْرِهَ مِن أصحابِهِ أحَدًا.

فلمَّا سارَ بِهِم يَومَيْنِ فتَحَ الكتَابَ، فإذَا فيهِ: «**إذَا نظَرتَ فِي كتَابِي فامْضِ حتَّى تَنزِلَ نَخلَةَ، بَينَ مَكَّةَ والطَّائفِ، فتَرصَّدْ بِهَا قُرَيشًا وَتَعَلَّمْ لنَا مِنْ أخبَارِهِمْ**»، فلمَّا نظَرَ في الكتابِ قالَ: سَمْعًا وطاعَةً، وأخبَرَ أصحابَهُ بمَا في الكتَابِ، وقالَ: قد نَهَاني أن أستكرِهَ أحدًا مِنكُم، فمَن كانَ مِنكُم يُريدُ الشَّهادَةَ ويَرغَبُ فيهَا فليَنطَلِقْ، ومَن كَرِهَ ذَلكَ فليَرجِعْ، فأمَّا أنَا فمَاضٍ لأمرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فمضَى ومضَى معَهُ أصحَابُهُ لَم يتخَلَّفْ مِنهُم أحَدٌ حتَّى نزَلَ نَخلَةَ، فمَرَّتْ بهِ إبلٌ لقُريشٍ تحمِلُ زَبيبًا وأُدمًا وتجَارَةً مِن تجَارَةِ قُريشٍ، فلمَّا رَآهُمُ القَومُ هَابُوهُم، وتشَاورَ الصحَابَةُ فِيهِم، وذلكَ في آخرِ يَومٍ مِن رَجبٍ، فقالُوا: واللهِ لَئِن تَركتُمُوهُم هذِهِ الليلَةَ ليدخُلُنَّ الحَرمَ ثُم يَمتنعُونَ بهِ مِنكُم، ولَئِن قَتلتُمُوهُم لتَقتُلونَهُم فِي الشَّهرِ الحرَامِ، ثُم أجمَعُوا علَى قتلِ مَن قَدَرُوا عَليهِ مِنهُم وأَخْذِ ما مَعهُم، واستَأسَرُوا عثمَانَ بنَ عبدِ الله والحَكمَ بنَ كَيسَانَ، وأقبَلَ عَبدُ اللهِ بنُ جَحشٍ وأصحَابُهُ بِالإبِلِ والأَسِيرَيْنِ، حتَّى قَدمُوا عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ.

فلمَّا قدِمُوا عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا أمرتُكُم بقتَالٍ في الشَّهرِ الحَرَامِ**»، فلمَّا قالَ ذلكَ رسُولُ اللهِ ﷺ أُسقِطَ فِي أيدِي القومِ، وظنُّوا أنَّهم قَد هلكُوا، وعنَّفَهُم إخوانُهُم منَ المُسلمينَ فيمَا صنَعُوا، وقالَت قُريشٌ: قَد استحَلَّ محمدٌ

وأصحابُهُ الشهرَ الحرَامَ، وسفَكُوا فيه الدَّمَ، وأخذُوا فيه الأموَالَ، وأسرُوا فيه الرجَالَ، فلمَّا أكثَرَ الناسُ في ذلكَ، أنزلَ اللهُ تعَالى عَلى رسُولِهِ ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ﴾ [البقرة:٢١٧].

فلمَّا نزَلَ القرآنُ بهَذَا، هانَ عَلَيهِم الأمرُ وفَرَّجَ اللهُ عَنِ المُسلمِينَ مَا كانُوا فِيهِ مِن المشقَّةِ، وقبضَ رسُولُ اللهِ ﷺ الإبلَ والأسيرَيْنِ، فبعَثَتْ قريشٌ في فدَاءِ عثمَانَ والحَكمِ بنِ كيسَانَ.

وفي رمضَانَ من هذَا العامِ الثانِي منَ الهجرَةِ، كانَت غزوةُ بدرٍ الكُبرَى، التي أعَزَّ اللهُ فيهَا الإسلامَ وأهلَهُ، وأذلَّ الشِّركَ وأهلَهُ، وشَفَى صدُورَ المُؤمنينَ من أعدَائِهِم، وأذهبَ غَيظَ قُلوبِهِم، وأعظَمَ مِنَّتَهُ عَلى عبادِهِ.

فقَد سمعَ رسُولُ اللهِ ﷺ بأبِي سُفيانَ صَخرِ بنِ حَربٍ مُقبلًا من الشامِ في قافلَةٍ عظيمةٍ لقُريشٍ، فيهَا أموالٌ وتجارَةٌ، وفيهَا ثلاثونَ رجُلًا أو أربعُونَ، وكانَ في القافِلَةِ ألفُ بعيرٍ، تحمِلُ أموالَ قُريشٍ بأسرِهَا إلا نَفَرًا يَسيرًا.

فحَثَّ رسُولُ اللهِ ﷺ المُسلمينَ عليهِم وقالَ: «**هذِهِ عِيرُ قُريشٍ فِيهَا أموَالُهُم فاخرُجُوا إلَيهَا لعَلَّ اللهَ يُنفِلْكُمُوهَا**»، وانتدَبَ الناسُ، فخَفَّ بعضُهُم وثَقُلَ بَعضٌ، وذلكَ أنَّهُم لَم يَظُنُّوا أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ يَلقَى حَربًا، وكانَ جُملَةُ مَن خرَجُوا معَ رسُولِ اللهِ ﷺ يَومئذٍ ثلاثَمِائَةٍ وثَلاثَةَ عشَرَ رَجُلًا.

وكانَ أبو سُفيانَ حينَ قربَ مِنَ الحجَازِ يتحَسَّسُ الأخبَارَ، ويسأَلُ مَن لَقِيَ

مِن الركبَانِ، تخَوفًا على أموَالِ الناسِ، حتى أصابَ خَبرًا مِن بعضِ الركبَانِ أنَّ مُحمدًا قَد استنفَرَ أصحَابَهُ لكَ ولقَافلتِكَ، فحَذِرَ عندَ ذلكَ فاستَأجرَ رَجُلًا فبعثَهُ إلى مكَّةَ، وأمرَهُ أن يأتِيَ قُريشًا فيَستَنفِرَهُم إلَى أموالِهِم، ويُخبِرَهُم أنَّ مُحمَّدًا قَد عرَضَ لهَا فِي أصحابِهِ، فخرجَ الرجُلُ سَريعًا إلى مكَّةَ حتَّى وقفَ عَلى بَعيرِهِ ببَطنِ الوَادِي، فشَقَّ قميصَهُ وقامَ يصرُخُ: يا مَعشرَ قُريشٍ، اللطيمَةَ اللطِيمَةَ، أموَالُكُم مَع أبِي سُفيانَ قَد عرَضَ لهَا مُحمدٌ في أصحَابِهِ، لا أرَى أن تُدرِكُوهَا، الغَوثَ الغوثَ، فخرجَتْ قريشٌ كلهَا، إمَّا رجلٌ خارجٌ بنَفسِهِ، وإمَّا باعثٌ مكانَهُ رَجُلًا، ولم يتخَلَّفْ مِن أشرافِهِم أحَدٌ.

وكانَ أُميةُ بنُ خَلفٍ قَد أجمَعَ القُعودَ، فأتاهُ أبُو جهلٍ فقَالَ: يا أبَا صَفوانَ، إنكَ متَى يراكَ الناسُ قَد تخَلَّفتَ وأنتَ سَيدُ أهلِ الوادِي تخَلَّفُوا معَكَ، فلَم يزَل بِهِ أبُو جهلٍ حتَّى قالَ: أمَا إذ غَلبتَنِي، فواللهِ لأشترِيَنَّ أجودَ بَعيرٍ بمكَّةَ.

ولمَّا أجمعَت قريشٌ على المَسيرِ خافُوا من بنِي بكرٍ أن تعقِبَهُم إلى ديارِهِم، فكادَ ذلكَ أن يُثنِيَهُم، فتبدَّى لهُم إبليسُ فِي صُورةِ سراقةَ بنِ مَالكٍ، وكانَ من أشرافِ بنِي كنانَةَ، فقالَ: أنَا لكُم جَارٌ مِن أن تَأتِيَكُم كنانَةُ من خَلفِكُم بشَيءٍ تكرهُونَهُ، فخرَجُوا سرَاعًا، وهذا مَعنى قَولِهِ تعَالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٧-٤٨].

فخرجَت قُريشٌ فِي تِسعمِائةٍ وخَمسينَ مُقَاتلًا، مَعهُم مائتَا فرسٍ يقُودُونَهَا، ومعَهُم المُغنياتُ يَضرِبْنَ بالدُّفوفِ ويُغنِّينَ بهجَاءِ المُسلمِينَ.

وخرجَ رسُولُ اللهِ ﷺ فِي ليَالٍ مَضَت من شَهرِ رَمضَانَ، واستعملَ ابنَ أمِّ مَكتومٍ عَلى الصلاةِ بالنَّاسِ، وإنمَا خرجَ رسُولُ اللهِ ﷺ يريدُ قافلَةَ قُريشٍ، حتَّى جمَعَ اللهُ بَينَهُم وبينَ عَدُوِّهِم عَلى غَيرِ مِيعَادٍ.

ثمَّ أتَى الخَبَرُ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ عَن قُريشٍ ومَسِيرِهِم ليَحمُوا إبلَهُم، فاستشَارَ الناسَ وأخبرَهُم عن قُريشٍ، فقامَ أبُو بكرٍ الصدِّيقُ ﵁ فقالَ وأحسَنَ، ثمَّ قامَ عُمرُ ابنُ الخطابِ ﵁ فقَال وأحسنَ، ثم قامَ المِقدادُ بنُ عمرٍو ﵁ فقالَ: يَا رسُولَ الله، امضِ لمَا أراكَ اللهُ فنحنُ مَعكَ، واللهِ لا نقولُ لكَ كمَا قالَ بنُو إسرَائيلَ لمُوسَى: اذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقَاتِلا إنَّا هاهُنَا قاعدُونَ، ولَكن اذهَب أنتَ وربُّك فقَاتِلا إنَّا معَكُمَا مُقاتِلُونَ، ستجدُنَا نقاتلُ عَن يمِينِكَ وعَن شمَالكَ، وبَينَ يدَيكَ ومِن خَلْفِكَ، فوالذِي بعثَكَ بالحقِّ لو سِرتَ بنَا إلَى بَرْكِ الغَمَادِ -وَهُو مَكَانٌ بَعِيدٌ مِن مَكَّةَ-، لجالَدنَا معكَ مِن دُونِهِ حتَّى تَبلُغَهُ، فأشرَقَ وجهُ النبيِّ ﷺ وسَرَّهُ ذلكَ، وقالَ لهُ خَيرًا ودعَا لهُ، ثمَّ قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**أشِيرُوا عَليَّ أيُّهَا النَّاسُ**»، وإنمَا كانَ يُريدُ الأنصارَ، وذلكَ أنَّهم كانُوا أكثرَ الناسِ، وأنَّهُم حينَ بايَعُوهُ بالعقبَةِ قالُوا: يَا رسُولَ اللهِ، إنَّا بُرآءُ مِن ذِمامِكَ حتَّى تصلَ إلَى ديَارِنَا، فإذَا وَصلتَ إلينَا فأنتَ فِي ذِمَّتِنَا، نَمنعُكَ ممَّا نمنَعُ منهُ أبناءَنَا ونسَاءَنَا، فكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يتخَوَّفُ ألَّا تكُونَ الأنصارُ تَرَى عَليهَا نَصرَهُ إلا ممَّن دَهمَهُ بالمَدينَةِ مِن عَدوِّهِ، وأنْ ليسَ عليهِم أنْ يسيرَ بِهِم مِن بِلادِهِم إلى عَدُوٍّ، فلمَّا قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ ذلكَ، قالَ لهُ سعدُ بنُ

معَاذٍ ﵁: واللهِ لكأنَّكَ تُريدُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: «**أجَل**»، فقالَ سعدٌ ﵁: يَا رَسُولَ اللهِ، لقَد آمنَّا بكَ وصدَّقنَاكَ، وشَهدنَا أنَّ ما جئتَ بهِ هُو الحقُّ، وأعطينَاكَ عَلى ذلكَ عُهودَنَا ومَواثِيقَنَا عَلى السَّمعِ والطاعَةِ لكَ، فامْضِ يَا رسُولَ اللهِ لمَا أرَدتَ فنَحنُ معَكَ، فوالذِي بعثَكَ بالحقِّ لَو استعرَضْتَ بنَا البَحرَ فخُضتَهُ لخُضنَاهُ مَعكَ، ما تخَلَّفَ منَّا رجُلٌ واحِدٌ، ومَا نكرَهُ أن تَلقَى بنَا عَدُوَّنَا غدًا، إنَّا لصُبُرٌ في الحَربِ، صُدُقٌ عندَ اللقَاءِ، ولعلَّ اللهَ أن يُريَكَ منَّا مَا تقَرُّ بهِ عَينُكَ، ولعَلَّكَ أن تَكونَ خَرجتَ لأمرٍ وأحدَثَ اللهُ إلَيكَ غَيرَهُ، فانظُرِ الذِي أحدثَ اللهُ إلَيكَ فامْضِ لهُ، فصِلْ حبَالَ مَن شِئتَ، واقطَع حِبالَ مَن شِئتَ، وعادِ مَن شئتَ، وسَالِمْ مَن شِئتَ، وخُذْ من أموَالِنَا مَا شِئتَ، ومَا أخذتَ منَّا كانَ أحبَّ إلينَا ممَّا تركتَ، وما أُمِرتَ بهِ مِن أمرٍ، فأمرُنَا تَبَعٌ لأمرِكَ، فسِرْ عَلى بَرَكَةِ اللهِ، فنزَلَ القُرآنُ عَلى قولِ سَعدٍ ﵁: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ [الأنفال:٥].

فَسُرَّ رسُولُ اللهِ ﷺ بقَولِ سَعدٍ ونَشَّطَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**سِيرُوا وأبشِرُوا؛ فَإنَّ اللهَ قَدْ وعَدَنِي إحدَى الطَّائفَتَيْنِ، واللهِ لكَأنِّي الآنَ أنظُرُ إلَى مَصَارِعِ القَومِ**».



(١٣) غَـزوَةُ بَـدرٍ

لمَّا عزمَ النبيُّ ﷺ على قِتالِ المشركِينَ في غَزوةِ بَدرٍ، سارَ حتى نزَلَ قَريبًا من بدرٍ، فلمَّا أمسَى بعثَ نَفَرًا من أصحَابِهِ إلى ماءِ بدرٍ يلتَمِسونَ الخبَرَ لهُ، فأصَابُوا غلامَيْنِ يحملُونَ الماءَ لقُريشٍ، فسألوهُمَا فقالُوا: نحنُ سُقاةُ قُريشٍ، بعثُونَا نَسقيهِم منَ الماءِ، فأَتَوْا بهِمَا إلى رسُولِ اللهِ ﷺ، فقَالَ لهُمَا: «**أَخبِرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ**»، قَالَا: هُم ورَاءَ هذَا الكَثيبِ الذِي ترَى بالعُدوَةِ القُصوَى، أي: طَرفِ الوَادِي الأَقصَى مِنَ المَدينَةِ.

فقالَ لهُما رسولُ اللهِ ﷺ: «**كَم القَوْمُ؟**»، قالَا: كثيرٌ، قالَ: «**ما عدَّتُهُم؟**»، قالَا: لَا نَدرِي، قالَ: «**كَم يَنحَرُونَ كُلَّ يومٍ؟**»، قالَا: يَومًا تِسعًا، ويَومًا عَشرًا، فقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: القَومُ ما بَينَ التِّسعمائَةِ إلى الأَلفِ، ثُم قالَ لَهُما: «**فَمَن فِيهِم مِن أشرَافِ قُريشٍ؟**» قالَا: عُتبَةُ بنُ رَبيعَةَ، وشَيبَةُ بنُ رَبيعَةَ، وأبُو البَختَرِيِّ بنُ هشَامٍ، وأبُو جَهلِ بنُ هشامٍ، وأميَّةُ بنُ خَلفٍ، وذكرُوا آخرِينَ، فأقبَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ عَلى الناسِ فقَالَ: «**هذِهِ مَكَّةُ قَد أَلقَتْ إِلَيكُم أفلَاذَ كَبِدِهَا**».

وأقبَلَ أبُو سُفيانَ بالقافلَةِ حَذرًا حتَّى ورَدَ الماءَ، فقالَ لرجُلٍ مَا هُنالكَ: هَل أحسَستَ أحَدًا؟ قالَ: ما رَأيتُ أحَدًا أُنكِرُهُ، إلا أنِّي رَأيتُ رَاكبَيْنِ قَد أناخَا إلى هذَا التَّلِّ فاستَقَيَا في قِربَةٍ لَهُما ثُمَّ انطَلَقَا، فأتَى أبُو سفيانَ مُناخَهُمَا، فأخذَ مِن

أبعارِ بعيرَيْهِمَا فَفَتَّهُ، فإذا فيهِ النَّوى، فقالَ: هذهِ واللهِ علائفُ يَثرِبَ، فرجَعَ إلَى أصحَابِهِ سَريعًا، فغَيَّرَ مسَارَ قَافلتِهِ عَنِ الطَّريقِ، وأخذَهَا إلى طَريقِ السَّاحلِ، وتَركَ بَدرًا يسَارَهُ، ثم انطلَقَ مُسرِعًا.

ولمَّا رَأى أبو سُفيانَ أنهُ قَد أحرَزَ قَافلَةَ العِيرِ، أرسَلَ إلى قُريشٍ: إنكُم إنمَا خَرجتُم لتَمنَعُوا عِيرَكُم ورجَالَكُم وأموَالَكُم، فقَد نجَّاهَا اللهُ، فارجِعُوا.

فقالَ أبُو جهلٍ: واللهِ لا نَرجعُ حتَّى نَرِدَ بَدرًا -وكانَ بَدرٌ مَوسِمًا من موَاسِمِ العربِ، يجتمِعُ لهُم بِهِ سُوقٌ كلَّ عامٍ- فنُقيمَ عليهِ ثَلاثًا، فنَنحَرَ الجَزُورَ، ونُطعِمَ الطعامَ، ونَسقِيَ الخَمرَ، وتَعزِفَ عَلينَا القِيانُ، وتسمَعَ بنَا العربُ وبمَسِيرِنَا وجَمعِنَا، فلا يزَالُونَ يهَابُونَنَا أبدًا، فامضُوا.

فقامَ الأخنَسُ بنُ شَريقٍ ونَادَى في قومِهِ من بَنِي زُهرَةَ: يَا بنِي زُهرَةَ، قَد نَجَّى اللهُ لكُم أموالَكُم، ورجَعَ لكُم صاحِبُكُم مَخرَمَةُ بنُ نَوفَلٍ، وإنمَا نَفرتُم لتَحمُوهُ ومَالَهُ، فاجعَلُوا بِي جُبْنَهَا وارجِعُوا، فإنَّهُ لا حَاجَةَ لَكُم بأن تَخرُجُوا فِي غَيرِ ضَيْعَةٍ، لَا مَا يَقُولُ هذَا.

فأطاعُوهُ وكَانَ فِيهِم مُطَاعًا، ورجعُوا فلَم يشهَدْهَا زُهرِيٌّ واحِدٌ، ولَم يَكُن بَقِيَ بَطنٌ مِن قُريشٍ إلا وقَد نفَرَ مِنهُم نَاسٌ، إلَّا بَنِي عَدِيٍّ فإنَّهُ لَم يَخرُجْ منهُم رجلٌ واحِدٌ، ورَجعَت بنُو زُهرَةَ معَ الأخنَسِ، فلَم يَشهَدْ بَدرًا مِن هَاتَيْنِ القَبِيلَتَيْنِ أحَدٌ.

وقامَ عُتبَةُ بنُ ربيعَةَ خَطِيبًا فقالَ: يا مَعشرَ قُريشٍ، إنَّكُم واللهِ مَا تَصنَعُونَ بأنْ تَلقَوا مُحمدًا وأصحابَهُ شَيئًا، واللهِ لَئِن أصبتُمُوهُ لا يَزالُ الرجُلُ يَنظُرُ إلى وَجهِ

رَجُلٍ يَكرَهُ النَّظَرَ إِلَيهِ، قَتَلَ ابنَ عَمِّهِ، أو ابنَ خالِهِ، أو رَجلًا مِن عَشيرتِهِ، فارجِعُوا، وخَلُّوا بَينَ محمَّدٍ وبَينَ سائِرِ العَربِ، فإن أصابُوهُ، فذَلكَ الذِي أردتُم، وإن كانَ غيرَ ذلكَ، صادفكُم ولَم تَعرِضُوا منهُ ما تُرِيدُونَ.

فقالَ أبُو جَهلٍ: انتفَخَ واللهِ سَحْرُهُ -أي: جَبُنَ- حينَ رَأى مُحمدًا وأصحابَهُ، فَلَا واللهِ لا نَرجِعُ حتَّى يَحكُمَ الله بَينَنَا وبَينَ مُحمَّدٍ.

فلما بلغَ عُتبَةَ قَولُ أبي جَهلٍ: انتَفَخَ واللهِ سَحْرُهُ، قالَ: سيَعلَمُ مَن انتفَخَ سَحرُهُ، أنَا أَم هُوَ.

ومَضَت قُرِيشٌ حتى نزلُوا بالعُدوَةِ القُصوَى في طرَفِ الوَادِي الأقصَى مِنَ المَدينَةِ، ونزلَ المُسلمُونَ بالعُدوةِ الدُّنيَا في طرَفِ الوَادِي الأدنَى من المَدينَةِ، وفيهَا قَليبُ بَدرٍ، قالَ تَعَالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال:٤٢].

وأنزَلَ اللهُ تعَالى مَطَرًا منَ السمَاءِ وكانَ الوادِي لَيِّنًا، فأصابَ رسُولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهُ منهُ ماءٌ لبَّدَ لهُمُ الأرضَ، ولَم يَمنَعهُم منَ السيرِ، وأصابَ قُريشًا منها مَاءٌ لم يَقدِرُوا على أن يَرتَحِلُوا معَهُ، كمَا قالَ تعَالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١]، فطهَّرَهُم ظاهِرًا وبَاطِنًا، وثبَّتَ أقدامَهُم، وشجَّعَ قُلوبَهُم، وأذهَبَ عَنهُم تخذِيلَ الشَّيطانِ، وتَخويفَهُ للنُّفُوسِ، ووسوستَهُ للخوَاطِرِ، وهذَا تَثبيتُ البَاطِنِ والظاهِرِ، وأنزلَ النصرَ عَليهِم مِن فَوقِهِم، قالَ تعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِى

رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾ [الأنفال:١٢]؛ أي: عَلى الرُّؤوسِ، ﴿وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾؛ أي: لئلَّا يَستمسِكَ منهُم السِّلاحُ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:١٣].

وباتَ رسولُ اللهِ ﷺ قائِمًا يُصلِّي، قالَ عَليٌّ ﷺ: ولَقَد رَأيتُنَا ومَا فِينَا إلا نَائمٌ، إلَّا رسولَ اللهِ ﷺ تحتَ شجرَةٍ يُصلِّي ويَبكِي حتَّى أصبَحَ.

ثم خرَجَ رسُولُ اللهِ ﷺ ليَسبِقَ قُرَيشًا إلى المَاءِ، حتَّى إذَا جاءَ أدنَى ماءٍ مِن بَدرٍ نَزلَ عليهِ، ثُم أمَرَ بالقُلُبِ فدُفِنَت، وبنَى حَوضًا على القَليبِ الذِي نزلَ عَليهِ، فمُلِئَ مَاءً، ولَيسَ للمُشرِكِينَ مَاءٌ.

وجاءَ سَعدُ بنُ مُعاذٍ ﷺ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ فقَالَ: يَا نبيَّ اللهِ، ألا نَبنِي لكَ عَرِيشًا تكونُ فيهِ، ونُعِدُّ عندَكَ ركَائِبَكَ، ثُم نَلقَى عَدُوَّنَا، فإن أعزَّنا اللهُ وأظهرَنَا على عَدُوِّنَا كانَ ذلكَ مَا أحبَبْنَا، وإن كانتِ الأخرَى جَلستَ عَلى ركائِبكَ فلحِقتَ بمَن ورَاءَنَا مِن قومِنَا، فقَد تخَلَّفَ عنكَ أقوامٌ ما نحنُ بأشدَّ حبًّا لكَ مِنهُم، ولو ظنُّوا أنكَ تَلقَى حَرْبًا ما تخلَّفُوا عَنكَ، يَمنَعُكَ اللهُ بِهِم، ويُناصِحونَكَ ويُجاهدُونَ مَعَكَ.

فأثنَى عليهِ رسُولُ اللهِ ﷺ خَيرًا ودعَا لهُ بخَيرٍ، ثُم بُني لرسُولِ اللهِ ﷺ عريشٌ كانَ فيهِ.

ولمَّا أقبلَت قُريشٌ لحَربِ رسُولِ اللهِ ﷺ، ورَآهَا ﷺ قالَ: «**اللهُمَّ هذِهِ قُريشٌ قَد أقبَلَتْ بخُيلائِهَا وفَخرِهَا، تُحادُّكَ وتُكَذِّبُ رسُولَكَ، اللهُمَّ فنصرَكَ الذِي**

وَعدْتَنِي، اللهُمَّ أَحِنْهُمُ الغَدَاةَ»، أي: أَهلِكْهُم.

فلمَّا تقابَلَ الفريقانِ أوقعَ اللهُ الوَهنَ والرعبَ في قُلوبِ الذِينَ كَفرُوا، وأراهُمُ المؤمِنينَ أولَ المُواجهَةِ قَليلًا، ثمَّ أيدَ المُؤمنينَ بنَصرِهِ، فجَعلَهُم في أعيُنِ الكَافِرينَ على الضِّعفِ مِنهُم، حتَّى وَهَنُوا وضَعُفُوا وغُلِبُوا، قال تعالى: ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ**﴾ [آل عمران:١٣].

ثمَّ قامَ رسولُ اللهِ ﷺ فعدَّلَ الصفُوفَ، ورجَعَ إلى العَريشِ فدخَلَهُ، ومعَهُ أبُو بكرٍ ﵁ ليسَ معَهُ فِيهِ غَيرُهُ، وكانَ سَعدُ بنُ مُعاذٍ ﵁ واقفًا عَلى بابِ العَريشِ مُتَقَلِّدًا بالسيفِ، ومعَهُ رجَالٌ منَ الأنصَارِ يَحرُسُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَوفًا عَليهِ مِن أَن يَدهَمَهُ العدُوُّ منَ المُشرِكِينَ، وهُيِّئَتِ النجائِبُ لرسُولِ اللهِ ﷺ، حتَّى إذَا احتَاجَ إليهَا رَكِبَهَا ورجَعَ إلى المَدينَةِ، كمَا أشارَ بِهِ سَعدُ بنُ مُعاذٍ ﵁.

وقامَ رسُولُ اللهِ ﷺ يُكثِرُ الابتهالَ والتضرُّعَ والدعَاءَ، ويُناشِدُ رَبَّهُ ﷿ ويقُولُ: «**اللهُمَّ إنكَ إنْ تُهلِكْ هذِهِ العصَابَةَ، لَا تُعبَدُ بَعدَهَا فِي الأرضِ**»، وجعلَ يهتفُ ويَستغيثُ بهِ ﷻ ويَقُولُ: «**اللهُمَّ أنجِزْ لِي مَا وَعدتَنِي، اللهُمَّ نَصرَكَ**»، ويرفعُ يدَيهِ إلَى السمَاءِ حتَّى سقطَ الرداءُ عَن مَنكِبَيْهِ، وجَعلَ أبُو بكرٍ ﵁ يَلتزِمُهُ مِن ورائِهِ، ويُسَوِّي عليهِ رداءَهُ، ويقولُ مُشفقًا عليهِ من كثرَةِ الابتهالِ: يَا رسولَ اللهِ، بَعضَ مُناشَدَتِكَ رَبَّكَ فإنهُ سيُنجِزُ لكَ ما وعَدَك، وكانَ ﵁ رقيقَ القَلبِ، شديدَ الإشفاقِ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ، لِمَا رَأى مِن نَصَبِهِ في الدعاءِ والتضرعِ، حتَّى سقطَ

الرداءُ عَن مَنكبَيْهِ، قالَ اللهُ تعَالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٩-١٠].

ثم تواجَهَ الفِئتانِ، وتقَابلَ الفَريقَانِ، وحضرَ الخَصمانِ بينَ يدَي الرحمَنِ، واستغاثَ برَبِّهِ سَيدُ الأنبيَاءِ، وضجَّ الصحابَةُ بصنُوفِ الدعَاءِ إلى ربِّ الأرضِ والسمَاءِ، سامعِ الدعَاءِ وكاشِفِ البَلاءِ، فكانَ أولَ مَن قُتلَ مِنَ المُشركينَ، الأسودُ بنُ عبدِ الأسَد المَخزوميُّ، وكانَ رجلًا شَرِسًا سَيِّئَ الخُلُقِ، وقَد قالَ: أعاهِدُ اللهَ لأشربَنَّ من حَوضِهم، أو لأهدِمَنَّهُ، أو لأموتَنَّ دُونَهُ، فخَرجَ إليهِ حمزَةُ بنُ عبدِ المطلبِ ﷺ، فلمَّا التقيَا ضربَهُ حمزَةُ، فأطَنَّ قدمَهُ بنِصفِ سَاقِهِ وهو دُونَ الحَوضِ، فوقَعَ عَلى ظهرِهِ تَشخُبُ رِجلُهُ دَمًا، ثم حَبَا إلى الحَوضِ حتى اقتحمَ فيهِ، يريدُ أنْ يبرَّ يَمينَهُ، فأتبعَهُ حمزةُ فضرَبَهُ حتَّى قتلَهُ في الحَوضِ.

فحمِيَ عندَ ذلكَ عُتبةُ بنُ رَبيعَةَ، وأرادَ أن يُظهرَ شجاعَتَهُ، فبرَزَ بينَ أخِيهِ شَيبَةَ وابنِهِ الوَليدِ، فلمَّا توسَّطُوا بينَ الصفَّيْنِ، دَعَوا إلى البِرَازِ، فخرَجَ إليهم ثلاثُ فتيَةٍ مِنَ الأنصَارِ، وهُم: عوفُ ومُعَوِّذُ ابنَا الحَارثِ، وعبدُ الله بن روَاحَةَ، فقالَ: مَن أنتُم؟ قالُوا: جَمَاعَةٌ منَ الأنصارِ، قالَ: أكْفَاءٌ كرَامٌ، ونادَى مُنادِيهم: يا مُحمَّد، أخرِجْ إلينَا أكفاءَنَا مِن قومِنَا.

فقالَ النبيُّ ﷺ: «**قُم يَا عُبيدَةُ بنُ الحَارثِ، قُمْ يا حَمزَةُ، وقُمْ يَا عَليُّ**»، قالُوا: نعَم، فقامَ عُبيدَةُ وكانَ أسَنَّ القومِ فبارَزَ عُتبَةَ، وبارَزَ حمزَةُ شَيبةَ، وبارَزَ عليٌّ الوَليدَ بنَ عُتبةَ، فأمَّا حمزَةُ فلَم يُمهِلْ شَيبَةَ أن قَتلَهُ، وأمَّا عليٌّ فلَم يُمهِلِ الوَليدَ أَنْ

قَتلَهُ، واختلَفَ عُبيدَةُ وعُتبَةُ بينَهُمَا بضَربَتَيْنِ، فأَصَابَ كِلاهُمَا صاحبَهُ، وكَرَّ حمزَةُ وعَليٌّ رضي الله عنهما بأسيَافِهِمَا على عتبَةَ فأجهَزَا عَليهِ، واحتمَلَا صاحبَهُمَا فنقَلاهُ رضي الله عنه إلَى أصحَابِهِ.

ولمَّا جاءوا بعُبيدَةَ بنِ الحارثِ بنِ المُطلبِ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ أضجَعُوهُ إلَى جانبِ موقفِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فأفرَشَهُ رسولُ اللهِ ﷺ قدمَهُ، فلمَّا وضَعَ خَدَّهُ عَلى قدَمِ رسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: يا رسُولَ اللهِ، لَو رَآنِي أبُو طالبٍ لعَلِمَ أنِّي أحقُّ بقَولِهِ:

وَنُسلِمُهُ حَتَّى نُصَرَّعَ حَولَهُ ... وَنذهَلَ عَن أَبنَائِنَا وَالحَلَائِلِ

ثم مَاتَ رضي الله عنه.

ثُم خرَجَ رسُولُ اللهِ ﷺ وقالَ: «**وَالذِي نَفسُ مُحمَّدٍ بيَدِهِ لا يُقاتِلُهُم اليَومَ رجُلٌ، فيُقتلُ صَابرًا مُحتَسِبًا، مُقبِلًا غَيرَ مُدبِرٍ، إلَّا أدخلَهُ اللهُ الجَنَّةَ**»، فقَامَ عُميرُ بنُ الحِمامِ الأنصَارِيُّ رضي الله عنه، وفي يدِهِ تَمراتٌ يَأكُلُهنَّ فقَالَ: بَخٍ بَخٍ، أفمَا بَينِي وبَينَ أنْ أدخُلَ الجَنَّةَ إلَّا أن يَقتُلَنِي هَؤلَاءِ؟!

فلمَّا دَنَا المُشرِكُونَ، قامَ رسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الناسِ فحَرَّضَهُم عَلى القتَالِ وقَالَ: «**قُومُوا إلى جنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَواتُ والأَرضُ**»، فقالَ عُمَيرُ بنُ الحِمَامِ: يا رسُولَ اللهِ، جنةٌ عرضُهَا السمَواتُ والأَرضُ؟ قالَ: «**نَعَم**»، قالَ: «بَخٍ بَخٍ»، فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا حمَلَكَ عَلى قَولِكَ: بَخٍ بَخٍ؟**»، قالَ: لَا واللهِ يَا رسولَ اللهِ، إلَّا رجاءَ أن أكُونَ مِن أهلِهَا، قالَ: «**فإنَّكَ مِن أهلِهَا**»، فأخرَجَ تمَراتٍ مِن قَرنِهِ، فجعلَ يأكُلُ مِنهُنَّ، ثُم قالَ: لئِن أنَا حَييتُ حتَّى آكلَ تمَرَاتِي هذِهِ إنهَا حيَاةٌ طَويلَةٌ، فقذَفَ التمرَاتِ مِن يَدِهِ، وأخذَ سيفَهُ، وأقبَلَ عَليهِم وهُو يَرتجزُ ويقُولُ:

رَكـضًا إِلَـى اللَّـهِ بِغَيـرِ زَادِ   إِلَّا التُّقَـى وَعَمَـلَ المَعَـادِ
وَالـصَّبرَ فِـي اللَّـهِ عَلَـى الجِهَـادِ   وَكُـلُّ زَادٍ عُرضَـةُ الـنَّفَادِ
غَيـرَ التُّقَـى وَالبِـرِّ وَالرَّشَـادِ

ثم لَم يزَلْ يُقاتلُ القَومَ حتَّى قُتِلَ ﷺ.

وقامَ النبيُّ ﷺ في مُواجهَةِ المُشركِينَ حتَّى كانَ أقربَ الناسِ مَكَانًا مِنهُم، قالَ عليٌّ ﷺ: «لَقَد رَأيتُنَا يَومَ بَدرٍ ونَحنُ نَلوذُ برَسولِ اللهِ ﷺ، وهُو أقربُنَا منَ العَدُوِّ، وكانَ مِن أشدِّ الناسِ يَومَئذٍ بَأسًا».

وأَيَّدَ اللهُ المُؤمنينَ بِالملائكَةِ، فقَد قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ يومَ بَدرٍ: «**هذَا جِبرِيلُ آخِذٌ برَأسِ فَرسِهِ، وعَلَيهِ أَدَاةُ الحَرْبِ**».

وجاءَ جِبريلُ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ فقَالَ: مَا تَعُدُّونَ أهلَ بَدرٍ فِيكُم؟ قالَ: «**مِن أفضَلِ المُسلِمينَ**»، قالَ: وكذَلكَ مَن شَهدَ بَدرًا منَ المَلائكَةِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ ﷺ: بَينَمَا رجلٌ مِنَ المُسلمينَ يَومئذٍ يشتدُّ في أَثَرِ رجُلٍ مِنَ المشركِينَ أمامَهُ، إذْ سَمعَ ضَربَةً بالسَّوطِ فَوقَهُ، وصَوتُ الفَارسِ يقولُ: أقدِمْ حَيزُومُ، إذْ نظرَ إلَى المُشركِ أمامَهُ قَد خَرَّ مُستَلْقِيًا، فنظَرَ إليهِ فإذَا هُو قد خُطِمَ أنفُهُ وشُقَّ وجهُهُ كضَربَةِ السَّوطِ، فاخضَرَّ ذَلكَ أجمَعُ، فجاءَ الأنصارِيُّ فحدَّثَ رسولَ اللهِ ﷺ بذَاكَ، فقالَ: «**صَدقْتَ؛ ذَلكَ مِن مَدَدِ السمَاءِ الثَّالثَةِ**»، فقَتلُوا يَومئذٍ سبعينَ، وأَسَرُوا سَبعينَ.

وفي هذِهِ المَعركَةِ قُتِلَ رَأسُ الكُفرِ أَبُو جَهلٍ -قَبَّحَهُ اللهُ-، قالَ عبدُ الرَّحمنِ ابنُ عوفٍ ﷺ: إنِّي لواقِفٌ يومَ بَدرٍ فِي الصَّفِّ، فنَظَرتُ عَن يَمينِي وشِمَالي، فإذَا أنَا بينَ -معَاذِ بنِ عَمرِو بنِ الجَمُوحِ ومُعَوِّذِ بنِ عَفرَاءَ- غُلامَيْنِ مِن الأنصارِ حديثَةٌ أسنانُهُمَا، فتمَنَّيتُ أنْ أكُونَ بَينَ أَقوَى منهُمَا، فغمزَنِي أحدُهُمَا فقالَ: يَا عمِّ، أتعرِفُ أبَا جَهلٍ؟ فقلتُ: نَعَم، ومَا حاجتُكَ إليهِ؟ قالَ: أُخبِرتُ أنهُ يسُبُّ رسولَ اللهِ ﷺ، والذِي نَفسِي بيدِهِ لئِنْ رَأيتُهُ، لا يُفارقُ سَوادِي سوادَهُ حتى يَموتَ الأعجَلُ منَّا، فتعجَّبتُ لذَلكَ، فغمزَنِي الآخرُ فقالَ لِي مثلَ مقَالةِ صاحبِهِ، فَلَم أنشَبْ أن نظَرتُ إلَى أبِي جَهلٍ وهُوَ يجُولُ في الناسِ، فقُلتُ: ألَا تَريانِ؟ هذَا صَاحبُكُمَا الذِي تَسألانِ عَنهُ.

فسمِعَ معَاذُ بنُ عمرٍو القَومَ وهُم يقُولونَ: أبُو الحَكمِ لَا يُخلَصُ إلَيهِ، فقَصدَهُ معاذٌ، فلمَّا تمكَّنَ منهُ حمَلَ عَليهِ فضَربَهُ ضَربَةً أطنَّتْ قَدمَهُ بنِصفِ سَاقِهِ، وضَربَ ابنُهُ عكرمَةُ مُعاذًا عَلى عَاتقِهِ، فطَرَحَ يدَهُ حتَّى تعَلَّقَتْ بجِلدَةٍ مِن جَنبِهِ، فقَاتلَ بقيَّةَ يَومِهِ وهُو يَسحَبُ يَدَهُ خَلفَهُ، فلمَّا آذَتهُ وضَعَ عَليهَا قَدمَهُ ثُم وَطِئَ عَليهَا حتَّى طرحَهَا، ثُم مرَّ مُعوذُ بنُ عفرَاءَ بأبِي جَهلٍ وهُو مَحبوسٌ مصَابٌ لَا يَستطِيعُ القيَامَ، فضَربَهُ حتَّى أثبَتَهُ وتَركَهُ وبِهِ رَمقٌ، ثُم قاتَلَ مُعوذٌ حتَّى قُتِلَ، فمَرَّ عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ بأبِي جَهلٍ، حينَ أمَرَ رسُولُ اللهِ ﷺ أن يُلتمَسَ فِي القَتلَى، فوجَدَهُ بآخرِ رَمقٍ فعرَفَهُ، فوضَعَ رِجلَهُ عَلى عُنقِهِ، فقَالَ أبُو جهلٍ: لقَدِ ارتَقَيتَ مُرتقًى صَعبًا يَا رُويعِيَّ الغَنمِ، فقَالَ ابنُ مسعُودٍ: هَل أخزَاكَ اللهُ يَا عَدُوَّ اللهِ؟ فقَالَ: أخبِرنِي لِمَنِ الدائِرَةُ اليَومَ؟ قالَ: للهِ ولرَسُولِهِ.

قالَ ابنُ مَسعودٍ ﷺ: فأتَيتُ رسُولَ اللهِ ﷺ، فقلتُ: قَد قَتلتُ أبَا جَهلٍ، فقالَ: «آللهِ الذِي لا إلَهَ إلَّا هُوَ؟»، فقلتُ: آللهِ الذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ، مرَّتينِ أو ثَلاثًا، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**اللهُ أكبَرُ، الحَمدُ للهِ الذِي صَدَقَ وَعدَهُ، ونصَرَ عَبدَهُ، وهزَمَ الأحزَابَ وَحدَهُ**»، ثُم قَالَ: «**انطَلِقْ فَأرِنيهِ**»، فانطلقتُ فأريتُهُ إياهُ، فقَالَ: «**هذَا فِرعَونُ هَذِه الأمَّةِ**».

وكانَ أميَّةُ بنُ خَلفٍ يُعذبُ بِلالًا بمكةَ عَلى الإسلامِ، فلمَّا رآهُ بلالٌ قالَ: رَأسُ الكفرِ أميَّةُ بنُ خَلفٍ، لا نَجوتُ إن نجَا، ثُم صرخَ بأعلَى صوتِهِ: يا أنصَارَ اللهِ، رَأسُ الكُفرِ أميَّةُ بنُ خَلفٍ، لا نَجوتُ إن نجَا، فأحاطُوا بهِ حتَّى جعَلُوهُ فِي مِثلِ حَلقةِ السِّوارِ، فضَربَهُ أحدُهُم ضَربَةً صاحَ عَلى إثرِهَا صَيحَةً ما سُمِعَ بمِثلِهَا قَطُّ، ثُم هَبرُوهُ بأسيَافِهِم حَتَّى فَرغُوا مِنهُ.



(١٤) مَا بَعدَ غَزوَةِ بَدرٍ، وَمَكرُ اليَهودِ في المـدِينَةِ

لمَّا انتهَتْ غزوةُ بدرٍ، وهزَمَ اللهُ المُشركينَ، وذلكَ يومَ الجمعَةِ في السَّابعَ عشَرَ من رمضَانَ، أمرَ رسُولُ اللهِ ﷺ بالقَتلَى أن يُطرَحُوا في القَليبِ، فطُرحُوا فيهِ إلا أميَّةَ بنَ خلفٍ فإنَّهُ انتفَخَ في دِرعِهِ فمَلأهَا، فذهَبُوا ليُخرِجُوهُ فتزَايلَ لحمُهُ، فترَكُوهُ في مَكانِهِ وألقَوا عَليهِ منَ الترابِ والحجَارَةِ ما غَيَّبَهُ.

فلمَّا ألقَاهُم ﷺ في القَليبِ، وقفَ عَليهِم فقَالَ: «**يَا أَهلَ القَليبِ، يَا عُتبَةُ بنُ رَبيعَةَ، ويَا شَيبَةُ بنُ رَبيعَةَ، ويَا أُميَّةُ بنُ خَلَفٍ، ويَا أَبَا جَهلِ بنَ هِشَامٍ** -فعدَّدَ مَن كانَ منهُم في القَليبِ- **هَل وَجَدْتُم مَا وعَدَ رَبُّكُم حَقًّا؟ فَإنِّي قَد وَجَدتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**»، فقَالَ المُسلمُونَ: يا رَسُولَ اللهِ، أتُنَادِي قَوْمًا قَد جَيَّفُوا؟! فقَالَ: «**مَا أَنتُم بِأسمَعَ لمَا أَقُولُ مِنهُم، ولَكِنَّهُم لَا يَستَطِيعُونَ أَن يُجِيبُونِي**».

وقَد كَانَ جُملَةُ مَن قُتلَ منَ الكفَّارِ يَومَ بَدرٍ سَبعِينَ، هذَا مع حضُورِ ألفٍ مِنَ المَلائكَةِ، وكانَ قدَرُ اللهِ السابقُ فِيمَن بقِيَ مِنهُم أن سَيُسلِم مِنهُم بشَرٌ كثيرٌ، ولَو شَاءَ اللهُ لسَلَّطَ عَليهِم مَلَكًا وَاحدًا فأهلكَهُم عَن آخرِهِم، ولَكِن مِن حِكمَةِ اللهِ أن يُقتَلُوا عَلى أيدِي المُسلمينَ، ليَشفِيَ صُدُورَهُم منَ الكفَّارِ، ويُذهِبَ غَيظَ قُلُوبِهِم بسَبَبِ مَا كانُوا يَصنَعُونَهُ بِهِم مِن أنوَاعِ التَّعذيبِ والأذَى في مكةَ أولَ الإسلَامِ،

قالَ تعالَى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١٤-١٥].

فكانَ قَتلُ أبِي جهلٍ عَلى يَدَي عبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ ﷺ، حيثُ وقَفَ عَليهِ بَعدَ أن طَعنَهُ شَابٌّ مِنَ الأنصَارِ، فأمسَكَ بلِحيَتِهِ، وصَعدَ عَلى صَدرِهِ، وحَزَّ رَأسَهُ، وقتَلَ بِلالٌ أميَّةَ بنَ خَلفٍ، فشَفَى اللهُ بِذَلِكَ قُلوبَ المُؤمِنينَ، وكانَ هذَا أبلَغَ مِن أَن تَأتِيَ أحدَهُم صَاعِقَةٌ، أو يَسقُطَ مِن شَاهِقٍ، أو يَمُوتَ حَتفَ أَنفِهِ.

وكانَ جُملَةُ مَنْ أُسِرَ مِنَ المُشرِكِينَ يومَئذٍ سَبعينَ أَسِيرًا، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَو كانَ المُطعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيًّا وسَأَلَنِي هَؤلَاءِ النَّتنَى لوَهَبْتُهُم لَهُ**».

وإنَّمَا قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذلكَ وفَاءً للمُطعمِ لِمَا قدَّمَهُ من المَعرُوفِ في إجَارَتِهِ للنَّبيِّ ﷺ حينَ رجَعَ مِنَ الطائفِ، وخافَ أن يَدخُلَ مَكةَ فأجَارَهُ المُطعِمُ بنُ عَدِيٍّ.

ثُم إنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ استشَارَ أَبَا بَكرٍ وعُمرَ رضي الله عنهما بمَا يَفعَلُهُ بأسرَى بَدرٍ، فقَالَ أَبُو بَكرٍ رضي الله عنه: يَا رسُولَ اللهِ، هَؤلاءِ بَنُو العَمِّ والعَشيرَةِ والإخوَانِ، وإنِّي أرَى أن تَأخُذَ مِنهُم الفِديَةَ، فيكُونُ مَا أخذنَاهُ قُوةً لنَا عَلى الكفارِ، وعسَى أن يَهدِيَهُم اللهُ، فيَكونُوا لنَا عَضُدًا.

فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا تَرَى يَا ابنَ الخَطَّابِ؟**»، فقَالَ عُمرُ رضي الله عنه: واللهِ مَا أرَى مَا رَأى أبُو بكرٍ، ولَكِن أرَى أن تُمَكِّنَنِي مِن فُلانٍ -قَريبٌ لعُمَرَ- فَأضرِبَ عُنقَهُ، وتُمَكِّنَ عَليًّا مِن عَقِيلٍ فيَضرِبَ عُنقَهُ، وتُمَكِّنَ حَمزَةَ مِن فُلانٍ أخِيهِ فيَضرِبَ

عُنقَهُ، حتَّى يَعلمَ اللهُ أنهُ لَيسَت فِي قُلوبِنَا هَوادَةٌ للمُشرِكِينَ، وهَؤلاءِ صَنادِيدُهُم وَأئِمَّتُهُم وقَادَتُهُم.

فهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أبُو بَكرٍ ﵁، ولَم يَهْوَ مَا قالَهُ عُمرُ ﵁، وأخَذَ مِنهُم الفدَاءَ.

فلمَّا كانَ منَ الغَدِ غدَا عُمرُ ﵁ إلى النبيِّ ﷺ فإذَا هُو قَاعِدٌ وأبُو بَكرٍ ﵁، وإذَا هُمَا يبكيَانِ، فقَالَ: يَا رسولَ اللهِ، أخبرنِي مَا الذِي يُبكيكَ أنتَ وصاحبُكَ، فإنْ وجدْتُ بكاءً بَكيتُ، وإنْ لَم أجِد بُكاءً تبَاكَيْتُ لبُكائِكَ وصَاحِبِكَ؟ فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أصحَابُكَ مِن أَخذِهِمُ الفِدَاءَ، لَقَد عُرِضَ عَليَّ عَذابُهُم أَدْنَى مِن هذِهِ الشَّجرَةِ**» -وأشَارَ لشجرَةٍ قَريبَةٍ- وأنزَلَ اللهُ تَعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٧-٦٨]، أَي: مَا أَخذتُم مِنَ الفِداءِ، ثُم أحلَّ اللهُ تعَالى لهُمُ الغنَائِمَ.

ثُمَّ أقبَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ قافِلًا إلَى المَدينَةِ ومعَهُ الأُسارَى، وفِيهِم عُقبَةُ بنُ أَبِي مُعَيطٍ، والنَّضرُ بنُ الحَارثِ، وكانَ هذَانِ الرجُلانِ مِن شَرِّ عبَادِ اللهِ، وأكثَرِهِم كُفرًا وعنَادًا وبَغيًا وحسَدًا، وهجَاءً للإسلامِ وأهلِهِ، حتَّى إذَا كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالصَّفراءِ قُتلَ النضرُ بنُ الحارِثِ، قتلَهُ عليُّ بنُ أَبِي طَالبٍ ﵁، ثُمَّ خرَجَ حتَّى إذَا كانَ بِعرقِ الظَّبيَّةِ قُتِلَ عُقبَةُ بنُ أَبِي مُعيطٍ، فقَالَ عُقبَةُ حينَ أمرَ رسُولُ اللهِ ﷺ بقَتلِهِ: يَا مَعشرَ قريشٍ، عَلَامَ أُقتلُ مِن بَينِ مَن هَاهُنَا؟ قالَ: «**عَلى عَداوَتِكَ اللهَ ورَسُولَهُ**».

ولمَّا بلغَ النجاشِيَّ ﵁ خَبرُ وَقعَةِ بَدرٍ، ومَا أحدَثَهُ اللهُ للمُؤمِنينَ مِن النَّصرِ

المُبينِ، فرِحَ بذَلكَ فَرحًا شَدِيدًا، وأرسَلَ إلَى جَعفرِ بنِ أَبِي طالبٍ وأصحَابِهِ ﷺ، فدَخَلُوا عَليهِ وهُوَ فِي بَيتٍ، عَليهِ خُلْقَانٌ مِن الثيَابِ، جالسٌ عَلى التراَبِ، فخَافُوا منهُ حِينَ رَأوهُ عَلى تلكَ الحَالِ، فلمَّا رَأى مَا فِي وجوهِهِم، قالَ: إنِّي أُبَشِّرُكُم بمَا يَسُرُّكُم، إنَّه جَاءَنِي مِن نَحوِ أرضِكُم عَينٌ لِي، فأخبَرَنِي أنَّ اللهَ قَد نصَرَ نَبيَّهُ ﷺ، وأهلَكَ عَدُوَّهُ، وأُسِرَ فُلانٌ وفُلانٌ، وقُتِلَ فُلانٌ وفُلانٌ، وقَد التَقَوْا بوَادٍ يُقَالُ لَهُ: بَدرٌ.

فقالَ لهُ جَعفرٌ ﷺ: فمَا بالُكَ جَالسًا على التُّرابِ ليسَ تَحتَكَ بساطٌ، وعليكَ هذِهِ الأخلاقُ؟ قالَ: إنَّا نجدُ فيمَا أنزَلَ اللهُ عَلى عيسَى: إنَّ حقًّا على عبَادِ اللهِ أن يُحدِثُوا للهِ تواضُعًا عندما يُحدِثُ لَهُم نِعمَةً، فلمَّا أحدَثَ الله لي نَصرَ نَبيِّهِ ﷺ، أحدَثتُ لهُ هذَا التواضُعَ.

ولمَّا وصلَ الخَبرُ إلَى أهلِ مكَّةَ وتحقَّقوهُ، قَطعَت النسَاءُ شُعورَهُنَّ، وعُقِرَت خُيولٌ كَثيرةٌ ورَواحِلُ، وناحَتْ قريشٌ عَلى قتلاَهَا، ثُم قالُوا: لا تَفعَلُوا فيبلُغَ ذَلكَ مُحمدًا وأصحَابَهُ فيَشمَتُوا بِكُم، ولا تبعَثُوا في أسرَاكُم حتى تتمهَّلُوا بهم، لا يزيدُ عليكُمْ مُحمدٌ وأصحابُهُ في الفِدَاءِ.

قالَ أهلُ العلمِ: وهذَا مِن تمامِ مَا عذَّبَ اللهُ بِهِ أحيَاءَهُم في ذَلكَ الوَقتِ، وهُو تركُهُم البُكاءَ عَلى قَتلاهُم، فإنَّ البُكاءَ عَلى المَيِّتِ ممَّا يَبُلُّ فُؤادَ الحَزِينِ.

ثُم بَعثَتْ قُريشٌ فِي فِداءِ أَسرَاهُم، وقَد كانَ فِي الأُسارَى أَبُو العَاصِ بنُ الرَّبيعِ، صِهرُ رسُولِ اللهِ ﷺ وزَوجُ ابنَتِهِ زَينبُ، وكانَ أَبُو العَاصِ من رجَالِ مكةَ المَعدودينَ مالًا وأمانَةً وتجَارَةً، وكانَت أُمُّهُ هَالَةُ بنتُ خُويلدٍ أُختُ خَديجَةَ بِنتِ

خُويلِدٍ ﵂، وكانَت خَديجَةُ ﵂ هِي التي سَأَلت رسُولَ اللهِ ﷺ أَن يُزَوِّجَهُ بِابنَتِهَا زَينبَ، وكانَ لَا يُخالِفُهَا، وذلكَ قَبلَ الوَحي، وكانَ ﷺ قَد زوَّجَ ابنَتَهُ رُقيَّةَ أَو أُمَّ كُلثُومٍ مِن عُتبةَ بنِ أَبِي لَهبٍ، فلمَّا جاءَ الوَحيُ قالَ أَبُو لهَبٍ: أَشغِلُوا مُحمدًا بنفسِهِ، وأَمَرَ ابنَهُ عُتبَةَ فطَلَّقَ ابنَةَ رسُولِ اللهِ ﷺ قَبلَ الدخُولِ، فتزَوَّجَهَا عثمانُ بنُ عفَّانَ ﵁، ومَشَوا إلى أَبِي العاصِ فقَالُوا لهُ: فَارِق صَاحبَتَكَ ونَحنُ نُزوِّجُك بأيِّ امرَأةٍ مِن قُريشٍ شِئتَ، قالَ: لا وَاللهِ لَا أفارِقُ صَاحبَتِي، ومَا أُحبُّ أَنَّ لِي بِامرَأتِي امرَأةً مِن قريشٍ، وكَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يُثنِي عَليهِ فِي صِهرِهِ.

وقَد فرَّقَ الإسلامُ بينَ زَينبَ ابنَةِ رسُولِ اللهِ ﷺ وبَينَ أَبِي العَاصِ، فلمَّا بَعثَ أَهلُ مكةَ في فِداءِ أسرَاهُم، بَعثَتْ زَينبُ بنتُ رسُولِ اللهِ ﷺ فِي فدَاءِ أَبِي العَاصِ بمَالٍ، وبَعثَت فيهِ بِقِلادَةٍ لهَا كانَت خَديجَةُ أدخلَتهَا بهَا عَلى أَبِي العاصِ حِينَ تَزَوَّجَهَا، فلمَّا رآهَا رسُولُ اللهِ ﷺ رقَّ لهَا رقَّةً شدِيدَةً، وقَالَ: «**إِن رَأيتُم أَن تُطلِقُوا لهَا أَسيرَهَا، وتَرُدُّوا عَليهَا الذِي لَهَا، فَافعَلُوا**»، قالُوا: نَعَم يَا رسُولَ اللهِ، فأطلَقُوهُ ورَدُّوا عَليهَا الذِي لهَا.

ثمَّ إن رسُولَ اللهِ ﷺ قَد أخذَ عَلى أَبِي العاصِ أَن يُخلِيَ سَبيلَ زَينبَ فتُهاجِرَ إِلَى المدينَةِ، فوَفَّى أَبُو العاصِ بذَلكَ، فلمَّا رجعَ إِلَى مكةَ أمرَهَا بِاللحُوقِ بِأَبِيهَا.

وقَد أقامَ أَبُو العاصِ بمكَّةَ عَلى كُفرِهِ، واستمَرَّتْ زَينبُ عندَ أبيهَا بالمَدينَةِ، حتَّى إِذَا كانَ قُبَيلَ الفَتحِ خرَجَ أَبُو العاصِ في تجَارَةٍ لقُريشٍ، فلمَّا قَفلَ منَ الشامِ لقِيَتهُ سريَّةٌ فأَخَذُوا مَا معَهُ، وأعجَزَهُم هَربًا، وجاءَ تَحتَ الليلِ إلى زَوجتِهِ زَينبَ فاستجَارَ بِهَا فأجارَتْهُ، فلمَّا خرَجَ رسُولُ اللهِ ﷺ لصلَاةِ الصبحِ، وكَبَّرَ، وكبَّرَ

الناسُ، صَرَخَتْ مِن صُفَّةِ النسَاءِ: أيهَا الناسُ، إنِّي قَد أجَرتُ أبَا العاصِ بنَ الربيعِ، فلمَّا سَلَّمَ رسُولُ اللهِ ﷺ أقبلَ عَلى الناسِ، فقَالَ: «**أَيُّهَا الناسُ، هَل سَمِعتُمُ الذِي سَمِعتُ؟**»، قالُوا: نَعَم، قالَ: «**أمَا والذِي نَفسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا عَلمتُ بشَيءٍ حتَّى سَمعتُ مَا سَمِعتُم، وإِنَّهُ يُجيرُ عَلى المُسلِمينَ أدنَاهُم**»، ثُم انصَرَفَ رسُولُ اللهِ ﷺ، فدَخَلَ على ابنَتِهِ زَينبَ فقَالَ: «**أَي بُنَيَّةُ، أكرِمِي مَثوَاهُ، وَلَا يَخلُصَنَّ إلَيكِ، فإنَّكِ لَا تَحلِّينَ لَهُ**»، وبَعثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى السَّريَّةِ فحثَّهُم عَلى رَدِّ مَا كانَ مَعهُ، فرَدُّوهُ كُلَّه لا يَفقِدُ مِنهُ شَيئًا، فأخذَهُ أبُو العاصِ فرجَعَ بِهِ إلَى مكةَ، فأعطَى كُلَّ إنسانٍ مَا كانَ لهُ، ثمَّ قالَ: يَا معشرَ قريشٍ، هَل بقيَ لأحدٍ مِنكُم عندِي مالٌ لَم يأخُذْهُ؟ قالُوا: لَا، فجزَاكَ اللهُ خيرًا، فقَد وجدنَاكَ وَفيًّا كَريمًا.

قالَ: فإنِّي أشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ، واللهِ ما منَعنِي مِن الإسلامِ عندَهُ إلا تَخوُّفُ أن تظُنُّوا أنِّي إنمَا أرَدتُ أَن آكُلَ أموَالَكُم، فلمَّا أدَّاهَا اللهُ إلَيكُم وفرَغتُ منهَا أسلَمتُ، ثمَّ خرجَ حتى قَدمَ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ، فردَّ عليهِ رسُولُ اللهِ ﷺ زَينبَ على النكَاحِ الأولِ، ولَم يُحدِثْ شَيئًا.

وفِي هذَا دليلٌ عَلى أن المرأَةَ إذَا أسلمَتْ وتأخرَ إسلامُ زوجِهَا حتى انقَضَتْ عدَّتُهَا، فنكاحُهَا لا ينفسِخُ بمجردِ ذلكَ، بَلْ تَبقَى بالخيَارِ، إن شاءَتْ تزوجَتْ غيرَهُ، وإن شَاءتْ تَربَّصتْ وانتظرَتْ إسلامَ زَوجِهَا أيَّ وقتٍ كانَ، وهِي امرأتُهُ ما لَم تتزَوَّجْ.

وكانَ مِن جُملةِ مَن أُسرَ منَ المشركينَ في غزوَةِ بدرٍ أبو عُزَّةَ عَمرُو بنُ عَبدِ الله بنِ جُمحٍ، وكانَ مُحتاجًا ذا بناتٍ، فقالَ: يا رسُولَ اللهِ، لقَد عرَفْتَ مَا لي مِن مالٍ،

وإنِّي لذُو حاجةٍ وذُو عِيالٍ، فامنُنْ عليَّ، فمَنَّ عَليهِ رسُولُ اللهِ ﷺ وأخذَ عَليهِ ألَّا يُعينَ عَليهِ أحدًا، فقالَ أبُو عزَّةَ يَمدحُ رسُولَ اللهِ ﷺ على ذَلكَ:

مَـن مُـبلِغٌ عَنِّـي الرَّسُـولَ مُحمَّـدًا ... بِأَنَّـكَ حَـقٌّ والمَلِـيكُ حَمِـيدُ

وأَنتَ امرُؤٌ تَدعُو إِلَى الحَقِّ وَالهُدَى ... عَلَـيكَ مِـنَ اللهِ العَظِـيمِ شَـهِيدُ

وَأنـتَ امـرُؤٌ بُـوِّئْتَ فِيـنَا مَـبَاءَةً ... لهَـا دَرجَـاتٌ سَـهلَةٌ وصُـعُودُ

فَإِنَّـكَ مَـنْ حَارَبـتَهُ لَمُحَـارِبٌ ... شَـقِيٌّ ومَـن سَـالَمْتَهُ لَـسَعِيدُ

وَلَكِـنْ إذَا ذَكَـرْتُ بَـدرًا وأَهلَـهُ ... تَـأَوَّبَ مَـا بِـي حَـسرَةٌ وَقُعُـودُ

ثمَّ إنَّ أبا عزَّةَ هذَا نقضَ مَا كانَ عاهَدَ الرسول ﷺ عليهِ، ولعِبَ المشركُونَ بعقلِهِ فرجعَ إلَيهِم، فلمَّا كانَ يومَ أُحدٍ أُسِرَ أيضًا، فسأَلَ منَ النبيِّ ﷺ أن يَمُنَّ عَليهِ أَيضًا، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**لَا أَدَعُكَ تَمسَحُ عَارِضَيْكَ وتَقُولُ: خَدَعْتُ مُحمَّدًا مَرَّتَيْنِ**»، ثُم أمَرَ بهِ فضُرِبَتْ عنُقُهُ.

وقَد خصَّ اللهُ ﷻ أهلَ بدرٍ بأعظمِ الفضلِ والجزاءِ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَن يدخُلَ النارَ رجُلٌ شَهدَ بَدرًا أَوِ الحُدَيبِيَةَ**».

ولمَّا جاءَتِ البشارَةُ إلى المُؤمِنينَ مِن أهلِ المَدينَةِ معَ زَيدِ بنِ حارثَةَ وعَبدِ اللهِ بنِ رَواحةَ، بمَا أحلَّ اللهُ بالمُشركينَ وبمَا فتحَ على المُؤمنينَ، وجدُوا رقيَّةَ بنتَ رسُولِ اللهِ ﷺ قَد تُوفِّيَت، وسَاوَوْا عَليهَا الترابَ، وكانَ زوجُهَا عثمانُ بنُ عفَّانَ قَد أقامَ عندهَا يُمرِّضُهَا بأمرِ النبيِّ ﷺ له بذَلكَ، ولهذَا ضَربَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ بسَهمِهِ فِي مغانِمِ بَدرٍ وأجرُهُ عندَ اللهِ يَومَ القيَامَةِ، ثمَّ زَوَّجَهُ بأختِها الأخرَى أمِّ كُلثومٍ بِنتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ولهذَا كانَ يقالُ لعُثمانَ بنِ عفَّانَ: ذُو النُّورَيْنِ.

وفي سنةِ ثِنتَيْنِ بعدَ وَقعةِ بَدرٍ، تزوَّجَ عليُّ بنُ أبِي طَالبٍ ﵁ بفَاطمَةَ بنتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا تزوَّجَهَا قالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَعطِهَا شَيئًا**»، قالَ: مَا عندِي شيءٌ، قالَ: «**أينَ دِرعُكَ الحُطَمِيَّةُ؟**»، والحُطميَّةُ: هي العريضَةُ الثقيلَةُ التِي تَحطمُ السيوفَ وتكسِرُهَا.

وفِي هذِهِ السنَةِ خضعَ المُشركونَ مِن أهلِ المدينَةِ واليهودُ الذينَ هُم بهَا مِن بنِي قَينُقاعَ وبَنِي النَّضيرِ وبنِي قُريظَةَ ويَهودِ بنِي حارثَةَ، وصَانَعُوا المُسلِمينَ، وأظهرَ الإسلامَ طائفةٌ كثيرةٌ مِن المُشركينَ واليهُودِ، وهُم في الباطنِ مُنافقونَ، مِنهُم من بَقِي في باطنِهِ عَلى ما كانَ عَليهِ من دِينِهِ، ومنهُم مَن بقِيَ مُذَبْذَبًا لا إِلَى هَؤلاءِ وَلا إِلى هَؤلاءِ.

وقَد كَانَت يهودُ بنِي قينُقاعَ تسكُنُ المَدينةَ، وكانَ النبيُّ ﷺ يدعُوهُم إلَى الإسلامِ، فأبَوا غُرورًا وعُلوًّا واستكبَارًا، ولمَّا دَخلَت سنَةُ ثلاثٍ من الهِجرَةِ، قَدمَت امرَأةٌ مِن العَربِ بِجَلْبٍ لهَا، فبَاعَتهُ بسُوقِ بَنِي قينُقاعَ وجَلسَت إلى صَائغٍ يَهُودِيٍّ هناكَ مِنهُم، فجعلُوا يُريدُونهَا على كَشفِ وَجهِهَا، فأَبَت، فعَمدَ الصَّائغُ إِلَى طَرَفِ ثَوبِهَا فعقَدَهُ إِلَى ظهرِهَا، فلمَّا قَامَت انكشَفَتْ عَورَتُهَا فضَحِكُوا بهَا، فصاحَتْ، فوثَبَ رجلٌ مِن المسلمينَ عَلى الصَّائغِ فقتَلَهُ، فشَدَّتِ اليهودُ عَلى المُسلمِ فقتَلُوهُ، فاستَصرَخَ أهلُ المُسلمِ المُسلِمِينَ عَلى اليَهودِ، فغَضِبَ المُسلمونَ ووقَعَ الشرُّ بَينَهُم وبَينَ بَني قينُقاعَ، فحاصَرهُم رسولُ اللهِ ﷺ حتى نَزلُوا عَلى حُكمِهِ، فقامَ إِلَيهِ عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلُولَ فقالَ: يا مُحمدُ، أحسِنْ فِي مَوَالِيَّ -وكانُوا حلفاءَ الخَزرجِ-، وفِي عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ نزَلَ قولُهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٥١-٥٢].

ومشَى عبادَةُ بنُ الصَّامتِ ﷺ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ، وكانَ حَليفًا لهُم، فخلَعَهُم إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وتبَرَّأَ إلى اللهِ وإلى رسولِهِ مِن حِلفِهم، وقالَ: يَا رسُولَ اللهِ، أتَوَلَّى اللهَ ورسُولَهُ والمُؤمِنِينَ، وأبرَأُ مِن حِلفِ هؤلاءِ الكفَّارِ وولايَتِهم، وفيهِ نزَلَ قولُهُ تَعالَى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦].

وكانَ كَعبُ بنُ الأشرَفِ اليَهُوديُّ يُؤذِي رسُولَ اللهِ ﷺ فرغِبَ رسُولُ اللهِ ﷺ بقَتلِهِ، وذلكَ أن كعبَ بنَ الأشرَفِ لَمَّا بَلغَهُ الخَبرُ عَن مَقتلِ أهلِ بَدرٍ مِن الكفارِ، قالَ: واللهِ لَئِن كانَ مُحمدٌ أصابَ هَؤلاءِ القَومَ، لبَطنُ الأرضِ خَيرٌ مِن ظَهرِهَا، ولما تيَقَّنَ الخَبرَ خرجَ إلى مكَّةَ فنزَلَ عَلى المُطلبِ بنِ أبِي ودَاعَةَ، وجعَلَ يُحرضُ عَلى قتَالِ رسُولِ اللهِ ﷺ ويُنشِدُ الأشعَارَ، ويَندُبُ مَن قُتلَ مِن المُشرِكِينَ يَومَ بَدرٍ، ويَقُولُ:

طَحَنَتْ رَحَى بَدرٍ لمَهلِكِ أَهْلِهِ ... ولِمِثْلِ بَدرٍ تَستَهِلُّ وتَدمَعُ

قُتِلَتْ سَرَاةُ النَّاسِ حَولَ حِيَاضِهِمْ ... لا تَبعُدُوا إنَّ المُلُوكَ تَصَرَّعُ

وجعَلَ يُعلنُ بالعدَاوَةِ، ويُحرضُ الناسَ عَلى الحربِ، ولم يَخرُجْ مِن مكةَ حتَّى أجمَعَ أمرَهُم على قتَالِ رسُولِ اللهِ ﷺ.

وقالَ لهُ أبُو سفيَانَ وهُو بمكَّةَ: أناشِدُكَ اللهَ، أدِينُنَا أحبُّ إلى اللهِ أَم دِينُ مُحمدٍ

وأصحَابِهِ؟ وأَينَا أهدَى فِي رَأيكَ وأقرَبُ إلى الحقِّ؟ فقالَ كَعبٌ: أنتُم أهدَى مِنهُم سَبيلًا، فأنزَلَ اللهُ عَلى رسُولِهِ ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء:٥١-٥٢].

ثُم عادَ إلى المدينَةِ فجعلَ يتغزَّلُ بنساءِ المُسلمينَ حتى آذَاهُم، ويَهجُو النبيَّ ﷺ وأصحابَهُ.

فلمَّا بلغَ الغايةَ فِي الأذَى قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن لكَعبِ بنِ الأَشرَفِ، فإنَّهُ قَد آذَى اللهَ ورَسُولَهُ؟**»، فقامَ مُحمدُ بنُ مَسلَمَةَ رضي الله عنه فقالَ: يَا رسُولَ اللهِ، أتحِبُّ أن أقتُلَهُ؟ قالَ: «**نَعَم**»، قالَ: فَأْذَنَ لِي أن أقُولَ شَيئًا، قالَ: «**قُل**»، فلمَّا انصرَفُوا مشَى معَهُم رسولُ اللهِ ﷺ إلى بَقيعِ الغَرقَدِ، ثُم وجَّهَهُم وقالَ: «**انطَلِقُوا عَلى اسمِ اللهِ، اللَّهُمَّ أعِنْهُم**»، ثُم رجعَ رسولُ اللهِ ﷺ إلَى بَيتِهِ.

فذَهبَ إليهِ مُحمدُ بنُ مَسلَمَةَ رضي الله عنه، وكانَ كعبُ بنُ الأشرَفِ خَالَهُ، ومَعهُ أبُو نائلَةَ رضي الله عنه، وكانَ أخًا لِكَعبٍ مِنَ الرضَاعَةِ، فلمَّا وصَلَا إلَيهِ، نادَى بهِ أبُو نائلَةَ، وكانَ كعبٌ حديثَ عَهدٍ بعُرسٍ، فوثَبَ في مِلحفَتِهِ، فأخَذتِ امرأتُهُ بنَاحيَتِهَا، وقالَتْ: أنتَ امرؤٌ محارِبٌ، وإنَّ أصحابَ الحَربِ لا يَنزلونَ في هذهِ السَّاعةِ، قالَ: إنهُ أبُو نائلَةَ، لَو وجدَنِي نائِمًا مَا أيقَظنِي، فقَالَت: واللهِ إنِّي لأعرِفُ في صوتِهِ الشَّرَّ، وإنِّي أسمَعُ صَوتًا كأنهُ يقطُرُ مِنهُ الدَّمُ.

قالَ: إنمَا هُو أخِي مُحمدُ بنُ مَسلَمَةَ ورَضيعِي أبُو نَائلَةَ، وإنَّ الكَريمَ لَو دُعيَ إلَى طعنةٍ بلَيلٍ لأجَابَ.

فلمَّا نزَلَ، قالَ لهُ مُحمدُ بنُ مَسلَمَةَ: إنَّ هذَا الرجلَ قَد سَألنَا صدَقَةً، وإنَّهُ قَد عَنَّانَا، وإنِّي قَد أتيتُكَ أستَسلِفُكَ، قالَ: وَأيضًا واللهِ لَتَملُّنَّهُ، قالَ: إنَّا قدِ اتبَعناهُ، فَلا نحبُّ أن ندَعَهُ حتى ننظُرَ إلَى أيِّ شَيءٍ يَصيرُ شأنُهُ، وقَد أردْنَا أن تُسلِفَنَا، قالَ: نَعَم، ارهَنُونِي، قالَ: وأيَّ شَيءٍ تريدُ؟ قالَ: ارهَنُونِي نساءَكُم، قال: كيفَ نَرهنُكَ نساءَنَا وأنتَ أجمَلُ العربِ؟، قالَ: فَارهَنُونِي أبنَاءَكُم، قالُوا: كيفَ نَرهنُكَ أبناءَنَا فيُسَبُّ أحدُهُم فيُقالُ: رُهنَ بِوسْقٍ أو وَسقَيْنِ، هذَا عارٌ عَلينَا، ولَكِن نَرهَنُكَ السِّلاحَ.

فدعاهُم إلى الحِصنِ لَيلًا، فدخَلَ مُحمدُ بنُ مَسلمَةَ وقد جَاءَ مَعهُ برَجُلَيْنِ، وقالَ: إذَا ما جاءَ فإنِّي قائلٌ بشَعرِهِ فأشَمُّهُ، فإذَا رأيتمُونِي استَمكَنْتُ مِن رَأسِهِ فدُونكُم فاضرِبُوهُ.

فلمَّا حضَرُوا نزلَ إلَيهِم كعبٌ مُتَوشِّحًا ينفَحُ مِنهُ رِيحُ الطيبِ، فقالَ محمدُ بنُ مسلمَةَ: مَا رأيتُ كَاليومِ رِيحًا، قالَ: عِندِي أعطَرُ نساءِ العربِ وأجمَلُ العربِ، فقالَ محمدُ بنُ مَسلمَةَ: أتأذَنُ لِي أن أشُمَّ رَأسَكَ؟ قالَ: نَعَم، فلمَّا استَمكَنَ مِنهُ قالَ: دُونَكُم، فقتَلُوهُ، ثمَّ أتَوا النبيَّ ﷺ فأخبَرُوهُ.

وفي ذَلكَ يَقُولُ كعبُ بنُ مَالكٍ ﵁:

فَغُودِرَ مِنهُم كَعبٌ صَرِيعًا	فَذَلَّتْ بَعدَ مَصرَعِهِ النَّضِيرُ
عَلَى الكَفَّيْنِ ثَمَّ وقَد عَلَتْهُ	بِأيدِينَا مُشَهَّرَةٌ ذُكُورُ

ولمَّا أوقعَ محمدُ بنُ مَسلمَةَ وأصحابُهُ بعدُوِّ اللهِ كعبِ بنِ الأشرَفِ خافَت يَهودُ، فَلَم يبقَ بالمَدينَةِ يَهوديٌّ إلا وهُوَ خَائفٌ عَلى نَفسِهِ.

❊ ❊ ❊



(١٥) غَـزوَةُ أُحُـدٍ

لمَّا دخَلتْ سنةُ ثَلاثٍ منَ الهجرَةِ عقَدَ مُشرِكُو قُريشٍ العَزمَ عَلى غَزوِ المَدينَةِ، ليدرِكُوا ثَأرَهُم مِن رَسولِ اللهِ ﷺ لمَا فعَلَهُ بأصحَابِ القَلِيبِ فِي غَزوَةِ بَدرٍ.

ولمَّا رجَعَ إلى مكَّةَ مَن نجَا مِن كفَّارِ قُريشٍ مِنَ القتلِ في بَدرٍ، ورجَعَ أبُو سُفيَانَ ابنُ حربٍ بالقافِلَةِ، مشَى عبدُ اللهِ بنُ أبِي رَبيعَةَ، وعِكرمَةُ بنُ أبِي جَهلٍ، وصَفوانُ ابنُ أميَّةَ فِي رجَالٍ مِن قُريشٍ مِمَّن أُصِيبَ آبَاؤُهُم وأبنَاؤُهُم وإخوَانُهُم يَومَ بَدرٍ، فكَلَّمُوا أبَا سُفيانَ ومَن كانَت لَهُ تجارَةُ تِلكَ العِيرِ مِن قُريشٍ، فقالُوا: يا معشَرَ قُريشٍ، إنَّ مُحمدًا قَد وَترَكُم وقتلَ خِيارَكُم، فأعينُونَا بِهذا المالِ على حربِهِ، لعلَّنَا نُدرِكُ منهُ ثَأرنَا، ففعَلُوا.

فأجمَعَت قريشٌ ومَن أطاعَهَا مِن قبائِلِ كنَانَةَ وأهلِ تِهامَةَ لحَربِ رسُولِ اللهِ ﷺ، ودعَا جُبيرُ بنُ مُطعمٍ غُلامًا لهُ حَبشيًّا يقالُ لهُ: وحشِيٌّ، يَقذِفُ بحَربَةٍ لهُ قَلَّمَا يُخطِئُ بِها، فقالَ لَهُ: اخرُجْ معَ الناسِ، فإنْ أنتَ قَتلتَ حمزَةَ عَمَّ مُحمدٍ بعَمِّي طُعيمَةَ بنِ عَدِيٍّ فأنتَ عَتيقٌ.

وكانَ وَحشِيٌّ كلمَا مرَّ بِهندِ بنتِ عُتبةَ أو مَرَّتْ بهِ تقُولُ: وَيْهًا أبَا دَسْمَةَ، اشْفِ واشتَفِ، تُحرِّضُهُ على قتلِ حَمزةَ بنِ عبدِ المُطلبِ رضي الله عنه لقَتلِهِ لأبِيهَا.

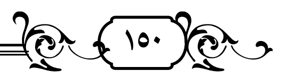
فخرَجَت قُريشٌ بحَدِّهَا وحَديدِهَا، وأقبَلُوا حتَّى نزَلُوا عَلى شَفيرِ الوَادِي مُقابلَ المَدينَةِ، جِهَةَ أُحدٍ.

فلمَّا سمِعَ بِهم رسُولُ اللهِ ﷺ، كانَ رأيُهُ أنْ يُقيمَ بِالمدينَةِ فيُقاتِلَهُم فيهَا، وقالَ لَهُم ﷺ: «**إنِّي رَأيتُ أنِّي فِي دِرعٍ حَصينَةٍ، فأوَّلتُهَا المَدينَةَ، وأنِّي مُردفٌ كَبشًا، فأوَّلتُهُ كَبشَ الكَتِيبَةِ، ورَأيتُ أنَّ سَيفِي ذَا الفقَارِ فَلَّ، فأوَّلتُهُ فَلًّا فِيكُم، ورَأيتُ بَقَرًا تُذبَحُ، فبَقْرٌ، واللهِ خَيرٌ**».

فلمَّا قصَّ رسولُ اللهِ ﷺ رؤيَاهُ عَلى أصحابِهِ قالَ لَهُم: «**إنْ رَأيتُم أن تُقيمُوا بالمَدينَةِ وتَدَعُوهُم حيثُ نزَلُوا، فَإنْ أقَامُوا أقَامُوا بِشَرِّ مُقَامٍ، وَإنْ هُم دَخَلُوا عَلَينَا قاتَلنَاهُم فِيهَا**».

فقالَ لهُ ناسٌ لَم يكُونُوا شَهدُوا بَدرًا: تَخرُجُ بنَا يَا رسُولَ اللهِ إلَيهِم نُقاتِلُهم بأُحدٍ، ورَجَوا أَن يُصيبَهُم مِنَ الفَضِيلَةِ مَا أصَابَ أَهلَ بَدرٍ، فمَا زَالُوا برسُولِ اللهِ ﷺ حتَّى لبِسَ أداتَهُ، ثُم ندِمُوا وقَالُوا: يَا رسولَ اللهِ، أَقِم، فَالرَّأيُ رَأيُكَ، فقَالَ لَهُم: «**مَا يَنبَغِي لِنَبيٍّ أَنْ يضَعَ أدَاتَهُ بَعدَمَا لَبسَهَا، حتَّى يَحكُمَ اللهُ بَينَهُ وبَينَ عَدُوِّهِ**».

فخرَجَ رسُولُ اللهِ ﷺ والمُسلِمُونَ، وهُم ألفُ رَجُلٍ، والمُشرِكُونَ ثَلاثَةُ آلافٍ، فمَضَى رسولُ اللهِ ﷺ، حتى إذَا كانَ بالشَّوطِ بينَ المدينَةِ وأحُدٍ قامَ عَبدُ اللهِ ابنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ فقَالَ: مَا نَدرِي، علامَ نَقتلُ أنفُسَنَا هَاهُنا أيهَا الناسُ؟ فرجَعَ فِي ثَلاثمِائَةٍ ممَّن اتَّبعَهُ مِن قَومِهِ مِن أهلِ النفَاقِ والرَّيبِ، فبَقِيَ رسولُ اللهِ ﷺ فِي سَبعِمائَةٍ.



واتَّبَعَهُم عَبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ حَرَامٍ، والدُ جَابرِ بنِ عَبدِ اللهِ فقالَ: يَا قَومِ، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ أَلَّا تَخذُلُوا قَومَكُم ونَبِيَّكُم عندَمَا حضَرَ عَدُوُّهم.

قالُوا: لَو نَعلَمُ أَنَّكُم تُقاتلُونَ لَمَا أسلَمنَاكُم، ولكِنَّا لا نَرَى أن يكُونَ قتَالٌ، فلمَّا استعصَوْا عَليهِ وَأَبَوْا إلَّا الانصِرَافَ قَالَ: أبعَدَكُمُ اللهُ أعدَاءَ اللهِ، فسيُغنِي اللهُ عَنكُم نَبيَّهُ ﷺ، وفي هَؤُلاءِ نَزَلَ قَولُهُ تَعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران:١٦٧].

ثم سارَ رسُولُ اللهِ ﷺ حتَّى نزلَ بأُحُدٍ، وكانَ عَلى خيلِ المُشركِينَ يَومَئذٍ خالدُ بنُ الوَليدِ.

وتعبَّأَ رسُولُ اللهِ ﷺ للقتَالِ، وأجلَسَ جَيشًا من الرمَاةِ، وكانَ عَددُهُم خَمسِينَ رجُلًا، وأمَّرَ عَليهم عبدَ اللهِ بنَ جُبَيرٍ ﵁، وقالَ: «**لا تبرَحُوا، إن رَأيتُمُونَا ظَهرْنَا عَليهِم فَلا تبرَحُوا حتَّى أُرسِلَ إليكُم، وإن رَأيتُمُوهُم ظَهرُوا عَلينَا فَلَا تُعينُونَا، لا يَأْتُونَا مِن خَلفِنَا، فَاثبُتُوا مَكانَكُم، لا نُؤتَيَنَّ مِن قِبَلِكُمْ**».

ثُم نَشبَتِ الحَربُ، وقامَ رسُولُ اللهِ ﷺ يُحرِّضُ الناسَ عَلى الجهَادِ، فأخذَ سَيفًا يومَ أحُدٍ وقالَ: «**مَن يَأخُذُ هذَا السَّيفَ؟**»، فأخَذَهُ قَومٌ فجَعَلُوا يَنظُرونَ إلَيهِ، فقَالَ: «**مَن يأخُذُهُ بِحَقِّهِ؟**»، فأحجَمَ القَومُ، فقالَ أبُو دُجانَةَ سِماكُ بنُ خَرَشَةَ ﵁: أنَا آخذُهُ بحقِّهِ، فأخذَهُ ففَلَقَ بهِ هَامَ المُشركينَ.

واقتتَلَ الناسُ حتَّى حَمِيَتِ الحَربُ، وقاتَلَ أبُو دجانَةَ حتَّى أمعَنَ في الناسِ،

فجعَلَ لا يَلقَى أحَدًا إلا قتلَهُ، وكانَ في المُشركينَ رجلٌ لَا يدَعُ جَريحًا إلا أجهَزَ عَليهِ، فجمَعَ اللهُ بَينهُ وبينَ أبِي دُجانَةَ، فالتَقيَا، فاختَلفَا ضربتَيْنِ، فضرَبَهُ أبُو دجَانَةَ فقَتلَهُ.

وفي هذهِ الغزوةِ حلفَ أُبَيُّ بنُ خَلفٍ ليَقتُلنَّ النبيَّ ﷺ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَل أَنَا أقتُلُهُ**».

فلمَّا أقبَلَ أُبَيُّ بنُ خَلفٍ، حمَلَ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ يُريدُ إبرَارَ قَسمِهِ، فطَعنَهُ النبيُّ ﷺ في جَيبِ دِرعِهِ، فجُرحَ جُرحًا خَفِيفًا، فوقَعَ يخُورُ خُوارَ الثَّورِ، فاحتَمَلُوهُ وقالُوا: ليسَ بكَ جراحةٌ، فمَا يُجزِعُكَ؟ قالَ: أَليسَ قال: لأقتُلَنَّكَ؟ ووجدَ مسَّ الألَمِ فقالَ: واللهِ لَو كانَت بجَميعِ رَبيعَةَ ومُضَرَ لقَتلَتْهُم، فلَم يَلبَث إلا يَومًا أو بعضَ يومٍ حتى ماتَ مِن ذلكَ الجُرحِ.

ثُم أنزلَ اللهُ نَصرَهُ عَلى المسلمينَ، وصدَقَهُم وعدَهُ، فقتَلُوا المُشركينَ قَتلًا ذَريعًا حتَّى أجلَوْهُم عَن مُعسكَرِهِم، وكانَ أولُ النهَارِ للمُسلمينَ على الكفَّارِ، وكَانُوا لَا يَشُكُّونَ في هَزيمَةِ المُشركينَ، قالَ الله تَعالى في ذَلكَ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٥٢]. والحَسُّ: هو القَتلُ.

فلمَّا رأى الرمَاةُ أن المُشركينَ قَد هرَبُوا، وتيقَّنُوا انتصَارَ المُسلمينَ، تَركُوا أماكِنَهُم، ونَسُوا ما أمرَهُم النبيُّ ﷺ بهِ مِن مُلازمَةِ أماكِنِهِم، وقَالُوا: أيْ قَوم، الغَنيمَةَ، ظهَرَ أصحَابُكُم فمَا تَنظُرونَ؟ فقالَ عبدُ اللهِ بنُ جُبَيرٍ ﷺ: أنسِيتُم ما قالَ لَكُم رسُولُ اللهِ ﷺ؟ قالُوا: إنَّا واللهِ لنَأتِينَّ الناسَ فَلنُصِيبَنَّ مِنَ الغَنِيمَةِ.

ولمَّا مَالَت الرمَاةُ عَن أماكِنِهِم حينَ انكشَفَ القَومُ، وخَلَّوْا ظُهورَ الصحَابَةِ

للخيلِ، أتَى المُشركُونَ مِن خَلفِهِم، وصرَخَ صَارخٌ: ألَا إنَّ مُحمدًا قَد قُتلَ، فانكفَأَ الصحَابَةُ وانكفَأَ القومُ عَليهِم، وانكشَفَ المُسلمونَ، وأصابَ مِنهُم العَدُوُّ، وكانَ يَومَ بلاءٍ وتَمحيصٍ، أكرَمَ اللهُ فيهِ مَن أكرَمَ بالشهَادةِ.

ففي هذهِ المعركَةِ قُتلَ حمزَةُ ﷺ عَمُّ رسُولِ اللهِ ﷺ، قتَلهُ وَحشِيٌّ غُلامُ جُبيرِ ابنِ مُطعِمٍ، حَيثُ رمَاهَ بِحَربَتِهِ مِن بَعيدٍ، قالَ وَحشِيٌّ: واللهِ إنِّي لأنظُرُ إلى حَمزَةَ يَهُدُّ الناسَ بسَيفِهِ مَا يَترُكُ شَيئًا يمُرُّ بهِ، مثلَ الجَمَلِ الأورَقِ، فلمَّا رأيتُ مكانَهُ وتمَكَّنتُ منهُ، هزَزتُ حَربَتِي، حتى إذَا رَضيتُ منهَا دَفعتُهَا عَليهِ، فوقَعَتْ منهُ في مَقتَلٍ، فأقبَلَ نَحوِي، فغُلِبَ فوَقَعَ، وأمهَلتُهُ حتَّى إذا ماتَ جئتُ فأخَذتُ حَربَتي، ثُم تنحَّيتُ إلَى العسكَرِ، ولَم يكُن لِي بشَيءٍ حَاجةٌ غَيرَهُ.

وانْهَزمَ الناسُ عَن رسولِ اللهِ ﷺ يومَ أحدٍ وبقِيَ معهُ أحَدَ عَشَرَ رَجُلًا منَ الأنصَارِ وطلحَةُ بنُ عُبيدِ اللهِ، ووصَلَ العَدُوُّ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ، فدُفِعَ عَلى الحجَارَةِ حتَّى وقعَ على جَنبِهِ، وأُصيبَتْ أسنانُهُ، وشُجَّ في وَجهِهِ، وجُرِحَت شَفتُهُ حتَّى جعَلَ الدمُ يَسيلُ في وَجهِهِ، فجعَلَ يَمسَحُ الدمَ ويقُولُ: «**كَيفَ يُفلِحُ قَومٌ خَضَبُوا وَجهَ نَبِيِّهِم وَهُوَ يَدعُوهُم إلَى اللهِ؟**»، فأنزَلَ اللهُ تَعالَى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ**﴾ [آل عمران:١٢٨].

ولَم يَبقَ معَ النبيِّ ﷺ غيرُ طَلحَةَ، وسعدُ بنُ أبِي وقاصٍ، وقَدِ استخرَجَ لهُ رسُولُ اللهِ ﷺ ما عِندَهُ من السِّهامِ، وقالَ: «**ارْمِ، فِداكَ أبِي وأُمِّي**»، قالَ عليُّ بنُ أبِي طَالبٍ ﷺ: «مَا سمِعتُ النبيَّ ﷺ جمعَ أبَويْهِ لأحَدٍ إلَّا لسَعدٍ، فإنِّي سَمعتُهُ يقُولُ يَومَ أُحدٍ: «**يَا سَعدُ، ارْمِ فِداكَ أَبِي وأُمِّي**».

ولمَّا فَشَا في الناسِ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قَد قُتِلَ، خَارَت قُوى كثِيرٍ مِن أصحابِهِ، وحصلَ لهُم بسَببِ ذَلكَ بَلاءٌ وفِتنَةٌ، فقَامَ أنسُ بنُ النَّضْرِ -عَمُّ أنَسِ بنِ مَالكٍ- مُنَادِيًا أصحَابَهُ: يَا قَومِ، إن كانَ مُحمدٌ قَد قُتلَ، فإنَّ ربَّ مُحمدٍ لَم يُقتَلْ، فقَاتِلُوا عَلى مَا قَاتَلَ عليهِ مُحمدٌ ﷺ، قَال تَعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤].

وكانَ أنسُ بنُ النَّضرِ رضي الله عنه قَد غابَ عَن قتَالِ بَدرٍ فقَالَ: غِبتُ عَن أولِ قِتالٍ قاتَلَهُ النبيُّ ﷺ للمُشرِكينَ، لَئِن أشهدَنِي اللهُ قِتالًا للمُشركينَ ليَرينَّ مَا أصنَعُ.

فلمَّا كانَ يومَ أحُدٍ وقَدِ انكشَفَ المُسلِمُونَ، قالَ: اللهُمَّ إنِّي أعتَذِرُ إلَيكَ عمَّا صنَعَ هَؤلاءِ -يَعنِي: أصحابَهُ- وأبرَأُ إلَيكَ ممَّا جاءَ بِهِ هَؤُلاءِ -يَعنِي: المُشركينَ- ثُم تقدَّمَ فقاتَلَ حتَّى قُتلَ، فوُجِدَ فِيهِ بِضعٌ وثَمانُونَ مِن بَينِ ضَربَةٍ بسَيفٍ، وطعنَةٍ برُمحٍ، ورَميَةٍ بسَهمٍ، قالَ سعدُ بنُ مُعاذٍ رضي الله عنه: فكُنَّا نَقولُ: فيهِ وفي أصحابِهِ نزَلَت: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾ [الأحزاب:٢٣].

وفي هذِهِ الغَزوةِ قُتِلَ عبدُ اللهِ بنُ عَمرِو بنِ حَرَامٍ الأنصارِيُّ -والدُ جابرٍ-: فجعَلَ جَابرٌ يبكِي ويَكشفُ الثوبَ عَن وَجهِهِ، فأخذَ أصحَابُ النبيِّ ﷺ ينهَوْنَهُ، والنبيُّ ﷺ لَم يَنهَهُ، لكنَّهُ قالَ لفاطمَةَ بنتِ عمرٍو عمَّةِ جَابرٍ: «**لَا تَبكِهِ مَا زَالتِ المَلائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأجنِحَتِهَا حتَّى رُفِعَ**».

وفي هذهِ الغَزوةِ تجلَّى حُبُّ الصحابَةِ لرسُولِ اللهِ ﷺ حتَّى باتَ ظَاهرًا جَليًّا، وضرَبُوا أروعَ الأمثِلَةِ فِي البَذلِ والتَّفانِي والقتَالِ دُونَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حتَّى

أرخَصُوا أنفُسَهُم في سَبيلِ ذلكَ.

فلما انْهَزَمَ الناسُ عَنِ النبيِّ ﷺ قامَ أبُو طلحةَ بينَ يدَي رسُولِ اللهِ ﷺ، وكانَ رَجُلًا راميًا شديدَ النَّزعِ، كسَرَ يومَ أحُدٍ قوسَيْنِ أو ثَلاثًا، وكانَ الرجلُ يَمُرُّ معَهُ بمَجمُوعَةٍ مِن النَّبلِ، فيقُولُ النبيُّ ﷺ: «**انثُرْهَا لأَبِي طَلحَةَ**».

وَقَامَ النبيُّ ﷺ عَلى مكانٍ مُشرفٍ مُرتفِعٍ لِيَنظُرَ إلَى القَومِ، فَقَالَ أبُو طلحةَ: بِأبِي أنتَ وأمِّي؛ لا تُشرِفْ يُصِبْكَ سَهمٌ من سهَامِ القومِ، نَحرِي دُونَ نَحرِكَ.

وقاتَلَ أبُو طَلحَةَ رضي الله عنه دُونَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حتَّى شُلَّتْ يَدُهُ، قد وقَى بِهَا النبيَّ ﷺ يومَ أحُدٍ.

ورَدَّ أبُو دُجانَةَ رضي الله عنه النبَالَ عَن رسُولِ اللهِ ﷺ ووقَاهُ ببَدَنِهِ، وقَدِ انحَنَى عَلى رَسُولِ اللهِ ﷺ حتَّى لا تَصِلَ إلَيهِ النبَالُ، فلَم تَزلِ النبَالُ تَقعُ فِي ظَهرِهِ حتَّى كثُرَتْ عَليهِ.

وقاتَلَتْ أمُّ عمَارَةَ نُسَيْبَةُ بنتُ كَعبٍ المَازِنِيَّةُ عَن رسُولِ اللهِ ﷺ قتالَ أهلِ الإقدَامِ والشجاعَةِ، وبَذَلَت في سَبيلِ ذلكَ نفسَهَا ومُهجَتَهَا، رجاءَ مَا عندَ اللهِ، وحُبًّا لرسولِ اللهِ ﷺ، قالَت أمُّ عمارةَ: خَرجْتُ أولَ النهَارِ أنظُرُ مَا يَصنَعُ الناسُ ومَعي سقَاءٌ فِيهِ ماءٌ، فانتَهَيتُ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ وهُو في أصحَابِهِ، والدائِرَةُ والريحُ للمُسلِمينَ، فلمَّا انْهَزَمَ المسلمونَ ووَلَّى الناسُ عَن رسولِ اللهِ ﷺ، انحَزْتُ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ، فقُمتُ أباشِرُ القتالَ، وأذُبُّ عنهُ بالسَّيفِ، وأرمِي بِالقَوسِ، حتَّى رأيتُ ابنَ قَمِئَةَ قَد أقبَلَ وهُوَ يقولُ: دُلونِي على مُحمدٍ، لا نَجوتُ إن نَجا، فاعتَرضتُ لهُ أنَا ومُصعبُ بنُ عُميرٍ وأناسٌ ممَّن ثَبتَ معَ رسولِ اللهِ ﷺ،

فضرَبَنِي في عَاتِقِي ضربَةً حتَّى خَلصتِ الجِراحُ إليَّ، ولقَد ضَربتُهُ عَلى ذلكَ ضَربَاتٍ، ولَكنَّ عدُوَّ اللهِ كانَت عَليهِ دِرْعَانِ.

ولمَّا انتَهَتِ المعركَةُ أشرفَ أبُو سفيانَ عَلى مكانٍ مرتفِعٍ ونادَى: أفِي القَومِ محمدٌ؟ ثلاثَ مرَّاتٍ، فنهَاهُمُ النبيُّ ﷺ أن يُجيبُوهُ، ثُم قالَ: أفِي القومِ ابنُ أبِي قُحافةَ؟ ثلاثَ مراتٍ، ثم قالَ: أفِي القَومِ ابنُ الخطَّابِ؟ ثلاثَ مراتٍ، ثم رجعَ إلى أصحابِهِ فقالَ: أمَّا هؤلاءِ، فقَد قُتِلُوا، فمَا مَلَكَ عمرُ نَفسَهُ، فقالَ: كذَبتَ واللهِ يا عَدُوَّ اللهِ، إنَّ الذينَ عددتَ لأحيَاءٌ كُلُّهم، وقَد بقِيَ لكَ مَا يَسُوؤكَ، قالَ: يَومٌ بيومِ بدرٍ، والحربُ سِجالٌ، إنكُم ستجدُونَ فِي القَومِ مُثلةً -أي: تَشوِيهًا-، لم آمُر بِها ولم تَسُؤْنِي، ثُم أخذَ يَرتجزُ: اعلُ هُبَل، اعلُ هُبَل، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**ألَا تُجيبُوهُ؟**»، قالُوا: يا رسولَ اللهِ، ما نقُولُ؟ قالَ: «**قُولُوا: اللهُ أعلَى وأجَلّ**»، قال: لنَا العُزَّى ولا عُزَّى لكُم، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**ألَا تُجيبُوهُ؟**»، قالُوا: يا رسُولَ اللهِ، ما نقُولُ؟ قالَ: «**قُولُوا: اللهُ مَولانَا، وَلَا مَولَى لَكُم**».

ثم انصرَفَ أبُو سفيانَ ومَن معهُ من المُشركينَ، فامتَطَوا الإبلَ ووَجَّهُوا قافِلِينَ إلَى مكَّةَ.

وخرجَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَبحثُ عَن حمزَةَ بنِ عبدِ المطلِبِ فوجدَهُ ببَطنِ الوادِي، قَد بُقِرَ بَطنُهُ عَن كبدِهِ، ومُثِّلَ بِهِ فجُدِعَ أنفُهُ وأذنَاهُ، فحزِنَ رسُولُ اللهِ ﷺ لذلكَ حُزنًا شَديدًا، وغاظَهُ مَا فُعِلَ بعَمِّهِ.

وبينَمَا هُم يلتمسُونَ القَتلى إذ أقبلَتِ امرَأةٌ تسعَى حتى كادَتْ أن تَرَى القَتلَى، فكَرِهَ النبيُّ ﷺ أنْ ترَاهُم، فقالَ: «**المَرأَةَ المَرأَةَ**».

قالَ الزُّبَيرُ ﷺ: فتوسَّمتُ أنَّها أمِّي صفيَّةُ، فخرَجتُ أسعَى إليهَا، فأدركتُها قبلَ أن تصِلَ إلَى القَتلَى، فضَرَبتْ في صَدْرِي، وكَانَت امرأَة جَلدَةً، وقَالَت: إلَيكَ، لا أرضَ لكَ، فقلتُ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عزَمَ عَليكِ، فوقَفَتْ، وأخرجَتْ ثَوبَيْنِ مَعَها، فقالَتْ: هذانِ ثوبانِ جئتُ بِهمَا لأخي حَمزَةَ، فقَد بلغَنِي مقتلُهُ، فكفِّنُوهُ فِيهِمَا، فجئنَا بالثَّوبَيْنِ لنُكفنَ فيهمَا حمزةَ، فإذَا إلى جنبِهِ رجلٌ منَ الأنصارِ قَتيلٌ، قَد فُعلَ بهِ كمَا فُعِلَ بحَمزَةَ، فوجَدنَا غضاضَةً وحياءً أن نُكفنَ حَمزةَ في ثَوبَينِ والأنصَاريُّ لا كفَنَ لَهُ، فكَفَّنَّا حمزَةَ في ثَوبٍ والأنصَاريَّ في ثَوبٍ.

ثُم قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن رَجلٌ يَنظُرُ لِي مَا فعَلَ سَعدُ بنُ الرَّبِيعِ؟ أَفِي الأحيَاءِ هُوَ أَم فِي الأَموَاتِ؟**»، فقالَ رجلٌ منَ الأنصَارِ: أنَا، فنظَرَ فوجَدَهُ جَرِيحًا في القَتلَى وبِهِ رمَقٌ، فقالَ لهُ: إنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ أمرَنِي أن أنظُرَ، أفِي الأحياءِ أنتَ أمْ في الأمواتِ؟ فقالَ: أنَا في الأمواتِ، فأبلِغْ رسُولَ اللهِ ﷺ عنِّي السَّلامَ، وقُل لَهُ: إنَّ سعدَ بنَ الربيعِ يقولُ لكَ: جزَاكَ اللهُ عنَّا خَيرَ مَا جزَى نَبيًّا عن أمَّتِهِ، وأبلِغْ قَومَكَ عنِّي السلامَ، وقُلْ لهُم: إنَّ سَعدَ بنَ الرَّبيعِ يَقُولُ لَكُم: إنَّهُ لا عُذرَ لَكُم عِندَ اللهِ إنْ خَلُصَ إلَى نَبيِّكُم ومِنكُم عَينٌ تَطرَفُ، ثُمَّ لَم يَبْرَحْ حتَّى ماتَ، فجَاءَ الرجُلُ إلَى النبيِّ ﷺ فأخبَرَهُ خَبَرَهُ.

وقَد أصَابَ الصحَابَةَ حِينَ دَفنِ المَوتَى جَهدٌ ومَشقَّةٌ، فَقَد خَرجُوا مِن تَعبِ المعركَةِ، وكثُرَ القتلَى حتى كانَ عددُ الشهداءِ الذينَ قُتِلُوا من المُسلمينَ سَبعينَ رَجُلًا، فَلَم يَستطيعُوا أن يَدفنُوا كلَّ واحدٍ على حِدَةٍ، فجَاءُوا إلى رسُولِ اللهِ ﷺ فقَالُوا: قَد أصابَنَا قرحٌ وجَهدٌ، فكَيفَ تأمُرنَا؟ فقالَ: «**احفِرُوا وأَوسِعُوا، واجعَلُوا**

الرجُلَيْنِ والثلَاثَةَ فِي القَبرِ الوَاحِدِ»، قالُوا: يا رسُولَ اللهِ، فأيُّهُم يُقَدَّمُ؟ قالَ: «**أَكثَرُهُم قُرآنًا**».

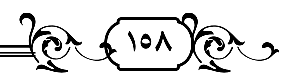
وقَد أمرَ النبيُّ ﷺ بدَفنِهم بدِمَائِهم، ولَم يُصلِّ عَليهِم، ولَم يُغَسَّلُوا، ولمَّا لُحِدُوا في قُبورِهِم قَامَ عَليهِم ﷺ وقَالَ: «**أَنَا شَهيدٌ عَلى هَؤلاءِ يَومَ القِيَامَةِ**».

قالَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ ﷺ: لمَّا حضَرَ أحُدٌ دعَانِي أَبِي مِنَ الليلِ فقالَ لِي: مَا أُرانِي إلا مَقتُولًا فِي أولِ مَن يُقتَلُ مِن أصحابِ النبيِّ ﷺ، وإنِّي لا أترُكُ بَعدِي أعَزَّ عَليَّ مِنكَ، غَيرَ نَفسِ رسُولِ اللهِ ﷺ، وإنَّ عليَّ دَينًا فَاقْضِهِ، واستَوصِ بأخوَاتِكَ خَيرًا، فأصبَحنَا فكانَ أولَ قَتيلٍ، فدَفنتُ معَهُ آخرَ في قَبرِهِ، ثُم لَم تَطِبْ نَفسِي أَن أترُكَهُ مَعَ آخرَ، فاستَخرجتُهُ بَعدَ ستَّةِ أشهُرٍ، فإذَا هُوَ كهَيئَتِهِ يَومَ وضعتُهُ غَيرَ أُذُنِهِ.

ولمَّا رجعَ الناسُ إلى المَدينَةِ مرُّوا بامرَأةٍ مِن بنِي دينَارٍ، قَد أُصيبَ زَوجُهَا وأخوهَا وأبُوها معَ رسُولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا أخبَرُوهَا بذَلكَ قالَت: ما فعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قالُوا: خيرًا يَا أمَّ فُلانٍ، هُو بحَمدِ اللهِ كمَا تُحبِّينَ، قالَت: أرُونيهِ حتَّى أنظُرَ إلَيهِ، فأُشيرَ لهَا إلَيهِ، حتَّى إذَا رَأتهُ قَالَت: كُلُّ مُصيبَةٍ بَعدَكَ جَلَلٌ.

ولمَّا رجَعَ رسولُ اللهِ ﷺ مِن أُحدٍ، جعَلَ نسَاءُ الأنصارِ يَبكينَ عَلى مَن قُتلَ مِن أزواجِهِنَّ، فقالَ ﷺ: «**وَلكِنَّ حَمزَةَ لَا بَوَاكِيَ لَهُ**»، أَي: لا بَواكِيَ لهُ بِالمَدينَةِ، ثُم نَامَ، فجاءَ نساءُ الأنصَارِ يَبكينَ حَمزَةَ، فلمَّا استيقَظَ رَسولُ اللهِ ﷺ قالَ: «**وَيحَهُنَّ! مَا انقَلبنَ بعدُ؟! مُروهُنَّ فَليَنقَلِبْنَ، وَلَا يَبكِينَ عَلى هَالِكٍ بَعدَ اليَومِ**».

* * *



(١٦) مَا جَرَى مِنَ الأحدَاثِ بعدَ غزوَةِ أحُدٍ، وإجْلاءُ بنِي النَّضيرِ منَ المَدينَةِ

لمَّا انتَهَت غزوَةُ أحدٍ، وقَد انهزمَ فيهَا المسلمُونَ وأصابَهُم ضنْكٌ وبَلاءٌ وشِدَّةٌ، وقامُوا يَبكُونَ قَتلاهُم، أخذَ المُنافِقُونَ عِندَ ذلكَ فِي المَكرِ والتَّفريقِ عَن رسُولِ اللهِ ﷺ وتَحزينِ المُسلمينَ، وظَهَرَ غِشُّ اليَهودِ، وفَارتِ المَدينَةُ بالنفَاقِ فَورَ القُدورِ، فقَالَت اليَهودُ: لَو كَانَ نَبيًّا مَا ظَهرُوا عَليهِ، ولا أُصيبَ مِنهُ مَا أُصِيبَ، ولكنَّهُ طَالبُ مُلكٍ تَكونُ الدائرَةُ لهُ وعَليهِ، وقَالَ المُنافقُونَ مِثلَ قَولِهِم، وقَالُوا للمُسلِمينَ: لو كنتُم أطعتُمُونَا مَا أصابَكُم الذِي أصَابُوا مِنكُم، فثَبَّتَ اللهُ المُؤمنينَ، وزادَهُم إيمانًا ويَقِينًا.

وخرَجَ النبيُّ ﷺ بأصحابِهِ عَلى ما بِهِم منَ الألَمِ والجِراحِ، في أثَرِ أبِي سُفيانَ وجَيشِهِ، إرهَابًا لهُ ولأصحابِهِ حتَّى بلَغَ حَمراءَ الأَسدِ، وهيَ مِنَ المَدينَةِ عَلى ثَمانيَةِ أميَالٍ.

وذلكَ أنهُ قَدمَ رجلٌ مِن أهلِ مكَّةَ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ فسألَهُ عَن أَبِي سُفيانَ وأصحابِهِ، فقَالَ: نازلتُهُم فسَمِعتُهُم يتَلاوَمُونَ، يقولُ بعضُهُم لبَعضٍ: لَم تَصنَعُوا شَيئًا، أصبتُم شوكَةَ القَومِ ثُم تَركتُمُوهُم ولَم تَبترُوهُم، فقَد بقِيَ منهُم رُؤوسٌ يَجمعُونَ لَكُم.

فبلغَ ذلكَ رسُولَ اللهِ ﷺ فقالَ: «**حَسبُنَا اللهُ ونِعمَ الوَكِيلُ**»، ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ**

ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣].

وخافَ رسُولُ اللهِ ﷺ أن يَرجعُوا، فأمرَ أصحابَهُ وبِهِم أشدُّ الجرَاحِ بطلَبِ العَدُوِّ، ليسمَعُوا بذَلكَ ويَعلَمُوا أنهُ ما زَالَ بالنبيِّ ﷺ قوةٌ، وقالَ: «**لا ينطلِقَنَّ مَعِي إلَّا مَن شَهِدَ القتَالَ**»، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٧٢].

فخرَجَ رسُولُ اللهِ ﷺ حتَّى بلَغَ حَمرَاءَ الأسَدِ، فأقامَ بِها الإثنَينِ والثلاثَاءَ والأربعاءَ، فجاءَهُ مَعبدُ بنُ أبِي مَعبدٍ الخُزاعيُّ -وكانَ يومَئذٍ مُشرِكًا، وكانَت خُزاعَةُ حلفَاءَ لرسُولِ اللهِ ﷺ، ينصحُونَ لهُ ولا يُخفُونَ عنهُ شَيئًا-، فمَرَّ برسُولِ اللهِ ﷺ وهُو مقيمٌ بحمَراءِ الأسَدِ، فقالَ: يَا مُحمدُ، أمَا واللهِ لقَد عزَّ علينَا مَا أصابَكَ في أصحَابِكَ، ولوَدِدْنَا أنَّ اللهَ عافاكَ فِيهِم، ثُم خرجَ مَعبدٌ حتَّى لقِيَ أبَا سُفيانَ بنَ حربٍ ومَن مَعهُ، وقَد أجمعُوا الرجعَةَ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، وقالَ بعضُهُم لبَعضٍ: أصبْنَا أصحابَهُ وقادَتَهُم وأشرافَهُم، ثُم نرجعُ قبلَ أن نَستأصِلَهُم؟! لنكِرَّنَّ عَلى بقيَّتِهِم فلنَفْرغَنَّ مِنهُم.

فلمَّا رأى أبُو سفيانَ مَعبدًا قالَ: مَا وراءَكَ يَا مَعبدُ؟ قالَ: مُحمدٌ قَد خرجَ في أصحابِهِ، يَطلبُكُم في جَمعٍ لَم أرَ مِثلَهُ قَطُّ، يتَحرَّقُونَ عَليكُم تَحرُّقًا، قد اجتمعَ معهُ مَن كانَ تخلَّفَ عنهُ في يَومِكُم، وندِمُوا على مَا صنَعُوا، فيهِم مِنَ الحنَقِ عَليكُم شَيءٌ لَم أَرَ مثلَهُ قَطُّ.

قالَ: وَيلكَ!، مَا تقُولُ؟ قالَ: واللهِ مَا أراكَ تَرتحِلُ حتَّى ترَى نواصِيَ الخَيلِ،

فقَالَ أبو سُفيانَ: فوَاللهِ لقَد أجمَعنَا الكَرَّةَ عَليهِم، لنَستأصِلَ شَأفتَهُم، قالَ: فإنِّي أنْهَاكَ عَن ذلكَ، فثنَى أبَا سُفيانَ ومَن مَعهُ عمَّا عزَمُوا عَليهِ، ورَجعَ رسُولُ اللهِ ﷺ إلَى المَدينَةِ.

وفي سنَةِ أربَعٍ منَ الهِجرَةِ كانَت غَزوةُ الرَّجيعِ، حيثُ بعَثَ النَّبيُّ ﷺ سريَّةً عَينًا إلَى أهلِ مَكَّةَ ليَأتُوهُ بأخبَارِهِم، وأَمَّرَ عَليهِم عَاصمَ بنَ ثَابتٍ ﵁، فاعترَضَتْ لَهُم بَنُو لحيَانَ، فتبِعُوهُم بقَريبٍ مِن مائَةِ رَامٍ، فاقتَصُّوا آثارَهُم، حتَّى أتَوا مَنزِلًا نزَلُوهُ فوجَدُوا فيهِ نَوى تَمرٍ تزوَّدُوهُ مِنَ المَدينَةِ، فقَالُوا: هذَا تَمرُ يثربَ، فتبِعُوا آثارَهُم حتى لَحِقُوهُم، فلمَّا انتَهَى عَاصِمٌ وأصحَابُهُ لجأوا إلى مَوضعٍ مُرتفعٍ، وجاءَ القومُ فأحاطُوا بِهم، فقالُوا: لَكُم العهدُ والمِيثاقُ إن نَزلتُم إلَينَا ألَّا نَقتُلَ مِنكُم رَجُلًا، فقالَ عَاصِمٌ: أمَّا أنَا فَلا أنزِلُ فِي ذمَّةِ كافرٍ، اللهُمَّ أخبِرْ عنَّا رسُولَكَ، فقَاتَلُوهُم حتى قَتلُوا عاصِمًا مع سبعَةِ نَفرٍ بالنَّبلِ، وبَقِيَ خُبيبُ بنُ عَديٍّ، وزَيدُ بنُ الدَّثِنَّةِ ﵄، ورجلٌ آخرُ، فأعطَوهُمُ العَهدَ والمِيثاقَ، فلمَّا أعطَوهُم العَهدَ والمِيثاقَ نزَلُوا إلَيهِم، فلمَّا استَمكَنُوا مِنهُم، رَبطُوهُم بأوتَارِ القَوسِ، فقالَ الرجُلُ الثالثُ الذِي مَعهُمَا: هذَا أولُ الغَدرِ، فأبَى أن يَصحبَهُم، فجرُّوهُ عَلى أن يَصحَبَهُم فلَم يفعَلْ، فقتَلُوهُ ﵁، وانطلَقُوا بخُبيبٍ وزَيدٍ ﵄ حتَّى باعوهُمَا بمكةَ، فاشتَرَى بنُو الحارثِ بنِ عامرٍ خُبَيبًا، وكانَ خُبيبٌ هُو الذِي قتلَ الحارثَ يومَ بدرٍ، فمكَثَ عندَهُم أسِيرًا، حتَّى إذَا أجمَعُوا قتلَهُ، استعَارَ مُوسَى مِن بعضِ بناتِ الحَارثِ ليَستحِدَّ بِها فأعارَتهُ، قالَت: فغفَلتُ عَن صبيٍّ لِي، فدرَجَ إلَيهِ حتَّى أتَاهُ، فوضعَهُ عَلى فخِذِهِ، فلمَّا رأيتُهُ فزِعتُ فَزعَةً عرفَ ذلكَ مِنِّي، وفي يدِهِ المُوسَى، فقالَ أتخشَينَ أَن أقتُلَهُ؟ مَا كنتُ لأفعَلَ ذاكَ إن شاءَ اللهُ.

وكانَت تَقُولُ: مَا رأيتُ أَسِيرًا قطُّ خَيرًا مِن خُبيبٍ، لقَد رَأيتُهُ يَأكلُ مِن قِطفِ عِنَبٍ ومَا بمَكَّةَ يَومَئذٍ مِن ثَمرِهِ شَيءٌ، وإنَّهُ لمُوثَقٌ فِي الحَديدِ، ومَا كانَ إلَّا رِزقًا رزَقَهُ اللهُ.

فخرَجُوا بهِ مِنَ الحَرمِ ليَقتُلُوهُ، فقَالَ: دَعونِي أُصَلِّي رَكعَتَيْنِ، فَصَلَّى ثُم انصرَفَ إلَيهِم فقالَ: لَولَا أن تَرَوْا أنَّ بِي جَزَعًا منَ المَوتِ لزِدتُ، فكانَ هُو ﷺ أولَ مَن سَنَّ الرَّكعتَيْنِ عِندَ القَتلِ، ثمَّ قالَ: اللهُمَّ أَحصِهِم عَدَدًا، واقتُلْهُم بَدَدًا، ولَا تُبقِ مِنهُم أَحَدًا، وقَالَ:

وَلَستُ أُبَالِي حِينَ أُقتَلُ مُسْلِمًا   عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ فِي اللهِ مَصرَعِي

وذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ   يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ولمَّا قُتلَ عاصمٌ ﷺ أرَادَتْ هُذيلٌ أخْذَ رَأسِهِ ليَبِيعُوهُ إلَى سُلافَةَ بنتِ سَعدٍ، وكانَت قَد نَذرَت حِينَ أصابَ عَاصمٌ ابنَيْهَا يومَ أُحدٍ، لَئِن قَدرَت على رَأسِهِ لتَشربَنَّ فِي قَحفِهِ الخَمرَ، وبَينمَا هُم في طَرِيقِهِم بَعثَ اللهُ الوَادِيَ، فاحتَمَلَ عَاصِمًا فذَهَبَ بِهِ، وقَد كانَ عاصِمٌ قَد أعطَى اللهَ عَهدًا ألَّا يَمسَّهُ مُشرِكٌ، ولَا يَمسَّ مُشرِكًا أَبدًا، تَنَجُّسًا، فحمَاهُ اللهُ بَعدَ وفاتِهِ كمَا امتنَعَ منهُ في حيَاتِهِ.

وأمَّا زَيدُ بنُ الدَّثِنَّةِ ﷺ، فإنَّهُم لمَّا أخرجُوهُ مِنَ الحرَمِ إلَى التَّنعيمِ ليَقتُلُوهُ، اجتمَعَ جماعَةٌ مِن قُريشٍ فِيهِم أَبُو سُفيانَ بنُ حربٍ، فقالَ لهُ أبُو سفيانَ حينَ قُدِّمَ ليُقتَلَ: أنشُدُكَ اللهَ يَا زَيدُ، أتُحِبُّ أَنَّ مُحمَّدًا عندَنَا الآنَ مَكانَكَ نَضرِبُ عُنقَهُ، وأَنَّكَ فِي أهلِكَ؟ قالَ: واللهِ مَا أُحبُّ أن مُحمَّدًا الآنَ في مكَانِهِ الذِي هُو فيهِ تُصيبُهُ شَوكَةٌ تُؤذِيهِ وإنِّي جالِسٌ فِي أهلِي، فقَالَ أبُو سُفيانَ: مَا رَأيتُ مِنَ الناسِ أحَدًا

يُحبُّ أحَدًا كحُبِّ أصحَابِ مُحمدٍ مُحَمدًا، وأنزَلَ اللهُ فِي أصحَابِ السَّرِيَّةِ قَولَهُ تَعَالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة:٢٠٧].

ولمَّا قُتلَ أصحابُ الرَّجيعِ قَالَ ناسٌ مِنَ المُنافِقينَ: يَا ويحَ هَؤلاءِ المَفتُونِينَ الذِينَ هلَكُوا هكَذَا، لا هُم أقامُوا في أهلِيهِم ولَا هُم أدَّوا رسَالَةَ صَاحِبِهِم، فأنزَلَ اللهُ فِيهِم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة:٢٠٤].

وفِي السنَةِ الرَّابعَةِ مِن الهِجرَةِ، بَعثَ رسُولُ اللهِ ﷺ سريَّةَ بِئرِ مَعونَةَ، وذَلكَ بَعدَ غزوةِ أحُدٍ بأربعَةِ أشهُرٍ، حيثُ بَعثَ ﷺ سَبعينَ رَجُلًا يقَالُ لَهُم: القُرَّاءُ، في حاجَةٍ، فاعتَرضَ لهُم حيَّانِ مِن بنِي سُلَيمٍ -رِعلٌ وذَكوَانُ- عندَ بِئرٍ يُقالُ لهَا: بِئرُ مَعونَةَ.

فقالَ القومُ: واللهِ مَا إيَّاكُم أرَدنَا، وإنمَا نحنُ مُجتازُونَ في حَاجةٍ للنَّبيِّ ﷺ، فقَتلُوهُم، فدَعَا النبيُّ ﷺ عَليهِم شَهرًا في صَلاةِ الفَجرِ.

ولمَّا طُعنَ حَرامُ بنُ مِلحَانَ رضي الله عنه يَومَ بِئرِ مَعونَةَ، أخذَ الدَّمَ فنضَحَهُ عَلى وَجهِهِ ورَأسِهِ، ثُمَّ قالَ: فُزتُ ورَبِّ الكَعبَةِ.

وفِي هذِهِ السنَةِ -الرَّابِعَةِ- خرجَ رسُولُ اللهِ ﷺ إلَى بنِي النَّضيرِ فِي حاجَةٍ، فجاءَ ﷺ حتَّى قعدَ إلَى جَنبِ جِدارٍ مِن جُدرَانِ بُيوتِهم، فخَلَا بَعضُهم بِبعضٍ وقَالُوا: إنَّكُم لَن تجِدُوا الرجُلَ عَلى مثلِ حَالِهِ هذِهِ، فمَن مِنكُم رجلٌ يَعلُو عَلى هذَا البيتِ، فيُلقِي عليهِ صَخرَةً ويُريحَنَا مِنهُ؟ فانتَدبَ لذلكَ عَمرُو بنُ جُحَاشٍ

فقالَ: أنَا لذَلِكَ، فصَعدَ ليُلقِيَ عَليهِ صَخرَةً، ورَسُولُ اللهِ ﷺ في نَفرٍ مِن أصحَابِهِ، فِيهِم أبُو بَكرٍ وعُمرُ وعَليٌّ رضي الله عنهم، فأتَى الخَبَرُ منَ السمَاءِ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ بمَا أرادَ القَومُ، فقامَ وخَرجَ رَاجعًا إلى المَدينَةِ.

ولمَّا استبطَأَ الصحابَةُ النبيَّ ﷺ، قامُوا في طلبِهِ، فلَقوْا رَجُلًا مُقبلًا من المَدينَةِ فسألُوهُ عنهُ، فقالَ: رَأيتُهُ داخِلًا المدينَةَ، فأقبلَ أصحابُ رسُولِ اللهِ ﷺ حتَّى انتهَوا إليهِ، فأخبرَهُم الخَبَرَ بمَا أرَادَت يَهودُ مِنَ الغَدرِ بِهِ.

ثُم بَعثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَيهِم مُحمدَ بنَ مَسلمَةَ رضي الله عنه يَأمُرُهُم بالخروجِ مِن جِوَارِهِ وبلدِهِ، فبَعثَ إلَيهِم أهلُ النِّفَاقِ يُثبتونَهُم ويُحرضُونَهُم عَلى المقامِ ويَعدونَهُم بالنصرِ، فقَوِيَت عندَ ذلكَ نفوسُهُم، وحَمِيَ حُيَيُّ بنُ أخطَبَ، وبَعثُوا إلَى رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُم لَا يَخرجُونَ، ونابذُوهُ بنَقضِ العُهودِ، وعندَ ذلكَ أمرَ رسُولُ اللهِ ﷺ الناسَ بالخُروجِ إلَيهِم.

فحاصَرُوهُم خمسَ عَشرَةَ لَيلَةً، وتحصَّنُوا منهُ فِي الحُصُونِ، فأمَرَ رسُولُ اللهِ ﷺ بقَطعِ النَّخيلِ والتَّحريقِ فِيهَا، فنادَوْهُ: أن يَا مُحمدُ، قَد كُنتَ تَنهَى عن الفسَادِ، وتَعيبُهُ عَلى مَن صنعَهُ، فمَا بالُ قطعِ النَّخيلِ وتَحرِيقِهَا؟

وقَد كانَ جماعَةٌ مِن المُنافقينَ كعبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ وغيرِهِ، قَد بعثُوا إلى بنِي النَّضيرِ أن اثبتُوا وتمنَّعُوا، فإنَّا لن نُسلمَكُم، إن قُوتِلتُم قاتَلنَا معكُم، وإن أُخرِجتُم خرَجنَا معكُم، فانتَظَرُوا أن ينصرُوهُم فلَم يَفعَلُوا، قالَ تعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟

لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر:١١-١٢].

ولمَّا تحقَّقُوا ذلكَ، خارَتْ قُواهُم، وقذَفَ اللهُ في قلوبِهِم الرعبَ، فسَألُوا رسُولَ اللهِ ﷺ أن يُجليَهُم ويكُفَّ عَن دمَائِهِم، على أنَّ لَهُم مَا حَملتِ الإبلُ مِن أموَالِهِم إلَّا السلاحَ، ففَعلَ.

فاحتمَلُوا مِن أموالِهِم ما استقَلَّت بِهِ الإبِلُ، فكَانَ الرجُلُ مِنهُم يَهدِمُ بَيتَهُ، ويَأخُذُ ما قَدرَ عَليهِ مِنهُ فَيضعُهُ عَلَى ظَهرِ بَعيرِهِ فيَنطلِقُ بِهِ، فخَرَجُوا إلَى خَيْبَرَ ومِنهُم مَن سارَ إلى الشَّامِ.

ولمَّا خَرجَت بنُو النَّضيرِ مِن المَدينَةِ أقبَلَ عَمرُو بنُ سُعدَى فطافَ بمَنازِلِهِم فرَأَى خرابَهَا، وفكَّرَ ثُم رجعَ إلَى بنِي قُريظَةَ فوجَدَهُم في الكَنيسَةِ، فنفَخَ في بُوقِهِم، فاجتمَعُوا، فقَالَ الزُّبَيرُ بنُ بَاطَا: يَا أبَا سَعيدٍ، أينَ كُنتَ منذُ اليَومِ لَم نَركَ؟

قالَ: رأيتُ اليومَ عِبَرًا قَد عُبِّرْنَا بِها، رأيتُ منازِلَ إخواننَا خاليَةً بعدَ العِزِّ والجَلَدِ، والشرفِ الفاضلِ والعقلِ البارِعِ، قد تَركُوا أموالَهُم ومَلكَها غيرُهُم، وخرَجُوا خُروجَ ذلٍّ، ولا والتورَاةِ مَا سُلِّطَ هَذَا عَلى قَومٍ قَطُّ للهِ بِهِم حَاجَةٌ.

يا قَومِ، قَد رَأيتُم مَا رَأيتُم، فأطِيعُونِي وتعَالَوا نتَّبعْ مُحمدًا، فوَاللهِ إنكُم لتَعلمونَ أنهُ نبيٌّ، قَد بَشَّرَنَا بِهِ وبأمرِهِ ابنُ الهَيبَانِ وابنُ حِرَاشٍ وهُمَا أعلمُ يَهودَ، جاءانَا مِن بيتِ المَقدسِ وأمرَانَا باتباعِهِ، وأمرانَا أن نُقرئَهُ منهُمَا السلامَ، ثم مَاتَا على ذَلكَ.

فسكَتَ القَومُ فَلَم يتكَلَّم مِنهُم مُتكلِّمٌ، ثُم أعادَ الكلامَ، وخَوَّفَهُم بالحربِ والسِّبَاءِ والجَلاءِ.

فقال الزُّبيرُ بنُ بَاطَا: والتورَاةِ لقَد قرَأتُ صفتَهُ في كتَابِ بَاطَا، في التورَاةِ التِي نزَلتْ عَلى مُوسَى لَيسَ فِيمَا أَحدَثْنَا.

فقالَ لهُ كعبُ بنُ أَسَدٍ: ومَا يَمنعُكَ مِن اتِّبَاعِهِ؟ قالَ: أنتَ، قالَ كعبٌ: فلِمَ، والتورَاةِ مَا حُلتُ بَينكَ وبَينَهُ قَطُّ؟ قالَ الزبَيرُ: بَل أنتَ صاحبُ عَهدِنَا وعَقدِنَا، فَإِن اتَّبعتَهُ اتبَعنَاهُ، وإن أبَيتَ أبَينَا، فقَالَ كعبٌ: مَا عندِي في أمرِهِ إلَّا مَا قُلتَ، لَكِن مَا تَطيبُ نَفسِي أَن أَصيرَ تَابعًا، وقَد صدَقَ فِي هَؤُلاءِ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

ثُم أقامَ رسولُ اللهِ ﷺ بالمَدينةِ بعدَ غزوَةِ بنِي النَّضيرِ مدَّةً، ثُم غزَا نَجدًا يريدُ بنِي محَاربٍ وبنِي ثَعلبَةَ مِن غطفَانَ، وهي غزوةُ ذاتِ الرِّقاعِ، سُمِّيت بذَلكَ لأنَّهم كانُوا يربطُونَ على أرجُلِهِم الخِرَقَ من شدَّةِ الحَرِّ، فلقِيَ بِها جَمعًا من غطفَانَ، فتقارَبَ الناسُ ولَم يكُن بَينهُم حربٌ، لَكِن قد خافَ الناسُ بعضَهُم بَعضًا، حتَّى صلَّى رسُولُ اللهِ ﷺ بالناسِ صلَاةَ الخَوفِ.

وفِي هذِهِ الغزوَةِ رَأى المُشركونَ منَ المُسلمينَ غِرَّةً، فجاءَ رجلٌ مِنهُم يُقالُ لَهُ: غَورثُ بنُ الحَارِثِ، حتَّى قامَ عَلى رأسِ رسولِ الله ﷺ بالسَّيفِ، وقالَ: مَن يَمنَعُكَ منِّي؟ قالَ: «**اللهُ**»، فسَقطَ السيفُ مِن يدِهِ، فأخذَ رسُولُ اللهِ ﷺ السيفَ وقالَ: «**مَن يَمنَعُكَ مِنِّي؟**»، فقالَ: كُن خَيرَ آخِذٍ، قالَ: «**تَشهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟**»،

قالَ: لَا، ولَكِن أعاهِدُكَ عَلى أَلَّا أُقَاتِلَكَ ولَا أَكُونُ معَ قَومٍ يُقاتِلُونَك، فخَلَّى سَبيلَهُ، فأَتَى أصحَابَهُ، فقالَ: جئتُكُم مِن عندِ خيرِ الناسِ.

وشهدَت هذِهِ الغَزوةُ مِن ثباتِ الصَّحابَةِ وقُوةِ إيمَانِهم شَيئًا عَجَبًا، قالَ جابرُ ابنُ عبدِ اللهِ ﵁: خَرجنَا معَ رسُولِ اللهِ ﷺ في غَزوةِ ذاتِ الرِّقاعِ، فنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنزِلًا فقالَ: «**مَن رجُلٌ يَكلَؤُنَا لَيلَتَنَا؟**»، فانتَدَبَ رجُلٌ مِنَ المُهاجِرينَ ورَجُلٌ منَ الأنصَارِ، وهمَا عمَّارُ بنُ يَاسِرٍ، وعبَّادُ بنُ بِشرٍ ﵄، فقَالَا: نَحنُ يَا رسُولَ اللهِ، قالَ: «**كُونَا بِفَمِ الشِّعبِ مِنَ الوَادِي**».

فلمَّا خرجَا إِلَى فَمِ الشِّعبِ قالَ الأنصارِيُّ للمُهاجرِيِّ: أَيُّ اللَّيلِ تُحبُّ أَن أكفِيَكَ إِيَّاهُ، أَوَّلَهُ أَم آخِرَهُ؟ قالَ: بَل اكفِنِي أَولَهُ.

فاضطجَعَ المُهاجرِيُّ فنَامَ، وقامَ الأنصَارِيُّ يُصلِّي، فأَتَى رجُلٌ مِنَ المُشرِكينَ، فلمَّا رَأَى شَخصَ الأنصارِيِّ، عرَفَ أَنَّهُ حارسُ القَومِ، فرمَاهُ بسَهمٍ فوقَعَ فِيهِ، فانتزَعَهُ ووضعَهُ وثَبتَ قَائمًا، ثُم رمَاهُ بسَهمٍ آخَرَ فوضَعَهُ فِيهِ، فانتزَعَهُ ووضعَهُ وثَبتَ قَائمًا، ثُم عادَ لهُ بالثالثِ فوضعَهُ فيهِ، فنزعَهُ ووضعَهُ، ثُم ركَعَ وسَجدَ، ثُم أَيقظَ صاحِبَهُ قَائلًا: اجلِسْ فقَد أُصبتُ، فوثَبَ صَاحبُهُ، وفَرَّ الرجُلُ الذِي رمَاهُ هَاربًا حينَ عرَفَ أَنَّهُما عرَفَا مكَانَهُ.

ولمَّا رَأى المُهاجريُّ مَا بالأنصارِيِّ مِن الدمَاءِ قالَ: سُبحانَ اللهِ!، أفَلَا أيقظتَنِي أولَ مَا رمَاكَ؟ قالَ: كنتُ فِي سُورةٍ أقرَؤُهَا، فلَم أُحِبَّ أَن أقطَعَهَا حتَّى أُنْهِيَهَا، فلمَّا تابَعَ عليَّ الرميَ رَكعتُ فآذنتُكَ، وَايمُ اللهِ لَولَا أن أُضيِّعَ ثَغرًا أمرَنِي رسُولُ اللهِ ﷺ بحفظِهِ، لقطَعَ نَفسِي قَبلَ أَن أقطَعَهَا أو أُنْهِيَهَا.

(١٧) غَـزوَةُ الخَنـدَقِ

لمَّا دخَلَتِ السنَةُ الرابعَةُ مِن الهِجرَةِ تَزوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أمَّ سَلمَةَ بِنتَ أَبِي أُميَّةَ رضي الله عنها، وكانَت قَبلَهُ عندَ أَبِي سَلَمَةَ بنِ عَبدِ الأَسَدِ رضي الله عنه، وهُو ممَّن شَهدَ بَدرًا وأُحُدًا، وجُرحَ يَومَ أحدٍ فداوَى جُرحُهُ شَهرًا حتَّى برأَ، ثُم خَرجَ في سريَّةٍ، فغنِمَ منهَا نَعَمًا ومَغنمًا، ثُم أقامَ بعدَ ذلكَ سَبعَةَ عَشَرَ يومًا، ثم انتقَضَ عَليهِ جُرحُهُ، فمَاتَ آخِرَ جُمَادَى الأُولَى مِن هذِهِ السَّنَةِ.

فَلمَّا حَلَّت مِن عِدَّتِهَا خَطَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وبَعثَ إليهَا عُمرَ بنَ الخطَّابِ في ذَلكَ مِرارًا، فذكَرَتْ أنَّها امرَأةٌ شَديدةُ الغَيرَةِ، وأنَّ لهَا صِبيَانًا يَشغَلُونَها عنهُ، ويَحتاجُونَ إلَى مُؤنَةٍ تَحتاجُ معهَا أن تعمَلَ لهُم فِي قُوتِهم، فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَمَّا الصِّبيَةُ فَإلَى اللهِ وإِلَى رَسُولِهِ لَيسَ إِلَيكِ** -أَي: نَفَقَتُهُم-، **وَأَمَّا الغَيرَةُ فَأَدعُو اللهَ فيُذهِبُهَا»**، فَأذِنَت فِي ذلكَ، وقالَتْ: قَد رَضِيتُ وَأَذِنْتُ.

وفِي قصَّةِ زَواجِ النبيِّ ﷺ بأمِّ سلمَةَ بيَانُ عَظيمِ فَضلِ اللهِ عَليهَا، ومَا اختصَّهَا بهِ مِن الفَضلِ والإِنعامِ، كمَا أنَّ فيهِ بيَانَ بَركةِ اتباعِ السُّنةِ والعَملِ بمُقتضَاهَا.

قالَت أمُّ سلمَةَ رضي الله عنها: أتانِي أبُو سلمَةَ يَومًا مِن عندِ رسولِ اللهِ ﷺ فقَالَ: لقَد سمعتُ مِن رسُولِ اللهِ ﷺ قَولًا فَسُررتُ بهِ، قالَ: **«لا يُصيبُ أحَدًا مِنَ المُسلمينَ مُصيبَةٌ، فيَستَرْجعُ عِندَ مُصيبَتِهِ، ثُم يَقُولُ: اللَّهُمَّ أجرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَاخلُفْ لِي**

خَيرًا مِنهَا إِلَّا فُعِلَ بِهِ»، قالَت أمُّ سَلمَةَ: فحَفِظتُ ذَلكَ مِنهُ، فَلمَّا تُوفِّي أبُو سلمَةَ استَرجَعتُ، وقُلت: اللهُم أجرنِي فِي مُصيبتِي واخلُفْ لِي خَيرًا منهَا، ثُم رَجعتُ إِلَى نَفسِي، فقُلتُ: مِن أينَ لِي خَيرٌ مِن أَبِي سَلمَةَ؟ فلمَّا انقَضَت عِدَّتِي استأذَنَ عَليَّ رسُولُ اللهِ ﷺ وأَنَا أدبُغُ إهَابًا لِي، فغَسلتُ يَدِي مِنَ القَرظِ، وأَذِنتُ لهُ، فوَضعتُ لهُ وسَادَةَ أَدَمٍ حَشوهَا لِيفٌ، فقعَدَ عَليهَا، فخطَبنِي إلى نَفسِي، فلمَّا فرَغَ مِن مقالَتِهِ قلتُ: يَا رسُولَ اللهِ، مَا بِي أَلَّا تكونَ بكَ الرَّغبَةُ، ولكنِّي امرَأةٌ فِيَّ غَيرَةٌ شَديدَةٌ، فأخافُ أَن تَرى مِنِّي شَيئًا يُعذِّبُنِي اللهُ بهِ، وأنَا امرَأةٌ قَد دَخَلت فِي السِّنِّ، وأنَا ذاتُ عِيالٍ، فقَالَ: «**أمَّا مَا ذَكرْتِ مِنَ الغَيرَةِ فسَيُذهِبُهَا اللهُ عَنكِ، وَأمَّا مَا ذَكرْتِ مِنَ السِّنِّ، فقَد أصَابَنِي مِثلُ الذِي أصَابَكِ، وأمَّا مَا ذَكرْتِ مِنَ العِيالِ فَإنَّمَا عِيالُكِ عِيَالِي**»، قَالَت: فقَد سَلَّمتُ لرَسُولِ اللهِ ﷺ، وقَد أبدَلَنِي اللهُ بِأبِي سَلمَةَ خَيرًا مِنهُ، رَسُولَ اللهِ ﷺ.

ثم دخَلتْ سنَةُ خَمسٍ منَ الهِجرةِ، وقَد حدثَتْ فيهَا غَزوةُ الخَندَقِ، وذَلِكَ أَنَّ نَفَرًا منَ اليَهودِ، منهُم: سَلَّامُ بنُ أبي الحَقيقِ، وحُييُّ بنُ أخطَبَ وغَيرُهُم، ونَفرٌ من بَنِي وائلٍ، قد سَعَوا في تَحزيبِ الأحزابِ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ، فخرَجُوا حتى قَدِمُوا على قريشٍ في مكةَ، فدعَوْهُم إلى حَربِ رسُولِ اللهِ ﷺ، وقالُوا: إنَّا سنكُونُ معكُم عَليهِ حتَّى نستأصِلَهُ، فقالَتْ لهُم قُريشٌ: يَا مَعشرَ يَهودَ، إنكُم أهلُ الكتابِ الأوَّلِ والعِلمِ بمَا أصبَحنَا نَختلفُ فيهِ نَحنُ ومُحمدٌ، أفدِينُنَا خيرٌ أم دِينُهُ؟ قالُوا: بَل دِينُكُم خَيرٌ مِن دِينِهِ وأنتُم أَوْلَى بالحقِّ مِنهُ، فأنزَلَ اللهُ تعَالى فِيهِم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ [النساء:٥١-٥٢].

فلمَّا قالُوا ذلكَ لقريشٍ سَرَّهُم، ونَشِطُوا لِمَا دَعَوْهُم إليهِ مِن حَربِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فاجتمَعُوا لذَلكَ واتَّعَدُوا لهُ، ثُمَّ خَرجَ أولئِكَ النفرُ مِن يَهُودَ حَتَّى جاءُوا غَطفَانَ، فدَعَوْهُم إلَى حربِ النبيِّ ﷺ، وأخبَرُوهُم أنَّهُم يَكُونُونَ مَعهُم عَليهِ، وأنَّ قريشًا قَد تابَعُوهُم على ذلكَ واجتمَعُوا مَعهُم فِيهِ.

فلما سَمعَ بِهم رسولُ اللهِ ﷺ ومَا أجمَعُوا لهُ مِن الأمرِ، ضربَ الخَندقَ عَلى المدينةِ، وكانَ الذي أشارَ بهِ سلمَانُ الفارسيُّ رضي الله عنه.

فعملَ فيهِ رسولُ اللهِ ﷺ تَرغيبًا للمُسلمينَ في الأجْرِ، وعمِلَ فيهِ المسلمونَ، وتخلَّفَتْ طائفةٌ منَ المنافقِينَ يعتذِرونَ بالضَّعفِ، ومنهُم مَن ينسَلُّ خُفيَةً بغيرِ إذنِ النبيِّ ﷺ ولا عِلمِهِ، فأنزَلَ اللهُ تعَالى قَولَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٦٢].

وخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلَى الخَندقِ، فإذَا المُهاجرونَ والأنصارُ يحفِرونَ في غداةٍ باردَةٍ، ولَم يكُن لهُم عَبيدٌ يَعملونَ ذلكَ لهُم، فلمَّا رَأى ما بِهِم مِن النَّصَبِ والجُوعِ قال:

اللَّهـمَّ إنَّ العَـيشَ عَـيشُ الآخِـرَهْ ... فَاغْفِـرْ لِلأنْـصَارِ وَالمُهَاجِـرَهْ

فقالُوا مُجيبينَ لهُ:

نَحـنُ الـذِينَ بَايَعُـوا مُحمَّـدَا ... عَلَـى الجِهـادِ مَـا بَقِيـنَا أَبَـدَا

وكانَ رسُولُ اللهِ ﷺ ينقُلُ التُّرابَ يومَ الخَندقِ حتى اغبَرَّ بَطنُهُ وهُو يَقُولُ:

وَاللهِ لَولَا اللهُ مَا اهتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَينَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ثُمَّ يَرفعُ صَوتَهُ وَيَقُول: أَبَينَا أَبَينَا، يرتجزُ بكَلماتِ عَبدِ اللهِ بنِ رَواحَةَ ﷺ.

وفِي هذِهِ الواقعَةِ أجرَى اللهُ عَلى يَدَي نَبيِّهِ ﷺ منَ الآياتِ العظيمَةِ ما زادَ المُؤمِنينَ ثبَاتًا ويَقِينًا، قالَ جابرُ بنُ عَبدِ اللهِ ﷺ: إنَّا يومَ الخَندقِ نَحفِرُ، فعرَضَتْ كُديَةٌ؛ أَي: قطعَةٌ صلبَةٌ منَ الأرضِ، فجَاءُوا إلَى النبيِّ ﷺ فقَالُوا: هذِهِ كُديَةٌ عَرضَتْ فِي الخَندَقِ، فقالَ: أنَا نازِلٌ، ثُم قامَ وبطنُهُ معصُوبٌ بحَجرٍ، ولبثنَا ثلاثَةَ أيامٍ لا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فأخَذَ النبيُّ ﷺ المِعولَ فضَرَبَ، فعادَتْ كَثِيبًا أَهْيَلَ، أَي: رَمْلًا سَائِلًا، فقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائذَنْ لِي إلَى البَيتِ، فقُلتُ لامرَأتِي: هَلْ عِندكِ شيءٌ؟ فإنِّي رَأيتُ برسُولِ اللهِ ﷺ خَمْصًا شَديدًا، قالَت: عندِي شَعيرٌ وعنَاقٌ؛ وهو المَعزُ الذِي لَم تتمَّ لهُ سنَةٌ، فذَبَحتُ العَناقَ، وطَحنتُ الشَّعيرَ، حتَّى جَعلنَا اللحمَ فِي القِدْرِ، ثُم جئتُ النبيَّ ﷺ، والعَجينُ قدِ انكَسَرَ، والقِدرُ عَلى النارِ كادَ أن يَنضَجَ، فقُلتُ: طُعَيِّمٌ لِي، فقُم أنتَ يَا رسُولَ اللهِ ورجلٌ أَو رجُلانِ، قالَ: «**كَمْ هُوَ؟**»، فذَكرتُ لَهُ، فقَالَ: «**كَثيرٌ طَيِّبٌ**».

فلمَّا عَلمَ النبيُّ ﷺ بمقدَارِ الطعامِ قالَ للمُسلمينَ جَميعًا: «**قُومُوا إلَى جَابرٍ**»، فقَامُوا، فلَقيتُ مِنَ الحياءِ مَا لَا يَعلَمُهُ إلَّا اللهُ، وقُلتُ: جاءَ بالخَلقِ عَلى صاعٍ من شَعيرٍ وعَنَاقٍ! ودخلتُ عَلى امرأتِي أقولُ: افتَضحتُ، جاءَكِ رسُولُ اللهِ ﷺ بِأَهلِ

الخَندَقِ أجمَعينَ، فقَالَت: هَل سَألكَ كَم طَعامُكَ؟ قُلتُ: نَعَم، فقَالَت: اللهُ ورَسُولُهُ أعلَمُ، فكَشَفَت عنِّي غَمًّا شَديدًا.

فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُل لهَا لا تَنزِعِ القِدرَ وَلا الخُبزَ مِنَ التنُّورِ حتَّى آتِي، ولْتَدْعُ خَبَّازَةً فلتَخْبِزْ مَعَهَا**».

فلمَّا جاءَ القومُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ادخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا**»، فجعَلَ يَكسِرُ الخُبزَ ويجعلُ عَليهِ اللَّحمَ، ويُخمِّرُ القِدرَ والتنورَ إذَا أخذَ مِنهُ، فمَا زالَ يُقرِّبُ إلَى الناسِ حتى شبِعُوا أجمَعينَ، ويعُودَ التنورُ والقِدرُ أَمْلأَ مَا كانَا.

فَأُقسِمُ بِاللهِ لقَد أكَلُوا وهُم ألفٌ حتَّى تَركُوهُ وانصَرَفُوا، وإنَّ قِدرَنَا ليَغِطُّ كمَا هُوَ، وإن عجينَنَا ليُخبَزُ كمَا هُو، وبقِيَ بقيَّةٌ، فقالَ: «**كُلِي هذَا وأَهْدِي، فإنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُم مجَاعَةٌ**»، فَلم نَزَل نُهدِي يومَنَا أجمَعَ.

ولمَّا فرَغَ رسولُ اللهِ ﷺ منَ الخَندقِ، أقبلَت قُريشٌ حتى نزَلتْ في جهَةٍ منَ المَدينَةِ، وأقبلَتْ غطفانُ ومَن تبعَهُم مِن أهلِ نَجدٍ، حتَّى نزلُوا إلى جَانبِ أحُدٍ، وخرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ والمُسلمونَ حتَّى جعَلُوا ظهُورَهُم إلى جبَلِ سَلْعٍ في ثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ المسلمينَ، فضرَبَ هنَالكَ عَسكَرَهُ، والخَندقُ بينَهُ وبينَ القَومِ وأمرَ بالذَّرارِي والنسَاءِ فجُعِلُوا فوقَ الأبنيَةِ المُرتفعَةِ، قالَ تَعالى: ﴿**إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠**﴾ [الأحزاب:١٠].

ولمَّا نزَلَ الأحزابُ حَولَ المدينَةِ أغلَقَ بنُو قُريظَةَ حِصنَهُم دُونَهُم، فخرَجَ حُييُّ بنُ أخطبَ يُريدُ كعبَ بنَ أسدٍ القُرظيَّ صاحبَ عَقدِهِم وعَهدِهِم، فلمَّا

سمِعَ بِهِ كعبٌ أغلَقَ بابَ حِصنِهِ دُونَ حُيِيٍّ، فاستَأذنَ عَليهِ، فأبَى أن يَفتحَ لهُ، فنادَاهُ: وَيحَكَ يَا كَعبُ! افتَح لِي، قالَ: وَيحكَ يَا حُيِيُّ! إنكَ امرُؤٌ مشئُومٌ، وإنِّي قَد عَاهدتُ مُحمدًا، فَلَستُ بنَاقضٍ مَا بَينِي وبَينَهُ، ولَم أرَ مِنهُ إلا وفَاءً وصِدْقًا، قال: وَيحَكَ! افتَح لِي أُكلِّمْكَ، قالَ: مَا أنَا بفَاعلٍ، قالَ: واللهِ مَا أَغلَقْتَ دُونِي إلَّا خَوفًا على لُقمتِكَ أن آكُلَ مَعكَ منهَا، فغَضبَ كعبٌ، ففَتحَ لهُ، فقالَ: وَيحكَ يَا كعبُ! جئتُكَ بعِزِّ الدَّهرِ، قالَ: ومَا ذَاكَ؟ قالَ: جئتُكَ بقُريشٍ وغطفَانَ بقادَتِهَا وسادَتِها حتَّى أنزلتُهُم إلى جَوانبِ المَدينَةِ، وقَد عاهَدُونِي وعاقَدُونِي على ألَّا يَبْرَحُوا حتَّى نستأصِلَ مُحمدًا ومَن مَعَهُ.

فقالَ كَعبٌ: جئتَنِي واللهِ بذُلِّ الدَّهرِ، وبسحَابٍ قد فَرَغَ مَاؤُهُ، يَرعدُ ويَبرقُ ولَيسَ فيهِ شَيءٌ، وَيحَكَ يَا حُيِيُّ! فدَعْنِي ومَا أنَا عَليهِ، فإنِّي لَم أرَ مِن مُحمدٍ إلا صِدقًا ووفَاءً.

وتكلَّمَ عمرُو بنُ سَعدٍ القُرَظِيُّ فذكَّرَهُم مِيثاقَ رسُولِ اللهِ ﷺ وعهدَهُ، ومُعاقدَتَهُم إياهُ عَلى نَصرِهِ، وقالَ: إذَا لَم تَنصُرُوهُ فَاترُكُوهُ وعَدُوَّهُ.

فَلَم يَزلْ حُيِيٌّ يُحدِّثُ كَعبًا حتَّى نقَضَ عَهدَ رسُولِ اللهِ ﷺ، وأن يُحاربَ مَعَ الأحزَابِ، وأعطاهُ حُيِيٌّ عَهدَ اللهِ ومِيثاقَهُ لَئِن رَجعَت قُريشٌ وغطَفَانُ ولَم يُصِيبُوا مُحمدًا، أن أدخُلَ مَعكَ فِي حِصْنِكَ حتَّى يُصيبَنِي مَا أصَابَكَ، فنقَضَ كَعبٌ عَهدَهُ، وبَرِئَ ممَّا كانَ بَينَهُ وبَينَ رسُولِ اللهِ ﷺ.

فلمَّا انتهَى الخبَرُ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ وإلَى المُسلمينَ، بعثَ سعدَ بنَ مُعاذٍ، وسَعدَ بنَ عُبادَةَ، وعبدَ اللهِ بنَ رَواحَةَ، وخَوَّاتَ بنَ جُبَيرٍ رضي الله عنهم، وقالَ: «**انطَلِقُوا**

حتَّى تَأْتُوا هَؤلَاءِ القَومَ فتَنظُرُوا أحَقٌّ مَا بَلغَنَا عَنهُم، فَإِنْ كانَ حَقًّا فَالحَنُوا لِي لَحنًا أَعرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أعضَادِ المُسلِمينَ، وَإِن كَانُوا عَلى الوفَاءِ فَاجهَرُوا بِهِ للنَّاسِ».

فخرَجُوا حتَّى أتَوهُم، فنادَاهُم سعدُ بنُ مُعاذٍ ﷺ فقَالَ: إنكُم قَد عَلِمتُم الذِي بَينَنَا وبينكُم يَا بَنِي قُرِيظَةَ، وأنَا خَائفٌ عَليكُم مثل يَومِ بَنِي النَّضيرِ أَو أَمَرَّ مِنهُ، فقَالُوا: لَا عهدَ بَينَنَا وبَينَ مُحمدٍ ولَا عَقدَ.

فأقبَلَ السَّعدانِ ﷺ ومَن مَعهُما إلى رسُولِ اللهِ ﷺ فسَلَّمُوا عَليهِ، وأخبَرُوهُ الخَبَرَ.

فلمَّا أصبَحَ القومُ دنَا بَعضُهُم مِن بَعضٍ، وكَانَ بَينَهُم رَمْيٌ بالنَّبلِ والحجَارَةِ، وعَظُمَ عندَ ذلكَ البلاءُ، واشتدَّ الخوفُ، وأتاهُم عَدُوُّهُم مِن فَوقِهِم ومِن أسفَلَ مِنهُم، حتَّى ظَنَّ المؤمنونَ كلَّ ظنٍّ، ونجَمَ النفاقُ، حتى قَالَ مُعَتِّبُ بنُ قُشَيْرٍ: كانَ محمدٌ يعدُنَا أن نأكُلَ كنوزَ كِسرَى وقيصرَ، وأحدُنَا اليومَ لا يَأمنُ عَلى نفسِهِ أن يَذهبَ إلَى الغائطِ، وقالَ أوسُ بنُ قَيظِي: يَا رسُولَ اللهِ، إنَّ بُيوتَنَا عَورةٌ مِن العَدوِّ، فَأْذَنَ لنَا أَن نرجِعَ إلى دارِنَا، فإنَّها خارجٌ منَ المدينَةِ، وفي هَؤلاءِ وأمثالِهِم نزَلَ قولُهُ تعَالى: ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا** ﴾ [الأحزاب: ١٢-١٣].

فأقامَ رسولُ اللهِ ﷺ مُرابطًا، وأقامَ المُشركونَ يُحاصِرونَهُ قَريبًا مِن شَهرٍ، ولَم يَكُن بينَهُم حربٌ إلَّا الرَّميَ بالنَّبلِ، فلمَّا اشتَدَّ عَلى الناسِ البَلاءُ، بعثَ رسُولُ اللهِ ﷺ

إلَى عُيَيْنَةَ بنِ حِصْنٍ والحَارِثِ بنِ عَوفٍ، وهُمَا قَائدَا غَطفَانَ، فأعطاهُمَا ثُلثَ ثمَارِ المَدينَةِ عَلى أن يَرجِعَا بِمَن مَعهُمَا عَنهُ وعَن أصحَابِهِ، فوَافَقَا عَلَى ذَلكَ.

ولمَّا أرادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أن يَفعَلَ ذَلكَ، بَعثَ إلَى السَّعدَيْنِ: سَعدِ بنِ مُعاذٍ سَيدِ الأَوْسِ، وسَعدِ بنِ عُبادَةَ سَيدِ الخَزرَجِ رضي الله عنهما، فذكَرَ لهُما ذلكَ، واستشارَهُمَا فيهِ، فقالَا: يَا رسُولَ اللهِ، أمرًا تُحبُّهُ فنَصنَعُهُ، أم شَيئًا أمرَكَ اللهُ بِهِ ولَابُدَّ لنَا مِنَ العَملِ بهِ، أَم شيئًا تَصنَعُهُ لنَا؟

فقَالَ: «**بَل شَيءٌ أَصنَعُهُ لَكُم، وَاللهِ مَا أَصنَعُ ذَلكَ إِلَّا أَنِّي رَأيتُ العَربَ رَمتْكُم عَن قَوسٍ وَاحدَةٍ، وكَالَبُوكُم مِن كُلِّ جَانِبٍ، فأَرَدْتُ أَن أَكسِرَ عَنكُم مِن شَوكَتِهِم إِلَى أَمْرٍ مَا**».

فقالَ لهُ سَعدُ بنُ معاذٍ رضي الله عنه: يَا رسُولَ اللهِ، قَد كنَّا نحنُ وهؤلاءِ القَومُ عَلى الشِّركِ باللهِ وعبَادَةِ الأوثَانِ، لا نعبُدُ اللهَ ولَا نَعرفُهُ، وهُم لَا يَطمعونَ أَن يأكُلُوا منهَا تَمرَةً واحدَةً إلا ضيَافَةً أو بَيعًا، أفحِينَ أكرَمَنَا اللهُ بِالإسلَامِ، وهدَانَا لهُ وأعزَّنَا بكَ وبِهِ، نُعطِيهِم أموَالَنَا؟ مَا لنَا بِهَذَا من حَاجةٍ، واللهِ لا نُعطِيهِم إلا السَّيفَ، حتَّى يحكُمَ اللهُ بَينَنَا وبينَهُم، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**أَنتَ وذَاكَ**».

وبرَزَ عمرُو بنُ عَبدِ وُدٍّ مُعلِّمًا ليُرَى مَكانُهُ، فلمَّا وقَفَ هُو وخيلُهُ قالَ: مَن يُبارِزُ؟ فبَرَزَ لهُ عليُّ بنُ أَبِي طالبٍ رضي الله عنه فقالَ لهُ: يَا عمرُو، إنكَ كنتَ عَاهدتَ اللهَ لا يَدعُوكَ رجلٌ مِن قريشٍ إلى إحدَى خَلَّتَيْنِ إلَّا أخذتَهَا منهُ، قالَ: أجَل، فقالَ لهُ عَليٌّ رضي الله عنه: فإنِّي أدعُوكَ إلى اللهِ وإلَى رَسُولِهِ وإلَى الإسلامِ، قالَ: لا حاجَةَ لِي بذَلكَ، قالَ: فإنِّي أدعُوكَ إلى النِّزالِ، قالَ لهُ: لِمَ يَا ابنَ أخِي، فوَاللهِ مَا أحبُّ أن

أقتُلَكَ، فقَالَ لَهُ عَليٌّ: لكِنِّي وَاللهِ أحبُّ أن أقتُلَكَ، فحَمِيَ عَمرٌو عِندَ ذَلكَ، فاقتَحَمَ عَن فَرسِهِ، فعَقَرَهُ وضرَبَ وَجهَهُ، ثُم أقبَلَ عَلى عَليٍّ، فمَشَى عَليٌّ إلَيهِ، وهُوَ يَقُولُ:

لَا تَعجَلَــنَّ فَقَــد أَتَــا … كَ مُجِيبُ صَوتِكَ غَيرَ عَاجِزْ

فِــي نِــيَّةٍ وَبَــصِيرَةٍ … وَالصِّدقُ يُنجِي كُلَّ فَائِزْ

إِنِّــي لأَرجُــو أَن أُقــيـ … ـمَ عَلَيكَ نَائحَةَ الجنَائِزْ

مِنْ ضَربَةٍ نَجلَاءَ يَبْـ … ـقَى ذِكرُهَا عِندَ الهَزَاهِزْ

فتنازَلَا وتَجاوَلَا، فقتَلَهُ عليٌّ رضي الله عنه وخرَجَت خَيلُهُم مُنهزِمَةً، حتَّى اقتَحمَتْ مِن الخندَقِ هاربَةً.

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ رضي الله عنه: جُعِلْتُ يومَ الخَندقِ معَ النسَاءِ والصِّبيانِ في الحصُونِ، ومَعِي عُمرُ بنُ أبِي سَلَمَةَ، فجعَلَ يُطأطِئُ لِي فأصعَدُ عَلى ظَهرِهِ، فأنظُرُ، فنَظرتُ إلَى أبِي وهُو يحملُ مرَّةً هاهُنا ومرةً هاهُنا، فمَا يرتَفعُ لهُ شيءٌ إلا أتَاهُ، فلمَّا أمسَى جاءَنَا إلى الأُطُمِ، أَي: الحُصونِ المُرتفعةِ، فقلتُ: يَا أبتِ، رأيتُكَ اليومَ ومَا تصنعُ، قالَ: ورأيتَنِي يا بُنيَّ؟ قلتُ: نَعَم، قالَ: فِدًى لكَ أبِي وأمِّي.

ومرَّ سعدُ بن مُعاذٍ رضي الله عنه بأمِّهِ معَ عَائشَةَ رضي الله عنها وهُما في الحِصنِ، وذَلكَ قَبلَ أَن يُضرَبَ على أمهَاتِ المُؤمنينَ الحجَابُ، وعَلى سَعدٍ دِرعٌ مُقَلَّصةٌ قَد خرجَتْ مِنهَا ذراعُهُ كُلُّهَا، وفِي يدِهِ حَربتُهُ يُحرِّكُهَا ويَقُولُ:

لَبِّثْ قَلِيلًا يَشهَدُ الهَيْجَا حَمَلْ … لَا بَأسَ بالمَوتِ إذَا حَانَ الأَجَلْ

فقالَت لهُ أمُّهُ: الحَقْ بُنيَّ فواللهِ لقَد أخَّرتَ، فقالَتْ عائشَةُ رضي الله عنها وقد خافَتْ عليه: يَا أمَّ سعدٍ، واللهِ لوَدِدْتُ أنَّ دِرعَ سَعدٍ كانَت أسبَغَ ممَّا هِيَ، وخافَت عَليهِ، فرُميَ سَعدٌ بسَهمٍ فقَطعَ مِنهُ الأكحَلَ، وهُو عِرقٌ فِي الذِّراعِ.

فلمَّا أُصيبَ سعدٌ قالَ: اللهُمَّ إن كُنتَ أبقَيتَ مِن حَربِ قُريشٍ شَيئًا فأبقِنِي لهَا، فإنَّهُ لا قَومَ أحبُّ إليَّ أن أجَاهدَ مِن قَومٍ آذَوْا رسُولَكَ وكَذَّبُوهُ وأخرَجُوهُ، اللهُمَّ وإنْ كنتَ وَضعتَ الحَربَ بَيننَا وبَينَهُم فاجعَلهَا لِي شهَادَةً، ولا تُمِتْنِي حتَّى تُقِرَّ عَينِي مِن بنِي قُريظَةَ، فكَانَ لَهُ ذَلكَ رضي الله عنه.



(١٨) انصرافُ الأحزَابِ عَنِ المُسلمينَ بلا قتَالٍ، وقتَالُ بنِي قُرَيظَةَ

لقَدِ ابتُلِيَ المؤمنونَ في غزوَةِ الخندَقِ بلاءً عَظيمًا، وزاغَتِ الأبصَارُ وبَلغَتِ القلوبُ الحنَاجِرَ، وزُلزِلُوا زِلزَالًا شَدِيدًا، فقَد أحاطَ المُشرِكونَ بالمُسلِمينَ حتَّى جعلُوهُم في مِثلِ الحِصْنِ بَينَ كتَائِبِهِم، وحَاصَرُوهُم قَريبًا مِن عشرِينَ لَيلَةً، وأخَذُوا بكُلِّ ناحيَةٍ، وشَغَلُوهُم حتَّى لا يَدرِي الرجُلُ أتمَّ صلاتَهُ أَم لَا، ولَم يُصَلِّ رسولُ اللهِ ﷺ العصرَ حتى خرجَ وقتُهَا، فدعَا عَليهِم وقالَ: «**مَلأَ اللهُ عَليهِم بُيوتَهُم وقُبُورَهُم نَارًا، كمَا شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاةِ الوسْطَى حتَّى غَابتِ الشَّمسُ**».

وجاءَ عُمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه يومَ الخَندقِ بعدَمَا غرَبتِ الشَّمسُ، فجعَلَ يسُبُّ كفارَ قريشٍ، ويقُولُ: يَا رسُولَ الله، مَا كِدتُ أن أُصلِّي حتى كادَتِ الشمسُ أن تَغرُبَ، فقَالَ النبيُّ ﷺ: «**واللهِ مَا صَلَّيْتُهَا**»، ثُم نزَلُوا معَ رسُولِ اللهِ ﷺ بُطحانَ، فتوضَّأَ للصَّلاةِ وتوضَّأوا لهَا، فصلَّى العصرَ بعدمَا غَربتِ الشَّمسُ، ثُم صلَّى بعدَهَا المَغربَ.

ثُم قامَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَدعُو ربَّهُ عز وجل ويَبتَهِلُ إلَيهِ، ويقُولُ: «**اللهُمَّ مُنزِلَ الكتَابِ، سَريعَ الحسَابِ، اهزِمِ الأحزَابَ، اللهُمَّ اهزِمْهُم وزَلزِلْهُم**».

ويقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ، أَعزَّ جُندَهُ، ونَصرَ عَبدَهُ، وغَلبَ الأحزَابَ وَحدَهُ، فَلَا شَيءَ بَعدَهُ**».

وأقامَ رسُولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ على الخوفِ والشدَّةِ والكَربِ العظيمِ، بسَببِ تناصُرِ عَدوِّهِم عَليهِم، فأتَى نُعيمُ بنُ مَسعودٍ ﷺ، وكانَ مِن قبيلَةِ غطفَانَ، إلى رسُولِ اللهِ ﷺ فقالَ: يَا رسُولَ اللهِ، إنِّي قَد أسلمتُ وإن قَومِي لَم يَعلمُوا بإسلَامِي، فمُرنِي بمَا شئتَ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّمَا أنتَ فِينَا رجُلٌ واحِدٌ فَخَذِّلْ عنَّا إنِ استَطعْتَ، فَإنَّ الحَرْبَ خدْعَةٌ**».

فخرجَ نُعيمُ بنُ مَسعودٍ ﷺ حتى أتَى بنِي قُريظةَ وكانَ لهُم صَاحبًا في الجاهليَّةِ، فقالَ: يا بنِي قُريظَةَ، قد عَرفتُم وُدِّي إياكُم وخاصَّةَ مَا بَينِي وبَينكُم، قالُوا: صَدقتَ؛ لستَ عِندنَا بمُتَّهَمٍ، فقالَ لهُم: إنَّ قُريشًا وغطفَانَ ليسُوا كَأنتُم، البلدُ بَلدُكُم، فِيهِ أموالُكُم وأبنَاؤكُم ونسَاؤكُم، لا تَقدرُونَ عَلى أن تتحوَّلُوا منهُ إلى غَيرِهِ، وإن قُريشًا وغطفانَ قَد جاءُوا لحَربِ مُحمدٍ وأصحَابِهِ، وقَد نَاصرتُمُوهُم عليهِ، وبَلدُهُم ونساؤُهُم وأموالُهُم بغَيرِهِ، فلَيسُوا كأنتُم، فإن رَأَوا نَهْزَةً أصابُوهَا، وإن كانَ غيرُ ذلكَ لحِقُوا بِبلادِهِم وخَلَّوْا بَينكُم وبَينَ الرجُلِ ببَلَدِكُم، ولا طاقَةَ لَكُم بِهِ إن خَلَا بِكُم، فَلَا تُقاتِلُوا مَعَ القَومِ حتَّى تأخُذُوا مِنهُم رَهْنًا مِن أشرَافِهِم يَكُونُونَ بأيدِيكُم، ثِقةً لَكُم عَلى أن تُقاتِلُوا مَعهُم مُحمَّدًا حتَّى تُناجِزُوهُ، قالُوا: لَقد أَشرتَ بالرَّأيِ.

ثُم خرَجَ حتَّى أتَى قُريشًا، فقالَ لأبِي سُفيانَ بنِ حَربٍ ومَن مَعهُ من رجالِ قُريشٍ: قَد عرفتُم وُدِّي لكُم وفِراقِي مُحمدًا، وإنهُ قَد بَلغَنِي أمرٌ قَد رَأيتُ عليَّ حَقًّا أن أبلِغكُمُوهُ، نُصْحًا لَكُم، فاكتُمُوا عنِّي، قالُوا: نفعَلُ، قالَ: اعلَمُوا أن معشَرَ يهودَ قَد ندِمُوا عَلى ما صَنعُوا فيمَا بينَهُم وبينَ مُحمدٍ، وقَد أرسَلُوا إلَيهِ أنَّا قَد

نَدِمْنَا عَلى مَا فَعلنَا، فهَل يُرضِيكَ أن نأخُذَ لكَ مِن القَبيلتَيْنِ مِن قُريشٍ وغطفَانَ رِجالًا من أشرَافِهِم، فنُعطيكَهُم فتَضرِبَ أعنَاقَهُم، ثُم نكونَ معَكَ عَلى مَن بقِيَ مِنهُم حتى تَستأصِلَهُم؟ فأرسلَ إليهِم أَن نَعَم، فإِنْ بَعثَت إلَيكُم يَهودُ يَلتمسونَ مِنكُم رَهنًا مِن رِجالِكُم، فَلَا تدفَعُوا إلَيهِم منكُم رَجلًا واحِدًا.

ثم خَرجَ حتى أتَى غطفانَ، فقالَ: يا مَعشرَ غطفَانَ، إنكُم أَصلِي وعشيرَتِي وأَحبُّ الناسِ إلَيَّ، ولا أرَاكُم تتَّهِمُونِي، قالُوا: صَدقتَ، مَا أنتَ عندنَا بمُتَّهمٍ، قالَ: فاكتُمُوا عنِّي، قالُوا: نفعَلُ، ثُم قالَ لهُم مثلَ مَا قالَ لقُريشٍ، وحَذَّرهُم مَا حذَّرَهُم.

ومِن لطيفِ تدبيرِ اللهِ وعَظيمِ فَضلهِ عَلى رسُولِهِ ﷺ وأصحَابِهِ، أنَّ أبَا سُفيانَ ورُؤوسَ غطفَانَ أرسَلُوا إلى بنِي قُريظةَ نَفرًا من قُريشٍ وغطفَانَ، فقالُوا لهُم: إنَّا لسْنَا بدَارِ مُقامٍ، قَد هلَكَ الخفُّ والحافِرُ، فأعِدُّوا للقتالِ حتَّى نناجِزَ مُحمدًا ونَفرَغَ ممَّا بينَنَا وبينَهُ.

فقَالُوا: إنَّا لَسْنَا بالذينَ نُقاتلُ مَعكُم مُحمدًا حتى تُعطونَا رَهنًا مِن رجَالِكُم يَكُونُونَ بأيدِينَا، ثقَةً لنَا حتى نُناجزَ مُحمدًا، فإنَّا نخشَى إن ضَرَسَتْكُمُ الحَربُ، واشتَدَّ عَليكُم القتالُ أن تُسرِعُوا إلى بِلادِكُم وتَتْرُكونَا، والرجلُ في بلادنَا ولا طاقةَ لنَا بذَلكَ منهُ.

فلمَّا رجعَتْ إليهِمُ الرسلُ بمَا قالَتْ بنُو قُريظَةَ، قالَت قُريشٌ وغطفَانُ: واللهِ إنَّ الذِي حدَّثَكُم نُعيمُ بن مَسعودٍ لَحَقٌّ، فأرسِلُوا إلَى بنِي قُريظَةَ: إنَّا واللهِ لا نَدفَعُ إلَيكُم رجُلًا واحِدًا مِن رجَالِنَا، فَإِن كُنتُم تُريدُونَ القتَالَ فَاخرُجُوا فقَاتِلُوا.

فقالَتْ بَنُو قُرِيظَةَ حِينَ جَاءَتْهُمُ الرسلُ بذَلكَ: إنَّ الذِي ذكرَ لكُم نُعيمُ بنُ مَسعودٍ لحقٌّ، مَا يُريدُ القومُ إلَّا أن تُقاتِلُوا، فَإن رَأَوْا فُرصةً انتهزُوهَا، وإن كانَ غيرُ ذلكَ رجعُوا إلَى بِلادِهِم، وخَلَّوْا بَينكُم وبَينَ الرجُلِ فِي بَلدِكُم.

ثُم أرسَلُوا إلَى قُريشٍ وغطفَانَ: إنَّا وَاللهِ مَا نُقاتِلُ معكُم حتَّى تُعطُونَا رَهنًا، وخَذَّلَ اللهُ بَينَهُم.

وكانَتْ ليلةُ الأحزابِ ذَاتَ رِيحٍ شَديدةٍ وبَردٍ قَارسٍ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأتِينِي بخَبَرِ القَومِ يَكونُ مَعِي يَومَ القيَامَةِ؟**»، فَلَم يُجبْهُ أحَدٌ، ثُم الثانيَةَ، ثُم الثالثَةَ مِثلَهُ، ثُم قالَ: «**يَا حُذيفَةُ، قُمْ فَأتِنَا بخَبَرِ القَومِ**».

قالَ حُذيفَةُ ﷺ: فَلَم أَجِدْ بُدًّا إذْ دعَانِي باسمِي أن أقُومَ، فقَالَ: «**ائتِنِي بخَبَرِ القَومِ ولا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**»، فمضَيتُ كأنمَا أمشِي فِي حمَّامٍ، أي: مَاءٍ حارٍّ، حتَّى أتيتُهُم، فإذَا أبُو سفيَانَ يَصلِي ظَهرَهُ بالنَّارِ، فوضَعتُ سَهمًا فِي كَبدِ قَوسِي وأرَدتُ أن أرمِيَهُ، ثُم ذكرتُ قَولَ رسُولِ اللهِ ﷺ: «**لا تَذعَرْهُم عَلَيَّ**»، ولَو رَميتُهُ لأصبْتُهُ، فرجَعتُ كأنَّمَا أمشِي فِي حمَّامٍ فأتَيتُ رسولَ اللهِ ﷺ، فأخبَرتُهُ خَبرَهُم.

وبَعثَ اللهُ الريحَ فِي ليلةٍ شاتيَةٍ شديدةِ البَردِ فجعَلتْ تكفَأُ قُدورَهُم وتَطرَحُ أبنِيَتَهُم، فقَالَ أبُو سفيانَ: يَا معشَرَ قريشٍ، إنكُم واللهِ مَا أصبَحتُم بدَارِ مُقامٍ، لقَد هلكَ الكُراعُ والخُفُّ، وأَخلفَتنَا بنُو قُريظَةَ، وبَلَغَنَا عَنهُم الذِي نَكرَهُ، ولقينَا من شدَّةِ الريحِ مَا تَرونَ، ما تَطمئنُّ لنَا قِدرٌ، ولَا تَقومُ لنَا نَارٌ، ولَا يَستمسِكُ لنَا بنَاءٌ، فارتحِلُوا، فإنِّي مُرتحِلٌ، ثُم قامَ إلَى جَملِهِ فجَلسَ عَليهِ، ثُم ضرَبَهُ فوثَبَ بِهِ فإذَا هُو قائمٌ، وأنزَلَ اللهُ تعَالى فِي ذَلكَ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ**

جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٩]، فصرَفَ اللهُ عَنهُم عَدُوَّهُم بالرِّيحِ التي أرسلَهَا عَليهِم، والجنودِ التي بَعثَها إليهِم مِنَ المَلائكَةِ وغَيرِهِم، وكَفَى اللهُ المُؤمنينَ القتالَ، فَلَم يحتَاجُوا إلَى مُنَازَلتِهِم ومُبارَزَتِهِم، بَل صَرفَهُم القويُّ العَزيزُ بحَولِهِ وقُوَّتِهِ، قَال تَعَالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴾ [الأحزاب:٢٥].

وكانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يقُولُ في دُعائِهِ: «**لا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ، صَدقَ وَعدَهُ، ونَصَرَ عبدَهُ، وأَعزَّ جُندَهُ، وهَزمَ الأَحزَابَ وَحدَهُ، فَلا شَيءَ بَعدَهُ**».

قالَ أهلُ العِلمِ: وفِي قَولِهِ تعَالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ ﴾، إشارةٌ إلَى وَضعِ الحربِ بَينَهُم وبَينَ قُريشٍ، ولذلكَ قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**الآنَ نَغزُوهُم وَلا يَغزُونَا**»، فَلَم تَغزُهُم قُريشٌ بَعدَ ذلكَ، بَل كانَ النبيُّ ﷺ يَغزُوهُم حتَّى فَتحَ اللهُ عَليهِ مَكَّةَ.

ولمَّا انتَهَى النبيُّ ﷺ مِنَ الخَندَقِ، أمَرَ أن يَغزُوَ بنِي قُريظَةَ، وذَلكَ لكُفرِهِم ونَقضِهِمُ العهودَ التِي كانَت بَينَهُم وبَينَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وإعَانَتِهِم للأحزَابِ عَليهِ، فمَا نَفعَهُم ذلكَ، وبَاءُوا بغضَبٍ منَ اللهِ ورَسُولِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٢٦-٢٧].

فلمَّا رجَعَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الخَندقِ إلى المَدينَةِ ووضَعَ السلاحَ واغتسَلَ،

أَتَاهُ جبريلُ فقَالَ: قَد وَضعتَ السِّلاحَ؟ واللهِ مَا وَضعنَاهُ، إنَّ اللهَ يَأمُرُكَ بالمَسيرِ إلَى بَنِي قُريظَةَ، فنَدبَ النبيُّ ﷺ الناسَ إلَى الخُروجِ وقَالَ: «**لا يُصَلِّينَّ أحَدٌ العَصرَ إلَّا فِي بَنِي قُريظَةَ**».

فحَاصَرَهُم رسُولُ اللهِ ﷺ بكتَائِبِ المُسلمينَ، وقذفَ اللهُ فِي قلوبِهِمُ الرعْبَ، واشتدَّ عليهِم الحصَارُ، فنزَلُوا عَلى حُكمِ رسولِ اللهِ ﷺ، فتواثَبتِ الأوسُ فقَالُوا: يَا رسولَ اللهِ، إنَّهم مَوالِينَا، فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا مَعشَرَ الأَوسِ، أَلَا تَرضَونَ أَن يَحكُمَ فِيهِم رَجلٌ مِنكُم؟**»، قالُوا: بَلى، قالَ: «**فذَلكَ إلَى سَعدِ بنِ مُعاذٍ**»، وكانَ رسُولُ اللهِ ﷺ قد جعَلَ سَعدًا رضي الله عنه في خيمَةٍ لامرَأةٍ مِن أسلَمَ في مَسجِدِهِ، وكَانَت تُداوِي الجَرحَى، فلمَّا حكَّمَهُ في بَنِي قُريظَةَ، أتَاهُ قَومُهُ فحمَلُوهُ عَلى حمَارٍ، ثُم أقبَلُوا معَهُ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ وهُم يقُولُونَ: يَا أبَا عَمرٍو، أحسِنْ فِي مَوالِيكَ، فإنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ إنمَا وَلَّاكَ ذَلكَ لتُحسِنَ فِيهِم.

فقالَ سَعدٌ رضي الله عنه: علَيكُم بذلكَ عَهدُ اللهِ ومِيثَاقُهُ، أنَّ الحُكمَ فِيهِم مَا حَكمْتُ؟ قالُوا: نَعَم، قالَ: وعَلى مَن هَاهُنا؟ يَعني: الناحيَةَ التِي فيهَا رسولُ اللهِ ﷺ، وهُو مُعرِضٌ عَن رسولِ اللهِ ﷺ إجلَالًا لهُ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَم**»، قَالَ سَعدٌ: فَإنِّي أحكُمُ فِيهِم أَن يُقتَلَ الرجَالُ وتُقسمَ الأموَالُ، وتُسبَى الذرَارِي والنسَاءُ، فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَد حَكمتَ فِيهِم بحُكمِ اللهِ مِن فَوقِ سَبعِ سَمَواتٍ**»، وكانُوا أربَعمِائَةٍ.

وكانَ سَعدٌ رضي الله عنه يَدعُو: اللهُمَّ لا تُمِتنِي حتَّى تُقرَّ عَينِي مِن بَنِي قُريظَةَ، فاستجَابَ اللهُ لهُ، وأقَرَّ عَينَهُ أتَمَّ قَرارٍ.

فلمَّا حكَمَ فِيهِم وفرَغَ مِن قَتلِهِم، دَعَا رَبَّهُ فقَالَ: اللهُمَّ إنْ كُنتَ أَبقَيتَ عَلى نَبيِّكَ ﷺ مِن حَربِ قُريشٍ شَيئًا فأبقِنِي لَهَا، وإن كُنتَ قَطعتَ الحَربَ بَينَهُ وبَينَهُم فاقبِضْنِي إليكَ، فانفَجَرَ عِرقُهُ، ورجعَ إلَى خيمتِهِ التِي بنَاها عَليهِ رسُولُ اللهِ ﷺ، فمَاتَ.

قَالت عَائشَةُ ﵂: فحضَرَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ وأبُو بكرٍ وعمرُ، فوالذِي نفسُ محمدٍ بيدِهِ إنِّي لأعرفُ بكَاءَ عمرَ مِن بكاءِ أَبِي بكرٍ وأنَا في حُجرَتِي، وكانُوا كمَا قالَ اللهُ تعَالى: ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩].

وقد خصَّ اللهُ سَعدًا ﵁ بالفَضلِ العَظيمِ، والمنزلَةِ الرفيعَةِ التي لا تُجارَى، قالَ ﷺ: «**اهتزَّ العَرشُ لمَوتِ سَعدِ بنِ مُعاذٍ**»، وأُهدِيَت للنبيِّ ﷺ حُلةُ حَريرٍ، فجعَلَ أصحابُهُ يمسُّونَهَا، ويعجبُونَ من لِينِهَا، فقالَ: «**أتَعجَبُونَ مِن لِينِ هَذِه، لمَنادِيلُ سَعدِ بنِ مُعاذٍ في الجنَّةِ خَيرٌ مِنهَا وَأَلْيَنُ**».

ثُم إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قسَمَ أموالَ بنِي قُريظةَ ونساءَهُم وأبناءَهُم على المُسلمينَ بعدمَا أخرجَ الخُمسَ، فقسَمَ للفارِسِ ثلاثةَ أسهُمٍ: سَهمَينِ للفَرسِ وسَهمًا لراكِبِهِ، وسَهمًا للرَّاجِلِ، وكانَت الخيلُ يَومئذٍ سِتًّا وثلاثِينَ.

وكانَ أبُو رافعٍ سلاَمُ بنُ أبِي الحَقيقِ اليَهوديُّ يُؤذِي رسولَ اللهِ ﷺ ويُعينُ عَليهِ، وكانَ مِمَّن حَزَّبَ الأحزابَ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا انقضَى شأنُ الخَندقِ وأمْرُ بنِي قريظَةَ، استأذَنَ الخَزرجُ رسولَ اللهِ ﷺ في قَتلِ أبِي رافعٍ وهو بخَيْبَرَ، كمَا كانَتِ الأوسُ قبلَ أُحُدٍ قد قتَلَت كَعبَ بنَ الأشرَفِ، فأذِنَ لَهُم، وبَعثَ رسُولُ اللهِ ﷺ إلى أبِي رافعٍ عبدَ اللهِ بنَ عَتيكٍ وعبدَ اللهِ بنَ عُتبَةَ ﵄ في نَاسٍ مَعهُم، فانطَلَقُوا

حتَّى دَنَوْا منَ الحِصنِ، فقالَ لهُم عبدُ اللهِ بنُ عَتيكٍ: امكثُوا أنتُم حتى أنطلِقَ أنَا فأنظُرَ، قالَ عَبدُ اللهِ: فتَسللتُ وتخفَّيتُ حتَّى أدخُلَ الحِصنَ، ففقَدُوا حمَارًا لَهُم، فخرَجُوا بقَبَسٍ يطلُبونَهُ، فخَشيتُ أَن أُعرَفَ، فغطَّيتُ رَأسِي، وجَلستُ كأنِّي أقضِي حاجَةً، فقالَ البوَّابُ: مَن أرادَ أن يدخُلَ فليَدخُلْ قَبلَ أن أُغلِقَهُ، فدخَلتُ ثُمَّ اختبَأتُ في مَربطِ حِمارٍ عندَ بَابِ الحصنِ، فتعشَّوا عند أبِي رافعٍ، وتحدَّثُوا حتَّى ذهبَتْ ساعَةٌ منَ اللَّيلِ، ثُم رَجعُوا إلَى بيوتِهِم، فلمَّا هدَأَتِ الأصوَاتُ ولَم أسمَعْ حركَةً، خرجْتُ، ورَأيتُ صاحبَ البابِ حيثُ وضعَ مِفتاحَ الحصنِ في مكانٍ، فأخَذتُهُ ففتَحتُ بهِ بابَ الحِصنِ، وعَمدتُ إلَى أبوابِ بيوتِ القَومِ فغَلَّقتُهَا عَليهِم مِن خَارِجِهَا، ثُم صَعدْتُ إلَى أبِي رَافعٍ في سُلَّمٍ، فإذَا البَيتُ مُظلِمٌ، قَد طَفِئَ سرَاجُهُ، فَلَمْ أَدْرِ أَينَ الرجُلُ؟ فقُلتُ: يَا أَبَا رَافِعٍ، قَالَ: مَن هَذَا؟ فعمَدتُ نَحوَ الصَّوتِ فضَربتُهُ وصَاحَ، فلَم تُغنِ شَيئًا، ثُم جئتُ كأنِّي أُغيثُهُ، فقُلتُ: مَا لكَ يَا أبَا رَافعٍ؟ -وغيَّرتُ صوتِي- قالَ: لأمِّكَ الوَيلُ، دخلَ عليَّ رجلٌ فضرَبَنِي بالسيفِ، فعمَدتُ إليهِ أيضًا فضَربتُهُ أخرَى فلَم تُغنِ شيئًا، فصاحَ وقامَ أهلُهُ، ثُم جئتُ وغيرتُ صوتِي كهيئَةِ المُغيثِ، فإذَا هو مُستَلقٍ عَلى ظهرِهِ، فوضعتُ السيفَ في بطنِهِ ثم انكفَأتُ عَليهِ حتَّى سمعتُ صوتَ العَظمِ، ثُم خرجتُ دَهِشًا، حتَّى أتيتُ السلَّمَ فأرَدتُ أن أَنزِلَ، فسَقطتُ مِنهُ، فانخَلعَتْ رِجْلِي، فعَصبتُهَا ثُمَّ أتيتُ أصحابِي أحجِلُ، فقلتُ: انطلِقُوا فبَشِّرُوا رسولَ اللهِ ﷺ، فإنِّي لا أبرَحُ حتَّى أسمعَ النَّاعيَةَ.

فلمَّا كانَ في وَجهِ الصبحِ قامَ النَّاعي عَلى السُّورِ فقالَ: أنعِي أبَا رَافعٍ تاجرَ

أهلِ الحجَازِ، فانطلَقتُ إلَى أصحَابِي، فقُلتُ: النجَاءَ، فَقَد قَتَلَ اللهُ أبَا رافِعٍ، فانتهَيتُ إلَى النبيِّ ﷺ فحدَّثتُهُ، فقَالَ لِي: «**ابسُطْ رِجلَكَ**»، فبَسطتُ رِجلِي فمسَحَهَا، فكأنَّمَا لَم أشتكِهَا قَطُّ.

وفِي هذَا العامِ تزوَّجَ النبيُّ ﷺ بأمِّ حبيبَةَ بنتِ أبِي سُفيانَ ﵂، وكانَت ﵂ عندَ عُبيدِ اللهِ بنِ جَحشٍ، وهاجَرَتْ معَهُ إلَى النجَاشِيِّ فِي أرضِ الحبشَةِ، فمَاتَ عَنهَا هناكَ، فبَعثَ رسُولُ اللهِ ﷺ عَمرَو بنَ أُميَّةَ الضَّمْرِيَّ إلى النجَاشيِّ ليُزوِّجَهُ بِهَا.

قالَت أمُّ حبيبَةَ ﵂: مَا شَعرتُ وأنَا بأرضِ الحبشَةِ إلَّا وجاريَةٌ مِن جوارِي النجاشيِّ -كانَت تقُومُ عَلى ثيَابِهِ ودُهنِهِ- قَد استأذَنَتْ عليَّ فأذِنتُ لهَا، فقَالَت: إنَّ المَلكَ يقُولُ لكِ: إنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ كتَبَ إليَّ أنْ أزَوِّجَهُ بِكِ، فقُلتُ: بشَّركِ اللهُ بالخَيرِ، وأعطيْتُهَا سِوارَينِ مِن فضَّةٍ، وخوَاتِيمَ مِن فضَّةٍ كَانَت فِي كُلِّ أصابعِ رِجْلِي، سُرورًا بما بَشَّرتْنِي بِهِ.

فقالَتِ الجاريَةُ: يقُولُ لكِ المَلِكُ: وَكِّلي مَن يُزوجُكِ، فأرسَلْتُ إلَى خالدِ ابنِ سَعيدِ بنِ العَاصِ، فوكَّلَتْهُ، فلمَّا أن كانَ مِن العَشيِّ أمرَ النجاشيُّ جعفرَ بنَ أبِي طالبٍ ﵁ ومَن كانَ هُناكَ منَ المُسلمينَ أن يَحضُروا، وقالَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كتبَ إليَّ أن أُزَوِّجَهُ أمَّ حَبيبةَ بنتَ أبِي سُفيانَ، فَأَجَبتُ إلَى مَا دعَا إلَيهِ رسُولُ اللهِ ﷺ، وقَد أصدَقتُهَا أربعَمِائَةِ دِينَارٍ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ ﵄ في قَولِهِ تَعَالى: ﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾ [الممتحنة:٧]، هو تَزويجُ النبيِّ ﷺ بأمِّ حبيبَةَ بنتِ أبِي سُفيانَ،

فصارَتْ أمَّ المُؤمنينَ، وصارَ مُعاويةُ خالَ المُؤمِنينَ.

وفي هذِهِ السنَةِ -سنَةِ خَمسٍ- تزوَّجَ النبيُّ ﷺ بابنَةِ عَمَّتِهِ زَينبَ بنتِ جَحشٍ رضي الله عنها، وقَد كانَت تحتَ مَولاهُ زَيدِ بنِ حَارثَةَ، زَوَّجَهُ بِها رَسولُ اللهِ ﷺ، فمكَثَتْ عِندَهُ قريبًا مِن سنَةٍ أو فَوقَهَا، ثُم وقَعَ بَينَهُما خِلافٌ، فجاءَ زَيدٌ يَشكُوهَا إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ، فجعَلَ ﷺ يقُولُ لَهُ: «**اتَّقِ اللهَ وأَمْسِكْ عَلَيكَ زَوجَكَ**»، قالَ تَعالَى: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ** ﴾ [الأحزاب:٣٧].

قالَ أهلُ العِلمِ: المُرادُ بالذِي أنعَمَ اللهُ عَليهِ هَاهُنا زيدُ بنُ حارِثَةَ، مَولَى رسُولِ اللهِ ﷺ، أنعَمَ اللهُ عَليهِ بِالإسلامِ، وأنعَمَ عَليهِ رسُولُ اللهِ ﷺ بالعِتقِ، وزَوَّجَهُ ابنَةَ عمَّتِهِ القُرشيَّةَ.

ثُم إنَّ زَيدًا طلَّقَهَا، فلمَّا انقَضَتْ عِدَّتُها، بعثَ إليهَا رسولُ اللهِ ﷺ يَخطِبُها، ثُم تزوَّجَهَا، وكانَ الذِي زوَّجَها منهُ ربُّ العَالَمِينَ سبحانه وتعالى، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا** ﴾ [الأحزاب:٣٧].

وقَد كانَتْ زَينبُ تَفخَرُ عَلى نسَاءِ النَّبيِّ ﷺ وتَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أهالِيكُنَّ، وزَوَّجَنِي اللهُ مِن فَوقِ سَبعِ سَمَواتٍ.

وقَد كانَت زَينبُ بنتُ جَحشٍ رضي الله عنها مِنَ المُهاجرَاتِ الأُوَلِ، وكانَتْ كثيرَةَ الخَيرِ والصدَقَةِ، قَالَت عائشَةُ رضي الله عنها: مَا رأيتُ امرأةً قطُّ خَيرًا فِي الدِّينِ مِن زَينبَ، وأتْقَى للهِ، وأصدَقُ حَدِيثًا، وأوصَلُ للرَّحِمِ، وأعظَمُ أمَانَةً وصَدَقَةً، وقَد قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**أسرَعُكُنَّ لُحُوقًا بِي أطوَلُكُنَّ يَدًا**»، فكُنَّا نتطاوَلُ أيُّنَا أطوَلُ يَدًا،

فكانَتْ زَينبُ أطوَلَنَا يَدًا؛ لأنَّها كانَت تَعملُ بِيدِهَا وتَتَصَدَّقُ.

ولمَّا وَقَعَت حادِثَةُ الإفْكِ واتُّهِمَت عائشَةُ ﵂ بمَا هيَ بَريئةٌ مِنهُ، سألَ رسُولُ اللهِ ﷺ زَينبَ بِنتَ جَحشٍ ﵂ عَن عائشَةَ، فقَالَت: يَا رسُولَ اللهِ، أَحمِي سَمعِي وبَصَرِي، مَا علِمتُ إلَّا خَيرًا، قَالَت عائشَةُ ﵂: وهِيَ التِي كَانَت تُسامِينِي مِن نسَاءِ النبيِّ ﷺ، فعَصَمَهَا اللهُ بالوَرعِ.





(١٩) غَزوَةُ بنِي المُصطَلِقِ، وحادِثَـةُ الإِفْكِ

في سنَةِ ستٍّ مِنَ الهجرَةِ خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ في سَبعمِائَةٍ مِن أصحَابِهِ إلَى بنِي المُصطَلِقِ في غَزوَةِ المُريسيعِ، حيثُ بلَغَ رسُولَ اللهِ ﷺ أنَّ بَنِي المُصطَلِقِ يَجمَعُونَ لَهُ، وكانَ قَائدَهُم في هذِهِ المَعركَةِ الحَارثُ بنُ أَبِي ضِرارٍ، أبُو جُويريَةَ بنتِ الحارِثِ التِي تزوَّجَهَا رسولُ اللهِ ﷺ بَعدَ ذَلكَ، فلمَّا سمِعَ بِهِم ﷺ خرَجَ إلَيهِم، حتَّى لَقِيَهم عَلى ماءٍ من مِياهِهِم يُقالُ لَهُ: المُرَيسِيعُ، وأمَرَ عُمرَ بنَ الخطابِ ﷺ فنادَى فِي الناسِ أن قُولُوا: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، تَمنَعُوا بِها أنفُسَكُم وأموالَكُم، فأَبَوْا، ثُم ترَامَوْا بالنَّبلِ، فأمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ المُسلمينَ فحمَلُوا حملَةَ رجُلٍ واحِدٍ، فتزَاحَمَ الناسُ واقتتَلُوا، فهَزَمَ اللهُ بَنِي المُصطَلِقِ، وقُتِلَ مَن قُتِلَ مِنهُم، وغَنِمَ رسولُ اللهِ ﷺ أبناءَهُم ونِساءَهُم وأموالَهُم، وأَسَرَ سائِرَهُم.

وبَينَا الناسُ عَلى ذلكَ الماءِ، ورَدَت وارِدةُ الناسِ، ومعَ عمرَ بنِ الخطَّابِ أجيرٌ لهُ مِن بنِي غِفارٍ، يُقالُ لهُ: جَهجَاهُ بنُ مَسعودٍ، يقُودُ فَرسَهُ، فازدَحَمَ جَهجَاهُ وسِنانُ بنُ وَبرٍ الجُهنيُّ حليفُ الخَزرجِ عَلى المَاءِ، فاقتتَلا، فصرَخَ الجُهنيُّ: يا مَعشرَ الأنصارِ، وصرَخَ جهجَاهُ: يا معشَرَ المُهاجرينَ، فغضِبَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ، وعِندَهُ جماعَةٌ مِن قَومِهِ، فِيهِم زَيدُ بنُ أرقَمَ ﷺ، وكانَ غُلامًا حَدَثًا، فقَالَ عَبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ: أَوَقَد فَعلُوها؟ قَد نافَرُونَا وكاثَرُونَا في بِلادِنَا، واللهِ ما أَعدَّنَا

وقُريشًا هذِهِ إلا كمَا قالَ الأولُ: سَمِّنْ كَلبَكَ يأكُلْكَ، أمَا واللهِ لَئِن رَجعْنَا إلَى المَدينَةِ ليُخرِجنَّ الأعزُّ منهَا الأذَلَّ، ثُم أقبَلَ عَلى مَن حضَرَهُ مِن قَومِهِ فقَالَ: هذَا مَا فَعلتُم بأنفُسِكُم، أحلَلتُمُوهُم بِلادَكُم، وقاسَمتُمُوهُم أموَالَكُم، أمَا واللهِ لَو أمسكتُم عنهُم مَا بِأيدِيكُم، لتحَوَّلُوا إلَى غيرِ دَارِكُم.

فسمعَ ذَلكَ زَيدُ بنُ أرقَمَ، فمَشَى إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ، وذلكَ بعدَ فَراغِ رسُولِ اللهِ ﷺ مِن بَنِي المُصطَلِقِ، فأخبَرَهُ الخَبَرَ، وعندَهُ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه، فقالَ: يَا رسُولَ اللهِ، مُرْ بِهِ عبَّادَ بنَ بِشرٍ فليَقْتُلْهُ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَكيفَ يَا عُمرُ، إذَا تحَدَّثَ النَّاسُ أنَّ مُحمَّدًا يَقتُلُ أصحَابَهُ**»، لَا، ولَكِن أذِّنْ بالرَّحيلِ، وذلكَ فِي ساعَةٍ لَم يكُن رسولُ اللهِ ﷺ يَرتحِلُ فيهَا، فارتحَلَ الناسُ وقَد مَشَى عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ، حينَ بلغَهُ أنَّ زَيدَ بنَ أرقَمَ قَد بَلَّغَهُ ما سَمعَ منهُ، فحَلفَ بِاللهِ: ما قُلتُ مَا قَالَ وَلَا تكَلَّمتُ بِهِ، وكانَ فِي قَومِهِ شَرِيفًا عَظيمًا، فقَالَ مَن حضَرَ عندَ رسُولِ اللهِ ﷺ منَ الأنصَارِ مِن أصحَابِهِ: يَا رَسُولَ اللهِ، عسَى أن يكُونَ الغُلامُ أوهَمَ فِي حَديثِهِ، ولَم يَحفَظْ مَا قالَ الرجُلُ، شَفقَةً عَلى ابنِ أُبَيٍّ وَدَفْعًا عنهُ.

فلمَّا استقَلَّ رسولُ اللهِ ﷺ وسارَ، لَقِيَهُ أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ رضي الله عنه، فحَيَّاهُ بتَحيَّةِ النبُوةِ وسلَّمَ عَليهِ، وقالَ: يَا رسُولَ اللهِ، واللهِ لَقَد رُحتَ فِي ساعَةٍ مَا كُنتَ تَروحُ فِي مِثلِهَا، فقالَ لَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَمَا بَلغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُم؟**»، قَالَ: أَيُّ صَاحِبٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: «**عَبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ**»، قالَ: ومَا قالَ؟ قالَ: «**زَعمَ أَنَّهُ إِنْ رجَعَ إلَى المَدينَةِ، أَخرَجَ الأعَزُّ مِنهَا الأَذَلَّ**».

قالَ: فأَنتَ وَاللهِ يَا رسُولَ اللهِ تُخرِجُهُ إن شِئتَ، هُوَ واللهِ الذَّليلُ وأَنتَ العَزيزُ،

ثُم قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ارفُقْ بِهِ، فَوَاللهِ لَقَد جَاءَنَا اللهُ بِكَ، وإنَّ قَومَهُ لَيَنظِمُونَ لَهُ الخَرزَ لِيُتَوِّجُوهُ، فإنَّهُ لَيَرَى أنكَ قَدِ استَلَبْتَهُ مُلْكًا.

وجاءَ عبدُ اللهِ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ فقَالَ: يَا رسُولَ اللهِ، إنهُ بلغَنِي أنكَ تُريدُ قَتلَ عَبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ فِيمَا بَلغَكَ عَنهُ، فإنْ كُنتَ فَاعِلًا فمُرنِي بِهِ، فأنَا أحمِلُ إلَيكَ رَأسَهُ، فوَاللهِ لقَد عَلمَتِ الخَزرجُ مَا كانَ بِها مِن رجُلٍ أبَرَّ بوَالِدِهِ مِنِّي، وإنِّي أخشَى أن تَأمُرَ بِهِ غَيرِي فيَقتُلَهُ، فَلا تَدعُنِي نَفسِي أَن أنظُرَ إلَى قَاتلِ عَبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ يَمشِي فِي الناسِ، فَأقتُلَهُ، فَأقتُلُ مُؤمِنًا بكافِرٍ، فأَدخُلُ النَّارَ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَل نترَفَّقُ بِهِ ونُحسِنُ صُحبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**».

فقامَ عبدُ اللهِ رضي الله عنه عندَ ذلكَ فوقَفَ لأبيهِ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ عندَ مَضيقِ المَدينَةِ وقالَ: قِفْ، فوَاللهِ لَا تَدخُلُهَا حتَّى يَأذنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي ذَلكَ، فلمَّا جاءَ رسولُ اللهِ ﷺ استَأذَنَهُ فِي ذلكَ، فأذِنَ لَهُ، فتَركَهُ فدَخَلَ المَدينَةَ.

وكانَت جُويرِيَةُ بنتُ الحَارثِ رضي الله عنها فيمَن سُبِيَ يومَ غَزوةِ المُريْسِيعِ، فتزَوَّجَهَا النبيُّ ﷺ، فكَانَت أعظَمَ الناسِ بَركَةً عَلى قَومِهَا، قَالَت عائشَةُ رضي الله عنها: لمَّا قَسمَ رسُولُ اللهِ ﷺ سبَايَا بَنِي المُصطَلِقِ وقَعَتْ جُويْرِيَةُ بنتُ الحارِثِ فِي السَّهمِ لثَابتِ بنِ قَيسِ بنِ شمَّاسٍ رضي الله عنه، فكَاتَبَتْهُ عَلى نَفسِهَا، وكَانَت امرَأةً حُلوةً مُلَّاحَةً، لا يَراهَا أحدٌ إلا أخذَتْ بنَفسِهِ، فأتَتْ رسُولَ اللهِ ﷺ لتَستَعِينَهُ فِي كِتابَتِهَا، فوَاللهِ مَا هُوَ إلَّا أَن رَأيتُهَا عَلى بابِ حُجرَتِي حتَّى كرِهتُهَا، وعرَفتُ أنهُ سيَرَى مِنهَا مَا رَأيتُ، فدخَلَتْ عليهِ فقَالَت: يَا رسولَ اللهِ، أنَا جُويريَةُ بنتُ الحارِثِ بنِ أبِي ضِرَارٍ سَيدِ قَومِهِ، وقَد أصابَنِي مِنَ البَلاءِ ما لَم يَخفَ عَليكَ، فوقَعتُ في

السَّهمِ لثابتِ بنِ قيسِ بنِ شمَّاسٍ، فكاتَبتُهُ عَلى نَفسِي، فجئتُكَ أستَعينُكَ عَلى كِتَابَتِي، فقَالَ ﷺ: «**فَهَلْ لَكِ فِي خَيرٍ مِن ذَلكَ؟**»، قَالَت: ومَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: «**أَقضِي عَنكِ كِتَابَكِ وأَتَزَوَّجُكِ**»، قَالَت: نَعَم، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**قَد فَعلْتُ**»، وخرَجَ الخَبَرُ إلَى الناسِ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قَد تَزوجَ جُويرِيَةَ بِنتَ الحارِثِ، فقَالَ النَاسُ: أصهَارُ رسُولِ اللهِ ﷺ فأرسَلُوا مَا بِأيدِيهِم، فلَقَد أُعتِقَ بتَزويجِهِ إياهَا مائَةُ أهلِ بَيتٍ مِن بنِي المُصطلقِ، فمَا أعلَمُ امرأَةً كانَت أعظَمَ بَركةً عَلى قَومِهَا مِنهَا.

ولمَّا عادَ النبيُّ ﷺ مِن غَزوِ بني المُصطَلِقِ، ابتُلِيَت عائشَةُ رضي الله عنها بلاءً شَديدًا تَعجزُ عن حَملِهِ الجبَالُ الرَّاسيَاتُ، وطاشَت عِندَهُ العُقولُ، ممَّا قامَ بهِ وتَولَّى كِبْرَهُ رَأسُ الشقَاقِ والنِّفاقِ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ، مِن اتِّهامِ الطاهرَةِ المُطهَّرَةِ، والصِّدِّيقَةِ بِنتِ الصِّدِّيقِ عَائشَةَ رضي الله عنها بالإفكِ المُبينِ، فضَاقَت عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ وعَليهَا رضي الله عنها الأرضُ بمَا رَحُبَت، ثُم جعَلَ اللهُ عز وجل لهَا فَرَجًا ورِفعَةً ومَخرَجًا، وبرَّأها بقُرآنٍ يُتلَى إلى يومِ الدِّينِ.

قَالَت عائشَةُ رضي الله عنها: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقرَعَ بَينَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ، فَأَقرَعَ بَينَنَا فِي غَزوَةٍ غَزَاهَا -وَهِي غَزوةُ بنِي المُصطَلِقِ- فَخَرَجَ سَهمِي، فَخَرَجتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعدَمَا نَزَلَ الحِجَابُ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن سَفَرِهِ ذَلِك وَجَّهَ قَافِلًا، حتَّى إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِن المَدِينَةِ نَزَلَ مَنزِلًا، فَبَاتَ بِهِ بَعضُ اللَّيلِ، ثُمَّ أُذِّنَ فِي النَّاسِ بِالرَّحِيلِ، فَارتَحَلَ النَّاسُ، وَخَرَجْتُ لِبَعضِ حَاجَتِي وَفِي عُنُقِي عِقدٌ لِي، فَلَمَّا فَرَغْتُ انسَلَّ مِن عُنُقِي وَلَا أَدرِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى الرَّحلِ ذَهَبْتُ أَلتَمِسُهُ فِي عُنُقِي فَلَم أَجِدْهُ،

وَقد أَخَذَ النَّاسُ فِي الرَّحِيلِ، فَرَجَعْتُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي ذَهَبْتُ إِلَيهِ، فَالتَمَستُهُ حَتَّى وَجَدْتُهُ، وَجَاءَ القَومُ الَّذِينَ كَانُوا يُرحِّلُونَ لِي البَعِيرَ، فَاحتَمَلُوا هَودَجِي فَرَحَّلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنتُ رَكِبتُ، وَهُم يَحسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذ ذَاكَ خِفَافًا، لَم يُثقِلهُنَّ اللَّحمُ، فَلَم يَستَنكِرِ القَومُ خِفَّةَ الهَودَجِ حِينَ رَفَعُوهُ، وَكُنتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ وَسَارُوا، وَلَم يَشكُّوا أَنِّي فِيهِ، فَرَجَعْتُ إِلَى العَسكَرِ وَمَا فِيهِ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، قَد انْطَلَقَ النَّاسُ، فَتَلَفَّفْتُ بِجِلبَابِي، ثُمَّ اضطَجَعتُ فِي مَكَانِي، وَظَنَنْتُ أَنَّهُم سَيَفقِدُونِي فَيَرجِعُونَ إِلَيَّ.

فَبَينَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنزِلِي غَلَبَتنِي عَينِي فَنِمتُ، وَكَانَ صَفوَانُ بنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ مِن وَرَاءِ الجَيشِ، فَأَدلَجَ فَأَصبَحَ عِندَ مَنزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبلَ الحِجَابِ، فَاستَيقَظتُ بِاستِرجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي فَخَمَّرتُ وَجهِي بِجِلبَابِي، وَوَاللهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعتُ مِنهُ كَلِمَةً غَيرَ استِرجَاعِهِ، حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدَيهَا فَرَكِبتُهَا، فَانطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ، حَتَّى أَتَينَا الجَيشَ بَعدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَن هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الإِفكَ عَبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ، فَقَدِمنَا المَدِينَةَ، فَاشتَكَيتُ حِينَ قَدِمتُ شَهرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَولِ أَصحَابِ الإِفكِ، لَا أَشعُرُ بِشَيءٍ مِن ذَلِكَ وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي، أَنِّي لَا أَعرِفُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ اللُّطَفَ الَّذِي كُنتُ أَرَى مِنهُ حِينَ أَشتَكِي، إِنَّمَا يَدخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: «كَيفَ تِيكُم؟» ثُمَّ يَنصَرِفُ، فَذَاكَ الَّذِي يَرِيبُنِي، وَلَا أَشعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجتُ بَعدَمَا نَقَهتُ -أَي: خَفَّ مَرَضُهَا-، فَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ وَهُوَ

مُتبَرَّزُنَا، وَكُنَّا لَا نَخرُجُ إِلَّا لَيلًا إِلَى لَيلٍ، وَذَلِكَ قَبلَ أَن نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِن بُيُوتِنَا، وَأَمرُنَا أَمرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي التَّبَرُّزِ قِبَلَ الغَائِطِ، فَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالكُنُفِ أَن نَتَّخِذَهَا عِندَ بُيُوتِنَا، فَانطَلَقتُ أَنَا وَأُمُّ مِسطَحٍ ابنةُ خَالَةِ أَبِي بَكرٍ الصِّدِّيقِ، وَابنُهَا مِسطَحُ بنُ أُثَاثَةَ، فَأَقبَلتُ مَعَهَا قِبَلَ بَيتِي وَقَد فَرَغنَا مِن شَأنِنَا، فَعَثَرَت أُمُّ مِسطَحٍ فِي مِرطِهَا، فَقَالَت: تَعِسَ مِسطَحٌ، فَقُلتُ لَهَا: بِئسَ مَا قُلتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدرًا؟ قَالَت: أَي هَنْتَاه؛ أَوَلَم تَسمَعِي مَا قَالَ؟ قُلتُ: وَمَا قَالَ؟ فَأَخبَرَتنِي بِقَولِ أَهلِ الإِفكِ، فَازدَدتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعتُ إِلَى بَيتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: «**كَيفَ تِيكُم**»، فَقُلتُ: أَتَأذَنُ لِي أَن آتِيَ أَبَوَيَّ، وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَن أَستَيقِنَ الخَبَرَ مِن قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجِئتُ أَبَوَيَّ فَقُلتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاه، مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَت: يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَيكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِندَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرنَ عَلَيهَا، فَقُلتُ: سُبحَانَ اللهِ، أَوَلَقَد تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ فَبَكَيتُ تِلكَ اللَّيلَةَ حَتَّى أَصبَحتُ لَا يَرقَأُ لِي دَمعٌ، وَلَا أَكتَحِلُ بِنَومٍ، حَتَّى أَصبَحتُ أَبكِي، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بنَ زَيدٍ حِينَ استَلبَثَ الوَحيُ، يَستَأمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ بنُ زَيدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالَّذِي يَعلَمُ مِن بَرَاءَةِ أَهلِهِ، وَبِالَّذِي يَعلَمُ لَهُم فِي نَفسِهِ مِنَ الوُدِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَهلُكَ وَلَا نَعلَمُ إِلَّا خَيرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَم يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِن تَسأَلِ الجَارِيَةَ تَصدُقكَ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «**أَي بَرِيرَةُ، هَل رَأَيتِ مِن شَيءٍ يَرِيبُكِ؟**»، قَالَت بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا رَأَيتُ عَلَيهَا أَمرًا أَغمِصُهُ عَلَيهَا، أَكثَرَ مِن أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَن عَجِينِ

أَهلِهَا، فتَأتِي الدَّاجِنُ فتَأكُلُه.

وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يسأَلُ زَينَبَ بِنتَ جَحشٍ عَن أَمرِي، فَقَالَ: «**يَا زَينَبُ، مَاذَا عَلِمتِ أو رَأَيتِ؟**»، فَقَالَت: يَا رَسُولَ اللهِ، أَحمِي سَمعِي وَبَصَرِي، مَا عَلِمتُ إِلَّا خَيرًا، وَهِيَ الَّتِي كَانَت تُسَامِينِي مِن أَزوَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالوَرَعِ، وطَفِقَت أختُهَا حَمنَةُ تُحارِبُ لَهَا فَهَلَكَت فِيمَن هَلَكَ مِن أصحَابِ الإِفْكِ.

فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَاستَعذَرَ مِن عَبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ، فَقَالَ ﷺ وَهُو عَلَى المِنبَرِ: «**يَا مَعشَرَ المُسلِمِينَ مَن يَعذُرُنِي مِن رَجُلٍ قَد بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهلِ بَيتِي، فَوَاللهِ مَا عَلِمتُ عَلَى أَهلِي إلا خَيرًا، وَلَقَد ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمتُ عَلَيهِ إلا خَيرًا، وَمَا كَانَ يَدخُلُ عَلَى أَهلِي إلا مَعِي**»، فَقَامَ أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَعذُرُكَ مِنهُ، إن كَانَ مِنَ الأَوسِ ضَرَبنَا عُنُقَهُ، وَإِن كَانَ مِن إِخوَانِنَا مِنَ الخَزرَجِ أَمَرتَنَا فَفَعَلنَا أَمرَكَ، فَقَامَ سَعدُ بنُ عُبَادَةَ -وَهُوَ سَيِّدُ الخَزرَجِ، وَكَانَ قَبلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احتَمَلَتهُ الحَمِيَّةُ- فَقَالَ: كَذَبتَ لَعَمرُ اللهِ لا تَقتُلُهُ، وَلا تَقدِرُ عَلَى قَتلِهِ، فَقَالَ أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ: كَذَبتَ لَعَمرُ اللهِ لَنَقتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، فَتَثَاوَرَ الحَيَّانِ الأَوسُ وَالخَزرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَن يَقتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى المِنبَرِ، فَخَفَّضَهُم حَتَّى سَكَتُوا، وَسَكَتَ، فَبَكَيتُ يَومِي ذَلِك لَا يَرقَأُ لِي دَمعٌ، وَلَا أَكتَحِلُ بِنَومٍ، فَأَصبَحَ أَبَوَايَ عِندِي، وَقَد بَكَيتُ لَيلَتَينِ وَيَومًا حَتَّى ظَنَنتُ أَنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، فَبَينَا هُمَا جَالِسَانِ عِندِي وَأَنَا أَبكِي، استَأذَنَت عَلَيَّ امرَأَةٌ مِنَ الأَنصَارِ، فَأَذِنتُ لَهَا فَجَلَسَت تَبكِي مَعِي، فَبَينَا نَحنُ عَلَى ذَلِكَ، إذ دَخَلَ عَلَينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّم ثُمَّ جَلَسَ،

وَلَم يَجلِس عِندِي مِنذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبلَهَا، وَقَد لَبِثَ شَهرًا لَا يُوحَى إِلَيهِ فِي شَأنِي، فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعدُ: يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَد بَلَغَنِي عَنكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِن كُنتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِن كُنتِ أَلمَمتِ بِذَنبٍ فَاستَغفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيهِ، فَإِنَّ العَبدَ إِذَا اعتَرَفَ بِذَنبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللهِ تَابَ اللهُ عَلَيهِ**»، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنهُ قَطرَةً، فَقُلتُ لِأَبِي: أَجِب رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ، قَالَ: وَاللهِ مَا أَدرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَت: مَا أَدرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلتُ -وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقرَأُ كَثِيرًا مِنَ القُرآنِ-: إِنِّي وَاللهِ لَقَد عَلِمتُ أَنَّكُم سَمِعتُم هَذَا الحَدِيثَ حَتَّى استَقَرَّ فِي أَنفُسِكُم وَصَدَّقتُم بِهِ، فَلَئِن قُلتُ لَكُم: إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللهُ يَعلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعتَرَفتُ لَكُم بِأَمرٍ، وَاللهُ يَعلَمُ أَنِّي مِنهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللهِ مَا أَجِدُ لَكُم مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]، والتَمسْتُ اسمَ يَعقُوبَ فَلَم أَقدِرْ عَليهِ، ثُمَّ تَحَوَّلتُ وَاضطَجَعتُ عَلَى فِرَاشِي، وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِن وَاللهِ مَا كُنتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ مُنزِلٌ فِي شَأنِي وَحيًا يُتلَى، ولَشَأنِي فِي نَفسِي كَانَ أَحقَرَ مِن أَن يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمرٍ يُتلَى، وَلَكِن كُنتُ أَرجُو أَن يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّومِ رُؤيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا، فَوَاللهِ مَا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِن أَهلِ البَيتِ حَتَّى أُنزِلَ عَلَيهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنهُ مِثلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ وَهُوَ فِي يَومٍ شَاتٍ، مِن ثِقَلِ القَولِ الَّذِي يَنزِلُ عَلَيهِ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ سُرِّيَ عَنهُ وَهُوَ

يَضحَكُ، فَكَانَت أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: «**يَا عَائِشَةُ، احمَدِي اللهَ فَقَدْ بَرَّأَكِ**»، فقَالَت أُمِّي: قُومِي إِلَيهِ، فَقُلتُ وَقَد كُنتُ أَشدَّ مَا كُنتُ غَضبًا: لَا وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيهِ، وَلَا أَحمَدُ إِلَّا اللهَ ﷻ، فَأنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النور:١١-١٩].

قَالَت عَائِشَةُ ﵂: فلَمَّا أَنزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكرٍ الصِّدِّيقُ ﵁ -وكَانَ يُنفِقُ عَلى مِسطَحِ بنِ أُثَاثَةَ لقَرَابَتِهِ مِنهُ وفَقرِهِ-: وَاللهِ لَا أُنفِقُ عَلَى مِسطَحٍ شَيئًا أَبدًا بَعْدَمَا قَالَ لعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأنزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢]، فقَالَ أَبُو بَكرٍ ﵁: بَلى وَاللهِ إِنِّي أُحِبُّ أَن يَغفِرَ اللهُ لِي، فَرجَعَ إِلَى مِسطَحٍ النَفقَةَ التِي كَانَ يُنفِقُ عَلَيهِ، وقَالَ: وَاللهِ لَا أَنزِعُهَا مِنهُ أَبَدًا.

فَلمَّا نَزَلَ القُرآنُ بِبَراءَةِ عَائشَةَ ﵂، قرَأَهُ النَّبيُّ ﷺ عَلى النَّاسِ، ثُم أَمَرَ بمَن أَفصَحَ بقَذْفِ عَائشَةَ ﵂ بالفَاحشَةِ فضُرِبُوا حَدَّ القَذْفِ.

* * *



(٢٠) صُلحُ الحُدَيبِيَةِ بَينَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وبَينَ قُرَيشٍ

فِي شَهرِ ذِي القَعدَةِ سنَةَ سِتٍّ مِن الهِجرَةِ، خَرجَ رسُولُ اللهِ ﷺ مُعتمِرًا لا يُرِيدُ حَربًا، واستنفَرَ العربَ ومَن حولَهُ مِن أهلِ البَوادِي منَ الأعرابِ ليَخرُجُوا مَعهُ، وكانَ يَخشَى مِن قُريشٍ أن يَعرِضُوا لهُ بِحَربٍ، أو يَصُدُّوهُ عَن البَيتِ، فَأَبطَأَ عَليهِ كَثيرٌ مِنَ الأعرَابِ، وخَرجَ رسُولُ اللهِ ﷺ بمَن معَهُ مِن المُهاجِرينَ والأنصَارِ ومَن لحِقَ بهِ مِن العربِ، وساقَ معهُ الهَدْيَ، وأحرَمَ بالعُمرةِ ليَأمنَ الناسُ مِن حَربِهِ، وليَعلمُوا أنهُ إنمَا خرجَ زَائرًا لهَذَا البَيتِ ومُعظِّمًا لهُ.

وسارَ رسُولُ اللهِ ﷺ حتَّى إذا كانَ بعُسفانَ لقِيَهُ بِشرُ بنُ سُفيانَ الكَعبيُّ فقَالَ: يَا رسولَ اللهِ، هذِه قُريشٌ قَد سَمِعَت بمَسيرِكَ فخرَجُوا كبَارُهم وصغَارُهم، ونزَلُوا بذِي طُوًى، يُعاهدونَ اللهَ لا تَدخُلهَا عَليهِم أبَدًا، وهذَا خالدُ بنُ الوليدِ فِي خَيْلِهِم، قَد قَدَّمُوها إلى كُراعِ الغَمِيمِ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا وَيحَ قُريشٍ، لَقَد أَكلَتهُمُ الحَربُ، ماذَا عَليهِم لَو خَلَّوْا بَينِي وبَينَ سَائرِ العَربِ، فَإِن هُم أَصَابُونِي كانَ ذلكَ الذِي أَرَادُوا، وإنْ أظهَرنِي اللهُ عَليهِم دَخَلُوا فِي الإسلَامِ وافِرِينَ، وإِن لَم يَفعَلُوا قَاتَلُوا وبِهِم قُوَّةٌ، فَمَا تَظُنُّ قُريشٌ؟ فَوَاللهِ لَا أَزَالُ أجَاهِدُ عَلى الذِي بَعثَنِي اللهُ بِهِ، حتَّى يُظهِرَهُ اللهُ أَو تَنفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ**»، أَي: صَفحَةُ العُنُقِ.

فأَمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ الناسَ أنْ يَسلُكُوا ذاتَ اليَمينِ، نَحوَ طَريقِ الحُديبيَةِ أسفَلَ مكَّةَ، فلَمَّا رَأَت خَيلُ قُريشٍ غُبارَ الجَيشِ وقَد خَالَفُوا عَن طَريقِهم، رَكَضُوا رَاجعينَ إلى قُريشٍ، وسارَ رسُولُ اللهِ ﷺ، حتَّى إذَا سَلكَ في ثَنيَّةِ المُرارِ بَرَكَتْ نَاقَتُهُ، فقَالَ الناسُ: خَلأَتْ، أَي: حَرَنَتْ، فقَالَ: «**مَا خَلأَتْ، ومَا هُو لهَا بخُلُقٍ، ولَكِن حَبَسهَا حابِسُ الفِيلِ عَن مكَّةَ، والذِي نَفسِي بيَدِهِ، لا يَسألُونِي خُطَّةً يُعظِّمونَ فِيهَا حُرمَاتِ اللهِ إلَّا أَعطَيتُهُم إيَّاهَا**»، ثُمَّ قالَ للنَّاسِ: انزِلُوا، فقِيلَ لهُ: يَا رسولَ اللهِ، مَا بالوَادِي ماءٌ نَنزِلُ عليهِ، فأخرَجَ سَهمًا ممَّا بحَوزَتِهِ، فأعطَاهُ رَجُلًا مِن أصحَابِهِ، فنزَلَ بهِ فِي قَليبٍ مِن تلكَ القُلُبِ، فغَرَزَهُ فِي جَوفِهِ، فجَاشَ بالرُّواءِ حتَّى شَربَ النَّاسُ وسُقُوا.

فلمَّا استقَرَّ رسُولُ اللهِ ﷺ، أتاهُ بُديلُ بنُ ورقَاءَ في رجَالٍ مِن خُزاعَةَ، فكَلَّمُوهُ وسألُوهُ مَا الذِي جاءَ بهِ، فأخبَرَهُم أنَّهُ لَم يَأتِ يُريدُ حَربًا، وإنَّمَا جاءَ زَائِرًا للبيَتِ ومُعظِّمًا لحُرمَتِهِ، فرجَعُوا إلى قُريشٍ فقالُوا: يا معشَرَ قُريشٍ، إنكُم تَعجلُونَ عَلى محمدٍ، إن مُحمدًا لَم يأتِ لقتالٍ، إنمَا جاءَ زَائرًا لهذَا البَيت، فاتَّهمُوهُم وقالُوا لَهُم قَولًا مُنكَرًا، وقالُوا: وإن كَانَ جاءَ ولا يُريدُ قِتالًا، فوَاللهِ لا يدخُلُها علينا عَنوَةً أبدًا -أي: قَهرًا وغلبَةً-، ولا تَحدَّثُ بذَلكَ عنَّا العرَبُ.

وقَد كانَت خُزاعَةُ موضِعَ سرٍّ ونُصحٍ لرَسُولِ اللهِ ﷺ، مُسلمُهَا ومُشرِكُها، لا يُخفونَ عنهُ شَيئًا كان بمَكَّةَ.

ثم بعَثَتْ قريشٌ لرسُولِ اللهِ ﷺ مِكرَزَ بنَ حَفصٍ، فلمَّا رآهُ رسُولُ اللهِ ﷺ مُقبِلًا، قالَ: «**هذَا رَجلٌ غادِرٌ**»، فلمَّا انتَهى إلى رسُولِ اللهِ ﷺ وكلَّمَهُ، قالَ لهُ

رسُولُ اللهِ ﷺ مثلَ مَا قالَ لبُديلٍ وأصحَابِهِ، فرجَعَ إلى قُريشٍ فأخبرَهُم بمَا قالَ لهُ رسُولُ اللهِ ﷺ.

ثم بَعثُوا إليهِ الحُليسَ بنَ عَلقمَةَ، فلمَّا رآهُ رسولُ اللهِ ﷺ قالَ: «**إنَّ هذَا مِن قَومٍ يتَألَّهُونَ، فَابعَثُوا بالهَدْيِ فِي وَجهِهِ حَتَّى يَراهُ**»، فلمَّا رَأى الهَدْيَ فِي قَلائِدِهِ يَسيلُ عَليهِ من عَرضِ الوادِي، رجعَ إلَى قُريشٍ ولَم يَصِلْ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ إعظَامًا لمَا رَأَى، فقالَ لهُم ذلكَ، فقالُوا لهُ: اجلِسْ، فإنمَا أنتَ أعرابِيٌّ لا عِلمَ لكَ، فغضِبَ الحُليسُ عندَ ذلكَ وقالَ: يا معشَرَ قريشٍ، واللهِ مَا عَلى هذَا عاقَدنَاكُم، أيُصَدُّ عَن بيتِ اللهِ مَن جاءَهُ مُعظِّمًا لهُ؟! قالُوا: مَهْ، كُفَّ عنَّا يَا حُلَيسُ حتى نأخُذَ لأنفُسِنَا مَا نَرضَى بِهِ.

ثُم بعثُوا إلى رسُولِ اللهِ ﷺ عُروةَ بنَ مَسعودٍ الثَّقفِيَّ، فقالَ: يَا معشَرَ قُريشٍ، إنِّي قَد رأيتُ مَا يَلقَى منكُم مَن بَعثتمُوهُ إلَى مُحمدٍ إذَا جاءَكُم منَ التَّعنيفِ وسُوءِ اللَّفظِ، وقَد عرَفتُم أنكُم وَالدٌ وَأنِّي ولدٌ -وكَانَ عُروةُ ثقَفيًّا وأمُّهُ مِن قُريشٍ- وقَد سَمِعتُ بالذِي نابَكُم، فجمَعتُ مَن أطاعَنِي مِن قومِي، ثُم جِئتُكُم، حتَّى آسيتُكُم بنَفسِي، قالُوا: صَدقْتَ، مَا أنتَ عِندَنَا بمُتَّهَمٍ.

فخَرَجَ حتَّى أتَى إلى رسُولِ اللهِ ﷺ، فجلسَ بينَ يَديهِ، ثُم قالَ: يا مُحمدُ، أجَمَعْتَ أخلَاطَ الناسِ ثُم جئتَ بِهِم إلَى أهلِكَ وعَشيرَتِكَ لتكسِرَهُم بِهِم، إنَّ قُريشًا قَد خرجَت، وهُم يُعاهدونَ اللهَ لا تَدخُلهَا عَليهِم عَنوةً أبَدًا، وايْمُ اللهِ لكَأنِّي بِهؤلاءِ قَد انكشَفُوا عَنكَ غَدًا.

وكانَ أبُو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه يَقفُ خَلفَ رسولِ اللهِ ﷺ، فسَبَّهُ سَبًّا مُنكَرًا وقالَ:

أنحنُ نَنكشِفُ عنهُ؟! فقَالَ عُروةُ: مَن هذَا يَا مُحمدُ؟ قالَ: «**هذَا ابنُ أَبِي قُحافَةَ**»، قالَ: أمَا واللهِ لَولَا يَدٌ كَانَت لَكَ عِندِي لكَافَأْتُكَ بِها، ولَكِن هذِهِ بِهَا.

ثم جعلَ يتناوَلُ لِحيةَ رسُولِ اللهِ ﷺ وهُو يُكلِّمُهُ، والمُغيرةُ بنُ شُعبةَ وَاقِفٌ عَلى رأسِ رسولِ اللهِ ﷺ فِي الحدِيدِ، فجَعلَ يَقرعُ يدَهُ إذَا تناوَلَ لِحيَةَ رسُولِ اللهِ ﷺ، ويقُولُ: اكفُفْ يَدكَ عَن وَجهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَبلَ ألَّا تَصِلَ إلَيكَ، فقَالَ عُروةُ: وَيحَكَ، ما أفظَّكَ وأغلظَكَ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ، فقالَ لهُ عُروةُ: مَن هذَا يَا مُحمدُ؟ قالَ: هذَا ابنُ أخِيكَ المُغيرةُ بن شُعبةَ، قالَ: أَيْ غُدَرُ، وهَل غَسلتُ سَوءَتك إلَّا بِالأمْسِ؟!

وقَد أرادَ عروةُ بقولِهِ هذَا: أن المُغيرةَ قبلَ إسلامِهِ قتلَ ثلاثَةَ عَشرَ رَجُلًا من بنِي مالكٍ مِن ثَقيفٍ، فوَدَى عُروةُ المَقتُولِينَ ثلاثَ عشرَةَ دِيَةً، وأصلَحَ ذلكَ الأَمرَ.

ثُم كلَّمَهُ رسولُ اللهِ ﷺ، بمِثلِ مَا كلَّمَ بهِ أصحَابَهُ، وأخبَرهُ أنهُ لم يَأتِ يريدُ حَربًا، فقامَ مِن عندِ رسولِ اللهِ ﷺ، وقَد رأَى مَا يصنَعُ بهِ أصحابُهُ، لا يتَوضَّأُ إلَّا ابتدَرُوا وَضوءَهُ، ولَا يسقطُ مِن شَعرِهِ شيءٌ إلَّا أخذُوهُ، فرجَعَ إلى قُريشٍ فقالَ: يَا معشَرَ قريشٍ، إنِّي قَد جئتُ كسرَى في مُلكِهِ، وقَيصرَ في مُلكِهِ، والنجَاشيَّ في مُلكِهِ، وإنِّي واللهِ مَا رأيتُ مَلِكًا في قَومِهِ قَطُّ مِثلَ مُحمدٍ فِي أصحَابِهِ، ولقَد رأيتُ قَومًا لا يُسلمونَهُ لشَيءٍ أبدًا، فانظُرُوا رَأيَكُم.

ثم دعَا رسولُ اللهِ ﷺ عُمرَ بنَ الخطابِ ﷺ ليَبعثَهُ إلى مكَّةَ، فيُبلغَ عنهُ أشرافَ قريشٍ مَا جاءَ لهُ، فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، إنِّي أخافُ قُريشًا على نَفسِي، وليسَ بمكَّةَ

مِن بنِي عدِيِّ بنِ كَعبٍ أحَدٌ يَمنَعُني، وقَد عَرفَتْ قريشٌ عداوَتِي إيَّاهَا وغِلظَتِي عَليهَا، ولكنِّي أدلُّكَ عَلى رجُلٍ أعزَّ بِها منِّي، عثمانَ بنِ عفَّانَ، فدعَا رسولُ اللهِ ﷺ عُثمانَ بنَ عفَّانَ ﷺ، فبعثَهُ إِلَى أَبِي سُفيانَ وأشرافِ قُرَيشٍ، يُخبِرُهُم أنهُ لم يَأتِ لحَربٍ، وإنَّمَا جاءَ زائرًا لهذَا البيتِ ومُعظِّمًا لحُرمَتِهِ، فخرجَ عثمانُ إِلَى مكةَ، فلقِيَهُ أبانُ بنُ سَعيدِ بنِ العاصِ حينَ دخلَ مكَّةَ، أو قبلَ أن يدخُلَهَا، فحمَلَهُ بينَ يدَيهِ، ثُم أجارَهُ حتَّى بلَّغَ رسالَةَ رسُولِ اللهِ ﷺ، فانطلَقَ عُثمانُ حتَّى أتَى أبَا سفيانَ وعُظماءَ قُريشٍ، فبلَّغَهُم عَن رسولِ اللهِ ﷺ مَا أرسلَهُ بهِ، فقَالُوا لعُثمانَ حينَ بلَّغَ رسَالةَ رسُولِ اللهِ ﷺ إلَيهِم: إن شِئتَ أَن تطُوفَ بِالبيتِ فطُفْ، قالَ: مَا كنتُ لأفعَلَ حتَّى يطُوفَ بهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، واحتَبسَتْهُ قريشٌ عِندَهَا، فبلَغَ رسُولَ اللهِ ﷺ والمسلمينَ أنَّ عثمانَ قَد قُتِلَ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ عندَ ذلكَ: «**لا نَبرَحُ حَتَّى نُناجِزَ القَومَ**»، ودعَا رسولُ اللهِ ﷺ إلَى البيعَةِ، فكانَت بَيعَةُ الرِّضوانِ تَحتَ الشَّجرَةِ، وقَد بايَعُهم رسولُ اللهِ ﷺ عَلى الموتِ، وألَّا يَفِرُّوا، فبايعَ رسولُ اللهِ ﷺ الناسَ، ولَم يتخَلَّفْ عَنهُ أحَدٌ مِنَ المُسلِمِينَ حَضرَهَا، فبَشَّرَهُمُ النبيُّ ﷺ برضوانِ اللهِ تعَالى عَنهُم وعَظِيمِ فَضلِهِ عَليهِم، وقالَ لَهُم: «**أَنتُمْ خَيرُ أَهلِ الأَرْضِ**»، وقالَ ﷺ: «**لا يدخُلُ أَحدٌ النَّارَ إن شَاءَ اللهُ مِن أصحَابِ الشَّجرَةِ الذِينَ بَايَعُوا تَحتَهَا**».

وقَد قِيلَ لسَلمَةَ بنِ الأَكوَعِ ﷺ: عَلى أيِّ شيءٍ بَايَعتُم رسُولَ اللهِ ﷺ يَومَ الحُديبِيَةِ؟ قالَ: عَلى المَوتِ.

وكانَ أولَ مَن بايَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بيعَةَ الرِّضوانِ أَبُو سِنانٍ الأسَدِيُّ، وبَايعَ رسُولُ اللهِ ﷺ لعُثمانَ ﷺ، فضرَبَ بإحدَى يدَيْهِ على الأُخرَى، ثُم أتَى الخَبَرُ إلى

رسُولِ اللهﷺ أنَّ الذِي ذُكِرَ مِن أَمرِ عُثمانَ بَاطلٌ.

ثُم بَعثَت قُريشٌ سُهَيلَ بنَ عمرٍو إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ وقالُوا: ائتِ مُحمدًا وصَالِحْهُ، ولَا يَكُن فِي صُلحِهِ إلَّا أن يَرجِعَ عنَّا عامَهُ هذَا، فواللهِ لا تتحَدَّثُ العرَبُ أنهُ دَخلَهَا عَنوَةً أبدًا، فأتَاهُ سُهيلُ بنُ عَمرٍو، فلمَّا رآهُ رَسُولُ اللهِﷺ مُقبِلًا قالَ: «**قَد أرَادَ القَومُ الصُّلحَ حِينَ بَعثُوا هذَا الرَّجُلَ**».

فلمَّا انتَهَى سُهيلٌ إلَى رسُولِ اللهِﷺ، تكَلَّمَ فأطَالَ الكلامَ وتَرَاجَعَا، ثُم جَرَى بينَهُمَا الصلحُ، فلمَّا التأمَ الأَمرُ ولَم يَبقَ إلَّا الكتَابُ، وثَبَ عُمرُ فأتَى أبا بَكرٍ، فقالَ: يَا أبَا بَكرٍ، ألَيسَ بِرَسُولِ اللهِﷺ؟ قالَ: بَلى، قالَ: أَوَلسْنَا بالمُسلمِينَ؟ قالَ: بَلى، قالَ: أَوَليسُوا بالمُشركينَ؟ قالَ: بَلى، قالَ: فعَلامَ نُعطِي الدنيَّةَ فِي دِينِنَا؟ فقَالَ أبُو بَكرٍ ﷺ: يا عُمرُ، الزَم غَرزَهُ، فإنِّي أشهَدُ أنهُ رسُولُ اللهِ، قالَ عُمرُ ﷺ: وأنَا أشهَدُ أنَّهُ رسُولُ اللهِ.

ثُم أتَى إلى رسولِ اللهِﷺ فقالَ: يا رسُولَ اللهِ، ألستَ برسُولِ اللهِ؟ قالَ: «**بَلَى**»، قالَ: أَوَلسنَا بالمسلمينَ؟ قالَ: «**بَلَى**»، قالَ: أَوَليسُوا بالمشركِينَ؟ قالَ: «**بَلَى**»، قالَ: فعَلامَ نُعطِي الدنيَّةَ في دِينِنَا؟ قالَ: «**أَنَا عَبدُ اللهِ ورَسُولُهُ، لَن أُخالِفَ أَمرَهُ ولَن يُضَيِّعَنِي**»، فكانَ عمرُ ﷺ يقُولُ: مَا زِلتُ أصومُ وأتصَدَّقُ وأُصلِّي وأُعتِقُ مِن الذِي صنَعتُ يَومَئذٍ، مخافَةَ كَلامِي الذِي تكلَّمتُ يَومَئذٍ حتَّى رَجوتُ أَن يكُونَ خيرًا.

ثُم دعَا رسولُ اللهِﷺ عليَّ بنَ أَبِي طَالبٍ ﷺ، فقَالَ: «**اكتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ**»، فقالَ سُهَيلٌ: لَا أعرِفُ هذَا، ولكِنِ اكتُبْ: باسمِكَ اللَّهمَّ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**اكتُبْ: بِاسمِكَ اللهُمَّ**»، فكتبَهَا، ثُم قالَ: «**اكتُبْ: هذَا مَا صَالَحَ عَليهِ مُحمدٌ**

رسُولُ اللهِ سُهيلَ بنَ عَمرٍو»، فقالَ سُهيلٌ: لو شَهدتُ أنَّكَ رسُولُ اللهِ لَم أُقاتِلْكَ، ولَكِن اكتُبْ اسمَكَ واسْمَ أبِيكَ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**اكتُبْ: هذَا ما صالَحَ عَليهِ مُحمدُ بنُ عَبدِ اللهِ سُهيلَ بنَ عَمرٍو، اصطَلَحَا عَلى وَضْعِ الحَربِ عنِ الناسِ عَشرَ سِنِينَ، يَأمَنُ فِيهنَّ الناسُ، ويكُفُّ بَعضُهُم عَن بَعضٍ، عَلى أنهُ مَن أتَى مُحمدًا مِن قُريشٍ بِغَيرِ إذْنِ وَليِّهِ رَدَّهُ عَليهِم، ومَن جاءَ قُريشًا ممَّن معَ مُحمدٍ لَم يَرُدُّوهُ عَليهِ، وَأنَّ بَينَنَا عَيبَةً مَكفوفَةً، وأنَّهُ لا إسْلالَ ولا إغْلالَ، وأنهُ مَن أحَبَّ أن يَدخُلَ في عَقدِ مُحمدٍ وعَهدِهِ دخَلَ فِيهِ، ومَن أحَبَّ أن يَدخُلَ فِي عَقدِ قُريشٍ وعَهدِهِم دَخَلَ فِيهِ، وأنكَ ترجِعُ عَامَكَ هذَا، فلا تدخُلُ عَلينَا مكَّةَ، وأنهُ إذَا كانَ عامُ قابلٍ خَرجنَا عَنكَ، فدخَلتَهَا بأصحَابِكَ، فأقَمْتَ فيهَا ثَلاثًا، معَكَ سِلاحُ الرَّاكِبِ، والسيوفُ فِي القُرُبِ، لا تَدخلُهَا بغَيرِهَا**»، والقُرُبُ: جرابُ السِّلاحِ الذِي يوضَعُ فيهِ السلاحُ مَغمُودًا.

فتواثَبَتْ خُزاعَةُ فقَالُوا: نَحنُ في عَقدِ مُحمدٍ ﷺ وعَهدِهِ، وتَواثَبَت بَنُو بكرٍ فقَالُوا: نحنُ في عَقدِ قُريشٍ وعَهدِهِم.

وبينَا رسولُ اللهِ ﷺ يكتُبُ الكتابَ هُو وسُهَيلُ بنُ عَمرٍو، إذ جَاءَ أبُو جندَلِ بنُ سُهيلِ بنِ عمرٍو يَرسُفُ في الحديدِ، قَد انفَلَت إلَى رسولِ اللهِ ﷺ، وقَد كانَ أصحَابُ رسولِ اللهِ ﷺ قد خرَجُوا وهُم لا يشُكُّونَ في الفَتحِ، لرُؤيَا رآهَا رسولُ اللهِ ﷺ، فلمَّا رَأَوا ما رَأَوا من الصُّلحِ والرجُوعِ، ومَا تحمَّلَ رسُولُ اللهِ ﷺ في نَفسِهِ، دخَلَ عَلى الناسِ مِن ذلكَ أمرٌ عظيمٌ حتَّى كادُوا يَهلكُونَ غَمًّا، فلمَّا رَأى سُهيلٌ أبَا جَندَلٍ قامَ إلَيهِ فضَربَ وجهَهُ، وجعَلَ يَنتُرُهُ ويَجُرُّهُ ليَرُدَّهُ إلَى قُريشٍ، وجعَلَ

أَبُو جندلٍ يصرُخُ بأعلى صَوتِهِ: يا مَعشرَ المُسلمينَ، أُرَدُّ إلَى المُشركينَ يَفتنُونَنِي فِي دِينِي؟! فزَادَ ذَلكَ الناسَ هَمًّا عَلى مَا بِهِم.

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا جَندَلٍ، اصبِرْ واحتَسِبْ، فإنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَكَ ولِمَن معَكَ مِنَ المُستَضعَفِينَ فَرَجًا ومَخرَجًا، إنَّا قَد عَقدْنَا بَينَنَا وبَينَ القَومِ صُلحًا، وأعطينَاهُم عَلى ذَلكَ وأعطَوْنَا عَهدَ اللهِ، وإنَّا لا نَغدِرُ بِهِمْ**».

فوَثَبَ عُمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه معَ أَبِي جَندلٍ يَمشِي إلى جَنبِهِ ويقولُ: اصبِرْ يَا أَبَا جَندلٍ، فإِنَّمَا هُم المُشركونَ، وإنمَا دَمُ أحدِهِم دَمُ كَلبٍ، ويُدنِي قَائمَ السَّيفِ مِنهُ.

قالَ عُمرُ رضي الله عنه: ورَجوتُ أَن يأخُذَ السيفَ فيضرِبَ أبَاهُ، لكِن شحَّ الرجُلُ بأبِيهِ، ونفَذَتِ القَضيَّةُ.

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ قد أقامَ أبنِيتَهُ فِي الحِلِّ، وكانَ يُصلِّي في الحَرَمِ.

ولمَّا عُقِدَ صُلحُ الحُديبيَةِ كانَ هذَا الصلحُ فَتحًا عَظيمًا عَلى المُسلمينَ، ومَا فُتِحَ فِي الإسلَامِ فَتحٌ قَبلَهُ كانَ أعظَمَ مِنهُ، إنمَا كانَ القتالُ قبلَ ذلكَ حيثُ التَقَى الناسُ، فلمَّا كانَتِ الهُدنَةُ، وضَعتِ الحَربُ أوزَارَهَا، وأَمِنَ الناسُ بَعضُهُم بَعضًا، والتَقَوْا فتفَاوَضُوا فِي الحَديثِ والمنَازعَةِ، واختَلطَ المُشركُونَ بالمُسلمينَ فسَمِعُوا كلامَهُم فتمَكَّنَ الإسلامُ فِي قُلوبِهِم، وأسلَمَ مِنهُم خَلقٌ كَثيرٌ، وكَثُرَ بِهِم سَوادُ الإسلامِ، ولَم يُكلَّمْ أحدٌ فِي الإسلامِ إلا دخَلَ فِيهِ، ولقَد دخلَ فِي تِلكَ السَّنتَيْنِ مثلُ مَن كانَ دخلَ في الإسلَامِ قبلَ ذَلكَ وأكثَرَ، قالَ البَراءُ بنُ مَالكٍ رضي الله عنه: تَعُدُّونَ

أنتُمُ الفَتحَ فَتحَ مَكَّةَ، وقَد كانَ فَتحُ مكَّةَ فَتْحًا، ونَحنُ نَعُدُّ الفَتحَ بَيعَةَ الرِّضوانِ يَومَ الحُدَيبيَةِ، وفي هذَا الصُّلحِ نزَلَ قَولُهُ تعَالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١].

وقَد أجرَى اللهُ عَلى يَدَي نَبيِّهِ ﷺ فِي خِضَمِّ هذِهِ الأحدَاثِ مِنَ الآيَاتِ المُبهِرَةِ، مَا كانَ سَببًا في تَثبيتِ قُلوبِهِم وزيَادَةِ يَقِينِهِم.

قالَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما: عطِشَ الناسُ يَومَ الحُدَيبيَةِ، وكانَ بَينَ يَدَي رسُولِ اللهِ ﷺ رَكوَةٌ؛ وهِي: إناءٌ صغيرٌ مِن جِلدٍ يُشرَبُ فيهِ الماءُ، فتوَضَّأَ مِنهَا، ثُم أقبَلَ الناسُ نَحوَهُ، فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا لَكُم؟**»، قالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَيسَ عِندنَا ما نَتوضَّأُ بِهِ ولَا نَشرَبُ إلَّا مَا فِي رَكوَتِكَ، فوضعَ النبيُّ ﷺ يدَهُ فِي الرَّكوَةِ، فجَعَلَ المَاءُ يَفُورُ مِن بينِ أصابِعِهِ كأمثَالِ العُيونِ، فشَرِبنَا وتَوضَّأنَا، قِيلَ لجَابرٍ رضي الله عنه: كَم كُنتُم يَومَئذٍ؟ قالَ: لَو كُنَّا مائةَ ألفٍ لكفَانَا، كنَّا خمسَ عشرَةَ مِائَةٍ.

فلمَّا فرَغَ مِن قضيَّةِ الكتَابِ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لأصحَابِهِ: «**قُومُوا فانحَرُوا ثُم احلِقُوا**»، فمَا قامَ مِنهُم رجُلٌ حتَّى قالَ ذلكَ ثَلاثَ مَراتٍ، فدخَلَ عَلى أمِّ سلمَةَ رضي الله عنها فذكَرَ لهَا مَا لقِيَ مِنَ الناسِ، فقَالَت أمُّ سلمَةَ: يَا نَبيَّ اللهِ، أتُحِبُّ ذَلكَ؟ اخرُجْ ثُم لَا تُكَلِّم أحَدًا مِنهُم كَلمَةً حتَّى تَنحَرَ بدَنَكَ، وتَدعُوَ حَالِقَكَ فيَحلِقَكَ.

فخرَجَ فَلَم يُكَلِّمْ أحَدًا مِنهُم حتَّى فعَلَ ذَلكَ، فنحَرَ بدَنَهُ، ودَعَا حَالقَهُ فحلَقَهُ، فلَمَّا رَأوا ذَلكَ قامُوا فنَحَرُوا، وجعلَ بعضُهُم يحلِقُ بَعضًا، حتَّى كادَ بَعضُهُم يَقتُلُ بَعضًا غَمًّا.

(٢١) غَزوَةُ خَيبَرَ

لما رجعَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الحُديبيَةِ مكثَ بالمَدينةِ عِشرينَ يَومًا أو قَريبًا مِن ذلكَ، ثُم خرجَ إلى حصنِ يهودِ خَيبَرَ ليَفتَحَهُ اللهُ عَليهِ، وكانَ ذلكَ في سنَةِ سَبعٍ مِنَ الهجرَةِ النبويَّةِ، قالَ اللهُ تعَالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨]، وهذَا هُو فتحُ خَيبَرَ.

فخرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ ومعَهُ أصحابُهُ إلَى خَيبَرَ، فسَارُوا ليلًا، فقَالَ رجُلٌ منَ القَومِ لعامِرِ بنِ الأَكوَعِ ﷺ: يَا عَامرُ، أَلَا تُسمِعُنَا مِن هُنيهَاتِكَ؟ وكانَ عامرٌ رجُلًا شاعِرًا، فنزلَ يحدُو بالقومِ، يقُولُ:

اللَّهُمَّ لَولَا أَنتَ مَا اهتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقنَا وَلَا صَلَّينَا

فَاغفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا اتَّقَينَا وَثَبِّتِ الأَقدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

وأَلْقِيَنْ سَكينَةً عَلَينَا إِنَّا إذَا صِيحَ بِنَا أَبَيْنَا

وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن هذَا السَّائقُ؟**»، قالُوا: عَامرُ بنُ الأَكوَعِ، قالَ: «**يَرحَمُهُ اللهُ**»، فقَالَ رجُلٌ مِنَ القَومِ: وَجَبَتْ يَا نبِيَّ اللهِ، لَولا أمتَعتَنَا بِهِ.

قالَ أنسُ بنُ مَالكٍ ﷺ: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذَا غزَا قَومًا لَم يُغِرْ عَليهِم حتَّى

يُصبِحَ، فَإِنْ سَمعَ أَذَانًا أمسَكَ، وإِن لَم يَسمَعْ أذَانًا أغَارَ، فنَزلنَا خَيبَرَ لَيلًا، فباتَ رسُولُ اللهِ ﷺ، حتَّى إذَا أصبَحَ لَم يَسمَعْ أذَانًا، فرَكِبَ ورَكِبْنَا معَهُ، ورَكِبتُ خلفَ أَبِي طَلحَةَ، وإنَّ قَدمِي لتَمسُّ قدمَ رسُولِ اللهِ ﷺ، واستَقبَلنَا عُمَّالَ خَيبرَ غادِينَ، قَد خَرجُوا بمَسَاحِيهِم ومَكاتِلِهِم، فلمَّا رَأَوْا رسُولَ اللهِ ﷺ والجَيشَ، قالُوا: مُحمدٌ والخَميسُ مَعهُ -أَيْ: الجيشُ-، فأدبَرُوا هِرَابًا رَاجعِينَ إلَى حِصنِهِم، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُ أكبَرُ، خَرِبَتْ خَيبَرُ، إنَّا إِذَا نَزلنَا بسَاحَةِ قَومٍ فَسَاءَ صَباحُ المُنذَرِينَ**».

وكانَ عَليُّ بنُ أَبِي طَالبٍ رضي الله عنه تخَلَّفَ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ في خَيبَرَ وكانَ رَمِدًا، فقالَ: أنَا أتخَلَّفُ عَن النبيِّ ﷺ؟ فلَحِقَ بهِ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ يومَ خَيبَرَ: «**لأُعطِيَنَّ هذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رجُلًا يَفتَحُ اللهُ عَلى يَدَيهِ، يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ، ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسُولُهُ**»، فبَاتَ الناسُ يَدُوكُونَ لَيلَتَهُم، أَيُّهُم يُعطَاهَا، فلمَّا أصبحَ الناسُ غَدَوْا عَلى النبيِّ ﷺ كُلُّهم يَرجُو أنْ يُعطاهَا، فقالَ: «**أينَ عَليُّ بنُ أَبِي طَالبٍ؟**»، فقَالُوا: هُو يَا رسُولَ اللهِ يَشتَكِي عَينَيْهِ، قالَ: «**فأَرسِلُوا إلَيهِ**»، فأُتِيَ بهِ، فبَصقَ رسُولُ اللهِ ﷺ في عَينَيْهِ ودَعَا لهُ، فبَرَأَ حتَّى كأَنْ لَم يَكُنْ بهِ وجَعٌ، فأعطَاهُ الرايَةَ، فقَالَ عليٌّ رضي الله عنه: يَا رسُولَ اللهِ، أُقاتِلُهُم حتَّى يَكُونُوا مِثلَنَا؟

فقالَ ﷺ: «**انفُذْ عَلى رِسلِكَ حتَّى تَنزِلَ بسَاحَتِهِم، ثُمَّ ادعُهُم إلَى الإِسلَامِ، وأَخبِرْهُم بمَا يَجِبُ عَلَيهِم مِن حَقِّ اللهِ تَعَالى فِيهِ، فَوَاللهِ لأَنْ يَهدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيرٌ لَكَ مِن أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**».

ثُم نشِبَ القتالُ، وخرجَ مَرحبٌ صاحبُ الحِصنِ قَد وضَعَ مِغفَرًا يمَانيًّا عَلَى

رأسِهِ، وهُو يَرتجِزُ ويَقُولُ:

قَـدْ عَلِمَـتْ خَيبَـرُ أَنِّـي مَـرْحَبُ ... شَـاكِ سِـلاحِي بَطَـلٌ مُجَـرَّبُ

أَطعَـنُ أَحـيَانًا وَحِيـنًا أَضْـرِبُ ... إِذَا اللُّـيُوثُ أَقـبَلَتْ تَلَهَّـبُ

فقالَ عليٌّ ﷺ:

أَنَـا الـذِي سَـمَّتْنِي أُمِّـي حَـيْدَرَهْ ... كَلَـيْثِ غَابَـاتٍ شَـدِيدِ القَـسْوَرَهْ

أَكِـيلُكُمْ بِالـصَّاعِ كَـيْلَ الـسَّنْدَرَهْ

فاختَلفَا ضَربتَيْنِ، فبدَرَهُ عليٌّ ﷺ بضربَةٍ، فَفَلَقَ مِغفَرَهُ ورَأْسَهُ، فقَتَلَهُ.

ولمَّا تَصَافَّ الناسُ، قاتَلَ عامرُ بنُ الأَكوعِ ﷺ يَهُوديًّا، وكانَ سيفُ عَامرٍ قصيرًا، فتناوَلَ بهِ ساقَ اليَهوديِّ ليَضربَهُ، فرجَعَ السيفُ إليهِ فأصابَ رُكبتَهُ فمَاتَ بسببِ ذلكَ، فتحدَّثَ الناسُ أن عَامِرًا قَتَلَ نَفسَهُ فحبِطَ عملُهُ، فاغتَمَّ سلمَةُ بنُ الأكوَعِ ﷺ لذَلكَ، فلمَّا رجَعُوا، رَآهُ رسُولُ اللهِ ﷺ عَلى تِلكَ الحالِ فأخذَ بيدِهِ وقالَ: «**مَا لَكَ؟**»، قالَ سلمَةُ: فدَاكَ أَبِي وأمِّي، زعمُوا أنَّ عامِرًا حبِطَ عملُهُ، فقَالَ النبيُّ ﷺ: «**كَذَبَ مَن قَالَهُ، إنَّ لهُ لأَجرَيْنِ** -وجمَعَ بَينَ إِصبَعَيْهِ- **إِنَّهُ لجَاهِدٌ مُجاهِدٌ، قَلَّ عَربِيٌّ مشَى بِهَا مِثلَهُ**».

وجاءَ رجلٌ منَ الأعرابِ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ فآمنَ بهِ واتَّبعَهُ، فقالَ: أُهاجِرُ معَكَ، فأوصَى بهِ النبيُّ ﷺ بعضَ أصحابِهِ، فلمَّا كانَت غَزوَةُ خَيبَرَ غَنِمَ رسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَسَمَ الغَنَائِمَ وقسَمَ لَهُ، وأَعطَى أصحَابَهُ ما قُسِمَ لَهُ، وكانَ يَرعَى ظهرَهُم، فلمَّا جاءَ دَفعُوهُ إلَيهِ، فقالَ: مَا هذَا؟ قالُوا: قَسمٌ قَسمَهُ لكَ رسولُ اللهِ ﷺ، فقالَ: مَا عَلى

هذَا اتبعتُكَ، ولكِنِّي اتبَعتُكَ عَلى أَن أُرمَى هاهُنَا بسَهْمٍ -وأشارَ إلَى حلْقِهِ- فأمُوتَ فأدخُلَ الجَنَّةَ، فقالَ: «**إن تَصدُقِ اللهَ يَصدُقْكَ**»، ثُم نَهضُوا إلَى قتالِ العدُوِّ، فأُتِي بهِ يُحمَلُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وقَد أصابَهُ سَهمٌ حيثُ أشَارَ، فقَالَ النبيُّ ﷺ: «**هُوَ هُوَ؟**»، قالُوا: نَعَم، قالَ: «**صدَقَ اللهَ فصَدَقَهُ**»، وكفَّنَهُ النَّبيُّ ﷺ في جُبَّتِهِ، ثُم قدَّمَهُ فصَلَّى عَليهِ، ودعَا لهُ رضي الله عنه، وقالَ: «**اللَّهُمَّ هذَا عَبدُكَ خرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبيلِكَ، قُتِلَ شَهِيدًا، أَنَا عَلَيهِ شَهِيدٌ**».

ثُم فتَحَ اللهُ خَيبَرَ علَى رسولِهِ ﷺ وأصحَابِهِ، فخرَجَ أهلُهَا يَسعَوْنَ فَزِعِينَ في السِّكَكِ، فقتَلَ النبيُّ ﷺ المُقاتلَةَ، وسبَى الذريَّةَ.

ولمَّا حاصَرَ الصحابَةُ خَيبَرَ، كانَ قَد أصَابَهُم بِسَبَبِ طُولِ حصارِهَا جوعٌ شديدٌ، فلمَّا فتحَ اللهُ عَليهِم، وأَمسَى الناسُ مساءَ اليَومِ الذِي فُتِحَت عَلَيهِم، أَوقَدُوا نِيرَانًا كثيرَةً، فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا هذِهِ النِّيرَانُ؟ عَلى أَيِّ شَيءٍ تُوقِدُونَ؟**»، قالُوا: عَلَى لَحمٍ، قالَ: «**عَلى أَيِّ لَحمٍ؟**»، قالُوا: لَحمُ الحُمُرِ الإنسِيَّةِ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**أَهرِيقُوهَا واكسِرُوهَا**»، فقَالَ رجُلٌ: يَا رسُولَ اللهِ، أَوْ نُهرِيقُهَا ونَغسِلُهَا؟ فقالَ: «**أَو ذَاكَ**»، ومِن هاهُنَا حَرُمَ أكلُ لُحومِ الحُمُرِ الإنسِيَّةِ.

ولمَّا جاءَ السَّبْيُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، كانَ فِيهِم صفيَّةُ بنتُ حُيَيِّ بنِ أَخطَبَ رضي الله عنها، بِنتُ سيِّدِ قومِهَا، وكَانَت صَفيَّةُ قَد تزوَّجهَا بعضُ بنِي عمِّهَا، فلمَّا زُفَّت إليهِ وأُدخِلَتْ عَليهِ بنَى بِهَا، ومَضَى عَلى ذلكَ ليَالٍ، فرَأتْ في مَنامِهَا كأنَّ قمَرَ السَّماءِ قَد سقَطَ في حِجرِهَا، فقصَّتْ رُؤيَاهَا عَلى ابنِ عمِّها، فلطَمَ وَجهَهَا، وقالَ: أتتَمَنِّينَ مَلِكَ يَثربَ أَن يَصيرَ بَعلَكِ، فمَا كانَ إلَّا مَجيءُ رسولِ اللهِ ﷺ وحِصَارُهُ

إيَّاهُم، فكَانَت صَفيَّةُ فِي جُملَةِ السَّبي، وكانَ زَوجُهَا فِي جُملَةِ القَتلَى.

ولمَّا جُمِعَ السَّبيُ بخَيبَرَ جاءَ دِحيَةُ الكَلبيُّ ﵁ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ فقَالَ: يَا رسُولَ اللهِ، أعطِنِي جاريَةً منَ السَّبي، قالَ: «**اذهَبْ فخُذْ جَاريَةً**»، فأخَذَ صفِيَّةَ بِنتَ حُييٍّ ﵂، فجَاءَ رجلٌ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ فقالَ: يا نبيَّ اللهِ، أَعطيتَ دِحيَةَ صَفيَّةَ بنتَ حُييٍّ سيدَةَ قُريظَةَ والنَّضيرِ؟ مَا تصلُحُ إلَّا لكَ، وذكَرَ لهُ مِن جمَالِهَا، قالَ: «**ادْعُ بِهَا**»، فلَمَّا نظَرَ إلَيهَا النبيُّ ﷺ قالَ لِدِحْيَةَ: «**خُذْ جَاريَةً مِن السَّبي غيرَهَا**»، فاصطفَاهَا النبيُّ ﷺ لنَفسِهِ، فأعتقَهَا وتَزوَّجهَا، وجعلَ عِتقَهَا صداقَهَا، ثم بنَى بِها، وصنعَ حَيسًا فِي إناءٍ ودَعَا مَن حولَهُ، فكانَت تِلكَ وليمتَهُ عَلى صفيَّةَ، ثم خرجَ إلَى المدينَةِ فكانَ ﷺ يستُرُهَا عَلى بَعيرِهِ بعبَاءَةٍ، ثُم يجلسُ عندَ بَعيرِهِ فيَضعُ رُكبتَهُ وتضَعُ صَفيَّةُ رِجْلَهَا عَلى رُكبتِهِ حتَّى تَركَبَ.

ولمَّا فتحَ رسُولُ اللهِ ﷺ خيبَرَ، بَعثَ أهلُهَا إلَيهِ يَطلبُونَهُ أَن يَحقِنَ دِماءَهُم، وأَن يُبقِيَهُم ليَعمَلُوا فِي زُروعِهِم ونَخيلِهِم، وقالُوا: يَا مُحمدُ، دَعْنَا نَكونُ فِي هذِهِ الأرضِ نُصلِحُها ونقومُ عَليها، فنحنُ أعلَمُ بِهَا مِنكُم، وأعمَرُ لَهَا، ولَم يَكُن لرَسولِ الله ﷺ ولا لأصحابِهِ غِلمانٌ يقُومونَ علَيهَا أو يَفرغُونَ لهَا، فصَالَحَهُم رسولُ اللهِ ﷺ عَلى أَن يعمَلُوا بِها مِن أموالِهِم ويَكُونَ لَهُم نصفُ ما يخرجُ مِنَ الأرضِ، وقالَ: «**نُقِرُّكُم فِيهَا مَا شِئنَا عَلى أَنَّا إِذَا شِئنَا أَن نُخرِجَكُم أَخرَجْنَاكُم**».

وكانَ يبعثُ عَليهِم عبدَ الله بن رواحَةَ ﵁، يَخرُصُهَا عَليهِم عِندَ استوَاءِ ثِمارِهَا، ثُم يُضَمِّنُهُم إيَّاهُ.

ولمَّا رجعَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المَدينةِ من فَتحِ خَيبَرَ، وافقَ ذَلكَ قُدومَ جَعفرِ ابنِ أَبِي طالبٍ ﷺ ومَن هاجَرَ مَعهُ إلَى الحَبشَةِ -رَضِيَ اللهُ عَنهُم أجمَعينَ-.

وكانَ أناسٌ منَ الناسِ يقُولُونَ للمُهاجرينَ إلى أرضِ الحبشَةِ: سبقنَاكُم بالهِجرَةِ، ولقِيَ أحدُ المهاجرينَ معَ النبيِّ ﷺ إلى المَدينَةِ أسمَاءَ بِنتَ عُمَيسٍ ﵂ وهيَ ممَّن هاجَرَت إلَى النجاشيِّ فِي أرضِ الحبشَةِ، فقَالَ لهَا: سبقنَاكُم بالهجرَةِ، فنحنُ أحقُّ برسولِ اللهِ ﷺ منكُم، فغضِبَتْ وقالَت: كَلَّا واللهِ، كُنتُم معَ رسُولِ اللهِ ﷺ يُطعِمُ جائِعَكُم، ويَعظُ جَاهِلَكُم، وكنَّا فِي أرضِ البُعداءِ والبُغضَاءِ بِالحبشَةِ، وذلكَ فِي اللهِ وفِي رسولِ اللهِ ﷺ، وايمُ اللهِ لَا أطعمُ طعَامًا ولا أشرَبُ شَرابًا حتَّى أذكُرَ ما قُلتَ للنبيِّ ﷺ وأسأَلَهُ، وواللهِ لا أكذِبُ ولا أَزيغُ ولَا أَزِيدُ عَليهِ.

فلمَّا جاءَ النبيُّ ﷺ قالَت: يَا نبيَّ اللهِ، إن فُلانًا قالَ كذَا وكذَا، قالَ: «**فمَا قُلتِ لَهُ؟**»، قالَت: قُلتُ كذَا وكذَا، قالَ: «**لَيسَ بِأَحقَّ بِي مِنكُم، وَلَهُ ولأَصحَابِهِ هِجرَةٌ وَاحِدَةٌ، ولَكُم أنتُم أَهلَ السَّفينَةِ هِجرَتَانِ**»، وقَد كانُوا هاجَرُوا إلى الحَبشَةِ عَلى ظهرِ سَفينَةٍ.

قالَت أسمَاءُ ﵂: فلقَد رَأيتُ أبَا مُوسى الأشعريَّ ﷺ وأصحابَ السفينَةِ يأتُونِي أرسَالًا يسألُونِي عن هذَا الحَديثِ، فمَا منَ الدنيَا شيءٌ هُم بِهِ أفرَحُ ولَا أعظَمُ فِي أنفُسِهِم ممَّا قالَ لَهُم النبيُّ ﷺ.

ولمَّا قدِمَ جَعفرُ بنُ أَبِي طَالبٍ ﷺ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ يومَ خَيبَرَ، قَبَّلَ رسولُ اللهِ ﷺ بينَ عَينَيهِ والتزَمَهُ، وقالَ: «**مَا أَدرِي بِأَيِّهِمَا أَنَا أُسَرُّ، بِفَتحِ خَيبَرَ أَم بِقُدُومِ جَعفَرٍ؟**».

ولمَّا فُتِحَت خيبَرُ أُهدِيَت للنبيِّ ﷺ شاةٌ فيهَا سُمٌّ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**اجمَعُوا لِي مَن كانَ هَاهُنا منَ اليَهودِ**»، فجُمِعُوا لهُ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**إنِّي سَائلُكُم عَن شَيءٍ، فهَلْ أنتُم صَادِقِيَّ عَنهُ؟**»، قالُوا: نعَم يَا أبَا القاسِمِ، فقالَ لَهُم رسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن أبُوكُم؟**»، قالُوا: أبُونَا فُلانٌ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**كذَبتُم، بَل أبُوكُم فُلانٌ**»، قالُوا: صَدقْتَ وبَررْتَ، فقَالَ: «**هَل أنتُم صَادِقِيَّ عَن شَيءٍ إن سَألتُكُم عَنهُ؟**» قالُوا: نَعَم يَا أبَا القاسِمِ، وإنْ كَذَبنَاكَ عَرفتَ كَذِبَنَا، كمَا عرفتَهُ في أبِينَا، فقالَ: «**هَل جَعلتُم فِي هذهِ الشَّاةِ سُمًّا؟**»، فقالُوا: نَعَم، قالَ: «**مَا حمَلَكُم عَلى ذَلكَ؟**»، قالُوا: أرَدنَا إن كُنتَ كَاذِبًا أنْ نَستَريحَ مِنكَ، وإن كُنتَ نبيًّا لم يَضُرَّكْ.

ولمَّا افتتَحَ رسُولُ اللهِ ﷺ خيبَرَ، قالَ الحجَّاجُ بنُ عِلاطٍ: يا رسُولَ اللهِ، إن لي بمَكَّةَ مالًا، وإنَّ لي بِهَا أهلًا، وإنِّي أريدُ أن آتِيَهُم، أفأَنَا في حِلٍّ إن أنَا نِلتُ مِنكَ أَو قُلتُ شَيئًا؟ فأذِنَ لهُ رسُولُ اللهِ ﷺ أن يقُولَ ما شَاءَ، فأتَى امرأتَهُ حينَ قدِمَ فقالَ: اجمَعِي لِي مَا كانَ عندَكِ، فإنِّي أريدُ أن أشتَرِيَ مِن غنائِمِ مُحمدٍ وأصحَابِهِ، فإنَّهُم قَد استُبِيحُوا وأُصِيبَتْ أموالُهُم، وفشَا ذلكَ بمكَّةَ، فانقَمعَ المُسلمونَ وأَظهَرَ المُشركونَ فَرَحًا وسُرورًا.

وبلَغَ الخَبَرُ إلى العبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلبِ ﷺ فعُقِرَ وجَعلَ لا يَستطِيعُ أَن يقُومَ، ثُم أخذَ ابنًا لهُ يُقالُ لَهُ: قُثَمٌ، واستلقَى ووضعَهُ عَلى صَدرِهِ وهُوَ يَقُولُ:

حَيِّ قُثَمْ حَيِّ قُثَمْ ... شَبِيهُ ذِي الأَنْفِ الأَشَمْ
نَبِيِّ ذِي النِّعَمْ ... بِرَغْمِ مَنْ زَعَمْ

ثُم أرسلَ غُلامًا لهُ إلى الحجاجِ بن عِلاطٍ، فقالَ: وَيلكَ، ما جئتَ بهِ ومَاذَا

تقولُ؟! فما وَعدَ اللهُ خَيرٌ ممَّا جِئتَ بهِ، فقالَ الحجَّاجُ بنُ عِلاطٍ لغُلامِهِ: أقرِئ أَبَا الفَضلِ السَّلامَ وقُلْ لَهُ: فليَخْلُ لِي فِي بَعضِ بُيوتِهِ لآتِيَهُ فإنَّ الخبرَ عَلى مَا يَسُرُّهُ.

فجاءَ غُلامُ العبَّاسِ إليهِ، فلمَّا بلغَ بابَ الدَّارِ قالَ: أبشِرْ يَا أَبَا الفَضلِ، فوثَبَ العباسُ ﷺ فَرِحًا حتَّى قَبَّلَ مَا بينَ عَينَيْهِ، فأخبَرَهُ ما قالَ الحجَّاجُ فأعتقَهُ، ثُم جاءَهُ الحجاجُ فأخبَرَهُ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قَدِ افتتَحَ خَيبرَ وغنِمَ أموالَهُم، وجرَتْ سِهَامُ اللهِ فِي أموالِهِم، واصطَفَى رسولُ اللهِ ﷺ صفيَّةَ بِنتَ حُييٍّ واتخَذَهَا لنَفسِهِ، وخَيَّرَهَا أَن يُعتِقَهَا وتَكونَ لهُ زوجَةً أَو تَلحَقَ بِأهلِهَا، فاختَارَتْ أَن يُعتِقَهَا وتكونَ لهُ زَوجَةً، ولكِنِّي جِئتُ لمالٍ كانَ لِي هاهُنا أَردتُ أن أجمعَهُ فأذهبَ بِهِ، فاستَأذَنْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، فأذِنَ لي أَنْ أقولَ مَا شئتُ، فأخْفِ عَليَّ ثَلاثًا، ثُم اذكُرْ مَا بدَا لَكَ.

فجمَعَتِ امرأَتُهُ مَا كانَ عِندَهَا مِن حُليٍّ ومتَاعٍ ودَفعَتْهُ إلَيهِ، ثُم ذَهَبَ بهِ، فلَمَّا كانَ بعدَ ثَلاثٍ أَتَى العبَّاسُ امرَأةَ الحجَّاجِ، فقَالَ: ما فعَلَ زَوجُكِ؟ فأخبَرَتْهُ أنهُ ذهبَ يَومَ كذَا وكذَا، وقالَتْ: لا يُحزِنْكَ اللهُ يَا أَبَا الفَضلِ، لقَد شقَّ عَلينَا الذِي بلغَكَ، قالَ: أَجَلْ، لا يُحزِنُنِي اللهُ ولَم يَكُن بحَمدِ اللهِ إلَّا مَا أحبَبْنَا، فتحَ اللهُ خَيبَرَ عَلى رسولِهِ، وجَرَتْ فيهَا سهَامُ اللهِ، واصطَفَى رسولُ اللهِ ﷺ صفيَّةَ لنَفسِهِ، فإنْ كانَت لكِ حَاجةٌ فِي زَوجِكِ فالحَقِي بهِ، قالَتْ: أظنُّكَ وَاللهِ صَادِقًا، قالَ: فإنِّي صادِقٌ، والأمرُ عَلى مَا أخبَرْتُكِ.

ثُم ذهبَ حتَّى أَتَى مجالسَ قريشٍ، وهُم يقولُونَ إذَا مَرَّ بِهِم: لَا يُصيبُكَ إلَّا خَيرٌ يَا أَبَا الفَضلِ، فقالَ: لم يُصبنِي إلا خَيرٌ بِحمدِ اللهِ، أخبَرَنِي الحجَّاجُ بنُ عِلاطٍ أنَّ خيبرَ فتَحَهَا اللهُ على رسُولِهِ، وجَرَتْ فيهَا سهَامُ اللهِ، واصطَفَى رسولُ اللهِ ﷺ

صفيَّةَ لنفسِهِ، وقَد سألَنِي أَن أُخفِيَ عَليهِ ثَلاثًا، وإنَّما جاءَ ليَأخُذَ مَالَهُ ومَا كانَ لهُ مِن شَيءٍ هَاهُنَا ثُم يَذهَبَ.

فرَدَّ اللهُ الكآبَةَ التِي كانَت بِالمُسلمينَ عَلى المشركِينَ، وخرجَ المُسلمونَ ومَن كانَ دخَلَ بَيتَهُ مُكتئبًا حتَّى أتَى إلى العبَّاسِ ﵁، فأخبرَهُمُ الخَبَرَ، فسُرَّ المسلمُونَ، ورُدَّ ما كانَ مِن كآبَةٍ أو غَيظٍ أو حُزنٍ عَلى المُشركِينَ.



(٢٢) عُمرَةُ القَضَاءِ، وغَزوَةُ مُؤتَةَ

لمَّا مُنِعَ رسُولُ اللهِ ﷺ منَ العُمرَةِ عامَ الحُديبيَةِ، اصطَلَحَ مَعهُم عَلى أن يَرجِعَ عنهُم عَامَهُ هذَا، ثُم يَأتِي في العامِ القَابِلِ، ولا يَدخلُ مكَّةَ إلَّا في جِرَابِ السلاحِ الذِي يوضَعُ فيهِ السلاحُ مَغمُودًا، وألَّا يُقيمَ أكثَرَ مِن ثلاثَةِ أيَّامٍ.

فلمَّا رجعَ رسولُ اللهِ ﷺ مِن خيبَرَ إلَى المَدينَةِ، أقامَ بِها شُهُورًا وهُو يَبعثُ سَراياهُ، حتَّى إذَا كانَ ذُو القِعدَةِ سنَةَ سَبعٍ منَ الهِجرةِ خرَجَ مُعتَمرًا عُمرةَ القضَاءِ، مكانَ عُمرتِهِ التِي صدَّهُ عنهَا المُشركونَ.

فنادَى في الناسِ أن يتجَهَّزُوا للعُمرَةِ فتجَهَّزُوا، وخرَجَ معهُ المُسلمونَ الذِينَ صُدُّوا عنِ الحرَمِ في عُمرتِهِ تِلكَ، وتحدَّثَت قُريشٌ بَينَهَا أنَّ مُحمدًا وأصحابَهُ في عُسرَةٍ وجَهدٍ وشدَّةٍ، وأنَّهم سيَقدمُونَ عَليكُم قَد وَهَنَتْهُم حُمَّى يَثرِبَ.

وسارَ رسولُ اللهِ ﷺ وهو يُلَبِّي، ويُلَبِّي معَهُ المُسلمونَ، ومضَى مُحمدُ بنُ مَسلمَةَ ﷺ بالخَيلِ إلَى مَوقعٍ قريبٍ من مكةَ، فوجدَ نَفرًا من قريشٍ، فسألوهُ عن هَذا، فقالَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سيُصبحُ في هذَا المَنزلِ غدًا إن شَاءَ اللهُ، ورَأوا سِلاحًا كثيرًا، فخرجُوا سِراعًا حتى أتَوْا قريشًا، فأخبَرُوهُم بالذِي رَأوا منَ السلاحِ والخَيلِ، ففَزِعَتْ قريشٌ وقالُوا: واللهِ مَا أحدَثْنا حَدثًا، وإنَّا عَلى كتَابِنا

وهُدنَتِنَا، ففِيمَ يَغزُونَا محمدٌ في أصحابِهِ؟

ونزَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ في المَوقعِ الذِي سَبقَهُ إليهِ مُحمدُ بنُ مَسلمَةَ، وبعثَ رسُولُ اللهِ ﷺ بينَ يَديْهِ جعفَرَ بنَ أبِي طَالِبٍ رضي الله عنه إلى مَيمونَةَ بنتِ الحارِثِ رضي الله عنها فخطَبَهَا لهُ، وجَعلَت أمرَهَا إلَى العبَّاسِ رضي الله عنه، وكانَ تَحتَهُ أختُهَا أمُّ الفَضلِ بنتُ الحَارثِ، فزَوَّجَها العباسُ لرَسُولِ اللهِ ﷺ.

ثم تقَدَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ، فبعثَتْ قُريشٌ إلَيهِ نَفَرًا حتَّى لَقُوهُ ببَطنِ يأجَجَ، ورسُولُ اللهِ ﷺ في أصحابِهِ والهَدْيِ والسِّلاحِ، فقَالُوا: يَا مُحمدُ، مَا عُرِفتَ صغيرًا ولا كَبيرًا بالغَدرِ، تدخُلُ بالسلاحِ فِي الحرَمِ عَلى قَومِكَ، وقَد شَرطْتَ لهُم ألا تدخُلَ إلا بسِلاحِ المُسافرِ، والسيُوفُ في القُرُبِ؟!

فقالَ النبيُّ ﷺ: «**إنِّي لا أُدخِلُ عَليهِمُ السِّلاحَ**»، فقَالُوا: هذَا الذِي تُعرَفُ بهِ، البِرُّ والوفَاءُ.

فَرَجَعَ النَّفَرُ سَريعًا إلى أَصحَابِهِم بمَكَّةَ فَقَالُوا: إن مُحمدًا لا يدخُلُ بسِلاحٍ، وهو عَلى الشرطِ الذِي شرَطَ لَكُم.

فلمَّا اقترَبَ رسولُ اللهِ ﷺ من مكَّةَ، وضَعَ السلاحَ كُلَّهُ، ودخَلُوا بسِلاحِ الرَّاكبِ.

ولمَّا دخلَ رسُولُ اللهِ ﷺ إلَى البَيتِ أمرَ أصحابَهُ إذَا شرَعُوا فِي الطوافِ أن يكشِفُوا عنِ المنَاكِبِ، وأن يَسعَوا في طوَافِهِم، ليَرى المُشركُونَ جلدَهُم وقُوَّتَهُم، وكانَ يُكايدُهُم بكُلِّ مَا استطَاعَ، فوقَفَ أهلُ مكَّةَ؛ الرجَالُ والنسَاءُ والصبيَانُ، يَنظرُونَ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، وهُم يطوفُونَ بالبَيتِ.

وتغيَّبَ رجَالٌ مِن أشرافِ المُشركينَ لئلَّا ينظُرُوا إلَى رسولِ اللهِ ﷺ، غَيظًا وحسَدًا، وخرَجُوا من مكةَ إلى رُؤوسِ الجبَالِ، وقالُوا: لَا نَنظرُ إليهِ ولَا إلَى أصحَابِه.

فأقامَ رسُولُ اللهِ ﷺ بمكَّةَ ثَلاثَ ليَالٍ، ثُم طلَبُوا منهُ أن يَخرُجَ، فخرَجَ، فتبِعَتْهُ ابنَةُ حمزَةَ تنادِي: يَا عمِّ، يا عَمِّ، فتنَاوَلَهَا عليٌّ فأخذَ بِيدِها، وقالَ لفاطِمَةَ: دُونَكِ ابنَةَ عمكِ، فحمَلَتْهَا، فاختَصَمَ فيهَا عليٌّ وزَيدٌ وجعفَرٌ رضي الله عنهم، فقالَ عليٌّ: أنَا أخَذتُهَا وهي ابنةُ عمِّي، وقال جَعفرٌ: ابنَةُ عمِّي وخالَتُها تَحتِي، وقالَ زَيدٌ: ابنَةُ أخِي، وكانَ النبيُّ ﷺ قَد آخَى بينَهُما حينَ آخَى بينَ المُهاجِرينَ، فقضَى بهَا النبيُّ ﷺ لخَالتِهَا وقَالَ: «**الخَالَةُ بمَنزلَةِ الأُمِّ**»، وقالَ لعليٍّ: «**أنتَ منِّي وأَنَا مِنكَ**»، وقالَ لجَعفرٍ: «**أَشبَهْتَ خَلْقِي وخُلُقِي**»، وقالَ لزَيدٍ: «**أَنتَ أخُونَا ومَولَانَا**»، فقَالَ عليٌّ: أَلَا تَتزوجُ ابنَةَ حَمزَةَ؟ قالَ: إنهَا ابنَةُ أخِي منَ الرضَاعَةِ.

فلمَّا أصبَحَ رسُولُ اللهِ ﷺ في اليومِ الرَّابعِ أمرَ أبَا رافعٍ فأذَّنَ بالرحِيلِ، وركِبَ رسولُ اللهِ ﷺ حتى بلَغَ بَطنَ سَرِفٍ، وخلَّفَ أبَا رَافعٍ ليحمِلَ مَيمونَةَ، وأقامَ ﷺ بسَرفٍ حتى قَدمَت علَيهِ مَيمونَةُ، وقَد لقِيَت مَيمونَةُ ومَن معهَا عناءً وأذًى مِن سفهَاءِ المشرِكينَ وصبيَانِهِم، فقَدِمَت عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ بسَرِفٍ فبنَى بهَا، ثُم أدلَجَ فسَارَ حتَّى قدِمَ المَدينَةَ.

وأنزَلَ اللهُ فِي هذِهِ العُمرَةِ قَولَهُ تعَالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:٢٧]، يَعني: فَتحَ خَيبرَ.

ولمَّا دخَلت سنَةُ ثمَانٍ مِن الهجرَةِ النبويَّةِ، هاجَرَ عمرُو بنُ العاصِ، وخالدُ ابنُ الوليدِ، وعثمانُ بنُ طلحةَ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ وأسلَمُوا بينَ يَديهِ، وقَد ذكرَ عمرُو بنُ العاصِ وخالدُ بنُ الوليدِ قصةَ إسلامِهم ومَا وَفَّقهُمُ اللهُ إليهِ منَ الخَيرِ.

قالَ عمرُو بنُ العاصِ ﵁: كُنتُ للإسلَامِ مُجَانِبًا مُعاندًا، حضَرتُ بَدرًا معَ المُشركينَ فنَجوتُ، ثُم حَضرتُ أُحُدًا فنَجوتُ، ثمَّ حضَرتُ الخَندقَ فنجَوتُ، فقُلتُ في نَفسِي: كَم أحسَرُ، وكُنتُ أرَى أن لَو أسلَمَت قريشٌ كُلُّها لَم أُسلِمْ، فشَرَحَ اللهُ صدرِي للإسلَامِ، فاشتَريتُ بَعيرًا، وخَرجتُ أُريدُ المَدينَةَ، حتَّى إذَا كنتُ ببَعضِ الطريقِ، فإذَا رجُلانِ قَد سَبقانِي بغَيرِ كَثيرٍ يُريدانِ مَنزِلًا، أحدُهُما داخِلٌ في الخَيمَةِ، والآخرُ يُمسِكُ الرَّاحلَتَيْنِ، فنظَرتُ فإذَا خالدُ بنُ الوَليدِ، فقُلتُ: أينَ تُريدُ؟ قالَ: أُريدُ مُحمدًا، دخلَ الناسُ في الإسلَامِ، فلَم يَبقَ أحدٌ بهِ طَعْمٌ، واللهِ لَو أقمتُ لأخذَ برِقابِنَا كمَا يُؤخذُ برَقبَةِ الضَّبعِ في مغَارتِهَا، فقُلتُ: وأنَا واللهِ قَد أَردتُ مُحمدًا، وأرَدتُ الإسلامَ.

فخرجَ عثمانُ بنُ طلحَةَ فرَحَّبَ بِي، فنزَلنَا جَميعًا في المَنزلِ، ثُم تَرافَقنَا حتَّى أتَينَا المدينَةَ، فمَا أَنسَى قَولَ رجلٍ لقِيناهُ ببِئرِ أبِي عنبَةَ يَصيحُ: يا ربَاحُ، يا رَباحُ، يا رَباحُ، فتفَاءلنَا بقَولِهِ وسُرِرْنَا، ثُم نظرَ إلينَا فَأسمعُهُ يقُولُ: قَد أَعطَتْ مكةُ المقَادةَ بعدَ هَذينِ، فظنَنتُ أنهُ يَعنينِي ويَعنِي خالدَ بنَ الوليدِ، ثُم ولَّى مُدبِرًا سَريعًا، فظنَنتُ أنهُ بَشَّرَ رسولَ اللهِ ﷺ بقُدومنَا، فكانَ كمَا ظَننتُ.

قالَ خالدُ بنُ الوليدِ ﵁: لمَّا أرادَ اللهُ بِي مَا أرادَ مِن الخَيرِ، قذَفَ في قَلبِي الإسلَامَ، وحضرَنِي رُشدِي، فقُلتُ: قَد شَهدتُ هذِهِ المَواطنَ كُلَّهَا عَلى مُحمدٍ ﷺ،

فليسَ فِي مَوطنٍ أشهدُهُ إلا أنصرِفُ وأنَا أرَى في نَفسِي أنِّي مُوغِلٌ فِي غيرِ شَيءٍ، وأنَّ محمدًا سيظهَرُ، فقُلتُ في نَفسِي: أيُّ شيءٍ بَقِيَ؟ أينَ المَذهبُ؟

فأنَا في ذلكَ إذ دخَلَ رسولُ اللهِ ﷺ مكةَ في عُمرةِ القضيَّةِ، فتَغيبتُ ولَم أشهَدْ دخولَهُ، وكانَ أخِي الوَليدُ بنُ الوليدِ قَد دخَلَ معَ النبيِّ ﷺ في عُمرةِ القَضيةِ، فطلبَنِي فلَم يَجدْنِي، فكتَبَ إليَّ كِتابًا، فإذَا فيهِ: بِسمِ اللهِ الرحمَنِ الرَّحيمِ، أمَّا بعدُ، فإنِّي لَم أرَ أعجبَ مِن ذهابِ رَأيكَ عنِ الإسلَامِ، وعَقلُكَ عَقلُكَ! ومِثلُ الإسلامِ جَهِلَهُ أحَدٌ؟!

وقَد سَألنِي رسُولُ اللهِ ﷺ عنكَ، وقالَ: «**أَينَ خَالدٌ؟**»، فقُلتُ: يأتِي اللهُ بهِ، فقالَ: «**مَا مِثلُهُ جَهلَ الإسلَامَ، ولَو كانَ جعَلَ نِكايَتَهُ مَعَ المُسلِمينَ كانَ خَيرًا لَهُ**»، فاستَدْرِكْ يا أخِي مَا قَد فاتَكَ، فقَد فاتَكَ مواطِنُ صالِحَةٌ.

فلمَّا جاءنِي كتَابُهُ نشِطتُ للخُروجِ، وزَادنِي رغبَةً فِي الإسلامِ، وسَرَّنِي سؤالُ رسُولِ اللهِ ﷺ عنِّي، فأجمَعتُ الخُروجَ إلَيهِ.

قالَ عمرُو بنُ العاصِ رضي الله عنه: فأنَخنَا بالحَرَّةِ، فلبِسنَا مِن صالِحِ ثِيابِنَا، ثُم نُودِي بالعَصرِ، فانطَلَقنَا حتى اطَّلَعنَا عَليهِ وإنَّ لوَجهِهِ تَهَلُّلًا، والمُسلمونَ حولَهُ قد سُرُّوا بإِسلامِنَا، فتقَدَّمَ خالدُ بنُ الولِيدِ فبايعَ، ثُم تقدَّمَ عثمانُ بنُ طلحةَ فبَايعَ، ثُم تقدَّمتُ، فوَاللهِ ما هُو إلا أن جَلستُ بينَ يدَيهِ، فمَا استطَعتُ أن أرفَعَ طَرفِي إلَيهِ حيَاءً منهُ.

فبايَعتُهُ علَى أن يُغفَرَ لِي مَا تقَدَّمَ مِن ذَنبِي، ولَم يَحضُرنِي مَا تَأخَّرَ، فقالَ: «**إنَّ الإسلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبلَهُ، والهِجرَةُ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبلَهَا**»، فَواللهِ مَا عَدلَ بِي

رسُولُ اللهِ ﷺ وبخَالدِ بنِ الوَليدِ أحَدًا من أصحَابِهِ فِي أمرٍ حزَبَهُ مُنذُ أَسلَمْنَا.

وفي هذَا العامِ -الثامنِ منَ الهِجرَةِ- بعثَ رسولُ اللهِ ﷺ لغَزوةِ مُؤتَةَ بالشَّامِ، واستعمَلَ عَليهِم زَيدَ بنَ حَارثَةَ ﵁ وقَالَ: «**إِن أُصِيبَ زَيدٌ فجَعفَرُ بنُ أَبِي طَالبٍ عَلى النَّاسِ، فَإِنْ أُصِيبَ جعفَرٌ فعَبدُ اللهِ بنُ رَوَاحَةَ عَلَى النَّاسِ**»، فتَجهَّزَ النَّاسُ ثُمَّ تَهَيَّأوا للخُروجِ، وهُم ثلاثَةُ آلَافٍ.

فلمَّا حانَ خُروجُهُم، ودَّعَ النَاسُ أمرَاءَ رسُولِ اللهِ ﷺ وسَلَّمُوا عَلَيهِم، فلمَّا ودَّعُوا عبدَ الله بن رَواحَةَ بكَى، فقالُوا: مَا يُبكِيكَ يَا ابنَ رواحَةَ؟ فقالَ: أمَا واللهِ مَا بِي حُبُّ الدنيَا، ولكنِّي سَمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقرأُ آيةً مِن كتابِ اللهِ يذكُرُ فيهَا النارَ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١]، فلستُ أدرِي كيفَ لِي بالصَّدَرِ بعدَ الورُودِ؟ فقَالَ المُسلمونَ: صحِبَكُم اللهُ ودفَعَ عَنكُم، وردَّكُم إلينَا صالِحِينَ.

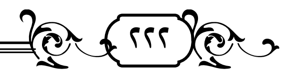
فقالَ عبدُ الله بنُ رَواحَةَ ﵁:

لَكنَّنِــي أَســأَلُ الــرَّحمَنَ مَغفِــرَةً ... وضَــربَةً ذَاتَ فَـرْغٍ تَقـذِفُ الـزَّبَدَا

أَو طَعــنَةً بِــيَدَيْ حَــرَّانَ مُجهِــزَةً ... بِحَــرْبَةٍ تَــنْفُذُ الأَحْـشَاءَ وَالكَـبِدَا

حَتَّـى يُقَـالَ إِذَا مَـرُّوا عَلَـى جَدَثِـي ... أَرشَـدَهُ اللهُ مِـنْ غَـازٍ وَقَـدْ رَشَـدَا

ثم مضوا حتى نزَلُوا معَانَ مِن أرضِ الشامِ، فبلَغَ الناسَ أنَّ هِرقلَ قَد نزلَ مَآبَ مِن أرضِ البَلقاءِ فِي مائَةِ ألفٍ مِنَ الرُّومِ، وانضَمَّ إلَيهِ مِائةُ ألفٍ مِن غيرِهَا، فاستقَرَّ عدَدُهُم عَلى مِائَتَي أَلفِ مُقاتِلٍ.



فلمَّا بلغَ ذلكَ المُسلمينَ أقَامُوا عَلى معَانَ ليلَتَيْنِ يَنظُرونَ في أمرِهِم، وقالُوا: نكتُبُ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ نُخبِرُهُ بعدِدِ عدوِّنَا، فإمَّا أن يُمِدَّنَا بالرجَالِ، وإمَّا أن يأمُرَنَا بأمرِهِ فنَمضِي لهُ.

فقامَ عبدُ اللهِ بنُ روَاحَةَ ﷺ فشجَّعَ النَّاسَ وقالَ: يَا قَومِ، واللهِ إنَّ التِي تكرهُونَ لَلَّتِي خَرجتُم تَطلُبونَها، الشهَادَةُ، وما نقاتِلُ الناسَ بعدَدٍ ولا قوَّةٍ ولا كثرَةٍ، مَا نُقاتِلُهُم إلا بِهذَا الدِّينِ الذِي أكرَمَنَا اللهُ بهِ، فانطلِقُوا فإنَّمَا هيَ إحدَى الحُسنيَيْنِ، إمَّا ظهُورٌ وإمَّا شهادَةٌ، فقَالَ الناسُ: قَد صدَقَ واللهِ ابنُ روَاحَةَ.

فمضَى الناسُ، فالتَقَوْا معَ عَدُوِّهم فاقتَتَلُوا، فقاتَلَ زيدُ بنُ حارِثَةَ ﷺ برَايةِ رسُولِ اللهِ ﷺ حتَّى سقطَ في رمَاحِ القَومِ، ثُمَّ أخذَهَا جَعفرٌ ﷺ، فاقتَحَمَ عَن فَرسٍ لهُ شَقراءَ ثُمَّ عقَرَهَا، ثُمَّ قَاتَلَ القومَ حتَّى قُتِلَ.

وقَد أخذَ جعفَرٌ الرايَةَ بيَمِينِهِ فقُطِعَتْ، فأخذَهَا بشِمالِهِ فقُطِعَتْ، فاحتَضَنَهَا بعضُدَيْهِ، حتى قُتلَ وهُو ابنُ ثلاثٍ وثَلاثِينَ سَنَةً.

قالَ ابنُ عُمرَ ﷺ: وَقفتُ عَلى جعفَرِ بنِ أبِي طَالبٍ يَومَئذٍ وهُو قَتيلٌ، فعَدَدْتُ بِهِ خَمسِينَ بَينَ طَعنَةٍ وضَربَةٍ، لَيسَ مِنهَا شَيءٌ فِي ظَهرِهِ، أَيْ: أنَّهُ قُتِلَ مُقبِلًا غَيرَ مُدبِرٍ.

فَلمَّا قُتلَ جعفَرٌ ﷺ، أخَذَ عبدُ اللهِ بنُ روَاحَةَ ﷺ الرايَةَ، ثُم تقَدَّمَ بِهَا، فقاتَلَ حتَّى قُتِلَ، فأمَّرَ الناسُ عَليهِم خَالدَ بنَ الولِيدِ ﷺ.

ولمَّا قُتلَ زَيدُ بنُ حارثَةَ وجَعفَرُ بنُ أَبِي طَالبٍ وعبدُ اللهِ بنُ روَاحَةَ ﷺ،

جَلسَ رسُولُ اللهِ ﷺ بينَ أصحَابِهِ، وعينَاهُ تَذرِفَانِ، يُعرَفُ في وجهِهِ الحُزنُ، وأخبَرَ الناسَ بمَا وقعَ لهُم قَبلَ أَن يأتِيَهُم خبَرُهُم، فقَالَ: «**أخَذَ الرَّايَةَ زَيدٌ فأُصِيبَ، ثُمَّ أخذَهَا جَعفَرٌ فأُصِيبَ، ثُمَّ أخذَهَا ابنُ روَاحَةَ فأُصِيبَ، حتَّى أخَذَ الرَّايَةَ سَيفٌ مِن سُيُوفِ اللهِ، ففَتَحَ اللهُ عَليهِم**».

ولمَّا اصطَلَحَ النَّاسُ عَلَى خَالدِ بنِ الوَليدِ ﷺ، أخَذَ الرَّايَةَ وانحَازَ بمَن مَعهُ مِنَ الناسِ، حتَّى خَلَّصَهُم مِن أَيدِي الكُفَّارِ، وقاتَلَ ﷺ قتَالًا عَنيفًا حتَّى قالَ في ذَلكَ: لَقَد انقطَعَتْ في يَدِي يَومَ مُؤتَةَ تِسعَةُ أسيَافٍ، فمَا بَقِي في يَدِي إلا صَفيحَةٌ يَمَانِيَّةٌ.

وكانَ ﷺ مِقدَامًا داهيَةَ حَربٍ، فإنَّهُ لمَّا أصبَحَ غَدًا وقَد جعلَ مُقدمَةَ الجَيشِ مُؤخرتَهُ، ومُؤخرتَهُ مُقدمتَهُ، ومَيمَنَتَهُ مَيسرَتَهُ، فأنكَرَ العَدُوُّ مَا كانُوا يَعرفُونَ مِن راياتِهِم وهَيئَتِهِم، وقَالُوا: قَد جاءَهُم مَددٌ، فرُعِبُوا وانكشَفُوا مُنهزِمينَ، فقُتِلُوا مَقتَلَةً لَم يُقْتَلْهَا قَومٌ، حَتَّى هزَمُوهُم بإذنِ اللهِ، وغنِمُوا مِنهُم، وسَلبُوا مِن أشرَافِهِم، وقتَلُوا مِن أُمرَائِهِم.

وأَبْلَى المؤمنونَ بلاءً حَسنًا قَلَّ أَن يَكُونَ لَهُ نَظيرٌ، فقَد حَملَ قُطبَةُ بنُ قتَادَةَ، وكانَ رأسَ مَيمنَةِ المُسلمينَ، عَلى مالكِ بنِ رَافلَةَ، أَميرِ أعرَابِ النَّصَارَى فقتَلَهُ، ففَرَّ أصحَابُهُ، وسُبِيَتْ نِساؤُهُم، فقَالَ قُطبَةُ يَفتَخِرُ بذَلِكَ:

طَعَنْتُ ابْنَ رَافِلَةِ بنِ الإِرَاشِ ... بِرُمْحٍ مَضَى فِيهِ ثُمَّ انحَطَمْ

ضَرَبْتُ عَلَى جِيدِهِ ضَربَةً ... فمَالَ كمَا مَالَ غُصْنُ السَّلَمْ

وَسُقْنَا نِسَاءَ بَنِي عَمِّهِ ... غَدَاةَ رَقُوقَيْنِ سَوْقَ النَّعَمْ

ولمَّا أصيبَ جعفَرٌ وأصحَابُهُ ﭬ، دخلَ رسولُ اللهِ ﷺ عَلى أسمَاءَ بنتِ عُميسٍ، وقَد عجَنَتْ عَجِينَهَا، وغَسَلتْ بَنِيهَا ودَهنَتْهُم ونَظَّفَتْهُم، ولَم تكُن تعلَمُ بمَا حَلَّ بجَعفَرٍ، فقَالَ لهَا رسُولُ اللهِ ﷺ: «**ائتِنِي ببَنِي جَعفَرٍ**»، قَالَت أسمَاءُ: فأتَيتُهُ بِهِم، فشَمَّهُم وذَرَفَتْ عَينَاهُ، فقُلتُ: يَا رسُولَ اللهِ، بِأبِي أنتَ وأُمِّي، مَا يُبكِيكَ، أَبلَغَكَ عَن جَعفرٍ وأصحَابِهِ شَيءٌ؟ قَالَ: «**نَعَم، أُصِيبُوا هذَا اليَومَ**»، فقُمتُ أَصِيحُ، واجتَمَعَ إليَّ النسَاءُ، وخرَجَ رسُولُ اللهِ ﷺ إلَى أهلِهِ فقَالَ: «**لا تَغفَلُوا عَن آلِ جَعفَرٍ أَنْ تَصنَعُوا لَهُم طعَامًا، فَإنَّهُم قَد شُغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِم**».

قالَ عبدُ اللهِ بنُ جَعفرٍ ﭬ: ثُمَّ أمهَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ آلَ جعفرٍ ثَلاثًا قبلَ أن يَأتِيَهُم، ثُم أتَاهُم فقالَ: «**لا تَبكُوا عَلى أخِي بَعدَ اليَومِ، ادعُوا لِي بَنِي أَخِي**»، فجِيءَ بنَا كَأنَّنَا أفرُخٌ، فقَالَ: ادعُوا لِيَ الحَلاقَ، فجِيءَ بالحلَّاقِ، فحلَقَ رُؤوسَنَا، ثُم قَالَ: «**أمَّا مُحمدٌ فشَبِيهُ عَمِّنَا أَبِي طَالِبٍ، وأَمَّا عَبدُ اللهِ فَشَبِيهُ خَلْقِي وخُلُقِي**»، ثُمَّ أخذَ بِيَدِي فأَشَالَهَا وقَالَ: «**اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعفرًا فِي أَهلِهِ، وبَارِكْ لعَبدِ اللهِ فِي صَفقَةِ يَمِينِهِ**»، قالَهَا ثَلاثَ مرَّاتٍ، فجاءَتْ أُمُّنَا فذَكَرَتْ لَهُ يُتْمَنَا، وجعَلتْ تشكُو لهُ، فقَالَ: «**العَيلَةَ تخَافِينَ عَليهِم وَأَنَا وَلِيُّهُم فِي الدُّنيَا والآخرَةِ؟**».

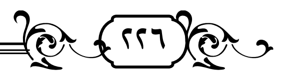
وقد خصَّ اللهُ ﷻ جَعفرًا ﭬ بمَزِيدٍ مِنَ الفضَائلِ، فقَد قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**رَأيتُ جَعفرًا يَطيرُ فِي الجنَّةِ مَعَ المَلائكَةِ**»، وكانَ ابنُ عُمرَ إذَا حيَّا ابنَ جَعفَرٍ يقُولُ: السَّلامُ عَليكَ يَا ابنَ ذِي الجنَاحَيْنِ.

وقَد كانَ جَعفرٌ ﭬ كَرِيمًا جوَادًا مُمَدَّحًا، وكانَ لكَرمِهِ يُقالُ لهُ: أَبُو المسَاكِينِ، لإحسَانِهِ إلَيهِم.

قالَ أبُو هُريرَةَ ﷺ: كانَ خيرُ الناسِ للمَساكِينِ جَعفَرَ بنَ أَبِي طَالبٍ، وكانَ يَنقَلِبُ بنَا فيُطعِمُنَا مَا كانَ فِي بَيتِهِ، حتَّى إنْ كانَ ليُخرِجُ إلَينَا العُكَّةَ التِي لَيسَ فِيهَا شَيءٌ فنَشُقُّها فنَلعَقُ مَا فِيهَا.

وكيفَ لا يكُونُ على هذِهِ الخصَالِ الشَّريفةِ، والدرجَةِ العَاليةِ المُنيفَةِ، وقَد قالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَشْبَهْتَ خَلْقي وخُلُقِي**»، رَضيَ اللهُ عَنهُ وَأرضَاهُ.





(٢٣) مُكَاتَبَةُ مُلُوكِ الآفَاقِ بالدَّعْوَةِ، وفَتحُ مَكَّةَ

لمَّا سادَ الهُدوءُ والأمنُ والاستقرارُ بعدَ مُعاهَدَةِ قُريشٍ للنَّبيِّ ﷺ في صُلحِ الحُديبيَةِ، ووضَعتِ الحَربُ التي أكلَتِ الناسَ، بدَأَ النبيُّ ﷺ بمُكاتبَةِ مُلوكِ الآفَاقِ يَدعُوهُم إلَى اللهِ ﷻ والدخُولِ في الإسلَامِ.

وكانَ أولَ مَن كَاتبَهُ النبيُّ ﷺ هِرقلُ عَظيمُ الرُّومِ، قالَ عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: إنَّ أبَا سُفيانَ أخبرَهُ أنَّ هِرقلَ أَرسلَ إلَيهِ فِي رَكْبٍ مِن قُريشٍ، وكانُوا تُجَّارًا بالشامِ فِي المُدَّةِ التِي كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ مادَّ فيهَا أبَا سُفيانَ وكفَّارَ قُريشٍ، فأتَوهُ وهُم بإيليَاءَ، فدعَاهُم فِي مَجلسِهِ وحَولَهُ عُظماءُ الرُّومِ، ثُم دعَاهُم ودعَا بالتَّرجُمَانِ فقالَ: أيُّكُم أقرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفيَانَ: أَنَا أَقرَبُهُم نَسَبًا، فَقَالَ: أَدنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصحَابَهُ فَاجعَلُوهُم عِندَ ظَهرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرجُمَانِهِ: قُل لَهُم: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَن هَذَا الرَّجُلِ، فَإِن كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ، قَالَ أَبُو سُفيَان: فَوَاللهِ لَولَا الحَيَاءُ مِن أَن يَأثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبتُ عَلَيهِ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنهُ أَن قَالَ: كَيفَ نَسَبُهُ فِيكُم؟ قُلتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَل قَالَ هَذَا القَولَ مِنكُم أَحَدٌ قَطُّ قَبلَهُ؟ قُلتُ: لَا، قَالَ: فَهَل كَانَ مِن آبَائِهِ مِن مَلِكٍ؟ قُلتُ: لَا، قَالَ: فَأَشرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَم ضُعَفَاؤُهُم؟ فَقُلتُ: بَل ضُعَفَاؤُهُم، قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَم يَنقُصُونَ؟، قُلتُ:

بَل يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَل يَرتَدُّ أَحَدٌ مِنهُم سَخطَةً لِدِينِهِ بَعدَ أَن يَدخُلَ فِيهِ؟، قُلتُ: لَا، قَالَ: فَهَل كُنتُم تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبلَ أَن يَقُولَ مَا قَالَ؟، قُلتُ: لَا، قَالَ: فَهَل يَغدِرُ؟، قُلتُ: لَا، وَنَحنُ مِنهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، وَلَم تُمكِنِّي كَلِمَةٌ أُدخِلُ فِيهَا شَيئًا غَيرَ هَذِهِ الكَلِمَةِ، قَالَ: فَهَل قَاتَلتُمُوهُ؟، قُلتُ: نَعَم، قَالَ: فَكَيفَ كَانَ قِتَالُكُم إِيَّاهُ؟، قُلتُ: الحَربُ بَينَنَا وَبَينَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنهُ، قَالَ: مَاذَا يَأمُرُكُم؟، قُلتُ: يَقُولُ: اعبُدُوا اللهَ وَحدَهُ وَلَا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَاترُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُم، وَيَأمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدقِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ. فَقَالَ لِلتَّرجُمَانِ: قُل لَهُ: سَأَلتُكَ عَن نَسَبِهِ فَذَكَرتَ أَنَّهُ فِيكُم ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبعَثُ فِي نَسَبِ قَومِهَا، وَسَأَلتُكَ هَل قَالَ أَحَدٌ مِنكُم هَذَا القَولَ، فَذَكَرتَ أَن لَا، فَقُلتُ: لَو كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا القَولَ قَبلَهُ، لَقُلتُ: رَجُلٌ يَأتَسِي بِقَولٍ قِيلَ قَبلَهُ، وَسَأَلتُكَ هَل كَانَ مِن آبَائِهِ مِن مَلِكٍ، فَذَكَرتَ أَن لَا، قُلتُ: فَلَو كَانَ مِن آبَائِهِ مِن مَلِكٍ، قُلتُ رَجُلٌ يَطلُبُ مُلكَ أَبِيهِ، وَسَأَلتُكَ هَل كُنتُم تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبلَ أَن يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرتَ أَن لَا، فَقَد أَعرِفُ أَنَّهُ لَم يَكُن لِيَذَرَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكذِبَ عَلَى اللهِ، وَسَأَلتُكَ أَشرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَم ضُعَفَاؤُهُم، فَذَكَرتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُم أَتبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلتُكَ أَيَزِيدُونَ أَم يَنقُصُونَ، فَذَكَرتَ أَنَّهُم يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلتُكَ أَيَرتَدُّ أَحَدٌ سَخطَةً لِدِينِهِ بَعدَ أَن يَدخُلَ فِيهِ، فَذَكَرتَ أَن لَا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ، وَسَأَلتُكَ هَل يَغدِرُ، فَذَكَرتَ أَن لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغدِرُ، وَسَأَلتُكَ بِمَا يَأمُرُكُم، فَذَكَرتَ أَنَّهُ يَأمُرُكُم أَن تَعبُدُوا اللهَ وَلَا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَيَنهَاكُم عَن عِبَادَةِ الأَوثَانِ، وَيَأمُرُكُم بِالصَّلَاةِ

وَالصِّدقِ وَالعَفَافِ، فَإِن كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَملِكُ مَوضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَينِ، وَقَد كُنتُ أَعلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، ولَم أَكُن أَظُنُّ أَنَّهُ مِنكُم، فَلَو أَنِّي أَعلَمُ أَنِّي أَخلُصُ إِلَيهِ لَتَجَشَّمتُ لِقَاءَهُ، وَلَو كُنتُ عِندَهُ لَغَسَلتُ عَن قَدَمِهِ، ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحيَةَ إِلَى عَظِيمِ بُصرَى، فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ: «بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ، مِن مُحَمَّدٍ عَبدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعدُ، فَإِنِّي أَدعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسلَامِ، أَسلِم تَسلَم، يُؤتِكَ اللهُ أَجرَكَ مَرَّتَينِ، فَإِن تَوَلَّيتَ فَإِنَّ عَلَيكَ إِثمَ الأَرِيسِيِّينَ، و: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

قَالَ أَبُو سُفيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِن قِرَاءَةِ الكِتَابِ، كَثُرَ عِندَهُ الصَّخَبُ وَارتَفَعَتِ الأَصوَاتُ وَأُخرِجنَا، فَقُلتُ لِأَصحَابِي حِينَ أُخرِجنَا: لَقَد أَمِرَ أَمرُ ابنِ أَبِي كَبشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصفَرِ.

فَمَا زِلتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظهَرُ حَتَّى أَدخَلَ اللهُ عَلَيَّ الإِسلَامَ.

وَكَانَ ابنُ النَّاطُورِ، صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقلَ، يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقلَ كَانَ حَزَّاءً يَنظُرُ فِي النُّجُومِ، فَلَمَّا قَدِمَ إِيلِيَاءَ، أَصبَحَ يَومًا خَبِيثَ النَّفسِ، فَقَالَ بَعضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدِ استَنكَرنَا هَيئَتَكَ، فَقَالَ لَهُم: إِنِّي رَأَيتُ اللَّيلَةَ حِينَ نَظَرتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الخِتَانِ قَد ظَهَرَ، فَمَن يَختَتِنُ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ؟ قَالُوا: لَيسَ يَختَتِنُ إِلَّا اليَهُودُ، فَلَا يُهِمَّنَّكَ شَأنُهُم، وَاكتُب إِلَى مَدَاينِ مُلكِكَ، فَيَقتُلُوا مَن فِيهِم مِنَ اليَهُودِ.

فَبَينَمَا هُم عَلَى أَمرِهِم، أُتِيَ هِرَقلُ بِرَجُلٍ أَرسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخبِرُ عَن خَبَرِ

رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا استَخبَرَهُ هِرَقلُ قَالَ: اذهَبُوا فَانظُرُوا أَمُختَتِنٌ هُوَ أَم لَا، فَنَظَرُوا إِلَيهِ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُختَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ العَرَبِ، فَقَالَ: هُم يَختَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقلُ: هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الأُمَّةِ قَد ظَهَرَ.

ثُمَّ كَتَبَ هِرَقلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي العِلمِ، وَسَارَ هِرَقلُ إِلَى حِمصَ، فَلَم يَرِم حِمصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِن صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأيَ هِرَقلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسكَرَةٍ لَهُ بِحِمصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبوَابِهَا فَغُلِّقَت، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعشَرَ الرُّومِ، هَل لَكُم فِي الفَلَاحِ وَالرَّشدِ، وَأَن يَثبُتَ مُلكُكُم، فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟؛ فَحَاصُوا حَيصَةَ حُمُرِ الوَحشِ إِلَى الأَبوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَد غُلِّقَت، فَلَمَّا رَأَى هِرَقلُ نَفرَتَهُم، وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُم عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَختَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُم عَلَى دِينِكُم، فَقَد رَأَيتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأنِ هِرَقلَ.

وممَّن بعثَ إِلَيهِمْ رسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ المُلوكِ والأُمراءِ يَدعُوهُم إِلَى الإسلامِ: المُنذرُ بنُ الحَارثِ الغسَّانِيُّ، صاحبُ دِمشْقَ، فكتَبَ إِلَيهِ: «سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبعَ الهُدَى وآمَنَ بِهِ، وأدعُوكَ إِلَى أنْ تُؤمنَ باللهِ وحدَهُ لا شرِيكَ لهُ، يبقَى لكَ مُلكُكَ» فلمَّا قرَأَهُ قالَ: ومَن ينتَزِعُ مُلكِي؟ إنِّي سَأَسِيرُ إِلَيهِ.

وبعَثَ رسُولُ اللهِ ﷺ بكتَابِهِ معَ رجُلٍ إِلَى كِسرَى، فلمَّا ناوَلَهُ الكتَابَ، دعَا كاتبًا لهُ مِن أهلِ الحِيرَةِ فقَرَأَهُ، فإذَا فِيهِ: «مِن مُحمَّدٍ عَبدِ اللهِ ورَسُولِهِ إلى كِسرَى عَظيمِ فارسَ»، فأغضَبَهُ حِينَ بَدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بنَفسِهِ، وصَاحَ وغضِبَ ومَزَّقَ الكتَابَ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَزَّقَ كِسرَى مُلكَهُ**»، ودَعَا عَليهِم ﷺ أن يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ.

وبعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ بكتَابِهِ إلَى قَيصرِ الرُّومِ يَدعوهُ إلَى الإسلَامِ، فأكرَمَ كتَابَ رسولِ اللهِ ﷺ ووضَعَهُ في مِسكٍ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثَبَّتَ مُلْكَهُ**».

ثُمَّ بَعثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَاطبَ بنَ أَبِي بَلتَعَةَ رضي الله عنه إلَى المُقَوقِسِ صَاحِبِ الإسكَندريَّةِ، واسمُهُ جُريجُ بنُ مِينَا القِبطِيُّ، فلمَّا وصلَهُ كتابُ رسُولِ اللهِ ﷺ إلَيهِ، قَبِّلَ الكتَابَ، وأكرَمَ حَاطِبًا وأحسَنَ نُزُلَهُ، وسَرَّحَهُ إلَى النبيِّ ﷺ، وأهدَى لَهُ معَ حَاطِبٍ كسوَةً، وبَغلَةً بسَرجِهَا، وجَارِيَتَيْنِ، إحدَاهُمَا: مَارِيَةُ أُمُّ إبرَاهِيمَ، وأَمَّا الأُخرَى فوَهَبَهَا رسُولُ اللهِ ﷺ لمُحمدِ بنِ قَيسٍ العَبدِيِّ.

وفِي رَمضانَ سَنةَ ثَمانٍ كَانَت غَزوَةُ الفَتحِ الأعظَمِ التِي فَتحَ فِيهَا رسُولُ اللهِ ﷺ مكَّةَ.

فقَد كانَ فِي صُلحِ الحُديبيَةِ أنهُ مَن شاءَ أن يدخُلَ فِي عَقدِ مُحمدٍ ﷺ وعَهدِهِ دخَلَ، ومَن شاءَ أن يدخُلَ فِي عقدِ قُريشٍ وعهدِهِم دخلَ، فتواثَبتْ خُزاعَةُ وقالُوا: نَحنُ ندخُلُ في عَقدِ مُحمدٍ وعَهدِهِ، وتَواثَبتْ بنُو بكرٍ وقالُوا: نَحنُ ندخُلُ في عَقدِ قُريشٍ وعَهدِهِم.

فمكثُوا فِي تلكَ الهُدنةِ نحوَ السَّبعةَ أو الثمَانيَةَ عشَرَ شَهرًا، ثُمَّ إنَّ بنِي بكرٍ وثَبُوا على خُزاعَةَ لَيلًا بماءٍ يُقالُ لهُ: الوتِيرُ، وهو قريبٌ مِن مكةَ، وقالَت قُريشٌ: مَا يَعلمُ بِنا محمدٌ، وهذَا الليلُ وما يرَانَا أحدٌ، فأعانُوهُم عَليهِم بالكُرَاعِ والسِّلاحِ، وقاتَلُوهُم معَهُم، لضَغينَتِهِم للنبيِّ ﷺ، فأرسَلَ عَمرُو بنُ سَالمٍ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ قَائِلًا:

اللَّهُـــمَّ إنِّـــي نَاشِـــدٌ مُحمَّـــدَا حِلــفَ أَبِـــيهِ وَأَبِيـــنَا الأَتْلَـــدَا
إنَّ قُرَيْـــشًا أَخلَفُـــوكَ المَـــوعِدَا وَنَقَـــضُوا مِيـــثَاقَكَ المُـــؤَكَّدَا
وَزَعَمُـــوا أَنْ لَـــستُ أَدعُـــو أَحَـــدَا فَهُـــمْ أَذَلُّ وَأَقَـــلُّ عَـــدَدَا
هُـــمْ بَيَّـــتُونَا بِالوَتِيـــرِ هُجَّـــدَا وَقَـــتَلُونَا رُكَّعًـــا وَسُـــجَّدَا

فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**نُصِرْتَ يَا عَمرَو بنَ سَالِمٍ**»، وأمَرَ ﷺ الناسَ بالجهَازِ، وكتَمَهُم مخرَجَهُ، وسأَلَ اللهَ أَن يُعمِّي عَلى قُريشٍ خَبرَهُ، حتَّى يَبغَتَهُم في بِلادِهِم، وقالَ: «**كَأَنَّكُم بِأَبِي سُفيانَ قَد جَاءَكُم يَشُدُّ فِي العَقدِ ويَزِيدُ فِي المُدَّةِ**».

ثُم خرَجَ بُديلُ بنُ وَرْقَاءَ فِي نَفرٍ مِن خُزاعَةَ، حتَّى قدِمُوا عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ فأخبَرُوهُ بمَا أصابَهُم، ومُناصرَةِ قُريشٍ لبَنِي بَكرٍ عَليهِم، ثُم انصَرَفُوا رَاجِعِينَ، فَلقُوا أبَا سُفيانَ بعُسفَانَ، قَد بَعثَتْهُ قُريشٌ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ يشُدُّ العَقدَ، ويَزيدُ في المدَّةِ، وقَد خافُوا بسَببِ مَا صَنعُوا.

فلمَّا لقِيَ أبُو سُفيانَ بُدَيلًا قالَ: مِن أينَ أقبلتَ يَا بُديلُ؟ وظَنَّ أنهُ قَد أتَى إلى رسُولِ اللهِ ﷺ، فقَالَ: سِرتُ فِي خُزاعَةَ فِي هَذَا الساحِلِ وفِي بَطنِ هذَا الوَادِي، فعَمدَ أبُو سُفيانَ إلى مَبْرَكِ رَاحِلَتِهِ فأخَذَ مِن بَعرِهَا ففَتَّهُ، فرَأَى فيهِ النَّوَى، فقَالَ: أحلِفُ باللهِ لقَد جَاءَ بُديلٌ مُحَمَّدًا.

ثُم خرجَ أبو سُفيانَ حتى قدِمَ على رسُولِ اللهِ ﷺ في المَدينَةِ، فدخَلَ عَلى ابنتِهِ أُمِّ حبيبَةَ، فلمَّا ذَهبَ ليَجلسَ عَلى فراشِ رسولِ اللهِ ﷺ طَوَتْهُ، فقَالَ: يَا بُنَيَّةُ، مَا أدرِي أرَغِبْتِ بِي عَن هذَا الفِراشِ أَو رَغِبْتِ بِهِ عَنِّي؟ فقَالَت: هُو فِراشُ رسُولِ اللهِ ﷺ،

وأَنتَ مُشرِكٌ، فَلَم أُحِبَّ أَن تَجلسَ عَلى فِراشِهِ، فقالَ: يَا بُنَيَّةُ، واللهِ لقَد أصابَكِ بَعدِي شَرٌّ، ثُم خرَجَ فأتَى رسُولَ اللهِ ﷺ فكَلَّمَهُ، فلَم يَرُدَّ عَليهِ شَيئًا، ثُم ذهَبَ إلَى أَبِي بَكرٍ رضي الله عنه فكلَّمَهُ أن يُكلِّمَ لهُ رسولَ اللهِ ﷺ، فقَالَ: مَا أنَا بفاعِلٍ، ثُم أَتَى عُمرَ بنَ الخَطابِ فكلَّمَهُ، فقَالَ عُمرُ رضي الله عنه: أنَا أشفَعُ لَكُم إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ؟ فوَاللهِ لَو لَم أجِدْ لَكُم إلَّا الذَّرَّ لجَاهَدتُكُم بِهِ.

ثُم خرَجَ فدَخلَ عَلى عَليِّ بنِ أَبِي طَالبٍ رضي الله عنه، وعِندَهُ فاطمَةُ بِنتُ رَسولِ اللهِ ﷺ، وعندَهَا الحَسنُ غُلامٌ يَدُبُّ بَينَ يَديهِمَا، فقَالَ: يا عَليُّ، إنكَ أَمَسُّ القَومِ بِي رَحِمًا، وأقرَبُهُم منِّي قرَابَةً، وقَد جِئتُ فِي حاجَةٍ، فَلا أَرجِعَنَّ كَمَا جِئتُ خَائبًا، فاشفَعْ لِي إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ.

فقَالَ: وَيحكَ يَا أَبَا سُفيَانَ، واللهِ لقَد عَزَمَ رسولُ اللهِ ﷺ عَلى أَمرٍ مَا نَستطيعُ أَن نُكَلِّمَهُ فِيهِ.

فركِبَ أبُو سُفيانَ بَعيرَهُ ثُم انطلقَ، فلمَّا قدِمَ عَلى قريشٍ قالُوا: ما ورَاءَكَ؟ قالَ: جِئتُ مُحمدًا فكَلَّمتُهُ، فوَاللهِ مَا ردَّ عليَّ شَيئًا، ثُم جئتُ ابنَ أَبِي قُحافَةَ، فوَاللهِ مَا رجوتُ خَيرًا، ثُم جئتُ عُمرَ فوَجدتُهُ أعدَى العَدوِّ، قالُوا: وَيحَكَ!

ودخلَ أبُو بكرٍ رضي الله عنه عَلى عائشةَ، ووجَدَ عندَهَا حِنطَةً تُنسَفُ وتُنَقَّى، فقالَ لهَا: يَا بُنَيَّةُ، لمَاذا تَصنَعينَ هذَا الطعَامَ؟ فسَكتَتْ، فقالَ: أيُريدُ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يَغزُوَ؟ فصَمَتَتْ.

ثُم دخَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ، فقَالَ لهُ: يَا رسُولَ اللهِ، أتُريدُ أن تخرُجَ مَخرَجًا؟ قالَ: «**نَعَم**»، قالَ: فلعلَّكَ تُريدُ بنِي الأصفَرِ؟ قالَ: «**لا**»، قالَ: أتُريدُ أهلَ نَجدٍ؟ قالَ:

«**لا**»، قالَ: فلعَلكَ تُرِيدُ قُرِيشًا؟ قالَ: «**نَعَم**»، قالَ أبُو بكرٍ: يَا رسُولَ اللهِ، أَلَيسَ بَينَكَ وبَينَهُم مُدَّةٌ؟ قالَ: «**أَلَم يَبلُغْكَ مَا صنَعُوا ببَنِي كَعبٍ؟**»، ثُم أَذَّنَ رسُولُ اللهِ ﷺ في النَّاسِ بالغَزوِ، وأَعْلَمَ الناسَ أنهُ سائرٌ إلَى مكَّةَ، وأمرَ بالجِدِّ والتَّهيُّؤِ، وقالَ: «**اللَّهُمَّ خُذِ العُيونَ والأَخبَارَ عَن قُرِيشٍ حَتَّى نَبغَتَهَا فِي بِلادِهَا**».

فتجَهَّزَ الناسُ، ثُم مضَى رسولُ اللهِ ﷺ لسَفرِهِ، وكانَ مَعهُ اثنَا عشَرَ أَلفًا، وخرَجَ معهُ المُهاجِرونَ والأنصَارُ لَم يتخَلَّفْ مِنهُم أَحَدٌ.

وقَد كانَ خُروجُهُ فِي العَاشرِ مِن شَهرِ رمضَانَ، فصَامَ وصَامَ الناسُ معَهُ، حتَّى إذَا كانَ ﷺ بعُسفَانَ؛ وهُو مَوضعٌ بَينَ مَكةَ والمَدينَةِ؛ دَعَا بإنَاءٍ فشَرِبَ نَهارًا ليَرَاهُ النَّاسُ، فأفطَرَ حتَّى قَدمَ مَكةَ، وأمَرَ مَن مَعهُ بِالفِطْرِ، ولَم يَزَلْ يُفطِرُ حَتَّى انتَهَى الشَّهرُ.

ونَزلَ رسولُ اللهِ ﷺ فِي مَرِّ الظَّهرَانِ وهُو مَوقعٌ قَريبٌ مِن مكَّةَ، وقَد عُمِّيَتِ الأخبارُ عَن قُريشٍ، فَلا يَأتِيهِم خَبَرٌ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا يدرُونَ مَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فاعِلٌ.

وكانَ العباسُ بنُ عبدِ المُطَّلبِ رضي الله عنه قَد أسلَمَ قَبلَ فَتحِ خَيبَرَ، وكانَ يكتُمُ إسلَامَهُ، ثُم أظهَرَ إسلَامَهُ يَومَ فَتحِ مَكَّةَ، ولمَّا نزلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَرَّ الظَّهرَانِ، قالَ العبَّاسُ: واصبَاحَ قُريشٍ، واللهِ لَئِن دَخَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ مكةَ عَنوَةً قَبلَ أن يَأتُوهُ فيَستَأمِنُوهُ، إنَّهُ لهَلاكُ قُريشٍ إلَى آخِرِ الدَّهرِ.

قالَ العبَّاسُ رضي الله عنه: فجَلستُ عَلى بَغلَةٍ بيضَاءَ، فخَرجتُ عليهَا حتى جئتُ الأرَاكَ، فقُلتُ: لعَلِّي أجدُ بعضَ الحطَّابَةِ أو صاحبَ لَبنٍ، أَو ذَا حاجَةٍ يأتِي مكَّةَ

فيُخبِرُهُم بمَكانِ رسُولِ اللهِ ﷺ، ليَخرُجُوا إلَيهِ فيَستَأمِنُوهُ قَبلَ أَن يَدخُلَ عَليهِم عَنوَةً.

فجِئتُ إلَى أَبي سُفيانَ فقُلتُ: يَا أَبَا حنظَلَةَ، فعَرفَ صوتِي، فقالَ: أَبُو الفَضلِ؟ قلتُ: نَعَم، قالَ: مَا لكَ، فِدًى لكَ أَبِي وأمِّي؟ قُلتُ: وَيحكَ يَا أَبَا سُفيانَ، هذَا رسُولُ اللهِ ﷺ في النَّاسِ، واصبَاحَ قُريشٍ واللهِ.

قالَ: فمَا الحِيلَةُ، فداكَ أَبِي وأمِّي؟ قُلتُ: وَاللهِ لَئِن ظَفِرَ بكَ ليَضرِبَنَّ عُنُقَكَ، فارْكَبْ مَعي عَلى هذِهِ البَغلَةِ حتَّى آتِي بِكَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فأستَأمِنْهُ لَكَ.

فرَكِبَ خَلفِي فجِئتُ بِهِ، وكُلمَا مَررتُ بنَارٍ مِن نيرَانِ المُسلمينَ قَالُوا: مَن هَذا؟ فإذَا رَأونِي، قالُوا: عُمُّ رسُولِ اللهِ ﷺ.

حتَّى مَررتُ بنَارِ عُمرَ بنِ الخطَّابِ فقَالَ: مَن هَذا؟ وقامَ إليَّ، فلمَّا رَأى أَبَا سُفيانَ رَدِيفِي عَلى الدَّابَّةِ، قَالَ: أَبُو سُفيانَ عَدُوُّ اللهِ؟ الحَمدُ للهِ الذِي أمكَنَ مِنكَ بغَيرِ عَقدٍ ولَا عَهدٍ.

ثُم قامَ عُمرُ ووَجَأَ في رَقبَةِ أَبِي سُفيانَ يُريدُ قَتلَهُ، فمَنَعَهُ منهُ العبَّاسُ.

قالَ العبَّاسُ ﷺ: ثُم خرَجَ عُمرُ يَشتَدُّ نَحوَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وركَضَتِ البَغلَةُ فسَبقْتُهُ، واقتَحَمْتُ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ ودخَلَ عليهِ عُمرُ، فقالَ: يَا رسُولَ اللهِ، هذَا أَبُو سفيانَ قَد أمكَنَ اللهُ مِنهُ بغَيرِ عَقدٍ ولا عَهدٍ فدَعْنِي لأَضْرِبَ عُنقَهُ، فقلتُ: يَا رسولَ اللهِ، إنِّي قَد أجرتُهُ، ثُمَّ جَلستُ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ فأخَذتُ أُناجِيهِ فِي شَأنِهِ وقُلتُ: واللهِ لا يُناجِيهِ الليلَةَ دُونِي رَجلٌ، فلمَّا أكثَرَ عُمَرُ فِي شَأنِهِ، قُلتُ: مَهلًا يَا عُمرُ، فوَاللهِ لَو كانَ مِن رجالِ بنِي عَديٍّ بنِ كَعبٍ مَا قُلتَ هَذَا، ولكِنَّكَ قَد

عَرفتَ أَنَّهُ مِن رجَالِ بَنِي عَبدِ مَنافٍ، فقالَ: مَهلًا يَا عبَّاسُ، فوَاللهِ لَإِسلامُكَ يَومَ أسلَمتَ كانَ أَحَبَّ إلَيَّ مِن إسلامِ الخطَّابِ لَو أسلَمَ، ومَا بِي إلَّا أَنِّي قَد عرفتُ أنَّ إسلامَكَ كانَ أَحَبَّ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ مِن إسلامِ الخطَّابِ لَو أَسلَمَ.

فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**اذهَبْ بِهِ يَا عبَّاسُ إلَى رَحْلِكَ فإذَا أصبَحتَ فَأْتِنِي بِهِ**»، فذَهبتُ بِهِ إلَى رَحْلِي، فباتَ عندِي، فلمَّا أصبَحَ غَدوتُ بِهِ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا رآهُ رسُولُ اللهِ ﷺ قالَ: «**وَيحَكَ يَا أَبَا سُفيانَ! أَلَم يَأنِ لَكَ أَن تَعلَمَ أَنَّهُ لا إلَهَ إلا اللهُ؟**»، فقالَ: بِأَبِي أنتَ وأمِّي، مَا أحلمَكَ وأكرَمَكَ وأوصَلَكَ، فقُلتُ لَهُ: وَيحَكَ، أسلِمْ وَاشهَدْ أَن لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمدًا رسُولُ اللهِ، قَبلَ أَن تُضرَبَ عُنقُكَ، فشَهِدَ شَهادَةَ الحقِّ وأَسلَمَ.

قالَ العبَّاسُ ﷺ: فقُلتُ: يَا رسُولَ اللهِ، إنَّ أَبَا سفيَانَ رجلٌ يُحبُّ الفَخرَ، فَاجعَلْ لَهُ شَيئًا، قالَ: «**نَعَم، مَن دخَلَ دارَ أَبِي سُفيانَ فهُوَ آمِنٌ، ومَن دَخَلَ دَارَ حَكيمِ بنِ حِزَامٍ فَهُوَ آمِنٌ**».





(٢٤) مَا فَعلَهُ النبيُّ ﷺ في مكَّةَ بَعدَ فَتحِهَا، وغَزوَةُ حُنَينٍ

لمَّا فتحَ اللهُ مكَّةَ عَلى نَبيِّهِ ﷺ ورَأى مَا أكرَمَهُ اللهُ بِهِ مِن الفَتحِ، دخَلَ مَكَّةَ مُتخَشِّعًا خَافِضًا رَأسَهُ تَواضُعًا للهِ، حتى إنَّ ذقنَهُ ليَمسُّ واسِطَةَ رَحْلِهِ، وكانَ يقرَأُ سورةَ الفتحِ وهُو عَلى نَاقَتِهِ.

وهذَا التواضُعُ فِي هذَا المَوطنِ عِندَ دخولِهِ ﷺ مكَّةَ في مِثلِ هَذَا الجَيشِ الكَثيفِ العَرمْرَمِ، لدَلِيلٌ عَلى مَا اختصَّهُ اللهُ مِن عَظيمِ الأَخلاقِ والسَّجَايَا، ومِصدَاقٌ لقَولِهِ تعَالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

وقَد كلَّمَهُ رجُلٌ يومَ الفَتحِ، فخَافَ وأخَذَتْهُ الرِّعدَةُ، فقَالَ لَهُ ﷺ: «**هَوِّنْ عَليكَ، فإنَّمَا أنَا ابْنُ امرَأَةٍ مِن قُرَيشٍ كَانَتْ تَأكُلُ القَدِيدَ**».

ولمَّا دخَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ مكَّةَ، جاءَهُ رجُلٌ فقَالَ: إنَّ عبدَ اللهِ بنَ خَطَلٍ مُتعلقٌ بأستَارِ الكعبَةِ، فقالَ: «**اقتُلُوهُ**».

وابنُ خطَلٍ هذَا، كانَ قَد أسلَمَ ثُم ارتَدَّ مُشرِكًا، وكانَ لهُ قَينتَانِ تُغنِّيانِ بِهجاءِ رسولِ اللهِ ﷺ والمُسلمينَ، فلهَذَا أهدَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دَمَهُ ودَمَ قَينَتَيْهِ، فقُتِلَ وهُو مُتعلِّقٌ بأستَارِ الكَعبَةِ.

وممَّا جرَى في هذِهِ الواقعَةِ منَ الأحدَاثِ: أنَّ صفوانَ بنَ أميَّةَ، وعِكرمَةَ بنَ

أَبِي جهلٍ، وسُهيلَ بنَ عَمرٍو، كانُوا قَد جمَعُوا نَاسًا بالخَندمَةِ -وهُو جبلٌ بمَكَّةَ- ليُقاتِلُوا، وكان حِمَاسُ بنُ قَيسٍ يُعِدُّ سِلاحًا قبلَ قُدومِ رسُولِ اللهِ ﷺ ويُصلِحُهُ، فقَالَت لهُ امرَأَتُهُ: لماذَا تُعِدُّ مَا أَرَى؟ قالَ: لمُحمدٍ وأصحابِهِ، فقالَت: واللهِ مَا أَرَى يقومُ لمُحمدٍ وأصحابِهِ شَيءٌ، قالَ: واللهِ إنِّي لأرجُو أَن أُخدِمَكِ بَعضَهُم.

ثم شهِدَ الخَندمَةَ معَ صَفوانَ وعِكرِمَةَ وسُهيلٍ، فلمَّا لَقِيَهُم المسلِمونَ نَاوشُوهُم شَيئًا مِن قتَالٍ، فقُتِلَ بعضُهُم ثُم انْهَزَمُوا، فخرَجَ حِماسٌ مُنهزمًا حتَّى دخَلَ بَيتَهُ، ثُم قالَ لامرأَتِهِ: أغلِقِي عَليَّ بَابِي، قَالَت: فَأينَ مَا كُنتَ تَقولُ؟ فقَالَ:

إِنَّكِ لَو شَهِدْتِ يَومَ الخَندَمَهْ ... إِذْ فَرَّ صَفوانُ وفَرَّ عِكرِمَهْ

وأَبُو يَزِيدَ قَائِمٌ كَالمُوتَمَهْ ... وَاستَقبَلَتْهُم بِالسيُوفِ المُسلِمَهْ

يَقطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وجُمْجُمَهْ ... ضَرْبًا فَلَا يُسمَعُ إِلَّا غَمْغَمَهْ

وقَد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ عَهِدَ إلَى أمرائِهِ أَلَّا يُقاتِلُوا إلَّا مَن قَاتَلَهُم، غَيرَ أَنَّهُ سَمَّى نَفَرًا قَد أَهدَرَ دمَاءَهُم وإنْ وُجِدُوا تحتَ أستَارِ الكَعبَةِ.

ثُم إنَّ عِكرمَةَ بنَ أَبِي جَهلٍ هَربَ إلَى اليَمنِ، وأسلَمَتِ امرَأَتُهُ أُمُّ حَكيمٍ بنتُ الحَارثِ، واستَأمَنَتْ لَهُ مِن رسُولِ اللهِ ﷺ فأَمَّنَهُ، فذَهبَتْ في طَلَبِهِ، حتَّى أَتَتْ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأسلَمَ.

ولمَّا نزَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ بأعلَى مكَّةَ فَرَّ رجُلانِ إلَى أمِّ هَانِئٍ بنتِ أَبِي طالِبٍ، وكانَ عليُّ بنُ أَبِي طَالبٍ يُريدُ قَتلَهُمَا، فأجَارَتْهُمَا وأغلَقَتْ عَليهِمَا بابَ بَيتِهَا، ثُم جَاءَتْ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا رَآهَا رَحَّبَ وقَالَ: «**مَا جَاءَ بِكِ؟**».

قَالَت: يَا نَبيَّ اللهِ، كُنتُ أَمَّنتُ رَجُلَيْنِ فأرادَ عليٌّ قَتلَهُما، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَد أجَرْنَا مَن أجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ**»، ثُم صَلَّى فِي بَيتِهَا ثَمانِيَ ركعَاتٍ يُسلِّمُ مِن كُلِّ رَكعَتَيْنِ، وكانَ ذَلكَ ضُحًى.

ولمَّا نزَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ بمكَّةَ واطمَأنَّ الناسُ، خَرجَ ﷺ حتَّى جاءَ البَيتَ فقَامَ عَلى بابِ الكَعبَةِ فقَالَ: «**لا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، صَدقَ وَعدَهُ، ونَصرَ عَبدَهُ، وهَزمَ الأحزَابَ وَحدَهُ، أَلَا إنَّ كُلَّ مَأثَرَةٍ** -أَي: خَصلَةٍ- **كَانَتْ فِي الجَاهليَّةِ وَدَمٍ ودَعوى ومَالٍ تحتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، إلَّا مَا كَانَ مِن سِقايَةِ الحَاجِّ وسِدَانَةِ البَيْتِ، فَإنِّي أَمضَيتُهُمَا لأهلِهِمَا عَلى مَا كَانَتْ**».

ولمَّا دَخلَ ﷺ مكَّةَ كانَ حَولَ البَيتِ ثَلاثُمِائَةٍ وسِتُّونَ صَنَمًا، فجعَلَ يَطعُنُهَا بعُودٍ فِي يدِهِ، ويقُولُ: «**جَاءَ الحَقُّ وزَهَقَ البَاطِلُ، جَاءَ الحَقُّ ومَا يُبدِئُ البَاطِلُ ومَا يُعِيدُ**»، فجَعَلَت تتهَاوَى بينَ يَديهِ حتَّى مرَّ عَليهَا كُلِّهَا.

ثُم طافَ ﷺ عَلى راحِلَتِهِ بِالبَيتِ سَبعًا، فلمَّا قضَى طوافَهُ دعَا عُثمانَ بنَ طَلحَةَ فأخَذَ مِنهُ مِفتاحَ الكَعبَةِ، ففُتِحَتْ لهُ فدَخَلَهَا، ثُم دَعَا ﷺ بعُثمانَ بنِ طَلحَةَ فقَالَ: «**هَاكَ مِفتَاحَكَ يَا عُثمَانُ، اليَومُ يَومُ بِرٍّ ووَفَاءٍ**».

وحِينَ رَأى الأنصَارُ مَا فتحَ اللهُ عَلى نَبيِّه ﷺ خَافُوا بقاءَ النبيِّ ﷺ في مَكَّةَ، فجعَلَ يقولُ بعضُهُم لبَعضٍ: أَمَّا الرجلُ فأدرَكَتْهُ رَغبَةٌ فِي قَريَتِهِ ورَأفَةٌ بعَشيرَتِهِ، وجاءَ الوَحيُ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ بذلِكَ فقَالَ: «**يَا مَعشَرَ الأنصَارِ، أَقُلْتُمْ: أَمَّا الرجُلُ فَأدرَكَتْهُ رَغبَةٌ فِي قَريَتِهِ وَرَأفَةٌ بعَشيرَتِهِ؟**» فقَالُوا: قُلنَا ذلكَ يَا رسُولَ اللهِ.

فقَالَ: «**كَلَّا، إنِّي عَبدُ اللهِ ورَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللهِ وَإِلَيكُم، فَالمَحيَا مَحيَاكُم والمَمَاتُ مَماتُكُم**»، فَأقبَلُوا إِلَيهِ يَبكُونَ ويَقُولُونَ: واللهِ مَا قُلنَا الذِي قُلنَا إِلَّا للبُخلِ بِاللهِ ورسُولِهِ، فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ورَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُم وَيَعْذُرَانِكُم**»، ثُمَّ أقَامَ رسُولُ اللهِ ﷺ بمكَّةَ تِسعةَ عَشَرَ يومًا يُصَلِّي رَكعَتَيْنِ.

وقد اجتمَعَ الناسُ بمكَّةَ لبَيعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلى الإسلَامِ، فجَلسَ لَهُم عَلى الصَّفَا، وعُمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه أسفَلَ مِن مَجلِسِهِ، فأخَذَ عَلى الناسِ السمعَ والطاعَةَ للهِ ولرسُولِهِ فِيمَا استَطَاعُوا.

فلمَّا فرَغَ مِن بَيعَةِ الرجَالِ بايَعَ النساءَ، وكانَ يُبايعهُنَّ بِالكلامِ دُونَ مَسيسٍ، قالَت عائشَةُ رضي الله عنها: لَا وَاللهِ مَا مَسَّتْ يدُ رسُولِ اللهِ ﷺ يَدَ امرَأةٍ قطُّ، مَا كانَ يُبايعهُنَّ إِلَّا كَلامًا، ويَقُولُ: «**إِنَّمَا قَوْلِي لامرَأَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَولِي لِمِائَةِ امرَأَةٍ**».

وعادَت مَكَّةُ بعدَ فتحِهَا دارَ إسلامٍ بعدَ أَن كانَت دَارَ كُفرٍ، قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا هِجرَةَ بَعدَ الفتحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ ونِيَّةٌ، وَإِذَا استُنفِرْتُمْ فَانْفِرُوا**».

وقالَ مُجاشِعٌ: أتيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بأخِي بَعدَ يَومِ الفَتحِ فقُلتُ: يَا رسولَ اللهِ، جِئتُكَ بأخِي لتُبايعَهُ عَلى الهِجرَةِ، فقَالَ: «**ذَهَبَ أهلُ الهِجرَةِ بِمَا فِيهَا**»، فقُلتُ: عَلَى أيِّ شَيءٍ تُبايعُهُ؟ قَالَ: «**أُبايعُهُ عَلى الإِسلَامِ وَالإِيمَانِ وَالجِهَادِ**».

وسُئلتْ عائشَةُ رضي الله عنها عن الهِجرةِ فقَالَتْ: لَا هجرَةَ اليَومَ، كانَ المُؤمنونَ يفِرُّ أحدُهُم بدِينِهِ إِلَى اللهِ عز وجل وإِلى رسُولِهِ ﷺ، مخَافَةَ أن يُفتَنَ عَليهِ، فأمَّا اليومَ فَقَد أظهَرَ اللهُ الإسلَامَ، فالمُؤمنُ يَعبُدُ ربَّهُ حَيثُ يشَاءُ، ولَكِن جهَادٌ ونِيَّةٌ.

فقَدِ انقَطَعَتِ الهجرَةُ بعدَ فتحِ مكةَ؛ لأنَّ الناسَ دخَلُوا في دِينِ اللهِ أفوَاجًا، وظهرَ الإسلامُ وثبتَتْ أركانُهُ ودعَائِمُهُ، فلم تَبقَ هجرَةٌ.

ولمَّا كانَ اليومُ التَّالي ليَومِ الفَتحِ بيَّنَ رسُولُ اللهِ ﷺ عَظيمَ حُرمَةِ مكةَ، وذكَرَ لَهُم سببَ مَا قامَ بِهِ، وأنَّهُ أمْرٌ قَد خصَّهُ اللهُ بِهِ وأذِنَ لهُ فيهِ، وخطَبَ في الناسِ فحَمِدَ اللهَ وأثنَى عليهِ ثُم قالَ: «**إنَّ مكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، لا يَحِلُّ لِامرِئٍ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ أَنْ يَسفِكَ بِهَا دَمًا، وَلا يَعضُدَ بِهَا شَجَرًا، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فقُولُوا: إنَّ اللهَ أَذِنَ لرَسُولِهِ ولَمْ يَأذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِن نَهَارٍ، وقَد عَادَتْ حُرمَتُهَا اليَومَ كحُرمَتِهَا بِالأَمْسِ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ**».

ولمَّا فَتحَ اللهُ عَلى رسُولِهِ ﷺ، نزَلَت عَليهِ هذِهِ السورَةُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣]، فقرَأَهَا رسُولُ اللهِ ﷺ حتَّى ختمَهَا، وقَد فَهِمَ عُمرُ وابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهم مِن هذِهِ السُّورَةِ أنَّ الفَتحَ عَلامَةٌ عَلى قُربِ أَجَلِ النَّبيِّ ﷺ، فَقَد سَألَ عُمرُ ابنَ عبَّاسٍ: مَا تقولُ فِي هذِهِ السُّورةِ؟ فقَالَ: هُو أجَلُ رسُولِ اللهِ ﷺ أَعلَمَهُ اللهُ لهُ، قالَ عُمرُ رضي الله عنه: لَا أعلمُ منهَا إلَّا مَا تَقُولُ.

وفي شوَّالٍ مِن سنَةِ ثَمانٍ، سَمِعَتْ هوازِنُ برَسُولِ اللهِ ﷺ ومَا فتحَ اللهُ عَليهِ من مكَّةَ، فجمَعَهَا مَلِكُهَا مَالكُ بنُ عَوفٍ، واجتَمعَ إليهِ معَ هوازِنَ ثَقيفٌ كُلُّها إلا نَفرٌ مِنهُم، ومَعهُم دُريدُ بنُ الصِّمَّةِ شَيخٌ كبيرٌ، ليسَ فيهِ شيءٌ إلا التيمُّنُ برَأيِهِ ومَعرفتِهِ بالحَربِ، وكانَ شَيخًا مُجَرِّبًا.

فلمَّا أجمعَ مالكٌ السيرَ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ أَخرَجَ معَ الناسِ أموَالَهُم ونسَاءَهُم وأبنَاءَهُم، فلمَّا نزَلَ بأوطَاسٍ اجتمَعَ إليهِ الناسُ وفِيهِم دُريدُ بنُ الصِّمَّةِ، فلمَّا نزلَ قالَ دُريدٌ: بأيِّ وادٍ أنتُم؟ قالُوا: بأوطَاسٍ، قالَ: نِعمَ مجالُ الخيلِ، مَا لِي أسمعُ رُغاءَ البَعيرِ، ونُهاقَ الحَميرِ، وبُكاءَ الصغيرِ، ويُعارَ الشاءِ؟! قالُوا: ساقَ مالكُ بنُ عوفٍ معَ الناسِ أموالَهُم ونسَاءَهُم وأبنَاءَهُم، قالَ: أينَ مالكٌ؟ قالُوا: هذَا مالكٌ، ودُعِيَ لَهُ.

قالَ: يَا مالكُ، إنكَ قَد أصبَحتَ رئيسَ قَومِكَ، وإنَّ هذَا يَومٌ كائنٌ لهُ مَا بَعدَهُ مِنَ الأيَّامِ، مَا لِي أسمَعُ رغَاءَ البَعيرِ، ونُهاقَ الحَميرِ، وبُكاءَ الصغيرِ، ويُعارَ الشاءِ؟ قالَ: سُقتُ معَ الناسِ أبناءَهُم ونساءَهُم وأموالَهُم، قال: وَلِمَ؟ قالَ: أردتُ أن أجعَلَ خَلفَ كُلِّ رجلٍ أهلَهُ ومالَهُ ليُقاتلَ عَنهُم، فغَضبَ دُريدٌ وانتقَصَهُ، وقالَ: رَاعِي ضَأنٍ واللهِ، هَل يَرُدُّ المُنهزِمَ شَيءٌ؟ إنَّها إنْ كانَت لكَ لَم يَنفَعْكَ إلا رجُلٌ بسَيفِهِ ورُمحِهِ، وإِن كانَت عَليكَ فُضِحْتَ فِي أهلِكَ ومَالِكَ.

يَا مالِكُ، إنَّكَ لَم تَصنَعْ بتَقديمِ جمَاعةِ هوازِنَ إلَى نُحورِ الخَيلِ شيئًا، ارفَعْهُم إلَى متَمَنَّعِ بِلادِهِمْ وعُليَا قَومِهِم، فَإن كانَتْ لكَ لَحِقَ بِكَ مَن ورَاءَكَ، وإِن كَانَتْ عَليكَ نَفعَكَ ذَلكَ وقَد أَحرَزْتَ أَهلَكَ ومَالَكَ.

قالَ مَالكٌ: واللهِ لَا أفعَلُ، إنَّك قَد كَبِرْتَ وَكَبُرَ عَقلُكَ، واللهِ لتُطِيعُونَنِي يَا معشَرَ هوازِنَ أو لأتَّكئنَّ عَلى هذا السيفِ حتَّى يخرجَ مِن ظهرِي، وكَرهَ أن يكُونَ لدُريدٍ فِيهَا ذِكرٌ أو رَأيٌ، فقالُوا: أطعنَاكَ، فقالَ دُريدٌ: هذَا يومٌ لَم أشهَدهُ ولَم يَفُتْنِي، وَأَنْشَدَ:

يَـــا لَيتَنِـــي فِـــيهَا جَـــذَعْ أَخُـــبُّ فِـــيهَا وَأَضَـــعْ
أَقُـــودُ وَطفَـــاءَ الـــزَّمَعْ كَأَنَّهَـــا شَـــاةٌ صَـــدَعْ

ثُم قالَ مالكٌ للناسِ: إذَا رَأيتُموهُم فاكسِرُوا جفُونَ سُيوفِكُم، ثُم شُدُّوا شدَّةَ رجلٍ واحِدٍ.

ولمَّا سمعَ بِهِم نَبيُّ اللهِ ﷺ بعَثَ إلَيهِم عبدَ اللهِ بنَ أبِي حَدرَدٍ الأسلَميَّ، وأمرَهُ أنْ يدخُلَ في الناسِ فيُقيمَ فِيهِم حتَّى يعلَمَ عِلمَهُم، ثُم يَأتِيهِ بخَبَرِهِم، فانطَلَقَ ابنُ أَبِي حَدرَدٍ فدخَلَ فِيهِم فأقَامَ فِيهِم حتَّى سَمِعَ وعَلِمَ ما قَد أجمَعُوا لهُ مِن حَربِ رسُولِ اللهِ ﷺ، وسمِعَ مِن مالِكٍ وأمرِ هَوازِنَ ما هُم عَليهِ، ثُم أقبَلَ حتَّى أتَى رسُولَ اللهِ ﷺ فأخبرَهُ الخَبَرَ.

فلمَّا أجمَعَ رسُولُ اللهِ ﷺ السَّيرَ إلَى هوازِنَ ذُكِرَ لَهُ أن عِندَ صفوانَ ابنِ أُميَّةَ أدرَاعًا لهُ وسِلاحًا، فأرسَلَ إليهِ وهُو يومَئذٍ مُشركٌ فقَالَ: «**يَا أبَا أُميَّةَ، أَعِرْنَا سِلاحَكَ هذَا نلقَ فِيهِ عَدُوَّنَا غَدًا**»، فقَالَ صَفوانُ: أَغصْبًا يَا مُحمدُ؟ قالَ: «**بَل عَارِيَةٌ مَضمُونَةٌ حتَّى نُؤدِّيَهَا إلَيكَ**»، فقَالَ: لَيسَ بِهذَا بَأسٌ، فأعطَاهُ مائَةَ دِرعٍ بمَا يَكفِيهَا مِن السِّلاحِ، فضَاعَ بَعضُهَا، فعَرَضَ عَليهِ رسُولُ اللهِ ﷺ أن يَضمَنَهَا لهُ، فقالَ: أنَا اليَومَ يَا رسُولَ اللهِ في الإسلَامِ أرغَبُ.

ثم خرَجَ رسُولُ اللهِ ﷺ إلى غَزوةِ حُنينٍ معَهُ اثنَا عشَرَ ألفًا، ومعَهُ قَومٌ حَدِيثُو عَهدٍ بالجَاهليَّةِ، فمَرُّوا بشجَرَةٍ للمُشرِكِينَ، يتبَرَكُونَ بِهَا، ويَذبَحُونَ عندَهَا، ويُعلقُونَ عَليهَا أسلِحَتَهُم، يُقالُ لهَا: ذاتُ أنوَاطٍ، فقالُوا: يَا رسُولَ اللهِ، اجعَلْ لنَا ذاتَ أنواطٍ كمَا لَهُم ذاتُ أنوَاطٍ؟ فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُ أكبَرُ، إنَّهَا السُّنَنُ، قُلتُم**

وَالذِي نَفسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ كمَا قَالَ قَومُ مُوسَى لِمُوسَى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، **لتَركَبُنَّ سَنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُمْ**».

ثُم سارَ الناسُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ حتَّى بلَغُوا حُنينًا، فلمَّا حضَرَتْ صلاةُ الظهرِ جاءَ رجلٌ فارسٌ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ، فقَالَ: يَا رسُولَ اللهِ، إنِّي انطَلَقْتُ بَينَ أيدِيكُم حتَّى طَلعتُ جبَلَ كذَا وكذَا، فإذَا أنَا بِهَوازِنَ عَن بَكرةِ أبِيهِم بظَعنِهِم ونَعَمِهِم وشَائِهِم، اجتَمَعُوا إلَى حُنينٍ، فتبَسَّمَ رسُولُ اللهِ ﷺ، وقَالَ: «**تِلكَ غَنيمَةُ المُسلِمينَ غَدًا إنْ شَاءَ اللهُ**».

ثُم قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن يَحرُسُنَا اللَّيلَةَ؟**»، فقَالَ أنسُ بنُ أَبِي مَرثَدٍ رضي الله عنه: أنَا يَا رسُولَ اللهِ، قالَ: «**فَارْكَبْ**»، فرَكِبَ فَرَسًا لهُ وَجَاءَ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ، فقالَ لهُ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**اسْتَقْبِلْ هَذَا الشِّعْبَ حتَّى تَكُونَ فِي أَعْلَاهُ وَلَا نُغرَّنَّ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيلَةَ**».

فلمَّا أصبحُوا خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلَى مُصلَّاهُ فرَكَعَ رَكعَتَيْنِ، ثُم قالَ: «**هَل أحسَسْتُم فَارِسَكُم؟**»، قَالُوا: يَا رسُولَ اللهِ، مَا أحسَسنَا، فلمَّا قامَ ﷺ للصَّلاةِ جعَلَ يُصلِّي ويَلتفِتُ إلَى الشِّعبِ، حتى إذَا قضَى صلاتَهُ قالَ: «**أَبشِرُوا فَقَد جَاءَكُم فَارِسُكُم**»، فجعَلُوا ينظُرونَ خِلالَ الشجَرِ إلَى الشِّعبِ، وإذَا هُو قد جَاء حتَّى وقَفَ على رسُولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: إنِّي انطَلَقْتُ حتَّى كنتُ فِي أعلَى هذَا الشِّعبِ حيثُ أمرنِي رسولُ اللهِ ﷺ، فلمَّا أصبَحتُ طلَعتُ الشِّعبَيْنِ كِلَيْهِمَا، فنظَرتُ فَلَم أرَ أحَدًا، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «**هَل نَزَلْتَ اللَّيلَةَ؟**»، قالَ: لا، إلَّا مُصَليًا أو قَاضِي حاجَةٍ، فقالَ لهُ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَد أَوجَبْتَ فَلَا عَلَيكَ أَلَّا تَعمَلَ بَعدَهَا**».

وقَد خرَجَ معَ رسُولِ اللهِ ﷺ في هذِهِ الغَزوةِ اثنَا عشَرَ أَلفًا، والمُشركونَ أربَعَةُ آلافٍ، فأُعجِبَ بعضُ المُسلمينَ بِكثرتِهِم، وقالَ بَعضُهُم: لَن نُغلبَ اليومَ مِن قِلَّةٍ، فلمَّا التَقَوْا هُم وهَوازِنُ، حَمَلَتْ هوازِنُ عَلى المُسلمينَ حَملَةً واحِدَةً، وثَارَتْ في وجُوهِهِم الخَيلُ فشَدَّتْ عَليهم، فانْهَزَمُوا حتى لا يَلتفِتَ أحدٌ إلى أحَدٍ، ولَم يَبقَ معَ رسُولِ اللهِ ﷺ، إلَّا نَحوُ مِائَةِ رَجُلٍ، فقالَ اللهُ تعَالى مُعَاتِبًا لَهُم: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۢ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًۭٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌۭ رَّحِيمٌۭ ﴾ [التوبة:٢٥-٢٧].

فلمَّا انْهَزمَ الناسُ أولَ المَعركةِ، نادَى رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَينَ أَيُّهَا الناسُ؟ هَلُمُّوا إِلَيَّ، أَنَا رَسُولُ اللهِ، أَنَا رَسُولُ اللهِ، أَنَا مُحمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ**»، فَلَا مُستَجيبَ، ورَكبتِ الإِبلُ بَعضُهَا بَعضًا، والعباسُ آخِذٌ بلجَامِ بغلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، والتَفَتَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى أبِي سُفيانَ بنِ الحارِثِ بنِ عَبدِ المُطلبِ وكَانَ ممَّن صبرَ يومَئذٍ معَ رسولِ اللهِ ﷺ، وكانَ حسَنَ الإسلامِ حينَ أسلَمَ وهُو آخذٌ بذَيلِ بَغلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: «**مَن هَذا؟**»، قالَ: ابنُ أمِّكَ يَا رسُولَ اللهِ.

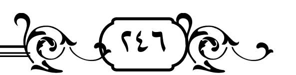
ولمَّا انْهَزَمَ الناسُ تكلَّمَ رجالٌ بمَا فِي أنفُسِهِم مِن الضِّغْنِ، وصَرخَ أخٌ لصَفوانَ بنِ أميَّةَ لأُمِّهِ: أَلَا بَطلَ السِّحرُ اليومَ، فقالَ لهُ صَفوانُ: اسكُت فَضَّ اللهُ فَاكَ، فَواللهِ لأَن يَرُبَّنِي رَجلٌ مِن قُريشٍ أَحَبُّ إليَّ مِن أن يَرُبَّنِي رجُلٌ مِن هَوازِنَ،

وكانَ صفوَانُ مُشرِكًا آنذَاكَ.

ولقِيَ أبُو طلحَةَ أمَّ سُلَيمٍ ﵂ ومعَهَا خِنجَرٌ، فقَالَ لهَا: مَا هذَا؟ فقَالَت: إنْ دنَا مِنِّي بعضُ المُشركينَ بَعجْتُ بهِ بَطنَهُ، فقالَ أبُو طلحَةَ ﵁: أمَا تسمَعُ ما تقُولُ أمُّ سُلَيْمٍ يا رسُولَ اللهِ؟ فضَحِكَ ﷺ.

ثُم لَم يَلبَثُوا إلا وقَد هزَمَهُمُ اللهُ ووَلَّوْا مُدبِرِينَ، وجِيءَ بِهِم أُسَارَى بينَ يَدَي رَسُولِ اللهِ ﷺ.





(٢٥) قِتالُ النَّبيِّ ﷺ في غَزوَةِ حُنَينٍ وامتِنَانُهُ عَلَى هَوازِنَ

لمَّا دَارَتْ رَحَى الحَربِ يَومَ حُنينٍ، وحشَدَ مُشرِكُو هوَازِنَ عَلى المُسلمينَ حتَّى أجلَوْهُم عَن أماكِنِهِم، قامَ رسُولُ اللهِ ﷺ فبَرزَ عَلى بَغلَتِهِ البَيضاءِ، وأبُو سُفيانَ بنُ الحَارثِ رضي الله عنه آخِذٌ بزِمامِهَا، وهُو يَقُولُ:

أَنَــــا النَّبِـــــيُّ لا كَــــــذِبْ   أَنَـــا ابــــنُ عَــــبدِ المُطَّلِــــبْ

وهذا في غايةِ مَا يكونُ مِنَ الشَّجاعَةِ التامَّةِ، فإنَّهُ في مِثلِ هذَا اليومِ في حَومَةِ الوَغَى، وقَدِ انكشَفَ عنهُ جَيشُهُ، وهُو معَ ذَلكَ عَلى بَغلَةٍ لَيسَت سَريعَةَ الجَريِ، ولا تصلُحُ لِكَرٍّ وَلا لِفَرٍّ ولَا لِهَرَبٍ، وهُو مَعَ هذَا يَركُضُهَا إلَى وجُوهِهِم ويُنَوِّهُ باسمِهِ ليَعرِفَهُ مَن لَم يَعرِفْهُ ﷺ، ولهَذَا قالَ البَراءُ: لقَد كُنَّا إذَا حمِيَ البأسُ نتَّقِي برَسُولِ اللهِ ﷺ، وإنَّ الشجَاعَ الذِي يُحاذِي بهِ.

ومَا هذَا كُلُّهُ إلا ثقَةً باللهِ، وتَوَكُّلًا عَليهِ، وعِلمًا منهُ بأنَّهُ سينصُرُهُ، ويُتِمُّ مَا أرسَلَهُ بِهِ، ويُظهِرُ دِينَهُ عَلى سائرِ الأديَانِ.

ولمَّا رَأى ﷺ مِن الناس مَا رَأى قالَ: «**يَا عبَّاسُ، نادِ: يَا مَعشَرَ الأنصَارِ، يَا أصحَابَ الشَّجرَةِ**»، فَأجَابُوهُ: لَبَّيكَ لَبَّيكَ، فجَاءُوا وسُيوفُهُم بِأيمَانِهِم كأنَّهَا الشُّهُبُ، وجعَلَ الرجُلُ يَذهَبُ ليَرُدَّ بَعيرَهُ فَلَا يَقدِرُ على ذلكَ، فيقذِفُ دِرعَهُ في عُنقِهِ،

ويَأخُذُ سيفَهُ وقَوسَهُ، ثُم يَؤمُّ الصوتَ حتَّى اجتمَعَ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ مِنهُم مائَةٌ، فاستَعرَضَ الناسُ فَاقتَتَلُوا، وكَانَتِ الدَّعوَةُ أولَ مَا كانَت بِالأنصَارِ، ثُم جُعِلَت آخِرًا بالخَزرَجِ، وكانُوا صُبُرًا عندَ الحَربِ، فأشرَفَ رسُولُ اللهِ ﷺ في رَكائِبِهِ فنَظَرَ إلَى مُجتَلَدِ القَومِ فقالَ: «**الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ**».

فمَا رَجَعَتْ راجعَةُ الناسِ إلَّا والأُسارَى عندَ رسولِ اللهِ ﷺ مُكَتَّفُونَ، فقَتلَ اللهُ منهُم مَن قَتلَ، وانْهَزمَ منهُم مَن انْهَزمَ، وأفاءَ اللهُ عَلى رسولِهِ ﷺ أموالَهُم وأبناءَهُم.

قالَ العباسُ ﵁: شَهدتُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ يومَ حُنَينٍ، فلزِمْتُهُ أنَا وأبُو سُفيَانَ ابنُ الحارِثِ لا نُفارِقُهُ، ورسُولُ اللهِ ﷺ على بَغلَةٍ بيضَاءَ، فلمَّا التَقَى الناسُ وَلَّى المسلمُونَ مُدبِرينَ، فطفِقَ رسُولُ اللهِ ﷺ يركُضُ بَغلتَهُ قِبلَ الكُفارِ، وأنَا آخذٌ بلِجامِهَا أكفُّهَا إرادَةَ ألَّا تُسرِعَ، وأبُو سفيانَ آخِذٌ برِكابِ رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**أيْ عَبَّاسُ، نَادِ أصحَابَ السَّمُرَةِ** -يعني الشَّجَرة-، **فوَاللهِ لكَأَنَّمَا عَطفتُهُم حِينَ سَمِعُوا صَوتِي عَطفَةَ البَقَرِ عَلَى أَولَادِهَا**»، فقَالُوا: يَا لَبَّيكَاهُ، يَا لَبَّيكَاهُ، فاقتتَلُوا هُم والكفَّارُ، والدعوَةُ في الأنصَارِ يقُولُونَ: يا معشَرَ الأنصارِ، يا معشرَ الأنصَارِ، ثُم قُصِرَتِ الدَّعوةُ عَلى بنِي الحارثِ بنِ الخزرجِ، فقالُوا: يا بَني الحارثِ ابنِ الخَزرجِ، فنظَرَ رسُولُ اللهِ ﷺ وهُو عَلى بغلَتِهِ، كالمُتطاولِ عَليهَا إلَى قتَالِهِم فقالَ: «**هَذَا حِينَ حَمِيَ الوَطِيسُ**»، ثُم أخذَ ﷺ حصيَاتٍ فرَمَى بِهنَّ في وجُوهِ الكفَّارِ، ثُم قالَ: «**شَاهَتِ الوجُوهُ، انْهزَمُوا ورَبِّ مُحمَّدٍ**»، فذَهبْتُ أنظُرُ فإذَا القتالُ عَلى هيئَتِهِ فيمَا أرَى، فوَاللهِ مَا هُو إلَّا أنْ رمَاهُم رسولُ اللهِ ﷺ بحصيَاتِهِ، فمَا خلقَ اللهُ مِنهُم

إنسانًا إلا مَلأَ عينَيْهِ تُرابًا مِن تلكَ القَبضَةِ، فوَلَّوْا مُدبِرِينَ، فمَا زِلتُ أرَى حدَّهُم كَلِيلًا، وأمرَهُمْ مُدبِرًا.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ ﵁: كنتُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ يومَ حُنَينٍ فَولَّى عنهُ النَّاسُ، وثبَتَ معَهُ ثَمانونَ رَجُلًا منَ المُهاجِرينَ والأنصَارِ، فرَجَعنَا على أقدَامِنَا نَحوًا مِن ثَمانِينَ قَدَمًا، ولَم نُولِّهِم الدبُرَ، وهُمُ الذينَ أنزلَ اللهُ عَليهِم السَّكينَةَ، قالَ تعَالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:٢٦]، أَي: أنزَلَ طُمأنينَتَهُ وثبَاتَهُ عَلى رسُولِهِ وعَلى المُؤمنينَ الذِينَ مَعهُ.

ثُم بَعثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن حُنَينٍ أبَا عامرٍ الأشعَرِيَّ ﵁ عَلى جَيشٍ إلَى أوطَاسٍ، فلَقِيَ دُريدَ بنَ الصِّمَّةِ، فقُتِلَ دُرَيدٌ وهَزَمَ اللهُ أصحَابَهُ.

ورَمَى رجلٌ أبَا عامرٍ بسَهمٍ فِي رُكبتِهِ، فحبَسَهُ، فجاءَ أبُو مُوسَى الأشعريُّ ﵁ فوصَلَ إلَيهِ وقَالَ: يا عَمِّ، مَن رمَاكَ؟ فأشارَ إلَيهِ فقالَ: ذاكَ قَاتِلي الذي رمَانِي.

قالَ أبُو مُوسَى: فقَصدتُ إلَيهِ فَلَحِقْتُهُ، فلمَّا رآنِي هربَ، فاتبعتُهُ وجَعلتُ أقولُ لهُ: ألا تَستَحِي؟ ألا تَثبُتُ؟ فوَقَفَ، فاختَلفنَا ضربَتَيْنِ بالسَّيفِ فقَتلتُهُ، ثُم قلتُ لأَبِي عَامرٍ: قتلَ اللهُ صاحبَكَ، قالَ: فانزِعْ هذَا السهمَ، فنَزعتُهُ فخرجَ منهُ الماءُ، قالَ: يا ابنَ أخِي أقرِئْ رسولَ اللهِ ﷺ السلامَ، وقُل لهُ: استغفِرْ لِي، واستخلَفَنِي أبُو عامرٍ عَلى الناسِ، فمَكثَ يَسِيرًا ثُم ماتَ، فرَجَعْتُ فَدخَلْتُ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَيتِهِ عَلى سَريرٍ مُرَمَّلٍ، وعَليهِ فراشٌ قد أَثَّرَ رملُ السريرِ بظَهرِهِ وجَنبَيْهِ، فأخبَرتُهُ بخَبَرنَا وخَبَرِ أبِي عَامرٍ وقولِهِ: قُل لهُ: استَغفِرْ لِي، فدعَا بمَاءٍ فتَوضَّأَ، ثُم رَفَعَ يَديهِ فقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لعُبَيدٍ أَبِي عَامِرٍ**»، ورَأيتُ بياضَ إِبطَيْهِ، ثُم

قالَ: «**اللَّهُمَّ اجعَلْهُ يَومَ القيامَةِ فَوقَ كَثيرٍ مِن خَلقِكَ**»، فقُلتُ: وَلِي فَاستَغفِرْ، فقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لعَبدِ اللهِ بنِ قَيسٍ ذَنبَهُ، وأَدخِلْهُ يَومَ القِيامَةِ مُدخَلًا كَرِيمًا**».

ولمَّا أصابَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يومَ أوطاسٍ سبايَا لهُنَّ أزوَاجٌ مِن أهلِ الشِّركِ، كانَ أناسٌ مِن أصحابِ رسُولِ اللهِ ﷺ كَفُّوا وتَأَثَّمُوا مِن غشيَانِهِنَّ، فَنزَلَ فِي ذلكَ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

ثُم سارَ رسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الطَّائفِ، وذلك في شوالٍ سنَةَ ثمَانٍ، فأغلَقَتْ ثَقيفٌ أبوَابَ مَدينَتِهَا، وصنَعُوا الصنائِعَ للقتَالِ، فمضَى رسُولُ اللهِ ﷺ حتَّى نزَلَ عندَ حِصنِ الطَّائفِ، فضَربَ بِهِ عَسكَرَهُ، وحَاصرَهُم ثَلاثينَ لَيلَةً يُقاتِلُهُم ويُقاتِلُونَهُ مِن وراءِ حِصنِهِم، فقُتلَ نَاسٌ مِن أصحابِهِ بالنَّبلِ، فلمَّا لَم ينَلْ مِنهُم شَيئًا، قالَ لِمَن معَهُ: «**إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ**»، فثَقُلَ عَليهِم، وقالُوا: نذهَبُ ولا نَفتحُهُ؟ فقَالَ: «**اغْدُوا عَلى القتَالِ**»، فغَدَوْا، فأصَابَهُم جرَاحٌ، فقَالَ: «**إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ**»، فَأَعجَبَهُم، فضَحِكَ النَّبيُّ ﷺ.

ثم خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ حينَ انصرَفَ عَنِ الطَّائفِ حَتَّى نزَلَ بالجعرَانَةِ فيمَن معَهُ مِن المُسلمِينَ، وكانَ معَ رسُولِ اللهِ ﷺ مِن سَبْيِ هوازِنَ ستَّةُ آلافٍ منَ الذَّرَارِي والنسَاءِ، ومِنَ الإبلِ والشَّاءِ مَا لَا يُدرَى عَدَدُهُ، فأتَاهُ وَفدُ هَوازِنَ بالجعرانَةِ، وقَد أسلَمُوا، فقَالُوا: يَا رسُولَ اللهِ، إنَّا أصلٌ وعَشيرَةٌ، وقَد أصابَنَا مِنَ البَلاءِ مَا لَم يَخفَ عَليكَ، فامنُنْ عَلينَا مَنَّ اللهُ عَليكَ، وقامَ خَطيبُهُم زُهيرُ بنُ صُرَدٍ، فقالَ: يَا رسُولَ اللهِ، إنَّ مَا فِي الحظائِرِ مِن السَّبايَا خَالاتُكَ وعَمَّاتُكَ وحَواضِنُكَ اللاتِي كُنَّ يَكفُلْنَكَ، وأَنتَ يَا رسُولَ اللهِ خَيرُ المَكفُولِينَ، ثُم أنشَأَ يَقُولُ:

امْـنُنْ عَلَيـنَا رَسُـولَ اللهِ فِـي كَـرَمٍ فَإِنَّــكَ المَــرْءُ نَــرجُوهُ ونَدَّخِــرُ

امْـنُنْ عَلَـى بَيـضَةٍ قَـدْ عَاقَهَـا قَـدَرٌ مُمَــزَّقٌ شَــمْلُهَا فِـي دَهْـرِهَا غِيَـرُ

أَبْقَـتْ لهَـا الحَـربُ هُتَّافًا عَلَى حَزَنٍ عَلَــى قُلُــوبِهِمُ الغَمَّــاءُ وَالغِمَــرُ

إِنْ لَـمْ تَـدَارَكَهُمْ نَعمَـاءُ تَنـشُرُهَا يَـا أَرْجَحَ النَّاسِ حِلْمًا حِينَ يُختَبَرُ

امْنُنْ عَلَى نِسوَةٍ قَد كُنتَ تَرْضَعُهَا إِذْ فُـوكَ تَملَـؤُهُ مِـن مَحضِهَا الـدُّرَرُ

إِذْ كُنْت طِفْلًا صَغِيرًا كُنْت تَرْضَعُهَا وَإِذْ يَــزِينُكَ مَـا تَأتِــي وَمَــا تَــذَرُ

لَا تَجعَلَــنَّا كَمَــنْ شَــالَتْ نَعَامَــتُهُ وَاســتَبْقِ مِــنَّا فَإِنَّــا مَعــشَرٌ زُهُــرُ

إِنَّـــا لَنَـــشْكُرُ آلَاءً وَإِنْ كُفِـــرَتْ وَعِــندَنَا بَعــدَ هَــذَا الـيَومِ مُدَّخَــرُ

فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**نِسَاؤُكُم وَأَبنَاؤُكُم أَحَبُّ إِلَيكُم أَم أَموَالُكُم؟**» فقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، خَيَّرْتَنَا بَينَ أحسَابنَا وأموالِنَا، بَل أبنَاؤنَا ونسَاؤُنا أحبُّ إلَينَا، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُم، وَإِذَا أَنَا صَلَّيتُ بِالنَّاسِ فَقُومُوا فَقُولُوا: إِنَّا نَستَشْفِعُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى المُسلِمِينَ، وبِالمُسلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أبنَائِنَا ونِسَائِنَا، فَإِنِّي سَأُعطِيكُم عِندَ ذَلكَ وَأَسأَلُ لَكُمْ**».

فلمَّا صلَّى رسولُ اللهِ ﷺ بالنَّاسِ الظهرَ، قامُوا فقالُوا مَا أمرَهُم بهِ رسُولُ اللهِ ﷺ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُم**».

ثُم قامَ رسولُ اللهِ ﷺ في المُسلمينَ فأثنَى عَلى اللهِ بمَا هُو أهلُهُ، ثُم قالَ: «**أَمَّا بَعدُ، فَإِنَّ إِخوَانَكُم هَؤُلاءِ قَد جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَد رَأَيتُ أَن أَرُدَّ إِلَيهِمْ سَبْيَهُم، فَمَنْ أَحَبَّ مِنكُم أَنْ يَطِيبَ عَن ذَلِكَ فَلِيَفعَلْ، ومَن أَحَبَّ مِنكُم أَن يَكُونَ عَلَى**

حَظِّهِ حتَّى نُعطِيَهُ إِيَّاهُ مِن أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللهُ عَلَينَا فَليَفْعَلْ».

فقالَ المُهاجرونَ: مَا كانَ لنَا فَهُو لرسُولِ اللهِ ﷺ، وقَالَتِ الأنصارُ: وما كانَ لنَا فَهُو لرسُولِ اللهِ ﷺ.

ثُم ركبَ رسُولُ اللهِ ﷺ واتبعَهُ الناسُ يَقولُونَ: يَا رسُولَ اللهِ، اقْسِم عَلينَا فَيئنَا، حتَّى اضطرُّوهُ إلَى شَجرَةٍ فانتَزَعَتْ رِدَاءَهُ، فقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، رُدُّوا عَليَّ ردَائِي، فوَالذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَو كَانَ لَكُم عِندِي عَدَدُ شَجرِ تِهَامَةَ نَعَمًا لَقَسمْتُهُ عَلَيكُمُ، ثُمَّ مَا أَلفَيْتُمُونِي بَخِيلًا وَلا جَبَانًا وَلا كَذَّابًا**».

ثُم إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قسَمَ الغنائِمَ كمَا أمرَهُ اللهُ ﷻ، وآثَرَ أُنَاسًا في القِسمَةِ، وقَسمَ للمُتأَلَّفِينَ مِن قُرَيشٍ وسائِرِ العَرَبِ مَا قسَمَ، ولَم يَكُن في الأنصَارِ منهَا شيءٌ قَليلٌ وَلَا كثيرٌ، فعَتَبَ عليهِ نَاسٌ منَ الأنصَارِ، فقَالُوا: لقِيَ واللهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ قومَهُ، يَغفِرُ اللهُ لرسُولِ اللهِ ﷺ، يُعطِي قُريشًا ويَتْرُكُنَا وسيوفُنَا تَقطُرُ مِن دِمَائِهِم؟!

ومشَى سَعدُ بنُ عُبادَةَ ﵁ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ فقالَ: يا رسُولَ اللهِ، إنَّ هذَا الحيَّ مِنَ الأنصَارِ قَد وجَدُوا عَليكَ فِي أنفُسِهِم، فقَالَ: «**فِيمَ؟**»، قَالَ: فِيمَا كَانَ مِنْ قَسمِكَ هَذِهِ الغنَائِمَ في قَومِكَ وفِي سَائِرِ العَربِ، ولَم يَكُن لَهُم مِن ذَلكَ شَيءٌ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَأَينَ أَنتَ مِن ذَلكَ يَا سَعدُ؟**»، قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا امرُؤٌ مِن قَومِي، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَاجْمَعْ لِي قَومَكَ فِي هَذِهِ الحَظيرَةِ، فَإِذَا اجتَمَعُوا فَأَعْلِمْنِي**».

فخَرجَ سَعدٌ فصَرَخَ فِيهِم، فجمَعَهُم فِي تِلكَ الحَظِيرَةِ، فجَاءَ رجَالٌ مِن المُهاجِرينَ، فأذِنَ لَهُم فَدَخَلُوا، وجَاءَ آخرُونَ فَرَدَّهُم، حتَّى إذَا لَم يَبقَ مِن الأنصَارِ

أحدٌ إلَّا اجتمَعَ لَهُ، أتَاهُ فقَالَ: يَا رسُولَ اللهِ، قَدِ اجتَمَعَ لكَ هَذا الحيُّ منَ الأنصَارِ حيثُ أمَرتَنِي أن أجمَعَهُم، فخرَجَ رسُولُ اللهِ ﷺ فقامَ فِيهِم خَطِيبًا، فحمِدَ اللهَ وَأثنَى عَليهِ بمَا هُو أهلُهُ، ثُم قَالَ: «**يَا مَعشَرَ الأَنصَارِ، أَلَم آتِكُم ضُلَّالًا فهَدَاكُمُ اللهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ، وَأَعداءً فَأَلَّفَ اللهُ بَينَ قُلُوبِكُم؟**» قَالُوا: بَلَى، ثُم قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا تُجيبُونَنِي يَا مَعشَرَ الأنصَارِ؟**» قَالُوا: ومَا نَقُولُ يَا رسُولَ اللهِ؟ وبِمَاذَا نُجِيبُكَ؟ المَنُّ للهِ وَلِرَسُولِهِ، قَالَ: «**أَمَا وَاللهِ لَو شِئتُم لقُلتُم فصَدَقْتُم وصُدِّقْتُم: جِئتَنَا طَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ، وخَائِفًا فأَمَّنَّاكَ، ومَخذُولًا فنَصَرْنَاكَ**»، فقَالُوا: المَنُّ للهِ وَلِرَسُولِهِ.

فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَجَدْتُم فِي نُفُوسِكُم يَا مَعشَرَ الأَنصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِن الدنيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَومًا أَسلَمُوا، ووَكَلتُكُمْ إِلَى مَا قَسَمَ اللهُ لَكُم مِنَ الإِسلَامِ؟! أَفَلَا تَرضَوْنَ يَا مَعشَرَ الأَنصَارِ أَنْ يَذهَبَ النَّاسُ إِلَى رِحَالِهِم بِالشَّاءِ وَالبَعِيرِ، وتَذهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ إِلَى رِحَالِكُم؟ فوَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَو أَنَّ النَّاسَ سَلَكُوا شِعْبًا وَسَلَكَتِ الأَنصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعبَ الأَنصَارِ، وَلَولَا الهِجرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنصَارَ وَأَبنَاءَ الأَنصَارِ وَأَبنَاءَ أَبنَاءِ الأَنصَارِ**»، فَبَكَى القَومُ حتَّى أَخضَلُوا لِحَاهُم، وقالُوا: رَضِينَا بِاللهِ ورَسُولِهِ قَسْمًا، فقَالَ لَهُمُ النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَلقَوْنَ بَعدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلقَوْنِي عَلَى الحَوْضِ**»، وقَالَ: «**إِنِّي أُعطِي قَومًا أَخَافُ ظَلَعَهُم وجَزَعَهُم، وَأَكِلُ قَومًا إِلَى مَا جَعلَ اللهُ فِي قُلوبِهِم مِنَ الخَيرِ والغِنَى، مِنهُم عَمرُو بنُ تَغلِبَ**»، قَالَ عَمرٌو رضي الله عنه: فمَا أُحبُّ أَنَّ لِي بكَلمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ، ثُم انصَرَفَ وَتَفَرَّقُوا.

ولمَّا فتحَ اللهُ عَلى رسولِهِ ﷺ يومَ حُنينٍ وجِيءَ لهُ بِالأسرَى، جاءَت إلَيهِ جاريَةٌ فقالَتْ: يَا رسولَ اللهِ، إنِّي أُختُكَ منَ الرضاعَةِ، قالَ: «**وَمَا عَلَامَةُ ذَلِك؟**»، قَالَت: عَضَّةٌ عَضَضْتَنِيهَا فِي ظَهرِي وأَنَا مُتَورِّكَتُكَ، فعَرفَ رسُولُ اللهِ ﷺ العلامَةَ، فبَسطَ لهَا ردَاءَهُ فأجلَسَهَا عَليهِ، وخَيَّرَهَا وقالَ: «**إِن أَحبَبْتِ فَعِندِي مُحَبَّةٌ مُكرَّمَةٌ، وَإِن أَحبَبْتِ أَنْ أُمَتِّعَكِ وَتَرجِعِي إِلَى قَومِكِ فَعلْتُ**»، قَالَت: بَل تُمتِّعُنِي وتَرُدُّنِي إلى قومِي، فمَتَّعَها رسولُ اللهِ ﷺ وردَّها إلَى قَومِهَا.

ثُم إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سأَلَ وفدَ هَوازِنَ لمَّا قَدِمُوا عَليهِ يَسألُونَ الأَسرَى: «**مَا فَعلَ مَالكُ بنُ عَوفٍ؟**»، فقَالُوا: هُو بالطَّائفِ مَعَ ثَقيفٍ، فقَالَ ﷺ: «**أَخبِرُوهُ أَنَّهُ إِنْ أَتَانِي مُسلِمًا رَددْتُ إِلَيهِ أَهلَهُ ومَالَهُ وَأَعطَيتُهُ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ**».

فلمَّا بلغَ ذلكَ مَالِكًا انسَلَّ مِن ثَقيفٍ، حتَّى أتَى رسُولَ اللهِ ﷺ وهُوَ بِالجِعرانَةِ أَو بمَكَّةَ، فأسلَمَ وحسُنَ إسلامُهُ، فردَّ عليهِ أهلَهُ ومالَهُ، وأعطَاهُ مائةً مِنَ الإبلِ.

واعتمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ مِن الجِعرانَةِ، فرَمَلُوا بالبَيتِ ثَلاثًا ومَشَوا أَربعًا، وجعَلُوا أردِيَتَهُم تَحتَ آبَاطِهِم، ثمَّ قَذَفُوها عَلى عواتِقِهِمُ اليُسرَى، فلمَّا فرَغَ رسُولُ اللهِ ﷺ مِن عُمرَتِهِ انصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى المَدينَةِ.

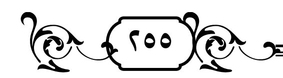
وفِي شَهرِ ذِي الحجَّةِ مِن هذَا العامِ وُلِدَ إبراهيمُ بنُ رسُولِ اللهِ ﷺ مِن مَاريَةَ القِبطيَّةِ، فاشتَدَّتْ غَيرَةُ أمهاتِ المُؤمنينَ منهَا حينَ رُزِقَت وَلدًا ذَكَرًا، وخرَجَ أَبُو رافِعٍ ﵁ إِلَى رسولِ اللهِ ﷺ فبشَّرَهُ بهِ فأعطَاهُ مَملُوكًا.

وفي هذا العَامِ أرسَلَ النبيُّ ﷺ جريرَ بنَ عبدِ اللهِ ﵁ لتَخريبِ ذِي الخَلصَةِ، وكَانَت وثنًا يُعبدُ مِن دُونِ اللهِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ لجَريرٍ: «**أَلا تُريحُنِي مِن ذِي الخَلَصَةِ؟**»،

قَالَ: بَلى، فانطلَقَ فِي مِائةٍ وخَمسينَ فَارسًا، وكانُوا أصحَابَ خَيلٍ، وكانَ جَريرٌ لَا يثبُتُ عَلى الخَيلِ، فذكرَ ذلكَ للنبيِّ ﷺ، فضرَبَ يدَهُ فِي صَدرِهِ حتَّى رَأى أثَرَ يدِ النَّبيِّ ﷺ فِي صَدرِهِ، وقالَ: «**اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ وَاجعَلْهُ هَادِيًا مَهدِيًّا**»، فمَا وقعَ عَن فرسٍ بَعدُ، وكانَ ذُو الخلصَةِ بَيتًا باليَمنِ لخَثعَمٍ وبَجِيلَةَ، فيهِ نُصُبٌ تُعبَدُ، يُقالُ لهُ: الكعبَةُ اليَمانيَّةُ، فأتَاهَا جريرٌ فحرَّقَهَا فِي النَّارِ وكسَّرَهَا.

ولما قدِمَ جريرٌ اليَمنَ كانَ بِها رجلٌ يَستقسِمُ بِالأزلامِ، فقيلَ لهُ: إنَّ رسُولَ رسُولِ اللهِ ﷺ هَاهُنا، فإن قدَرَ عَليكَ ضَربَ عُنقَك، فبينَمَا هو يَستقسِمُ بِالأزلامِ إذ وقفَ عَليهِ جريرٌ، فقَالَ: لتَكسرَنَّهَا وتَشهدُ أَن لا إلهَ إلَّا اللهُ أو لأَضرِبَنَّ عُنقَكَ؟ فكَسَرَهَا وشهِدَ، ثمَّ بعثَ جَريرٌ رجُلًا مِن أحْمَسَ إلَى النبيِّ ﷺ يُبشِّرُهُ بذَلك، فلمَّا أتَى إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ قالَ: يا رسُولَ اللهِ، والذِي بعثَكَ بالحقِّ مَا جئتُ حتَّى تركتُهَا كأنَّها جَملٌ أجرَبُ، فبَرَّكَ رسولُ اللهِ ﷺ على خَيلِ أحْمَسَ ورجالِهَا خَمسَ مَرَّاتٍ.

❊ ❊ ❊



(٢٦) غَـزوَةُ تَـبُـوكَ

في سنَةِ تِسعٍ منَ الهِجرَةِ كانَت غَزوَةُ تَبوكَ، حيثُ جاءَتِ الأخبارُ إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ أنَّ الرومَ قَد جَمَعَت جُموعًا كثيرةً بالشَّامِ لغَزوِ المُسلمينَ، فعزَمَ رسُولُ اللهِ ﷺ عَلى قتَالِهِم بسَببِ ذلكَ، ولأنَّهُم أقربُ الناسِ إلَيهِ وأَولَى الناسِ بالدَّعوَةِ إلَى الحقِّ، لقُربِهِم إلى الإسلامِ وأهلِهِ، قالَ اللهُ تعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:١٢٣].

فلمَّا عزَمَ رسُولُ اللهِ ﷺ عَلى غَزْوِهِم، جَلَّى للناسِ أمرَهَا، وكانَ رسُولُ الله ﷺ قلَّمَا يخرجُ في غزوَةٍ إلا كنَّى عنهَا، إلا مَا كانَ من غزوَةِ تَبوكَ فإنَّهُ بيَّنَها للنَّاسِ، لِمَا فِيهَا مِنَ المَشقَّةِ، وضِيقِ الحَالِ، وشدَّةِ الزمَانِ، وجَدبِ البِلادِ، وشدَّةِ الحَرِّ، وكَثرَةِ العَدُوِّ الذِي يَقصِد إلَيهِ، ليتأهَّبَ الناسُ لذَلكَ أُهبَتَهُ، خُصوصًا وقَد طابَتِ الثمَارُ، فالنَّاسُ يُحبونَ المقَامَ فِي ثمَارِهِم وظِلالِهِم، ويَكرهُونَ الخُروجَ مِن مِثلِ هذَا الحالِ الذِي هُم عَليهِ.

ودَعا ﷺ مَن حَولَهُ مِن أحياءِ الأعرَابِ للخُروجِ معَهُ، فاستَوعَبَ مَعهُ بَشرًا كَثيرًا بَلَغُوا قَرِيبًا مِن ثَلاثِينَ أَلْفًا.

فلمَّا أمرَ الناسَ بالجهادِ، وأخبرَهُم أنهُ يُريدُ الرومَ، تخلَّفَ عَنهُ قَومٌ، فعاتَبَ اللهُ

مَن تخلَّفَ منهُم لغَيرِ عُذرٍ مِنَ المُنافقينَ والمُقصِّرينَ، ولَامَهُم ووَبَّخَهُم وقَرَّعَهُم أَشَدَّ التَّقريعِ، وفَضَحَهُم أشدَّ الفَضيحَةِ، وأنزَلَ فِيهِم قُرآنًا يُتلَى، فَقَد قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ وهُو في جهازِهِ للجَدِّ بنِ قَيسٍ: «**يَا جَدُّ، هَل لَكَ فِي جِلَادِ بَنِي الأَصْفَرِ؟**»، فقَالَ: يَا رسُولَ اللهِ، أو تَأذن لِي ولا تَفتِنِّي، فوَاللهِ لقَد عَرفَ قَومِي أنهُ مَا مِن رجلٍ بأعجَبَ بالنسَاء مِنِّي، وإنِّي أخشَى إن رَأيتُ نسَاءَ بنِي الأصفَرِ ألَّا أصبِرَ، فَأعرَضَ عَنهُ رسُولُ اللهِ ﷺ وقالَ: «**قَد أَذِنْتُ لَكَ**»، فأنزَلَ اللهُ فِيهِ هذِهِ الآيَةَ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة:٤٩].

وقالَ بعضُ المُنافقينَ لبعضٍ: لا تَنفِرُوا في الحرِّ، زهادَةً في الجهَادِ، وشكًّا في الحقِّ، وإرجَافًا بالرسُولِ ﷺ، فأنزَلَ اللهُ تعالى فيهِم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:٨١-٨٢].

ثُم إنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ جَدَّ في سَفرِهِ وأمرَ الناسَ بالجَهَازِ، وحضَّ أهلَ الغِنَى على النفقَةِ والحُمْلانِ في سَبيلِ اللهِ، فحمَلَ رجالٌ مِن أهلِ الغِنى واحتسَبُوا، وأنفقَ عثمانُ بنُ عفَّانَ رضي الله عنه نفقَةً عظيمَةً لَم يُنفِقْ أحَدٌ مِثلَهَا، فقد جاءَ عثمانُ بنُ عفانَ إلى النبيِّ ﷺ بألفِ دِينارٍ في ثَوبِهِ حِينَ جَهزَ النبيُّ ﷺ جيشَ العُسرَةِ، فصَبَّهَا في حِجرِ النبيِّ ﷺ، فجعلَ النبيُّ ﷺ يَقلبُهَا بيدِهِ ويقُولُ: «**مَا ضَرَّ عُثمَانَ مَا عَمِلَ بَعدَ اليَومِ**»، وقَالَ: «**اللَّهُمَّ ارْضَ عَن عُثمَانَ فَإِنِّي عَنهُ رَاضٍ**».

وقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن جَهَّزَ جَيشَ العُسرَةِ غَفَرَ اللهُ لَهُ**»، فجَهَّزَهُم عثمَانُ

حتَّى مَا يفقِدُونَ خِطَامًا ولا عِقَالًا.

واستخلَفَ رسُولُ اللهِ ﷺ عَلى المَدينَةِ مُحمَّدَ بنَ مَسلمَةَ الأنصَارِيَّ، وخَلَّفَ عَليَّ بنَ أَبِي طالبٍ عَلى أهلِهِ وأمرَهُ بالإقامَةِ فِيهِم، فأرجَفَ بِهِ المنافقُونَ، وقالُوا: مَا خلفَهُ إلا استِثقَالًا لهُ وتَخفُّفًا مِنهُ، فلمَّا قالُوا ذلكَ أخذَ عليٌّ سِلاحَهُ، ثُم خرَجَ حتَّى لحِقَ برسُولِ اللهِ ﷺ وهو نازِلٌ بالجُرْفِ، فأخبَرَهُ بمَا قالُوا، وقالَ: يَا رسُولَ اللهِ، أتُخلِفُنِي فِي النساءِ والصِّبيانِ؟ فقالَ: «**كَذَبُوا، ولَكِنِّي خَلَّفْتُكَ لِمَا تَركتُ وَرَائِي، فَارجِعْ فاخْلُفْنِي فِي أَهْلِي وَأَهْلِكَ، أَفَلَا تَرضَى يَا عَليُّ أَن تَكُونَ مِنِّي بمَنزِلَةِ هَارُونَ مِن مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعدِي؟**»، فرجَعَ عَليٌّ ومَضَى رسولُ اللهِ ﷺ في سَفَرِهِ.

ولمَّا أجمَعَ رسُولُ اللهِ ﷺ على المَسيرِ وسارَ بعَسكرِهِ، تخلَّفَ عنهُ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ فِي طائفَةٍ كبيرَةٍ من المُنافقينَ وأهلِ الرَّيبِ.

وقَد تخلَّفَ أبُو خَيثَمَةَ عَن رسولِ اللهِ ﷺ بعدمَا سارَ أيَّامًا، فرجعَ إلى أهلِهِ في يَومٍ حارٍّ، فوجَدَ امرأتيْنِ لهُ في عَرِيشَيْنِ لهُما في بُستانِهِ، قَد رَشَّت كُلُّ واحدَةٍ مِنهُما عَريشَهَا، وبَرَّدَتْ فيهِ ماءً، وهيَّأَتْ لَهُ فِيهِ طعَامًا، فلمَّا دخلَ قامَ عَلى بابِ العَريشِ، فنظَرَ إلَى امرأتَيْهِ ومَا صنَعَتَا لَهُ، فقالَ: رسُولُ اللهِ ﷺ في الشَّمسِ والرِّيحِ والحَرِّ، وأبُو خَيثَمَةَ فِي ظلٍّ باردٍ وطعامٍ مُهيَّأٍ وامرَأةٍ حسنَاءَ، فِي مالِهِ مُقيمٌ، مَا هَذَا بالنَّصَفِ؟!

ثُم قالَ: واللهِ لا أدخُلُ عَريشَ واحدَةٍ منكُمَا حتَّى ألحقَ برسُولِ اللهِ ﷺ فهيَّأَ زَادَهُ، ثُم قَدَّمَ ناضِحَهُ فارتحَلَهُ، ثُم خرَجَ في طَلَبِ رسُولِ اللهِ ﷺ، حتَّى إذَا دنَا مِن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ الناسُ: هذَا رَاكبٌ عَلى الطريقِ مُقبلٌ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ:

«**كُنْ أَبَا خَيثَمَةَ**»، فقَالُوا: يَا رسُولَ اللهِ، هُو وَاللهِ أبُو خَيثَمَةَ.

فلمَّا بلغَ أقبَلَ فسَلَّمَ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ لهُ: «**أَوْلَى لَكَ يَا أَبَا خَيثَمَةَ**»، ثُم أخبَرَ رسُولَ اللهِ ﷺ الخبَرَ، فقالَ خَيرًا، ودعَا لهُ بخَيرٍ.

وقَد أصابَ جَيشَ المُسلمينَ في هَذهِ الغزوَةِ عُسرٌ ومَشَقَّةٌ حتى سُمِّيَ جيشَ العُسرةِ، قال تَعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ [التوبة:١١٧]، فقَد خرَجُوا في غَزوةِ تَبوكَ الرجُلانِ والثلاثَةُ على بَعيرٍ واحِدٍ، وخَرَجُوا في حَرٍّ شَديدٍ، فأصابَهُم في يَومٍ عطَشٌ حتَّى جعَلُوا يَنحَرُونَ إبلَهُم ليَعصِرُوا أكرَاشَهَا ويَشرَبُوا مَاءَهَا، فكانَ ذلكَ عُسرةً في الماءِ وعُسرَةً فِي النفقَةِ وعُسرَةً في المَركَبِ.

ولمَّا أصابَ الناسَ مجَاعَةٌ وشَقَّ عَليهِمُ الأمرُ، قالُوا: يَا رسُولَ اللهِ، لو أذِنتَ لنَا فنَنحرَ إبلَنَا، فأكَلنَا وادَّهَنَّا، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**افْعَلُوا**»، فجاءَ عُمرُ رضي الله عنه فقَالَ: يَا رسُولَ اللهِ، إن فَعلتَ قَلَّ الظَّهرُ، ولَكن ادْعُهُم بفَضلِ أزوَادِهِم، وادعُ اللهَ لَهُم فيهَا، لعلَّ اللهَ أن يجعَلَ فيهَا البَركةَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَم**»، فدَعَا بِبِساطٍ فبَسطَهُ، ثُم دعَا بفَضلِ أزوَادِهِم، فجعَلَ الرجُلُ يجِيءُ بِكَفِّ ذُرةٍ، ويَجيءُ الآخرُ بكَفٍّ مِنَ التَّمرِ، ويَجيءُ الآخرُ بِكسرَةٍ، حتَّى اجتمَعَ عَلى البسَاطِ مِن ذلكَ شَيءٌ يَسيرٌ، فدعَا رسُولُ اللهِ ﷺ بالبَركةِ، ثُم قالَ لَهُم: «**خُذُوا فِي أَوعِيَتِكُم**»، فأخذُوا في أوعِيَتِهِم حتى مَا تركُوا في العَسكرِ وعَاءً إلَّا مَلأوهُ، وأكَلُوا حتَّى شَبِعُوا، وفضَلَتْ فَضلَةٌ، فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَشهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ وَأنِّي رَسُولُ اللهِ، لا يَلقَى اللهَ بِهَا عَبدٌ غَيرَ شَاكٍّ فَيُحجَبُ عَنِ الجَنَّةِ**».

وفِي هذِهِ المَعركةِ مَرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بالحِجْرِ عندَ بُيوتِ ثَمودَ، فَاستَقَى الناسُ مِن الآبارِ التِي كانَت تَشرَبُ منهَا ثَمودُ، فعجَنُوا ونَصبُوا القُدورَ بِاللَّحمِ، فأمرَهُم رسولُ اللهِ ﷺ أن يُرِيقُوا القُدورَ، ويَعلِفُوا العَجِينَ للإِبلِ، ونَهاهُم أن يَدخُلُوا مَساكِنَهُم، وقالَ: «**لا تَدخُلُوا عَلى هَؤلاءِ القَومِ المُعذَّبِينَ إِلَّا أَن تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَم تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدخُلُوا عَلَيهِم، أَنْ يُصيبَكُم مِثلُ مَا أَصَابَهُمْ**»، وتَقَنَّع بردائِهِ وَهُو عَلى الرَّحْلِ.

ثُم إنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ أقامَ ليَاليَ بتَبوكَ، فلَم يَرَ أثرًا لمَا بَلغَهُ مِنِ اجتماعِ الرُّومِ لقتَالِهِ، فانصرَفَ قَافلًا إلى المَدينَةِ، ولمَّا دنَا من المَدينَةِ قَالَ: «**إِنَّ بِالمَدينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرتُم مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُم وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**»، فقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وهُم بِالمَدينَةِ؟ قالَ: «**وَهُمْ بِالمَدينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ**»، ولمَّا أشرَفَ عَلى المَدينَةِ قَالَ: «**هذِهِ طَابَةُ، وهَذَا أُحُدٌ، جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**».

ولمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى المَدينَةِ عَائِدًا مِن تَبُوكَ، جعَلَ النسَاءُ والصِّبيانُ يقولُونَ:

طَلَـــــعَ الــــبَدرُ عَلَيـــــنَا ... مِــــــن ثَنِـــــيَّاتِ الـــــوَدَاعْ

وَجَـــــبَ الـــــشُّكرُ عَلَيـــــنَا ... مَـــــا دَعَــــا للَّـــــهِ دَاعْ

وكانَت غزوَةُ تَبوكَ آخرَ غزوَةٍ غزَاهَا رسُولُ اللهِ ﷺ.

ولمَّا استقَرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بالمدينَةِ، جاءَهُ كعبُ بنُ مَالكٍ ﷺ، وكانَ قَد تَخَلَّفَ عَن الخُروجِ معَ رسولِ اللهِ ﷺ إلى تَبُوكَ، فكانَ في قصَّتِهِ عِبَرٌ وعَجَبٌ.

قالَ كعبُ بنُ مالكٍ ﷺ: لَم أَتَخَلَّف عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزوَةِ تَبُوكَ، غَيرَ أَنِّي كُنتُ تَخَلَّفتُ فِي غَزوَةِ بَدرٍ، وَلَم يُعَاتِب أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيشٍ، حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَينَهُم وَبَينَ عَدُوِّهِم عَلَى غَيرِ مِيعَادٍ، وَلَقَد شَهِدتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيلَةَ العَقَبَةِ، حِينَ تَوَاثَقنَا عَلَى الإِسلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشهَدَ بَدرٍ، وَإِن كَانَت بَدرٌ أَذكَرَ فِي النَّاسِ مِنهَا، وكَانَ مِن خَبَرِي أَنِّي لَم أَكُن قَطُّ أَقوَى وَلَا أَيسَرَ حِينَ تَخَلَّفتُ عَنهُ فِي تِلكَ الغَزَاةِ، وَاللهِ مَا اجتَمَعَت عِندِي قَبلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ، حَتَّى جَمَعتُهُمَا فِي تِلكَ الغَزوَةِ.

وَلَم يَكُن رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ غَزوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيرِهَا، حَتَّى كَانَت تِلكَ الغَزوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاستَقبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا، وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلمُسلِمِينَ أَمرَهُم لِيَتَأَهَّبُوا أُهبَةَ غَزوِهِم، فَأَخبَرَهُم بِوَجهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالمُسلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَثِيرٌ، وَلَا يَجمَعُهُم كِتَابٌ حَافِظٌ -أي سِجِلٌّ للأَسمَاءِ-، فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَن سَيَخفَى لَهُ، مَا لَم يَنزِل فِيهِ وَحيُ اللهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تِلكَ الغَزوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالمُسلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقتُ أَغدُو لِكَي أَتَجَهَّزَ مَعَهُم، فَأَرجِعُ وَلَم أَقضِ شَيئًا، فَأَقُولُ فِي نَفسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيهِ، فَلَم يَزَل يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشتَدَّ بِالنَّاسِ الجِدُّ، فَأَصبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالمُسلِمُونَ مَعَهُ، وَلَم أَقضِ مِن جَهَازِي شَيئًا، فَقُلتُ: أَتَجَهَّزُ بَعدَهُ بِيَومٍ أَو يَومَينِ، ثُمَّ أَلحَقُهُم، فَغَدَوتُ بَعدَ أَن فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعتُ وَلَم أَقضِ شَيئًا، ثُمَّ غَدَوتُ، ثُمَّ رَجَعتُ وَلَم أَقضِ شَيئًا، فَلَم يَزَل بِي

حَتَّى أَسرَعُوا وَتَفَارَطَ الغَزوُ، وَهَمَمتُ أَن أَرتَحِلَ فَأُدرِكَهُم، وَلَيتَنِي فَعَلتُ، فَلَم يُقَدَّر لِي ذَلِكَ، فَكُنتُ إِذَا خَرَجتُ فِي النَّاسِ بَعدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَطُفتُ فِيهِم، أَحزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغمُوصًا عَلَيهِ النِّفَاقُ، أَو رَجُلًا مِمَّن عَذَرَ اللهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَم يَذكُرنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي القَومِ بِتَبُوكَ: «**مَا فَعَلَ كَعبٌ؟**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِن بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ، حَبَسَهُ بُردَاهُ، وَنَظَرُهُ فِي عِطفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ: بِئسَ مَا قُلتَ، وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمنَا عَلَيهِ إِلَّا خَيرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

قَالَ كَعبُ بنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ، وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخرُجُ مِن سَخَطِهِ غَدًا، وَاستَعَنتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأيٍ مِن أَهلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَد أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ، وَعَرَفتُ أَنِّي لَن أَخرُجَ مِنهُ أَبَدًا بِشَيءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجمَعتُ صِدقَهُ، وَأَصبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِن سَفَرٍ بَدَأَ بِالمَسجِدِ، فَيَركَعُ فِيهِ رَكعَتَينِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعتَذِرُونَ إِلَيهِ وَيَحلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُم، وَبَايَعَهُم وَاستَغفَرَ لَهُم، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُم إِلَى اللهِ، فَجِئتُهُ، فَلَمَّا سَلَّمتُ عَلَيهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «**تَعَالَ**» فَجِئتُ أَمشِي حَتَّى جَلَستُ بَينَ يَدَيهِ، فَقَالَ لِي: «**مَا خَلَّفَكَ، أَلَم تَكُن قَد ابتَعتَ ظَهرَكَ؟**»، فَقُلتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللهِ لَو جَلَستُ عِندَ غَيرِكَ مِن أَهلِ الدُّنيَا، لَرَأَيتُ أَن سَأَخرُجُ مِن سَخَطِهِ بِعُذرٍ، وَلَقَد أُعطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللهِ، لَقَد عَلِمتُ لَئِن حَدَّثتُكَ اليَومَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللهُ

أَن يُسخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِن حَدَّثتُكَ حَدِيثَ صِدقٍ، تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرجُو فِيهِ عَفوَ اللهِ، لَا وَاللهِ مَا كَانَ لِي مِن عُذرٍ، وَاللهِ مَا كُنتُ قَطُّ أَقوَى وَلَا أَيسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفتُ عَنكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا هَذَا فَقَد صَدَقَ، فَقُم حَتَّى يَقضِيَ اللهُ فِيكَ**».

فَقُمتُ، وَثَارَ رِجَالٌ مِن بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللهِ مَا عَلِمنَاكَ كُنتَ أَذنَبتَ ذَنبًا قَبلَ هَذَا، وَلَقَد عَجَزتَ أَلَّا تَكُونَ اعتَذَرتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا اعتَذَرَ إِلَيهِ المُتَخَلِّفُونَ، قَد كَانَ كَافِيَكَ ذَنبَكَ استِغفَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكَ، فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدتُ أَن أَرجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفسِي، ثُمَّ قُلتُ لَهُم: هَل لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَم، رَجُلَانِ، قَالَا مِثلَ مَا قُلتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلتُ: مَن هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بنُ الرَّبِيعِ العَمرِيُّ، وَهِلَالُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَينِ صَالِحَينِ، قَد شَهِدَا بَدرًا، فِيهِمَا أُسوَةٌ، فَمَضَيتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي.

وَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ المُسلِمِينَ عَن كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِن بَينِ مَن تَخَلَّفَ عَنهُ، فَاجتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَت فِي نَفسِي الأَرضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعرِفُ، فَلَبِثنَا عَلَى ذَلِكَ خَمسِينَ لَيلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاستَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا، فَكُنتُ أَشَبَّ القَومِ وَأَجلَدَهُم، فَكُنتُ أَخرُجُ فَأَشهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ المُسلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الأَسوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيهِ وَهُوَ فِي مَجلِسِهِ بَعدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفسِي: هَل حَرَّكَ شَفَتَيهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَم لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقبَلتُ عَلَى صَلَاتِي أَقبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفَتُّ نَحوَهُ أَعرَضَ عَنِّي.

حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِن جَفوَةِ النَّاسِ، مَشَيتُ حَتَّى تَسَوَّرتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمتُ عَلَيهِ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنشُدُكَ بِاللهِ هَل تَعلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدتُ لَهُ فَنَشَدتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدتُ لَهُ فَنَشَدتُهُ، فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، فَفَاضَت عَينَايَ، وَتَوَلَّيتُ حَتَّى تَسَوَّرتُ الجِدَارَ، فَبَينَا أَنَا أَمشِي بِسُوقِ المَدِينَةِ، إِذَا نَبَطِيٌّ مِن أَنبَاطِ أَهلِ الشَّامِ، مِمَّن قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَن يَدُلُّ عَلَى كَعبِ ابنِ مَالِكٍ، فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِن مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعدُ، فَإِنَّهُ قَد بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَد جَفَاكَ، وَلَم يَجعَلكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضيَعَةٍ، فَالحَق بِنَا نُوَاسِكَ.

فَقُلتُ لَمَّا قَرَأتُهَا: وَهَذَا أَيضًا مِنَ البَلَاءِ، فَتَيَمَّمتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرتُهُ بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَت أَربَعُونَ لَيلَةً مِنَ الخَمسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأمُرُكَ أَن تَعتَزِلَ امرَأَتَكَ، فَقُلتُ: أُطَلِّقُهَا؟ أَم مَاذَا أَفعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلِ اعتَزِلهَا وَلَا تَقرَبهَا، وَأَرسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثلَ ذَلِكَ، فَقُلتُ لِامرَأَتِي: الحَقِي بِأَهلِكِ، فَتَكُونِي عِندَهُم، حَتَّى يَقضِيَ اللهُ فِي هَذَا الأَمرِ.

قَالَ كَعبٌ: فَجَاءَتِ امرَأَةُ هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَت: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هِلَالَ بنَ أُمَيَّةَ شَيخٌ ضَائِعٌ، لَيسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَل تَكرَهُ أَن أَخدمَهُ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَكِن لَا يَقرَبكِ**»، قَالَت: إِنَّهُ وَاللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيءٍ، وَاللهِ مَا زَالَ يَبكِي مُنذُ كَانَ مِن أَمرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَومِهِ هَذَا، فَقَالَ لِي بَعضُ أَهلِي: لَوِ استَأذَنتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي امرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامرَأَةِ هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ أَن تَخدمَهُ؟ فَقُلتُ: وَاللهِ لَا أَستَأذِنُ فِيهَا

رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَمَا يُدرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا استَأذَنتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟

فَلَبِثتُ بَعدَ ذَلِكَ عَشرَ لَيَالٍ، حَتَّى كَمَلَت لَنَا خَمسُونَ لَيلَةً مِن حِينَ نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَن كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيتُ صَلَاةَ الفَجرِ صُبحَ خَمسِينَ لَيلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهرِ بَيتٍ مِن بُيُوتِنَا، فَبَينَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ، قَد ضَاقَت عَلَيَّ نَفسِي، وَضَاقَت عَلَيَّ الأَرضُ بِمَا رَحُبَت، سَمِعتُ صَوتَ صَارِخٍ أَوفَى عَلَى جَبَلِ سَلعٍ بِأَعلَى صَوتِهِ: يَا كَعبُ بنُ مَالِكٍ، أَبشِر، فَخَرَرتُ سَاجِدًا، وَعَرَفتُ أَن قَد جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَوبَةِ اللهِ عَلَينَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الفَجرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِن أَسلَمَ، فَأَوفَى عَلَى الجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوتُ أَسرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعتُ صَوتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعتُ لَهُ ثَوبَيَّ، فَكَسَوتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشرَاهُ، وَاللهِ مَا أَملِكُ غَيرَهُمَا يَومَئِذٍ، وَاستَعَرتُ ثَوبَينِ فَلَبِستُهُمَا، وَانطَلَقتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوجًا فَوجًا، يُهَنُّونِي بِالتَّوبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهنِكَ تَوبَةُ اللهِ عَلَيكَ، حَتَّى دَخَلتُ المَسجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ حَولَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلحَةُ بنُ عُبَيدِ اللهِ يُهَروِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيرَهُ، وَلَا أَنسَاهَا لِطَلحَةَ، فَلَمَّا سَلَّمتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَبرُقُ وَجهُهُ مِنَ السُّرُورِ: «**أَبشِر بِخَيرِ يَومٍ مَرَّ عَلَيكَ مُنذُ وَلَدَتكَ أُمُّكَ**»، قُلتُ: أَمِن عِندِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَم مِن عِندِ اللهِ؟ قَالَ: «**لَا، بَل مِن عِندِ اللهِ**».

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سُرَّ استَنَارَ وَجهُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ قِطعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعرِفُ

ذَلِكَ مِنهُ، فَلَمَّا جَلَستُ بَينَ يَدَيهِ قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ مِن تَوبَتِي أَن أَنخَلِعَ مِن مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِ اللهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمسِك عَلَيكَ بَعضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيرٌ لَكَ**»، قُلتُ: فَإِنِّي أُمسِكُ سَهمِي الَّذِي بِخَيبَرَ، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدقِ، وَإِنَّ مِن تَوبَتِي أَلَّا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدقًا مَا بَقِيتُ، فَوَاللهِ مَا أَعلَمُ أَحَدًا مِنَ المُسلِمِينَ أَبلَاهُ اللهُ فِي صِدقِ الحَدِيثِ مُنذُ ذَكَرتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَحسَنَ مِمَّا أَبلَانِي، مَا تَعَمَّدتُ مُنذُ ذَكَرتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَومِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرجُو أَن يَحفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة:١١٧-١١٨].

فَوَاللهِ مَا أَنعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِن نِعمَةٍ قَطُّ بَعدَ أَن هَدَانِي لِلإِسلَامِ، أَعظَمَ فِي نَفسِي مِن صِدقِي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، أَلَّا أَكُونَ كَذَبتُهُ، فَأَهلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا -حِينَ أَنزَلَ الوَحيَ- شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٩٥-٩٦].

وَكُنَّا تَخَلَّفنا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَن أَمرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُم وَاستَغفَرَ لَهُم، وَأَرجَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمرَنَا حَتَّى قَضَى اللهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾، وَلَيسَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خُلِّفنَا عَنِ الغَزوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخلِيفُهُ إِيَّانَا، وَإِرجَاؤُهُ أَمرَنَا عَمَّن حَلَفَ لَهُ وَاعتَذَرَ إِلَيهِ فَقَبِلَ مِنهُ.



(٢٧) قُدومُ الوفُودِ علَى رسُولِ اللهِ ﷺ عامَ تِسعٍ مِنَ الهِجرَةِ

لمَّا رجعَ رسولُ اللهِ ﷺ مِن تبُوكَ إلَى المدينَةِ وأقامَ فيهَا مُدَّةً، تُوفِّي رأسُ المنافقينَ عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ، ولمَّا توفِّي جاءَ ابنُهُ عبدُ اللهِ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ فسألَهُ أن يُعطِيَهُ قميصَهُ ليُكفِّنَهُ فِيهِ، فأعطاهُ، ثُمَّ سألَهُ أن يُصلِّي عَليهِ، فقامَ رسُولُ اللهِ ﷺ ليُصلِّيَ عليهِ، فقامَ عُمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه فأخذَ بثوبِهِ وقالَ: يَا رسُولَ اللهِ، تُصلِّي عَليهِ وقد نَهَاكَ اللهُ عنهُ؟ وقد قالَ في يَومِ كذَا كذَا وَكذَا، وقالَ في يَومِ كَذا كذَا وكَذا؟

فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعْنِي يَا عُمَرُ، فَإِنَّ رَبِّي خَيَّرَنِي فقَالَ:** ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠]، **وَلَو أَعلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ**»، ثُم صلَّى عَليهِ، فقالَ: إنهُ مُنافقٌ، أتصَلِّي عَليهِ؟ فأنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة:٨٤].

وفي هذَا العامِ -عامَ تسعٍ- قَدمَ وَفدُ ثقيفٍ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ في رمضَانَ، فقَد ائتمَرُوا بينَهُم، ورَأَوا أنهُ لا طاقَةَ لَهُم بحَربِ مَن حَولَهُم مِنَ العربِ، وأرسَلُوا وفدًا إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ، فبَايَعُوا وأسلَمُوا، فكتَبَ لهُم رسُولُ اللهِ ﷺ كتابًا بذلكَ، وأَمَّرَ عَليهِم عثمَانَ بنَ أَبِي العاصِ رضي الله عنه وكانَ أحدثَهُم سِنًّا؛ لأن الصدِّيقَ رضي الله عنه قالَ:

يا رسُولَ اللهِ، إنِّي رأيتُ هذَا الغلامَ مِن أحرصِهم عَلى التفقُّهِ فِي الإسلامِ وتعَلُّمِ القُرآنِ.

وكانَ وَفدُهُم إذَا أتَوا رسُولَ اللهِ ﷺ خَلَّفُوا عثمانَ بنَ أبِي العاصِ رضي الله عنه في رِحَالِهِم، فإذَا رجَعُوا وسطَ النهارِ جاءَ هُو إلى رسولِ اللهِ ﷺ فسألَهُ عنِ العِلمِ واستقرأَهُ القُرآنَ، فإنْ وجدَهُ نائمًا ذهبَ إلَى أبِي بَكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنه، فَلَم يزَلْ هذَا دَأبَهُ حتَّى فَقهَ في الإسلَامِ، وأحَبَّهُ رسُولُ اللهِ ﷺ حبًّا شَديدًا، فقالَ لهُ عُثمانُ بنُ أبي العاصِ: يا رسُولَ اللهِ، اجعَلنِي إمامَ قَومِي، فقالَ: «**أَنتَ إِمَامُهُم وَاقْتَدِ بِأَضعَفِهِمْ**».

فلمَّا فرَغُوا مِن أمرِهِم وتوَجَّهُوا إلَى بِلادِهِم رَاجِعِينَ، بَعثَ رسولُ اللهِ ﷺ مَعهُم أبَا سفيانَ بنَ حَربٍ والمُغيرَةَ بنَ شُعبَةَ في هَدمِ وَثنٍ يُقالُ لَهُ: الطاغيَةَ، فخرجَا معَ القومِ، حتَّى إذا قدِمُوا الطائفَ أرادَ المغيرةُ أن يُقدِّمَ أبَا سفيانَ، فأبَى عليه أبُو سفيانَ وقالَ: ادخُل أنتَ عَلى قَومِكَ، وأقامَ أبو سُفيانَ بمَالِهِ بذِي الهَرَمِ، فلمَّا دخلَ المُغيرَةُ علاهَا يَضرِبُها بالمِعولِ، وقامَ قَومُهُ بنُو مُعتِّبٍ دُونَهُ، خشيَةَ أَن يُرمَى أَو يُصَابَ.

ولمَّا فرغَ رسولُ اللهِ ﷺ مِن وَفدِ أهلِ الطائفِ، بَعثَ أبَا بكرٍ الصدِّيقَ أَمِيرًا عَلى الحجِّ آخرَ سَنَةِ تِسعٍ، ليُقيمَ للمسلمينَ حَجَّهُم، ولَم يَزلْ أهلُ الشِّركِ عَلى عادَتِهم فِي حجِّهِم لَم يُصَدُّوا بعدُ عَنِ البَيتِ، ومنهُم مَن لهُ عَهدٌ مُؤَقتٌ إلى أمَدٍ، فلمَّا خرَجَ أبُو بكرٍ رضي الله عنه بمَن معَهُ مِنَ المُسلمينَ، وفصَلَ عَن المَدينَةِ، أنزَلَ اللهُ عز وجل هذِهِ الآيَاتِ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:١-٣].

فبعثَ رسُولُ اللهِ ﷺ عليًّا ﵁، بعدَ أبِي بكرٍ الصدِّيقِ، ليَكونَ مَعهُ، ويتَولَّى عليٌّ بنَفسِهِ إبلاغَ البَراءةِ منَ المُشركينَ، نيابَةً عَن رسُولِ اللهِ ﷺ، لكَونِهِ ابنَ عمِّهِ مِن عصَبتِهِ.

قالَ مُحمدُ بنُ عَليٍّ: لمَّا نَزلَت ﴿بَرَآءَةٞ﴾ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ، وقَد كانَ بَعثَ أبَا بَكرٍ الصِّديقَ ﵁، ليُقيمَ للناسِ الحجَّ، قيلَ لهُ: يا رسُولَ اللهِ، لو بَعثتَ بِها إلَى أبِي بَكرٍ، فقالَ: «**لا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ مِن أَهلِ بَيتِي**»، ثُم دَعَا عَليَّ بنَ أبِي طَالبٍ فقَالَ: «**اخرُجْ بِهذِهِ القصَّةِ مِن صَدرِ بَراءَةٍ، وأَذِّنْ في الناسِ يومَ النَّحرِ إذَا اجتَمَعُوا بمِنًى: أَلَا إنهُ لَا يدخُلُ الجنَّةَ كافِرٌ، ولَا يَحُجُّ بعدَ العامِ مُشركٌ، ولا يطوفُ بِالبيتِ عُريَانٌ، ومَن كانَ لهُ عندَ رسُولِ اللهِ ﷺ عهدٌ فَهُو لهُ إلَى مُدَّتِهِ**».

فخرَجَ عليُّ بنُ أبِي طَالبٍ ﵁ عَلى ناقَةِ رسُولِ اللهِ ﷺ العَضباءِ حتَّى أدرَكَ أبَا بكرٍ الصدِّيقَ ﵁، فلمَّا رآهُ أبُو بكرٍ قالَ: أميرٌ أو مَأمورٌ؟ فقالَ: بَل مأمُورٌ، ثُمَّ مَضَيَا، فأقامَ أبُو بَكرٍ الحجَّ للناسِ، والعربُ إذْ ذَاكَ في تِلكَ السَّنةِ عَلى منَازِلِهم منَ الحجِّ التي كانُوا عَليهَا في الجَاهليَّةِ، حتَّى إذا كانَ يَومُ النَّحرِ، قامَ عليُّ بنُ أبِي طَالبٍ ﵁ فأذَّنَ فِي الناسِ بالذِي أمرَهُ بِهِ رسُولُ اللهِ ﷺ، وأجَّلَ الناسَ أربعَةَ أشهُرٍ مِن يَومِ أذَّنَ فِيهِم، ليَرجِعَ كُلُّ قومٍ إلَى مَأمَنِهِم وبِلادِهِم، ثُمَّ لَا عَهدَ لمُشرِكٍ ولَا ذِمَّةَ؛ إلَّا أحدٌ كانَ لهُ عندَ رسُولِ اللهِ ﷺ عهدٌ فَهُو لَهُ إلَى مُدَّتِهِ، فَلَم يحُجَّ بعدَ ذلكَ العامِ

مُشركٌ، ولَم يَطُفْ بِالبيتِ عُريَانٌ.

وفِي شعبانَ مِن هذهِ السنَةِ تُوفِّيَتْ أُمُّ كُلثُومٍ بنتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فغَسَّلتها أسمَاءُ بنتُ عُمَيسٍ، وصَفيَّةُ بنتُ عبدِ المُطلبِ، وقيلَ: غسَّلهَا نِسوةٌ منَ الأنصَارِ فِيهِم أَمُّ عَطِيَّةَ.

وكَانَت سَنَةُ تِسعٍ تُسمَّى سنَةَ الوفُودِ، لِمَا كانَ فيهَا مِن قُدومِ عامَّةِ وفُودِ أَحيَاءِ العرَبِ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ، وتتَابُعِهِم إلَيهِ.

فلمَّا فتحَ رسُولُ اللهِ ﷺ مكةَ وفرَغَ مِن تَبُوكَ، وأسلَمَت ثَقيفٌ وبَايَعَتْ، جاءَت إلَيهِ وفودُ العَربِ مِن كُلِّ وَجهٍ، وقَد كانَت العَربُ تَنتظِرُ بإسلامِهَا أمرَ قُريشٍ؛ لأنَّ قُرَيشًا كانُوا إمامَ الناسِ وهَادِيَهُم، وأهلَ البَيتِ والحَرمِ، وكانَت قُريشٌ هِيَ التِي نَصَبتِ الحربَ والخِلافَ لرسُولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا فُتِحَت مكةُ ودانَتْ لهُ قريشٌ، عرَفَتِ العربُ أنَّهم لا طاقةَ لهُم بحَربِ رسولِ اللهِ ﷺ وَلا عدَاوتِهِ، فدخَلُوا في دِينِ اللهِ أفوَاجًا، كمَا قالَ اللهُ تعَالى لنَبيِّهِ ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣]، أي: فَاحْمَدِ اللهَ عَلى ما أظهَرَ مِن دِينِكَ، واستغفِرْهُ إنهُ كانَ تَوَّابًا.

فكانَ ممَّن قدِمَ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ وَفدُ بنِي تَميمٍ، فبَايعُوهُ ﷺ، وقد خَصَّ اللهُ تعالَى تَميمًا بفَضيلةٍ قَلَّ أن تكُونَ لمِثلِهِم، فقَد قالَ ﷺ في تَميمٍ: «**هُم أَشَدُّ أُمَّتِي عَلَى الدَّجَّالِ**».

ثُمَّ قدِمَ وفدُ عَبدِ القَيسِ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: «**مَرحَبًا بِالقَومِ غَيرَ خَزَايَا**

وَلَا نَدَامَى»، فانتَهَوا إلَى رسُولِ اللهِ ﷺ، فلَمَّا رَأَوا رسُولَ اللهِ ﷺ وثَبُوا مِن رَواحِلِهِم، فأتَوا رسولَ اللهِ ﷺ فقَبَّلُوا يدَهُ، ثُم نزلَ الأشجُّ فعَقَلَ راحِلَتَهُ، وأخرَجَ مُستودَعَ ثِيابِهِ ففَتحَهَا وأخرَجَ ثَوبَيْنِ أبيَضَيْنِ مِن ثيابِهِ فلبِسَهُمَا، ثُم أتَى رَواحِلَهُم فعَقَلَهَا، ثُم أتَى إلَى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: «**يَا أَشَجُّ، إنَّ فِيكَ خَصلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ عَجَّلَ ورَسُولُهُ، الحِلْمُ وَالأَنَاةُ**»، فقَالَ: يَا رسُولَ اللهِ، أنَا تَخلَّقتُهُمَا أَو جَبَلَنِي اللهُ عَليهِمَا؟ فقَالَ: «**بَل جَبَلَكَ اللهُ عَلَيهِمَا**»، قالَ: الحَمدُ للهِ الذِي جَبَلَنِي عَلى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ عَجَّلَ ورَسُولُهُ ﷺ.

وقدِمَ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ وَفدُ بنِي حنيفَةَ ومعَهُم مُسيلمَةُ الكذَّابُ، فجعَلَ مُسيلمَةُ يقولُ: إن جعَلَ لِي مُحمدٌ الأمرَ مِن بَعدِهِ اتَّبَعتُهُ، فأقبَلَ رسولُ اللهِ ﷺ وفِي يدِهِ قِطعةُ جريدٍ، حتَّى وقَفَ عَلى مُسيلمَةَ فِي أصحابِهِ فقَالَ: «**لَو سَألتَنِي هذِهِ القِطعَةَ مَا أَعطَيْتُكَهَا، وَلَن تَعدُوَ أَمرَ اللهِ فِيكَ، وَلَئِن أَدبَرْتَ لَيَعقِرَنَّكَ اللهُ، وَإِنِّي لأَرَاكَ الذِي أُرِيتُ فِيهِ مَا أُرِيتُ، وَهَذَا ثَابتٌ يُجِيبُكَ عَنِّي**»، ثُم انصَرفَ عَنهُ.

قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: فسَألتُ عَن قَولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكَ الذِي أُرِيتُ فِيهِ مَا أُرِيتُ**»، فَأخبرَنِي أَبُو هُريرَةَ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**بَينَمَا أَنَا نَائِمٌ، رَأَيتُ فِي يَدِي سِوَارَيْنِ مِن ذَهَبٍ، فَأَهَمَّنِي شَأْنُهُمَا، فَأُوحِيَ إِلَيَّ فِي المنَامِ: أَن أَنفُخهُمَا، فنَفَختُهُمَا فطَارَا، فَأَوَّلتُهُمَا: كَذَّابَيْنِ يَخرُجَانِ بَعدِي، فكَانَ أَحدُهُمَا العَنْسِيَّ، وَالآخَرُ مُسيلِمَةَ الكَذَّابَ صَاحبَ اليمَامَةِ**».

ثم رجَعَ مسيلمَةُ في قومِهِ وجعَلَ يَسجعُ لَهُم السجعَاتِ، وأحَلَّ لهُمُ الخَمرَ والزِّنَا، ووضعَ عنهُم الصلاةَ، وهُو مع هذَا يشهَدُ لرسولِ اللهِ ﷺ بأنَّهُ نبيٌّ،

فَاصطَفَّتْ معهُ بنُو حنيفَةَ عَلى ذلكَ.

وكتَبَ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ: مِن مُسيلمَةَ رَسولِ اللهِ إلَى مُحمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، سَلامٌ عليكَ، أمَّا بَعدُ، فإنِّي قَد أُشرِكْتُ فِي الأمرِ مَعكَ، فإنَّ لنَا نِصفَ الأَمرِ، ولِقريشٍ نِصفَ الأَمرِ، ولَكِنَّ قُريشًا قومٌ يَعتَدُونَ.

فقدِمَ عَليهِ رسُولانِ بِهَذا الكتابِ، فكتبَ إلَيهِ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ، مِن مُحمَّدٍ رسُولِ اللهِ إلَى مُسيلِمَةَ الكَذَّابِ، سَلامٌ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعدُ، فَإِنَّ الأَرضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يشَاءُ مِن عِبَادِهِ، وَالعَاقِبَةُ للمُتَّقِينَ**».

وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لرسُولَيْ مُسيلمَةَ الكذَّابِ حينَ جَاءَا بكتَابِهِ: «**وأنتُمَا تَقُولانِ مثلَ مَا يَقُولُ؟**»، قالَا: نَعَم، فقَالَ: «**أَمَا وَاللهِ لَولا أَنَّ الرسُلَ لا تُقتَلُ لضَربْتُ أَعنَاقَكُمَا**»، قالَ عَبدُ اللهِ بنُ مَسعُودٍ ﷺ: فمَضَتِ السُّنَّةُ بِأَنَّ الرسُلَ لَا تُقتَلُ، وكانَ مَقتلُ مُسيلمَةَ الكذَّابِ فِي مَعركَةِ اليمَامَةِ فِي أيامِ أَبِي بَكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ.

وقدِمَ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ وَفدُ بنِي عَامرٍ، وفِيهِم عامرُ بنُ الطُّفَيلِ وأَرْبَدُ بنُ قَيسٍ، وكانَ عامِرُ بنُ الطفَيلِ قَد قدِمَ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ وهُو يُريدُ الغَدرَ بِهِ، فقالَ لهُ قومُهُ: يَا عامرُ، إنَّ الناسَ قَد أسلَمُوا فأسلِمْ، قالَ: واللهِ لَقَد كُنتُ آليتُ أَلا أَنتَهِيَ حتَّى تَتبعَ العربُ عَقِبِي، أفأَنَا أَتبعُ عَقِبَ هذَا الفتَى مِن قريشٍ؟ ثُم قالَ لأَربَد: إِن قَدِمنَا عَلى الرجلِ، فإِنِّي سأشغَلُ عنكَ وَجهَهُ، فإِذَا فَعلتُ ذَلكَ فَاعْلُهُ بِالسَّيفِ.

فلمَّا قدِمُوا عَلى رسولِ اللهِ ﷺ قالَ عامرُ بنُ الطُّفيلِ: يَا محمدُ، خَالِنِي -أَي: تَفرَّدْ لِي خَاليًا حتى أتحدَّثَ معكَ-، قالَ: «**لَا واللهِ حتَّى تُؤمِنَ باللهِ وَحدَهُ**»، قَالَ:

يَا مُحمدُ، خَالِنِي، وجعَلَ يُكلِّمُهُ، ويَنتظِرُ مِن أَرْبَدَ مَا كانَ أمرَهُ بِهِ، فجعَلَ أرْبَدُ لا يَفعَلُ شَيئًا، فلمَّا رَأى عامرٌ مَا يصنَعُ أَربَدُ قالَ: يَا مُحمدُ، خَالِنِي، قالَ: «**لا، حتَّى تُؤمِنَ بِاللهِ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ**».

فلمَّا أَبَى عَليهِ رسُولُ اللهِ ﷺ قالَ: أمَا واللهِ لأملأنَّهَا عَليكَ خيلًا ورِجَالًا، فلمَّا ولَّى قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اكفِنِي عَامرَ بنَ الطُّفَيْلِ**».

فلمَّا خرجُوا من عندِ رسُولِ اللهِ ﷺ قالَ عامِرٌ لأَرْبَدَ: أينَ مَا كُنتُ أمرتُكَ بهِ، واللهِ ما كانَ عَلى ظهرِ الأرضِ رجلٌ أخوفُ عَلى نفسِي منكَ، وايْمُ اللهِ لَا أخافُكَ بَعدَ اليَومِ أبدًا.

قالَ: لَا أبا لَكَ! لا تَعجَل عليَّ، واللهِ مَا هَممتُ بِالذِي أمرتَنِي بهِ إِلَّا دَخلتَ بَينِي وبينَ الرجُلِ حتَّى مَا أَرى غيرَكَ، أفَأضرِبُكَ بِالسَّيفِ؟!

وخرجُوا راجِعينَ إلى بلادِهِم، حتَّى إذا كانُوا ببعضِ الطرِيقِ صادَفَ امرَأةً مِن قومِهِ، يُقالُ لهَا: سَلوليَّةَ، فنزَلَ عن فَرسِهِ، ونامَ في بَيتِهَا، فأخذَتهُ غُدَّةٌ فِي حَلقِهِ، فوَثبَ على فرسِهِ وأخذَ رُمحَهُ، وأقبلَ يَجُولُ وهُو يَقُولُ: غُدَّةٌ كغُدَّةِ البَعيرِ، ومَوتٌ فِي بَيتِ سَلوليَّةَ، فَلَم يزَل عَلى تلكَ الحالِ حتَّى سقطَ عَن فَرسِهِ مَيتًا.

وأمَّا أربَدُ بنُ قَيسٍ فإِنَّهُ لمَّا قَدِمَ عَلى قَومِهِ، أتَوهُ فسَألُوهُ عَن رسُولِ اللهِ ﷺ وما كَانَ بينَهُ وبينَهُ؟ فقالَ: لا شَيءَ، واللهِ لقَد دعَانَا إِلَى عبادَةِ شيءٍ لوَدِدْتُ لَو أنهُ عِندِي الآنَ فأرمِيهِ بالنَّبلِ حتَّى أقتُلَهُ، فخرَجَ بعدَ مقالَتِهِ بيَومٍ أو يَومَيْنِ ومعَهُ جمَلٌ لهُ ليَبيعَهُ، فأرسَلَ اللهُ تعَالى عليهِ وعَلى جملِهِ صَاعقَةً فأحرَقَتْهُمَا.

وقدمَ ضِمَامُ بنُ ثعلبَةَ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ وافِدًا عَن قومِهِ بنِي سَعدِ بن بَكرٍ، فأَنَاخَ بَعيرَهُ عَلى بابِ المسجِدِ وعَقلَهُ، ثُم دخَلَ المَسجِدَ ورسُولُ اللهِ ﷺ جالِسٌ فِي أصحَابِهِ، وكانَ ضِمامٌ رَجُلًا جَلدًا، فأقبَلَ حتَّى وقَفَ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ في أصحَابِهِ، فقالَ: أيُّكُم ابنُ عبدِ المُطَّلبِ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا ابنُ عَبدِ المُطَّلِبِ**»، فقَالَ: يَا مُحمدُ، قَالَ: «**نَعَم**»، قَالَ: يَا ابْنَ عَبدِ المُطَّلِبِ، إنِّي سَائِلُكَ ومُغلِظٌ عَليكَ فِي المَسألةِ، فَلا تجدَنَّ فِي نَفسِكَ، قالَ: «**لا أَجِدُ فِي نَفسِي، فَسَلْ عمَّا بَدَا لَكَ**»، فقَالَ: أنشدُكَ اللهَ، إلهَكَ وإِلَهَ مَن كانَ قَبلَكَ، وَإِلهَ مَن هُو كَائنٌ بَعدَكَ، آللهُ بَعثَكَ إلَينَا رَسُولًا؟ قالَ: «**اللَّهُمَّ نَعَم**»، قالَ: فأنشُدُكَ اللهَ، إلهَكَ وإِلَهَ مَن كَانَ قبلَكَ، وإِلهَ مَن هُو كائِنٌ بَعدَكَ، آللهُ أمرَكَ أنْ تأمُرَنَا أَن نعبُدَهُ وحدَهُ، ولَا نُشرِكَ بِهِ شَيئًا، وأَن نَخلَعَ هذِهِ الأَندادَ التِي كانَ آباؤُنَا يعبدُونَ؟ قالَ: «**اللَّهُمَّ نَعَم**»، قالَ: فَأنشُدُكَ اللهَ، إلهَكَ وإِلهَ مَن كانَ قَبلَكَ، وإِلَهَ مَن هُو كائِنٌ بَعدَكَ، آللهُ أمرَكَ أن نُصلِّي هذِهِ الصَّلوَاتِ الخَمسَ؟ قالَ: «**اللَّهُمَّ نَعَم**».

ثُم جعلَ يذكرُ فرائضَ الإسلامِ فريضةً فريضَةً، الزكَاةَ، والصيَامَ، والحجَّ، وشرائعَ الإسلامِ كُلَّهَا، ينشُدُهُ عندَ كلِّ فريضَةٍ منهَا، كمَا ينشُدُهُ فِي الِتي قَبلهَا، حتى إذَا فرَغَ قالَ: فإنِّي أشهدُ أن لَا إلَهَ إلَا اللهُ، وأشهَدُ أن مُحمَّدًا رسُولُ اللهِ، وسأُؤَدِّي هذِهِ الفرائِضَ، وأجتَنِبُ مَا نَهيتَنِي عنهُ، ثُمَّ لَا أَزيدُ وَلا أُنقِصُ، ثُم انصَرَفَ إلَى بَعيرِهِ رَاجِعًا، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنْ صَدَقَ دَخَلَ الجَنَّةَ**».

فأتَى إلَى بَعيرِهِ فأطلَقَ عِقَالَهُ، ثُم خرجَ حتى قدِمَ على قومِهِ، فاجتَمعُوا إليهِ، فكانَ أولَ مَا تكلَّمَ بهِ أن قَالَ: بِئستِ اللاتُ والعُزَّى، فقالُوا: مَهْ يَا ضِمَامُ،

اتَّقِ البَرَصَ، اتَّقِ الجُذَامَ، اتَّقِ الجُنُونَ.

فقالَ: وَيلَكُم، إنَّهما واللهِ لا يَضُرَّانِ ولا يَنفعانِ، إن اللهَ قَد بعثَ رسُولًا، وأنزَلَ عليهِ كتَابًا استنقَذَكُم بهِ ممَّا كُنتُم فيهِ، وإنِّي أشهَدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ، وقَد جِئتُكُم مِن عِندِهِ بمَا أَمرَكُم بِهِ ومَا نَهاكُم عَنهُ، فمَا أمسَى ذلكَ اليَومَ وقَد سَمعَهُ رجلٌ ولا امرأةٌ إلا أسلَمَ، قالَ ابنُ عباسٍ ﷻ: فمَا سمعنَا بوَافدِ قومٍ كانَ أفضَلَ مِن ضمَامِ بنِ ثَعلبَةَ.

وكانَ عَدِيُّ بنُ حاتمٍ ممَّن وفَدَ على رسُولِ اللهِ ﷺ، فشرَحَ اللهُ صدرَهُ للإسلَامِ فأسلَمَ.

قالَ عَديٌّ ﷺ: لَم يكُن رجلٌ منَ العَربِ أشدَّ كراهَةً لرسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ سمِعَ بهِ منِّي، فقَد كُنتُ امرَأً شَريفًا، وكُنتُ نَصرَانيًّا، وكنتُ فِي نَفسِي على دِينٍ، وكنتُ مَلِكًا في قومِي لمَا كانَ يُصنَعُ بِي، فلمَّا سَمعتُ برسُولِ اللهِ ﷺ كرِهتُهُ، وكانَ لِي غلامٌ عربِيٌّ يرعَى إبلِي فقُلتُ: لَا أبَا لكَ، اعدُدْ لِي مِن إبِلِي أجمَالًا ذُلُلًا سِمَانًا، فاحتَبِسْهَا قَريبًا منِّي، فإِذَا سمعتَ بجَيشٍ لمُحمدٍ قَد وَطِئَ هذِهِ البِلادَ فآذِنِّي، ثُم إنهُ أتانِي ذاتَ غدَاةٍ فقالَ: يا عَدِيُّ، مَا كنتَ صَانعًا إذَا غَشِيَتْكَ خَيلُ مُحمدٍ فاصَنعْهُ الآنَ، فإنِّي قَد رَأيتُ راياتٍ، فسَألتُ عنهَا فقَالُوا: هذِهِ جُيوشُ مُحمدٍ.

فقلتُ: فقَرِّبْ إليَّ أجمَالِي فقَرَّبَها، فاحتَملتُ بِأهلِي ووَلدِي، وقُلتُ: أَلحقُ بأهلِ دِينِي منَ النصَارَى بالشَّامِ، وخَلَّفتُ بِنتًا لحاتمٍ في الحَاضِرِ، فلمَّا قَدمتُ الشامَ أقمتُ بِها وخَالفَتنِي خيلُ رسُولِ اللهِ ﷺ فأصَابَت ابنَةَ حَاتمٍ فِيمَن أَصَابَتْ،

فقَدِمُوا بِها عَلى رسولِ اللهِ ﷺ في سبَايَا مِن طَيءٍ، وقَد بلغَ رسُولَ اللهِ ﷺ هَربِي إلى الشام، فجُعلَتِ ابنَةُ حاتمٍ في مكانٍ ببابِ المَسجدِ، كانَت السبَايَا تُحبَسُ بِها، فمَرَّ بِها رسولُ اللهِ ﷺ فقامَتْ إليهِ، وكانَتِ امرَأَةً جَزلَةً، فقَالَت: يا رسُولَ اللهِ، هلكَ الوَالدُ، وغابَ الوَافِدُ، فامنُنْ عليَّ مَنَّ اللهُ عَليكَ، قالَ: «**ومَن وَافِدُكِ؟**»، قَالَت: عَديُّ بنُ حَاتمٍ، قالَ: «**الفَارُّ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ؟**»، قالَت: ثُمَّ مضَى وتَركَنِي، حتَّى إذَا كانَ الغَدُ مَرَّ بِي، فقلتُ لهُ مثلَ ذَلكَ، وقالَ لي مثلَ مَا قالَ بِالأمسِ، قَالَت: حتَّى إذَا كانَ بعدَ الغَدِ مَرَّ بِي وقَد يَئستُ، فأشارَ إليَّ رجلٌ مِن خَلفِهِ أَن قُومِي فَكَلِّمِيهِ، قَالَت: فقُمتُ إلَيهِ فقُلتُ: يَا رسُولَ اللهِ، هَلكَ الوالدُ، وغابَ الوَافِدُ، فامْنُنْ عَليَّ مَنَّ اللهُ عَليكَ، فقَالَ ﷺ: «**قَد فَعَلتُ، فَلَا تَعجَلِي بخُروجٍ حَتَّى تَجدِي مِن قَومِكِ مَنْ يَكونُ لَكِ ثِقَةً حتَّى يُبَلِّغَكِ إِلَى بِلَادِكِ، ثُم آذِنِينِي**»، فَسَأَلتُ عَنِ الرجُلِ الذِي أَشارَ إليَّ أَن كَلِّمِيهِ، فقِيلَ لِي: عَليُّ بنُ أَبِي طَالبٍ رضي الله عنه.

قالَت: فأَقَمتُ حتَّى قَدِمَ رَكبٌ مِن ديَارِي، فجِئتُ فقُلتُ: يَا رسُولَ اللهِ، قَد قَدِمَ جماعَةٌ مِن قَومِي، لِي فِيهِم ثِقةٌ وبَلاغٌ، قالَت: فكسَانِي وحَمَلَنِي، وأعطَانِي نفَقَةً، فخَرجتُ مَعهُم حتَّى قَدِمتُ الشَّامَ.

قالَ عَديٌّ: فوَاللهِ إنِّي لقَاعدٌ في أهلِي إذْ نَظرتُ إلَى ظَعينةٍ قادمَةٍ إلَى قَومِنَا، فقُلتُ: ابنةُ حاتمٍ؟ فإذَا هِي هِي، فلمَّا وَقفَتْ عليَّ انطَلقَتْ تقُولُ: القَاطعُ الظَّالمُ، احتَمَلتَ بأهلِكَ ووَلدِكَ وتَركتَ بقِيَّةَ وَالدِكَ عَورَةً؟ قُلتُ: أَيْ أُخيَّةُ لا تَقولِي إلَّا خَيرًا، فوَاللهِ مَا لِي مِن عُذرٍ، لقَد صَنعتُ مَا ذَكرتِ.

ثُم نَزلَت فأَقَامَتْ عِندِي، فقُلتُ لهَا -وكَانتِ امرَأَةً حازِمَةً-: ماذَا تَرينَ فِي

أمرِ هذَا الرجُلِ؟ قَالَت: أَرَى واللهِ أَن تَلحَقَ بِهِ سَريعًا، فَإِن يَكُنِ الرجُلُ نَبيًّا فللسَّابقِ إلَيهِ فَضلُهُ، وإِن يَكُن مَلِكًا فَلَن تَذِلَّ في عِزِّ اليمنِ وأنتَ أنتَ.

قلتُ: واللهِ إنَّ هذَا هو الرأيُ، فخَرجتُ حتَّى أَقدُمَ علَى رسولِ اللهِ ﷺ في المَدينَةِ، فدخلتُ عَليهِ وهُو في مَسجدِهِ، فسلَّمتُ عَليهِ، فقالَ: مَنِ الرجُلُ؟ فقُلتُ: عَديٌّ ابنُ حاتمٍ، فقامَ رسُولُ اللهِ ﷺ وانطلَقَ بِي إلَى بَيتِهِ، فَلقِيتْهُ امرَأةٌ ضَعيفةٌ كَبيرةٌ فاستَوقفَتْهُ، فوقَفَ لهَا طويلًا تُكلمُهُ في حاجتِهَا، فقُلتُ في نفسِي: واللهِ مَا هذَا بمَلكٍ، ثُم مضَى بِي رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى إذَا دخلَ بَيتَهُ تناوَلَ وسَادَةً مِن أَدَمٍ محشوةً لِيفًا فقذَفَهَا إليَّ فقالَ: «**اجلِسْ عَلى هذِهِ**»، فقُلتُ: بَل أنتَ فَاجلِسْ عَليهَا، قالَ: «**بَل أَنتَ**».

فجَلستُ وجلَسَ رسولُ اللهِ ﷺ بالأرضِ، فقُلتُ في نَفسِي: واللهِ مَا هذَا بأمرِ مَلِكٍ، ثُم قالَ: «**لعَلَّكَ يَا عَديُّ إِنَّمَا يَمنَعُكَ مِن دُخُولٍ فِي هذَا الدِّينِ مَا تَرَى مِن حَاجَتِهِم، فَوَالذِي نَفسِي بِيَدِهِ لِيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمرَ حَتَّى تَخرُجَ الظَّعينَةُ مِنَ الحِيرَةِ حتَّى تَطُوفَ بِالبَيتِ فِي غَيرِ جِوَارِ أَحَدٍ، وليُفتَحَنَّ كُنُوزُ كِسرَى بنِ هُرمُزَ**»، قلتُ: كِسرَى بنُ هُرمُزَ؟! قالَ: «**نَعَم، كِسرَى بنُ هُرمُزَ، وليُبذَلَنَّ المَالُ حتَّى لَا يَقبَلَهُ أَحَدٌ**».

قالَ عَديُّ بنُ حَاتمٍ ﵁: فهَذِهِ الظَّعينَةُ تخرُجُ مِن الحِيرَةِ تَطوفُ بِالبَيتِ فِي غَيرِ جِوارٍ، ولَقَد كُنتُ فِيمَن فتَحَ كُنوزَ كِسرَى بنِ هُرمُزَ، والذِي نَفسِي بِيدِهِ لتكُونَنَّ الثَّالثَةُ؛ لأن رسُولَ اللهِ ﷺ قَد قَالَهَا.

ولمَّا قدِمَ وفدُ طَيِءٍ على عُمرَ بنِ الخَطابِ ﵁ زمَانَ خِلافتِهِ، وكانَ مَعهُم

عَديُّ بنُ حاتمٍ، جعَلَ يَدعُوهُم رَجُلًا رَجُلًا يُسَمِّيهِم، فقَالَ عَديٌّ: أمَا تَعرفُنِي يَا أمِيرَ المُؤمِنينَ؟ قالَ: بَلى، أَسلَمتَ إِذ كفَرُوا، وأقبَلتَ إِذ أدبَرُوا، ووَفَيتَ إذ غَدَرُوا، وعَرفتَ إذ أَنكَرُوا، فقالَ عَديٌّ: لَا أُبالِي إِذَن.

ولَم تَزَلِ الوفُودُ تَتَابَعُ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ وتُبايعُهُ عَلى الإسلَامِ حتَّى دَخلَ العَامُ العَاشِرُ مِنَ الهِجرَةِ.

❊ ❊ ❊

(٢٨) حجَّةُ الوداعِ عامَ عَشرٍ منَ الهِجرَةِ

لمَّا دخَلت سنَةُ عَشرٍ مِنَ الهجرَةِ بَعثَ رسُولُ اللهِ ﷺ خالدَ بنَ الوَليدِ رضي الله عنه إلَى بَنِي الحارِثِ بنِ كَعبٍ بنَجرَانَ، وأمرَهُ أَن يدعُوهُم إلَى الإسلامِ ثَلاثًا قبلَ أَن يُقاتِلَهُم، وقَالَ: «**فَإنِ استَجَابُوا فَاقبَلْ مِنهُم، وَإِن لَمْ يَفعَلُوا فقَاتِلْهُمْ**».

فخرَجَ خالِدٌ حتَّى قدِمَ عَليهِم، فبَعثَ الركبَانَ يَسيرونَ فِي كُلِّ وَجهٍ، ويَدعُونَ إِلَى الإسلامِ ويَقُولُونَ: أَيهَا النَّاسُ، أَسلِمُوا تَسلَمُوا، فَأسلَمَ الناسُ ودَخَلُوا فِيمَا دُعُوا إِلَيهِ، فأَقَامَ فيهِم خالدٌ يُعلِّمُهمُ الإسلَامَ وكتَابَ اللهِ وسُنَّةَ نَبيِّهِ ﷺ كمَا أمرَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ إن هُم أسلَمُوا وَلَم يُقَاتِلُوا.

وبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ الأمرَاءَ إلَى أهلِ اليَمنِ قَبلَ حَجةِ الودَاعِ، يَدعُونَهُم إلَى اللهِ عز وجل، فبَعثَ النبيُّ ﷺ أبَا مُوسَى ومعاذَ بنَ جَبلٍ رضي الله عنهما إلَى اليَمنِ، ثُم قَالَ: «**يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَختَلِفَا**».

وقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ لمُعاذِ بنِ جَبلٍ رضي الله عنه حِينَ بَعثَهُ إلى اليَمنِ: «**إِنَّكَ سَتَأتِي قومًا أَهلَ كِتابٍ، فَإِذَا جِئتَهُم فَادعُهُم إِلَى أَن يَشهَدُوا أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِن هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَخبِرْهُم أَنَّ اللهَ فَرضَ عَلَيهِم خَمسَ صَلواتٍ فِي كُلِّ يَومٍ وليلَةٍ، فإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لذَلكَ فأخبِرْهُم أَنَّ اللهَ قَدْ فَرضَ عَليهِم صَدقَةً**

تُؤخَذُ مِن أغنِيَائِهِم فتُرَدُّ عَلَى فُقرَائِهِم، فَإِنْ هُم أطَاعُوكَ لذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وكَرائِمَ أموَالِهِم، وَاتَّقِ دَعوَةَ المَظلُومِ، فَإِنَّهُ لَيسَ بَينَهَا وَبَينَ اللهِ حِجَابٌ».

ولمَّا بَعثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُعَاذًا إلَى اليَمنِ خَرجَ مَعهُ يُوصِيهِ، ومُعاذٌ رَاكبٌ ورَسُولُ اللهِ ﷺ يَمشِي تَحتَ رَاحلَتِهِ، فلَمَّا فَرَغَ قالَ: «**يَا مُعَاذُ، إِنَّكَ عَسَى أَلَّا تَلقَانِي بَعدَ عَامِي هَذَا، ولَعَلَّكَ أَن تَمُرَّ بِمَسجِدِي هَذَا وَقَبرِي**»، فبَكَى معَاذٌ جَزَعًا لِفراقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُم أوصَاهُ رسُولُ اللهِ ﷺ وقالَ: «**إِيَّاكَ وَالتَّنعُّمَ، فَإِنَّ عبَادَ اللهِ لَيسُوا بِالمُتَنَعِّمِينَ**».

ثُم إِنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ بَعثَ عَليَّ بنَ أَبِي طَالبٍ ﷺ إِلَى اليَمنِ قَبلَ حَجَّةِ الودَاعِ، وأمرَهُ أَن يُقفِلَ خَالدَ بنَ الوَليدِ ﷺ ومَن مَعَهُ، إِلَّا رجُلًا ممَّن كانَ معَ خالدٍ فأحَبَّ أن يَبقَى معَ عَليٍّ فليَبقَ مَعهُ.

قال البَراءُ ﷺ: فكُنتُ فِيمَن بَقِيَ مَع عَليٍّ، فلمَّا دَنونَا مِن القَومِ خَرجُوا إِلَينَا فصَلَّى بنَا عليٌّ، ثُم صفَّنَا صَفًّا واحِدًا، ثُم تقدَّمَ بينَ أيدِينَا، وقرَأَ عَليهِم كتابَ رسُولِ اللهِ ﷺ فأَسلَمَتْ همدَانُ جَميعًا، فكتَب عليٌّ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ بإِسلَامِهِم، فَلمَّا قرَأَ رسُولُ اللهِ ﷺ الكتَابَ خَرَّ سَاجِدًا، ثُم رفَعَ رَأسَهُ فقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَى هَمْدَانَ، السَّلَامُ عَلَى هَمْدَانَ**».

فلمَّا فرغَ عَليٌّ ﷺ انطلَقَ مِن اليَمنِ رَاجِعًا، وأَمَّرَ عَليهِم إنسَانًا، وأسرَعَ هُو ليُدرِكَ الحجَّ معَ رسُولِ اللهِ ﷺ، فأدرَكَهُ.

قالَ عَليٌّ ﷺ: بعثَنِي رسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى اليَمنِ وأنَا حَديثُ السِّنِّ، فقُلتُ: يَا رسولَ اللهِ، تَبعَثُنِي إِلَى قَومٍ أَسَنَّ مِنِّي وأَنَا حَدثٌ لَا أُبصِرُ القَضَاءَ؟ فوضَعَ

رسُولُ اللهِ ﷺ يدَهُ عَلى صَدرِي وقَالَ: «**اللَّهُمَّ ثَبِّتْ لِسَانَهُ، وَاهْدِ قَلبَهُ، يَا عَليُّ، إِذَا جَلسَ إِلَيكَ الخَصمَانِ فَلَا تَقضِ بَينَهُمَا حَتَّى تَسمَعَ مِنَ الآخَرِ كَمَا سَمِعتَ مِنَ الأَولِ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعلتَ ذَلِكَ تَبيَّنَ لَكَ القَضَاءُ**»، فمَا أَشكَلَ عَليَّ قَضاءٌ بَعدُ.

وفِي هذَا العامِ -عامِ عَشرٍ مِنَ الهِجرَةِ- حجَّ رسُولُ اللهِ ﷺ حجَّةَ الوَداعِ، وسُمِّيَت بذَلكَ لأنَّهُ ﷺ لَم يَحُجَّ بَعدَهَا، ووَدَّعَ النَاسَ فيهَا وقَالَ: «**لَعَلِّي لَا أَلقَاكُمْ بَعدَ عَامِي هَذَا**».

فصَلَّى رسُولُ اللهِ ﷺ بالمَدينَةِ الظهرَ أَربعًا، وخرَجَ بمَن مَعَهُ، وحمَلَ معَهُ نسَاءَهُ كُلَّهُنَّ، وَكُنَّ تِسعَ نِسوَةٍ.

وحجَّ رسُولُ اللهِ ﷺ عَلى رَحلٍ رَثٍّ، وقَطيفَةٍ خَلقَةٍ لَا تُساوِي أربعَةَ دَراهِمَ، ثُمَّ قالَ: «**اللَّهُمَّ حَجَّةً لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمعَةَ**»، وَلَم يَفعَل ذَلكَ ﷺ شُحًّا، ولَكِن فَعلَهُ تَواضُعًا للهِ حِينَ أَكرَمَهُ فِي هَذَا المَقامِ العَظِيمِ.

وسارَ رسُولُ اللهِ ﷺ بمَن معَهُ حتَّى نزَلَ بوَادِي العَقيقِ فقَالَ: «**أَتَانِي اللَّيلَةَ آتٍ مِنْ رَبِّي، فقَالَ: صَلِّ فِي هَذَا الوَادِي المُبَارَكِ، وقُلْ: عُمرَةً فِي حَجَّةٍ**».

فلمَّا بلَغَ ذَا الحُليفَةِ صلَّى بِها العصرَ رَكعتَيْنِ، ثُم باتَ بِها حتَّى أصبَحَ، ثُم ركِبَ حتَّى استَوَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ عَلى البَيدَاءِ، فحمِدَ اللهَ ﷻ، وسَبَّحَ وكَبَّرَ، ثُم أَهَلَّ بحجٍّ وعُمرَةٍ، قالَ عَبدُ اللهِ بنُ عُمرَ ﵄: «مَا أَهَلَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا مِن عِندِ المَسجِدِ»، يَعنِي: مَسجِدَ ذِي الحُلَيفَةِ.

وأَهَلَّ النبيُّ ﷺ حينَ استَوتْ بِهِ رَاحلتُهُ قائمَةً، وقالَ: «**لَبَّيكَ اللَّهُمَّ لَبَّيك،**

لَبَّيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيكَ، إِنَّ الحَمدَ وَالنِّعمَةَ لَكَ والمُلكَ، لا شَرِيكَ لَكَ».

وَقَد ذكَرَ جابِرُ بنُ عَبدِ اللهِ ﵄ صفَةَ حَجَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ومَا كانَ فيهَا منَ الأحكَامِ والمَواعِظِ، لتكونَ هَادِيًا ودَليلًا لِمَن أرادَ اتباعَ النبيِّ ﷺ في طريقَةِ حَجِّهِ والعَملِ بسُنَّتِهِ، فقَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَكَثَ تِسعَ سِنِينَ لَم يَحُجَّ، ثُمَّ أُذِّنَ فِي النَّاسِ فِي العَاشِرَةِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَاجٌّ، فَقَدِمَ المَدِينَةَ بَشَرٌ كَثِيرٌ، كُلُّهُم يَلتَمِسُ أَن يَأتَمَّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَعمَلَ مِثلَ عَمَلِهِ، فَخَرَجنَا مَعَهُ، حَتَّى أَتَينَا ذَا الحُلَيفَةِ، فَوَلَدَت أَسمَاءُ بِنتُ عُمَيسٍ مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكرٍ، فَأَرسَلَت إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَيفَ أَصنَعُ؟ قَالَ: «**اغتَسِلِي، وَاستَثفِرِي بِثَوبٍ وَأَحرِمِي**»، فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي المَسجِدِ، ثُمَّ رَكِبَ القَصوَاءَ، حَتَّى إِذَا استَوَت بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى البَيدَاءِ، نَظَرتُ إِلَى مَدِّ بَصَرِي بَينَ يَدَيهِ مِن رَاكِبٍ وَمَاشٍ، وَعَن يَمِينِهِ مِثلُ ذَلِكَ، وَعَن يَسَارِهِ مِثلُ ذَلِكَ، وَمِن خَلفِهِ مِثلُ ذَلِكَ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَينَ أَظهُرِنَا، وَعَلَيهِ يَنزِلُ القُرآنُ، وَهُوَ يَعرِفُ تَأوِيلَهُ، وَمَا عَمِلَ بِهِ مِن شَيءٍ عَمِلنَا بِهِ، فَأَهَلَّ بِالتَّوحِيدِ: «**لَبَّيكَ اللهُمَّ، لَبَّيكَ، لَبَّيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيكَ، إِنَّ الحَمدَ وَالنِّعمَةَ لَكَ وَالمُلكَ، لا شَرِيكَ لَكَ**»، وَأَهَلَّ النَّاسُ بِهَذَا الَّذِي يُهِلُّونَ بِهِ، فَلَم يَرُدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيهِم شَيئًا مِنهُ، وَلَزِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَلبِيَتَهُ، حَتَّى إِذَا أَتَينَا البَيتَ مَعَهُ، استَلَمَ الرُّكنَ فَرَمَلَ ثَلَاثًا وَمَشَى أَربَعًا، ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبرَاهِيمَ ﵇، فَقَرَأَ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]، ثُمَّ صَلَّى خَلفَهُ رَكعَتَينِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الرُّكنِ فَاستَلَمَهُ.

ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّفَا، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الصَّفَا قَرَأَ: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ

شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:١٥٨]، «**أَبدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ**» فَبَدَأَ بِالصَّفَا، فَرَقِيَ عَلَيهِ، حَتَّى رَأَى البَيتَ فَاستَقبَلَ القِبلَةَ، فَوَحَّدَ اللهَ وَكَبَّرَهُ، وَقَالَ: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ، أَنجَزَ وَعدَهُ، وَنَصرَ عَبدَهُ، وَهَزَمَ الأَحزَابَ وَحدَهُ**» ثُمَّ دَعَا بَينَ ذَلِكَ، قَالَ: مِثلَ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَى المَروَةِ، حَتَّى إِذَا انصَبَّت قَدَمَاهُ فِي بَطنِ الوَادِي سَعَى، حَتَّى إِذَا صَعِدَتَا مَشَى، حَتَّى أَتَى المَروَةَ، فَفَعَلَ عَلَى المَروَةِ كَمَا فَعَلَ عَلَى الصَّفَا، حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ طَوَافِهِ عَلَى المَروَةِ، قَالَ: «**لَو أَنِّي استَقبَلتُ مِن أَمرِي مَا استَدبَرتُ لَم أَسُقِ الهَديَ، وَجَعَلتُهَا عُمرَةً، فَمَن كَانَ مِنكُم لَيسَ مَعَهُ هَديٌ فَليَحِلَّ، وَليَجعَلهَا عُمرَةً**»، فَقَامَ سُرَاقَةُ بنُ مَالِكٍ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلِعَامِنَا هَذَا أَم لِأَبَدٍ؟ فَشَبَّكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصَابِعَهُ وَاحِدَةً فِي الأُخرَى، وَقَالَ: «**دَخَلَتِ العُمرَةُ فِي الحَجِّ**» مَرَّتَينِ «**لا بَل لِأَبَدِ أَبَدٍ**».

وَقَدِمَ عَلِيٌّ مِنَ اليَمَنِ بِبُدنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَوَجَدَ فَاطِمَةَ رضي الله عنها مِمَّن حَلَّ، وَلَبِسَت ثِيَابًا صَبِيغًا، وَاكتَحَلَت، فَأَنكَرَ ذَلِكَ عَلَيهَا، فَقَالَت: إِنَّ أَبِي أَمَرَنِي بِهَذَا، فَذَهَبَ عَلِيٌّ مُستَفتِيًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَا ذَكَرَت عَنهُ، فَقَالَ: «**صَدَقَت صَدَقَت، مَاذَا قُلتَ حِينَ فَرَضتَ الحَجَّ؟**» قَالَ: قُلتُ: اللهُمَّ إِنِّي أُهِلُّ بِمَا أَهَلَّ بِهِ رَسُولُكَ، قَالَ: «**فَإِنَّ مَعِيَ الهَديَ فَلا تَحِلَّ**»، فَحَلَّ النَّاسُ كُلُّهُم وَقَصَّرُوا، إِلَّا النَّبِيَّ ﷺ وَمَن كَانَ مَعَهُ هَديٌ.

فَلَمَّا كَانَ يَومُ التَّروِيَةِ تَوَجَّهُوا إِلَى مِنًى، فَأَهَلُّوا بِالحَجِّ، وَرَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَصَلَّى بِهَا الظُّهرَ وَالعَصرَ وَالمَغرِبَ وَالعِشَاءَ وَالفَجرَ، ثُمَّ مَكَثَ قَلِيلًا حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمسُ، وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِن شَعَرٍ تُضرَبُ لَهُ بِنَمِرَةَ، فَسَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا تَشُكُّ

قُرَيشٌ إِلَّا أَنَّهُ وَاقِفٌ عِندَ المَشعَرِ الحَرَامِ، كَمَا كَانَت قُرَيشٌ تَصنَعُ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَأَجَازَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ، فَوَجَدَ القُبَّةَ قَد ضُرِبَت لَهُ بِنَمِرَةَ، فَنَزَلَ بِهَا، حَتَّى إِذَا زَاغَتِ الشَّمسُ أَمَرَ بِالقَصوَاءِ فَرُحِّلَت لَهُ، فَأَتَى بَطنَ الوَادِي، فَخَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ: «**إِنَّ دِمَاءَكُم وَأَموَالَكُم حَرَامٌ عَلَيكُم، كَحُرمَةِ يَومِكُم هَذَا فِي شَهرِكُم هَذَا، فِي بَلَدِكُم هَذَا، أَلَا كُلُّ شَيءٍ مِن أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحتَ قَدَمَيَّ مَوضُوعٌ، وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِن دِمَائِنَا دَمُ ابنِ رَبِيعَةَ بنِ الحَارِثِ، كَانَ مُستَرضِعًا فِي بَنِي سَعدٍ فَقَتَلَتهُ هُذَيلٌ، وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوضُوعٌ كُلُّهُ، وَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُم أَخَذتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاستَحلَلتُم فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَلَكُم عَلَيهِنَّ أَلَا يُوطِئنَ فُرُشَكُم أَحَدًا تَكرَهُونَهُ، فَإِن فَعَلنَ ذَلِكَ فَاضرِبُوهُنَّ ضَربًا غَيرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيكُم رِزقُهُنَّ وَكِسوَتُهُنَّ بِالمَعرُوفِ، وَقَد تَرَكتُ فِيكُم مَا لَن تَضِلُّوا بَعدَهُ إِنِ اعتَصَمتُم بِهِ، كِتَابُ اللهِ، وَأَنتُم تُسأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنتُم قَائِلُونَ؟**» قَالُوا: نَشهَدُ أَنَّكَ قَد بَلَّغتَ وَأَدَّيتَ وَنَصَحتَ، فَقَالَ: بِإِصبعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «**اللهُمَّ اشهَد، اللهُمَّ اشهَد**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَذَّنَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الظُّهرَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى العَصرَ، وَلَم يُصَلِّ بَينَهُمَا شَيئًا.

ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى أَتَى المَوقِفَ، فَاستَقبَلَ القِبلَةَ، وَلَم يَزَل وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمسُ، وَذَهَبَتِ الصُّفرَةُ قَلِيلًا حَتَّى غَابَ القُرصُ، وَأَردَفَ أُسَامَةَ خَلفَهُ، وَدَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَد شَنَقَ لِلقَصوَاءِ الزِّمَامَ، حَتَّى إِنَّ رَأسَهَا لَيُصِيبُ مَورِكَ رَحلِهِ، وَيَقُولُ بِيَدِهِ اليُمنَى: «**أَيُّهَا النَّاسُ، السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ**»، كُلَّمَا أَتَى جَبلًا

مِنَ الجِبَالِ أَرخَى لَهَا قَلِيلًا حَتَّى تَصعَدَ، حَتَّى أَتَى المُزدَلِفَةَ، فَصَلَّى بِهَا المَغرِبَ وَالعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَينِ، وَلَم يُسَبِّح بَينَهُمَا شَيئًا، ثُمَّ اضطَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى طَلَعَ الفَجرُ، وَصَلَّى الفَجرَ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبحُ بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ، ثُمَّ رَكِبَ القَصوَاءَ، حَتَّى أَتَى المَشعَرَ الحَرَامَ، فَاستَقبَلَ القِبلَةَ، فَدَعَاهُ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ، فَلَم يَزَل وَاقِفًا حَتَّى أَسفَرَ جِدًّا، فَدَفَعَ قَبلَ أَن تَطلُعَ الشَّمسُ، وَأَردَفَ الفَضلَ بنَ عَبَّاسٍ، وَكَانَ رَجُلًا حَسَنَ الشَّعرِ أَبيَضَ وَسِيمًا، فَلَمَّا دَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَرَّت بِهِ ظُعُنٌ يَجرِينَ، فَطَفِقَ الفَضلُ يَنظُرُ إِلَيهِنَّ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى وَجهِ الفَضلِ، فَحَوَّلَ الفَضلُ وَجهَهُ إِلَى الشِّقِّ الآخَرِ يَنظُرُ، فَحَوَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ مِنَ الشِّقِّ الآخَرِ عَلَى وَجهِ الفَضلِ، يَصرِفُ وَجهَهُ مِنَ الشِّقِّ الآخَرِ يَنظُرُ، حَتَّى أَتَى بَطنَ مُحَسِّرٍ، فَحَرَّكَ قَلِيلًا، ثُمَّ سَلَكَ الطَّرِيقَ الوُسطَى الَّتِي تَخرُجُ عَلَى الجَمرَةِ الكُبرَى، حَتَّى أَتَى الجَمرَةَ الَّتِي عِندَ الشَّجَرَةِ، فَرَمَاهَا بِسَبعِ حَصَيَاتٍ، يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ مِنهَا، مِثلِ حَصَى الخَذفِ، رَمَى مِن بَطنِ الوَادِي، ثُمَّ انصَرَفَ إِلَى المَنحَرِ، فَنَحَرَ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ بِيَدِهِ، ثُمَّ أَعطَى عَلِيًّا فَنَحَرَ مَا غَبَرَ وَأَشرَكَهُ فِي هَديِهِ، ثُمَّ أَمَرَ مِن كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضعَةٍ، فَجُعِلَت فِي قِدرٍ، فَطُبِخَت، فَأَكَلَا مِن لَحمِهَا وَشَرِبَا مِن مَرَقِهَا، ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَفَاضَ إِلَى البَيتِ، فَصَلَّى بِمَكَّةَ الظُّهرَ، فَأَتَى بَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ، يَسقُونَ عَلَى زَمزَمَ، فَقَالَ: «**انزِعُوا بَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ، فَلَولَا أَن يَغلِبَكُمُ النَّاسُ عَلَى سِقَايَتِكُم لَنَزَعتُ مَعَكُم**»، فَنَاوَلُوهُ دَلوًا فَشَرِبَ مِنهُ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَحَرْتُ هَاهُنَا، وَمِنًى كُلُّهَا مَنحَرٌ، فَانحَرُوا فِي رِحَالِكُمْ، ووَقَفْتُ هَاهُنَا، وعَرَفَةُ كُلُّهَا مَوقِفٌ، ووَقَفْتُ هَاهُنَا، وجَمْعٌ** -أَي: مُزدَلِفَةُ-

كُلُّهَا مَوقِفٌ».

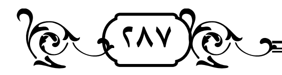
وقَد شَكَّ الناسُ فِي صيامِ النَّبيِّ ﷺ يومَ عَرفَةَ، فَأرسَلَتْ إلَيهِ مَيمُونَةُ رضي الله عنها بحِلَابٍ وَهُوَ وَاقفٌ فِي المَوقِفِ، فشَرِبَ مِنهُ وَالنَّاسُ يَنظُرُونَ.

واشْتَكَتْ أُمُّ سَلمَةَ زَوجُ النَّبيِّ ﷺ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهَا مَرِيضَةٌ، فَقَالَ: «**إِذَا أُقِيمَتْ صَلاةُ الصُّبحِ فَطُوفِي عَلَى بَعيرِكِ وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ**»، قَالَت: فَطُفتُ ورَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي حِينئذٍ إِلَى جَنبِ البيتِ، وَهُوَ يَقرَأُ: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ﴾ [الطور:١-٢].

وَقَد نزَلَ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ فِي هَذَا المَوقفِ الشَّريفِ مِن القُرآنِ العَظيمِ، مَا يَدُلُّ عَلى كمَالِ الدِّينِ وَإحكَامِ الشَّريعَةِ، وأَنَّها جاءَتْ تامَّةً لَا يعترِيهَا زيادَةٌ وَلَا تَقبلُ النقصَانَ، فقَد جاءَ رجلٌ مِنَ اليَهودِ إلَى عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه، فقَالَ: يَا أَميرَ المُؤمِنينَ، إنَّكُم تَقرَأونَ آيَةً فِي كتَابِكُم، لَو عَلَينَا مَعشَرَ اليَهُودِ نَزَلَت لاتَّخَذنَا ذَلكَ اليَومَ عِيدًا، قالَ: وَأَيُّ آيَةٍ هِيَ؟ قَالَ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣]، فقَالَ عُمرُ رضي الله عنه: وَاللهِ إِنِّي لأَعلَمُ اليَومَ الذِي نَزَلَت عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، والسَّاعَةَ التِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، نَزَلَت عَشيَّةَ عرفَةَ فِي يَومِ جُمعَةٍ.

فلمَّا انتَهى رسُولُ اللهِ ﷺ مِن حَجِّهِ، أَذَّنَ فِي الصَّحابَةِ بالرَّحيلِ فَارتَحلَ، فَمَرَّ بِالبَيتِ قَبلَ صَلاةِ الصُّبحِ، فطَافَ بِهِ حِينَ خَرجَ، ثُمَّ انصَرَفَ مُتوَجِّهًا إِلَى المَدينَةِ.

❊ ❊ ❊



(٢٩) وَفَاةُ النَّبِيِّ ﷺ

لمَّا رجعَ رسُولُ اللهِ ﷺ مِن حجَّةِ الوداعِ واستقرَّ بالمَدينةِ النبوِيةِ، استهَلتْ سنَةُ إحدَى عَشرَةَ مِنَ الهجرَةِ، وقَد وقعَ فيهَا أعظمُ الأمورِ خَطْبًا وهُو وفاةُ رسُولِ اللهِ ﷺ، وذلكَ بَعدمَا أكمَلَ أداءَ الرِّسالَةِ التِي أمرَهُ اللهُ تَعالى بِإبلاغِهَا، ونصَحَ أُمَّتَهُ، ودَلَّهُم عَلى خيرِ مَا يَعلمُهُ لَهُم، وحَذَّرَهُم ونَهَاهُم عمَّا فيهِ مضَرَّةٌ عَليهِم في دُنيَاهُم وأُخراهُم، قالَ اللهُ تعَالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠-٣١].

وقَال تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥].

وقَد نقلَهُ اللهُ ﷻ مِن هذِهِ الدارِ الفَانيةِ إلَى النعيمِ الأبدِيِّ فِي محلَّةٍ رفيعَةٍ عاليَةٍ، ودرجَةٍ في الجنَّةِ لَا أَعلَى منهَا ولَا أَسنَى، كمَا قالَ تَعَالى: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٤-٥].

وقَد استَشعرَ ذلكَ صحابَتُهُ الكرَامُ، الذينَ أوتُوا العِلمَ والزَّكاةَ، وكانُوا أَعلَمَ بالتَّنزيلِ، فلَمَّا نزَلَ قولُهُ تَعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، ورسُولُ اللهِ ﷺ واقِفٌ بعَرفَةَ، بَكى عمرُ بنُ الخطَّابِ ﷺ، فقيلَ: مَا يُبكِيكَ؟ فقَالَ: إنَّهُ لَيسَ بَعدَ الكمَالِ إلَّا النُّقصَانُ، وكأنَّهُ استَشعَرَ وفَاةَ النَّبيِّ ﷺ.

ولمَّا نزَلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣]، قالَ عُمرُ ﷺ: مَا تقُولُ يَا ابنَ عبَّاسٍ؟ فقَالَ: هُو أجَلُ رسُولِ اللهِ ﷺ نُعِيَ إلَيهِ، فقَالَ عُمرُ: لَا أعلَمُ منهَا إلَّا مَا تَعلَمُ.

ولمَّا وقَفَ رسُولُ اللهِ ﷺ فِي حجَّةِ الودَاعِ عِندَ جَمرَةِ العَقبَةِ قَالَ لأَصحَابِهِ: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُم، فَلَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعدَ عَامِي هَذَا**»، فَفَهِمُوا أَنَّهَا وَصِيَّةُ مُوَدِّعٍ.

وقالَ أبُو سعيدٍ الخُدريُّ ﷺ: إنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ جلَسَ عَلى المِنبَرِ فقَالَ: «**إنَّ عَبدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَينَ أَنْ يُؤتِيَهُ مِن زَهرَةِ الدُّنيَا مَا شَاءَ وَبَينَ مَا عِندَهُ فَاختَارَ مَا عِندَهُ**»، فبَكَى أَبُو بكرٍ ﷺ وقَالَ: فَدينَاكَ بِآبائِنَا وَأُمهاتِنَا، فعَجِبنَا لَهُ، فقَالَ الناسُ: انظُرُوا إِلَى هذَا الشَّيخِ، يُخبِرُ رسُولُ اللهِ ﷺ عَن عَبدٍ خَيَّرَهُ اللهُ بَينَ أَن يُؤتِيَهُ مِن زَهرَةِ الدُّنيَا وَبَينَ مَا عِندَهُ وهُوَ يقُولُ: فَدينَاكَ بِآبائِنَا وَأمهَاتِنَا، فكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ المُخَيَّرَ، وكانَ أَبُو بَكرٍ هُو أعلَمَنَا.

وقد ظهَرَ من حَالِ النبيِّ ﷺ مَا يدُلُّ عَلى عِلمِهِ بدُنوِّ أجلِهِ وانقطَاعِهِ عَن الدُّنيَا، فكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعتكفُ فِي كلِّ شَهرِ رمضَانَ عَشرَةَ أيَّامٍ، فلمَّا كانَ العامُ الذِي توفِّي فيهِ اعتكَفَ عِشرينَ يَومًا، وكانَ يَعرضُ عَليهِ جِبريلُ القُرآنَ كلَّ رَمضانَ مرَّةً، فلمَّا كانَ العامُ الذِي تُوفِّي فيهِ عَرَضَ عَليهِ القُرآنَ مَرَّتَيْنِ.

ولمَّا رجعَ ﷺ من حجَّةِ الودَاعِ في ذِي الحجَّةِ، أقامَ بالمَدينَةِ إلَى شَهرِ صَفرٍ، ثُم خرجَ في ليَالٍ بَقِينَ مِن صَفرٍ أَو فِي أوَّلِ شَهرِ رَبيعٍ الأَوَّلِ، إلَى بَقيعِ الغَرقدِ في جوفِ الليلِ، فاستَغفَرَ لَهُم، ثُم رجَعَ إلَى أهلِهِ.

فلمَّا أصبَحَ ﷺ ابتُدِئَ بوَجعِهِ الذِي قبضَهُ اللهُ فيهِ إلَى مَا أرادَهُ مِن رَحمتِهِ وكرَامَتِهِ.

قالَت عائشَةُ رضي الله عنها: «رَجعَ رسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ البَقيعِ فوجَدَنِي وأنَا أجِدُ صُدَاعًا فِي رَأسِي، وأنَا أقولُ: وَا رَأساهُ، فقَالَ: «**بَل أَنَا وَاللهِ يَا عَائِشَةُ وَا رَأسَاهُ، ومَا ضَرَّكِ لَو مِتِّ قَبلِي فَقُمتُ عَلَيكِ وَكَفَّنتُكِ وَصَلَّيتُ عَلَيكِ ودَفَنْتُكِ**»، قَالَت: وَاللهِ لكَأنِّي بِكَ لَو قَد فعَلتَ ذَلكَ لَقَد رَجَعْتَ إلَى بَيتِي فَأعرَسْتَ فِيهِ بِبعضِ نِسائِكَ، فتَبسَّمَ رسُولُ اللهِ ﷺ.

وكانَ ﷺ يقُولُ فِي مَرضِهِ الذِي ماتَ فِيهِ: «**مَا أَزالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعامِ الذِي أَكَلتُ بخَيبرَ، فهَذَا أَوَانُ انقِطَاعُ أَبْهَرِي مِن ذَلِكَ السُّمِّ**»، أَي: أَنَّهُ سَبَبٌ لِمَوتِهِ.

ثُم تتَامَّ برسُولِ اللهِ ﷺ وجعُهُ وهُو يَدورُ عَلى نسائِهِ، ويَسأَلُ: «**أَينَ أَنَا غَدًا أَينَ أَنَا غَدًا؟**»، يُريدُ يَومَ عَائشَةَ رضي الله عنها، حتَّى اشتَدَّ بِهِ المرَضُ فِي بيتِ مَيمونَةَ، فدَعَا نسَاءَهُ، فاستَأذَنَهُنَّ أن يُمَرَّضَ في بَيتِ عَائشَةَ، فأذِنَ لَهُ أزوَاجُهُ أَن يكُونَ حَيثُ شاءَ، فخَرجَ رسولُ اللهِ ﷺ بَينَ رَجُلينِ مِن أهلِهِ، الفَضلِ بنِ عَباسٍ وعَليِّ بنِ أَبِي طَالبٍ رضي الله عنهما، عَاصِبًا رأسَهُ، تَخُطُّ قدَمَاهُ، حتَّى دخَلَ بَيتَ عَائشَةَ.

ولمَّا دخَلَ بَيتهَا واشتَدَّ بهِ وجَعُهُ، قالَ: «**هَرِيقُوا عَليَّ مِن سَبعِ قِرَبٍ لَمْ تُحلَلْ**

أَوكِيَتُهُنَّ، لعَلِّي أَعهَدُ إِلَى النَّاسِ».

فَأجلَسنَهُ فِي مِخضَبٍ لحَفصَةَ زَوجِ النَّبيِّ ﷺ، ثُمَّ صَببنَ عَليهِ مِن تِلكَ القِربِ، حتَّى أَخَذَ يُشيرُ إِلَيهنَّ بِيدِهِ أَن قَد فَعلتُنَّ، ثُم خرَجَ إِلَى الناسِ عَاصِبًا رَأسَهُ بعِصابَةٍ دسْمَاءَ، مُلتَحِفًا بمِلحفَةٍ عَلَى مَنكِبَيْهِ، فجَلَسَ عَلى المِنبَرِ، فخَطَبَهُم وأَوصَى بِالأنصَارِ، فكَانَ آخِرَ خُطبَةٍ خَطَبَهَا ﷺ.

قالَت عائِشَةُ ﵂ : واجتَمَعَ نسَاءُ رسُولِ اللهِ ﷺ عِندَهُ لَم يُغادِرْ مِنهُنَّ امرَأَةٌ، فجَاءَت فاطِمَةُ تَمشِي، مَا تُخطِئُ مِشيَتُهَا مِشيَةَ أَبِيهَا، فقَالَ: «**مَرحَبًا بِابنَتِي**»، فَأقعَدَهَا عَن يَمِينِهِ أَو شِمَالِهِ، ثُم سَارَّهَا بشَيءٍ فبَكَت، ثُمَّ سَارَّهَا فضَحِكَتْ، فقُلتُ لَهَا: خَصَّكِ رسُولُ اللهِ ﷺ بِالسِّرارِ وَأنتِ تَبكِينَ؟ فلمَّا أَن قَامَ قُلتُ لهَا: أخبِرِينِي مَا سَارَّكِ؟ فقَالَت: مَا كُنتُ لأُفشِيَ سِرَّ رسُولِ اللهِ ﷺ.

فلمَّا تُوفِّي قُلتُ لهَا: أَسأَلُكِ بمَا لِي عَليكِ مِنَ الحَقِّ لمَا أَخبَرتِنِي، قَالَت: أمَّا الآنَ فنعَم، قَالَت: سَارَّنِي فِي الأُولَى، قالَ لِي: «**إِنَّ جبرِيلَ كَانَ يُعارِضُنِي بِالقُرآنِ فِي كُلِّ سنَةٍ مَرَّةً وَإِنَّهُ عَارَضَنِي فِي هَذَا العَامِ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرى ذَلكَ إِلَّا لاقْتِرَابِ أَجَلِي، فَاتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، فنِعمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ**»، فَبَكيتُ، ثُمَّ سَارَّنِي فقَالَ: «**أَمَا تَرضَيْنَ أَنْ تَكونِي سَيدَةَ نسَاءِ المُؤمِنينَ؟ أَو سَيدَةَ نسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ؟**»، فَضَحِكْتُ.

ثُم اشتَدَّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مرضُهُ حتَّى لَا يستطِيعَ الكَلامَ، قالَت عائشَةُ ﵂ : دخَلَ عبدُ الرحمَنِ بنُ أَبِي بَكرٍ ومعَهُ سِواكٌ يستَنُّ بِهِ، فنَظَرَ إِلَيهِ رسُولُ اللهِ ﷺ، فقُلتُ لَهُ: أعطِنِي هذَا السِّواكَ، فَأعطَانِيهِ، فقَضمْتُهُ، ثُمَّ مَضغْتُهُ فَأَعطَيْتُهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَاستَنَّ بِهِ وهُو مُستنِدٌ إِلَى صَدرِي.

وقالَ أسامَةُ بنُ زيدٍ ﷺ: لمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دَخلتُ عَليهِ وقَد أُصمِتَ فَلَا يتكَلَّمُ، فجَعلَ يَرفَعُ يَدَيهِ إلَى السمَاءِ ثُم يُصَوِّبُها عَليَّ، أَعرِفُ أَنَّهُ يَدعُو لِي.

ودَخلَ عَبدُ اللهِ بنُ مَسعُودٍ ﷺ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وهُوَ يُوعَكُ، فمَسَّهُ، فقَالَ: يَا رسُولَ اللهِ، إنَّكَ لتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قالَ: «**أَجَل، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ الرَّجُلانِ مِنكُم**»، قَالَ: إِنَّ لَكَ أَجرَيْنِ؟ قَالَ: «**نَعَم، وَالذِي نَفسِي بِيدِهِ، مَا عَلى الأَرضِ مُسلِمٌ يُصيبُهُ أَذًى مِن مَرضٍ فمَا سِوَاهُ، إِلَّا حَطَّ اللهُ عَنهُ بِهِ خَطايَاهُ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**».

قالَت عَائشَةُ ﷺ: مَا رَأيتُ الوجَعَ عَلى أحدٍ أَشَدَّ مِنهُ عَلى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

ولمَّا اشتَدَّ المَرضُ برَسُولِ اللهِ ﷺ وثَقُلَ بِهِ، استنَابَ مَن يُصَلِّي مَكانَهُ، قالَ عَبدُ اللهِ بنُ زَمعَةَ ﷺ: لمَّا استَعَزَّ برَسُولِ اللهِ ﷺ وأنَا عِندَهُ فِي نَفرٍ مِن المُسلِمِينَ، دعَاهُ بِلالٌ إلَى الصلاةِ فقَالَ: «**مُرُوا مَن يُصَلِّي للنَّاسِ**»، فخَرجتُ فإذَا عُمرُ فِي الناسِ، وكَانَ أَبُو بكرٍ غَائبًا، فقُلتُ: يَا عُمرُ، قُم فَصَلِّ بالنَّاسِ، فتَقدَّمَ فكَبَّرَ، وكَانَ عُمرُ رَجُلًا مُجهِرًا، فلمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صوتَهُ، قَالَ: «**فَأَينَ أَبُو بَكرٍ؟ يَأبَى اللهُ ذَلكَ وَالمُسلِمُونَ، يَأبَى اللهُ ذَلكَ والمُسلِمُونَ**»، فبَعثَ إلَى أَبِي بَكرٍ فجَاءَ بَعدَ أَن صَلَّى عُمرُ تِلكَ الصَّلاةَ فصَلَّى بِالنَّاسِ.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ زَمعَةَ: فقَال لِي عُمرُ ﷺ: وَيحَكَ! مَاذا صنَعتَ يَا ابنَ زَمعَةَ، واللهِ مَا ظَننتُ حِينَ أَمرتَنِي إلا أَن رَسُولَ اللهِ ﷺ أمرَكَ بذَلكَ، ولَولا ذَلكَ مَا صَلَّيتُ، قُلتُ: واللهِ مَا أمرَنِي رسُولُ اللهِ ﷺ، ولَكِن حينَ لَم أرَ أبَا بَكرٍ رَأيتُكَ أَحَقَّ مَن حَضَرَ بِالصَّلاةِ.

ثُم أمرَ النبيُّ ﷺ أن يُصلِّيَ أبُو بَكرٍ ﷺ بالنَّاسِ، قالَت عائشَةُ ﷺ: إنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قالَ في مَرضِهِ: «**مُرُوا أبَا بَكرٍ فليُصَلِّ بِالنَّاسِ**»، فقَالَت عَائِشَةُ: إنَّ أبَا بَكرٍ إذَا قَامَ فِي مقامِكَ لَم يُسمِعِ النَّاسَ مِنَ البُكاءِ، فمُرْ عُمَرَ فليُصَلِّ بِالنَّاسِ، قَالَ: «**مُرُوا أَبَا بَكرٍ فليُصَلِّ بِالناسِ**»، قَالَت عَائشَةُ: فقُلتُ لحَفصَةَ: قُولِي لَهُ: إنَّ أبَا بَكرٍ إذَا قامَ في مقَامكَ لم يُسمعِ النَّاسَ مِن البُكاءِ فمُر عُمَرَ فليُصَلِّ بالناسِ، ففَعلَت حفصَةُ، فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُنَّ لأَنتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكرٍ فَليُصَلِّ بِالنَّاسِ**»، فكَانَ أبُو بَكرٍ يُصَلِّي بعدَ ذلكَ، وهذَا مِن أعظَمِ الأدِلَّةِ عَلى مَنزِلَةِ أَبِي بَكرٍ العَاليَةِ، وفِيهِ إشَارَةٌ إلَى تَقدِيمِهِ فِي أمرِ الخِلافَةِ.

ثُم إنَّ النبيَّ ﷺ وجَدَ في نفسِهِ خِفَّةً، فخرَجَ يُهادَى بينَ رَجلَيْنِ، رِجلاهُ تَخُطَّانِ الأرضَ مِنَ الوَجعِ، فأرادَ أبُو بكرٍ أَن يتأَخَّرَ، فأَومَأَ إلَيهِ النبيُّ ﷺ أَنْ مَكانَكَ، ثُم أُتِيَ بِهِ حتَّى جلَسَ إلَى جَنبِهِ.

فكَانَ النبيُّ ﷺ يُصلِّي، وأبُو بَكرٍ ﷺ يُصلِّي بصَلاتِهِ، والنَّاسُ يُصلُّونَ بِصلاةِ أَبِي بَكرٍ.

فلمَّا آنَ احتِضَارُهُ ﷺ كانَ مِن آخِرِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَن قَالَ: «**قَاتَلَ اللهُ اليَهودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ**»، وكانَ يُوصِي بِالصَّلَاةِ ويَقُولُ: «**الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم**»، حتَّى جعلَ رسُولُ اللهِ ﷺ يُغرغِرُ بِها صَدرُهُ، ومَا يَكادُ يَفِيضُ بِها لسَانُهُ.

ثُم بقِيَ النبيُّ ﷺ ثَلاثًا لم يَخرُج إلى أَصحَابِهِ، حتَّى إذَا كانَ يومَ الإِثنَينِ، وبَينَمَا كانَ أبُو بكرٍ يُصَلِّي بِهم وهُم صُفوفٌ في الصَّلَاةِ، كشَفَ النبيُّ ﷺ سِتْرَ الحُجرَةِ

ينظُرُ إلَيهم وهُو قائمٌ، كأنَّ وَجهَهُ ورَقَةُ مُصحَفٍ، فتبَسَّمَ يَضحَكُ، فَهَمُّوا أَن يَفتَتِنُوا مِنَ الفَرحِ بِرُؤيَةِ النبيِّ ﷺ، ورجَعَ أبُو بَكرٍ عَلى عَقِبَيْهِ ليَقِفَ فِي الصَّفِّ، وظَنَّ أنَّ النبيَّ ﷺ خارِجٌ إلَى الصلاَةِ، فأَشَارَ إلَيهِم ﷺ أَن أَتِمُّوا صَلاتَكُم، ثُم أرخَى السِّتْرَ وتُوفِّي ﷺ مِن يَومِهِ.

قَالَت عائشَةُ رضي الله عنها: إنَّ مِن نِعمةِ اللهِ عَليَّ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ تُوفِّي في يَومِي، وفِي بَيتِي، وبَينَ سَحْرِي ونَحْرِي، وَأَنَّ اللهَ جَمعَ بَينَ رِيقِي ورِيقِهِ عِندَ المَوتِ، فقَد دَخَلَ عَليَّ أخِي بسِوَاكٍ مَعهُ وَأنَا مُسنِدَةٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ إلَى صَدرِي، فرَأَيتُهُ يَنظُرُ إلَيهِ، وقَد عرَفتُ أَنهُ يُحبُّ السِّواكَ ويَأْلَفُهُ، فقُلتُ: آخذُهُ لَكَ؟ فأشَارَ برَأسِهِ، أَيْ نَعَم، فَلَيَّنتُهُ لَهُ، فأمرَّهُ عَلَى فِيهِ.

وكانَ بينَ يَديهِ عُلبةٌ فِيهَا مَاءٌ، فجَعلَ يُدخلُ يَدَهُ في المَاءِ، فيَمسحُ بِها وَجهَهُ، ثُم يقُولُ: «**لا إلَهَ إلَّا اللهُ، إنَّ للمَوتِ لسَكَرَاتٍ**»، ثُم نَصبَ أُصبُعَهُ اليُسرَى، وجعَلَ يَقُولُ: «**فِي الرَّفِيقِ الأعلَى، فِي الرَّفيقِ الأَعْلَى**»، حتَّى قُبِضَ، ومَالَت يَدُهُ فِي المَاءِ.

قالَت عائشَةُ رضي الله عنها: وقَد كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يقُولُ وهُوَ صَحيحٌ: «**إنَّهُ لَم يُقبَضْ نَبِيٌّ حتَّى يَرَى مَقعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ**»، فلَمَّا نُزِلَ برَسولِ الله ﷺ ورَأسُهُ عَلى فَخذِي غُشِيَ عَليهِ سَاعةً ثُم أفَاقَ، فأَشخَصَ بَصرَهُ إلَى سَقفِ البَيتِ، وقَالَ: «**اللَّهُمَّ الرَّفِيقُ الأعلَى**»، فعرَفتُ أنهُ الحديثُ الذِي كانَ حدَّثَناهُ وهُو صَحيحٌ: «**إنَّهُ لَم يُقبَض نَبيٌّ قَطُّ حتَّى يَرَى مَقعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ**»، فسمِعتُهُ يَقُولُ: «**معَ الذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَليهِم مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**»، ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ ﷺ.

ولمَّا عَلِمَ أَبُو بَكرٍ الصِّديقُ ﵁ بوفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أقبَلَ عَلى فَرسٍ مِن مَسكَنِهِ بالسُّنْحِ، حتَّى نزلَ فدخَلَ المَسجدَ، فلَم يُكلِّمِ الناسَ حتَّى دخلَ عَلى عائشَةَ ﵂، فمَضَى نَحوَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وهُوَ مُسجًّى ببُردٍ حَبِرَةٍ، فكشَفَ عَن وَجهِهِ، ثُمَّ أكَبَّ عَليهِ فقَبَّلَهُ، ثُمَّ بَكَى، ثُمَّ قَالَ: بِأَبِي أنتَ وَأمِّي يَا رسُولَ اللهِ، وَاللهِ لَا يَجمعُ اللهُ عَليكَ مَوتَتَيْنِ أبَدًا، أمَّا المَوتَةُ التِي كُتِبَت عَليكَ فَقَد مِتَّهَا.

ثُم خرَجَ ﵁ ووجَدَ عُمرَ ﵁ يُكلمُ الناسَ، فقَالَ: اجلِسْ يَا عُمرُ، فأبَى عُمرُ أَن يجلِسَ، فقَالَ: اجلِسْ يَا عُمرُ، فأبَى عُمرُ أَن يجلِسَ، فتشَهَّدَ أبُو بَكرٍ، فأقبَلَ الناسُ إِلَيهِ، فقَالَ: أمَّا بَعدُ: فمَن كَانَ مِنكُم يَعبُدُ مُحمَّدًا فَإِنَّ مُحمَّدًا قَد مَاتَ، وَمَن كَانَ يَعبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يموتُ، قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فكَأنَّ الناسَ لَم يَعلَمُوا أنَّ اللهَ أنزَلَ هذِهِ الآيَةَ، حتَّى تلاهَا أبُو بَكرٍ ﵁، فتَلقَّاهَا مِنهُ الناسُ كُلُّهُم، فمَا سُمِعَ بَشَرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتلُوهَا.

قالَ عُمرُ ﵁: واللهِ مَا هُو إِلَّا أَن سَمعتُ أبَا بَكرٍ تَلاهَا، فعَرفتُ أَنَّهُ الحقُّ، فَعُقِرْتُ حتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجلَايَ، وحتَّى هَوَيْتُ إلى الأرضِ، وعَرفتُ حِينَ سَمعتُهُ تَلاهَا أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قَد مَاتَ.

وقَد كَانَت وفَاتُهُ ﷺ يَومَ الإثنَينِ، الثانِي مِن رَبيعٍ الأوَّلِ سَنَةَ إحدَى عَشرَةَ، وقَد تُوفِّيَ ﷺ وهُو ابنُ ثلاثٍ وسِتِّينَ، قالَ ابنُ عباسٍ ﵄: «بُعثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

لأربَعينَ سنَةً، فمَكثَ بمَكَّةَ ثَلاثَ عَشرَةَ، ثُم أُمِرَ بِالهِجرَةِ، فهَاجرَ عَشرَ سِنينَ، ثُمَّ مَاتَ وهُوَ ابنُ ثَلاثٍ وسِتِّينَ».

ولمَّا كانَ الغدُ صَبيحَةَ يومِ الثلاثَاءِ اجتمَعَ الناسُ فِي المسجِدِ فتَمَّتِ البَيعةُ لأَبِي بكرٍ مِنَ المُهاجرينَ والأنصَارِ قاطبَةً، وكانَ ذَلكَ قَبلَ تَجهِيزِ رسُولِ اللهِ ﷺ، فَلمَّا تمَهَّدَتْ وتَوَطَّدَتْ وتَمَّتْ، شَرعُوا بعدَ ذلكَ فِي تَجهيزِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مُقتَدينَ فِي كُلِّ مَا أشكَلَ عَليهِم بِأَبِي بَكرٍ الصِّديقِ رضي الله عنه.

قالَتْ عائشَةُ رضي الله عنها: لمَّا أرادُوا غَسلَ النبيِّ ﷺ قَالُوا: مَا نَدرِي أَنُجَرِّدُ رسُولَ اللهِ ﷺ مِن ثيابِهِ كمَا نُجرِّدُ مَوتَانَا، أَم نُغسِّلُهُ وعَليهِ ثِيابُهُ؟ فلمَّا اختَلَفُوا أَلقَى اللهُ عَليهِمُ النومَ، حتَّى مَا مِنهُم رجُلٌ إِلا وذَقنُهُ فِي صَدرِهِ، ثُم كَلَّمَهُم مُتكَلِّمٌ مِن نَاحيَةِ البَيتِ لَا يَدرُونَ مَن هُو، أَن غَسِّلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وعَليهِ ثِيَابُهُ.

فقَامُوا إلى رسُولِ اللهِ ﷺ فغَسلُوهُ وعَليهِ قَميصٌ، يَصُبُّونَ المَاءَ فَوقَ القَميصِ ثُمَّ يَدلُكُونَهُ بالقَميصِ دُونَ أَيدِيهِم، قَالَت عَائشَةُ رضي الله عنها: لَو استَقبَلْتُ مِن أَمرِي مَا استَدْبَرتُ مَا غَسَّلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلا نِسَاؤُهُ.

ثُم كُفِّنَ رَسولُ اللهِ ﷺ فِي ثَلاثَةِ أثوَابٍ بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ لَيسَ فيهَا قميصٌ ولَا عمامَةٌ، ثُم اختلَفُوا فِي مكانِ دَفنِهِ، فقَالَ أَبُو بَكرٍ رضي الله عنه: سَمعتُ مِن رسُولِ اللهِ ﷺ شَيئًا مَا نَسيتُهُ، قَالَ: «**مَا قَبَضَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي المَوضِعِ الذِي يُحِبُّ أَن يُدفَنَ فِيهِ**»، ادفِنُوهُ فِي مَوضِعِ فِرَاشِهِ.

وقَد أصابَ المُسلِمِينَ بوفاتِهِ ﷺ حيرةٌ وذُهولٌ، وذَلكَ أَنَّ وَفاتَهُ ﷺ أعظَمُ

المَصائِبِ، وفِي ذَلكَ يَقُولُ ﷺ: «**إِذَا أُصِيبَ أَحَدُكُم بمُصِيبَةٍ فَليَذْكُرْ مُصيبَتَهُ بِي فَإِنَّهَا أَعظَمُ المَصَائِبِ**».

قالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: لمَّا ثَقُلَ النبيُّ ﷺ جعَلَ يتغَشَّاهُ الكَربُ، فقَالَت فاطمَةُ رضي الله عنها: وا كَربَ أبتَاهُ، فقَالَ لهَا: «**لَيسَ عَلَى أَبِيكِ كَربٌ بَعدَ اليَومِ**»، فَلمَّا مَاتَ قَالَت: يَا أبتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دعَاهُ، يَا أَبتَاهُ، جَنةُ الفِردَوسِ مَأوَاهُ، يَا أَبتَاهُ، إِلَى جِبريلَ نَنعَاهُ، فَلمَّا دُفِنَ ﷺ قَالَت فاطمَةُ رضي الله عنها: يَا أَنَسُ، أَطابَتْ أَنفُسُكُم أَن تَحثُوا عَلَى رسُولِ اللهِ ﷺ التُّرَابَ؟

ولمَا رحَلَ ﷺ استَوحشَتِ الدِّيارُ بِأهلِهَا، وأَنكَرَ الناسُ قُلوبَهُم التِي بَينَ جَوانِحِهِم بسَببِ ذَلكَ المُصابِ الجَلَلِ، قالَ أنسٌ رضي الله عنه: لمَّا كانَ اليَومُ الذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدينَةَ أَضَاءَ مِنهَا كُلُّ شَيءٍ، فَلمَّا كانَ اليَومُ الذِي مَاتَ فِيهِ أظلَمَ مِنهَا كُلُّ شَيءٍ، وَمَا نَفضنَا عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ الأَيدِي حَتَّى أَنكَرنَا قُلُوبَنَا.

وعَلى أَنَّ وفَاتَهُ مُصيبَةٌ حَلَّت بِالمُسلِمِينَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعالى بفَضلِهِ ومَنِّهِ وكَرَمِهِ، خَفَّفَ وَقْعَ هذَا المُصابِ عَلى الأمَّةِ بِأن جَعلَ وَفاتَهُ ﷺ قَبلَ أُمَّتِهِ مِن أَسبَابِ رَحمَتِهَا، قالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ رَحمَةَ أُمَّةٍ مِن عِبَادِهِ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبلَهَا، فَجعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا يَشهَدُ لَهَا، وَإِذَا أَرادَ هَلكَةَ أُمَّةٍ عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ، فَأَهلَكَهَا وَهُوَ يَنظُرُ إِلَيهَا، فَأَقَرَّ عَينَهُ بهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمرَهُ**».

وقَد تُوفِّي رسُولُ اللهِ ﷺ ولَم يَترُكْ مِيراثًا، ونَهَى أَن يُقسَمَ شَيءٌ مِن مَالِهِ، فقَالَ: «**لا يَقتَسِمُ وَرَثَتِي دِينَارًا وَلا دِرهَمًا، مَا تَركْتُ بَعدَ نَفقَةِ نِسَائِي ومُؤنَةِ عَامِلِي فَهُوَ صَدَقَةٌ**».

وأَرَادَ أزوَاجُ النبيِّ ﷺ حِينَ تُوفِّي أَن يَبعَثْنَ عُثمَانَ إِلَى أَبِي بَكرٍ يَسأَلنَهُ مِيرَاثَهُنَّ، فقَالَت عَائشَةُ رضي الله عنها: أَليسَ قَد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**».

قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: نَظَرَ النبيُّ ﷺ إِلَى أُحدٍ فقَالَ: «**وَالذِي نَفسِي بِيَدِهِ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أُحُدًا لآلِ مُحمَّدٍ ذَهَبًا أُنفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَمُوتُ يَومَ أَمُوتُ وَعِندِي مِنهُ دِينَارَانِ إِلَّا أَن أَرصُدَهُمَا لِدَيْنٍ**»، وقد مَاتَ ﷺ فمَا تَرك دِينارًا ولا دِرهَمًا ولا عَبدًا ولا وَليدَةً، وتَركَ دِرعَهُ رَهنًا عندَ يَهوديٍّ بثَلاثينَ صَاعًا من شَعيرٍ.

وقَد كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعيشُ فِي هذِهِ الدنيَا عَيشَ المُقِلِّ، لعِلمِهِ أنَّها لَيسَت بدَارِ إقَامَةٍ وَلَا خُلودٍ، فقَد دَخلَ عَليهِ عُمرُ رضي الله عنه وهُوَ عَلى حَصيرٍ قَد أَثَّرَ فِي جَنبِهِ، فقَالَ: يَا نبيَّ اللهِ، لَو اتَّخذْتَ فِرَاشًا أَوْثَرَ مِن هَذَا، فقَالَ: «**مَا لِي وَللدُّنيَا، مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَومٍ صَائِفٍ فَاستَظَلَّ تَحتَ شَجرَةٍ سَاعَةً مِن نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**».

فصَلَّى اللهُ وسَلَّم عَلَى الرحمَةِ المُهدَاةِ، السِّرَاجِ المُنيرِ، وَالبَشيرِ النَّذيرِ، الذِي مَا تَرَكَ طَريقَ خَيرٍ إِلَّا دَلَّنَا عَليهِ، وَلَا طَريقَ شَرٍّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنهُ.

ونَسأَلُ اللهَ تَعَالى أَن يحشُرَنَا فِي زُمرتِهِ، وأَن يَسقِيَنَا مِن حَوضِهِ شَربَةً لا نَظمَأُ بعدَهَا أَبَدًا، وأَن يَجعَلَنَا مِنَ السَّائِرينَ عَلى طَرِيقِهِ، المُتمَسِّكِينَ بسُنَّتِهِ، المُهتَدِينَ بِهَدْيِهِ، إِلَى أَن نَلقَى اللهَ تَعَالى.

❊ ❊ ❊



فهرس الموضوعات

❊ صدر للمؤلف:

- **ضحيةٌ معاكسة.**
- **ولْيسعك بيتُك** «من أجل حياة زوجية هانئة».
- **كلمات من واقع الحياة.**
- **نزهةُ الخاطر** «جولةٌ في رياض الأدب».
- **بدايةُ الفقيه.**
- **مِنبريات** «خطب للمنبر».
- **وصايا للخطيب.**
- **شرح أحاديث الأحكام.**
- **بقلمي.**
- **السيرةُ النبويةُ .. من الولادةِ إلى الوفاة.**

من أراد أن يطبع شيئًا من مؤلفاتي، ليبيعها أو يوزعها خيريًّا،
فلا مانع لديَّ، ولا أريد نظيرًا ماديًّا
شريطة المحافظة على المضمون دون تغيير

❊ للتواصل:

الموقع: www.salemalajmi.com

البريد الالكتروني: alajmi250@hotmail.com

تويتر: @dr_salem_alajmi